محمد التركي التاجوري

مع الأدب والفكر

سبحات فى عالم الفكر والأدب



https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مع الأدب والفكر

محمد التركي التاجوري

مع الأدب والفكر

سبحات في عالم الفكر والأدب



حسن يوسف الحويشي

محمد التركي التاجوري

مع الأدب والفكر

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/451

رقم الإيداع الدولي: 9789959-25-961-5

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

الإهداء

إلى المخلصين من أبناء أمتنا العربية العظيمة الخالدة...

وإلى العاملين في آفاق الكلمة الصادقة...

وإلى العاملين بصمت من أجل الإنسان...

وإلى الذين لهم في نفسي مكانة من أبنائي وأهلي وعائلتي...

وإلى المؤمنين بقدسية الكلمة والفكر وحرية الإنسان في كل مكان وكل زمان...

أهدي هذا العمل المتواضع عنواناً للذكرى والمودة والإخلاص والصدق والوفاء..

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أقدم للقارئ الكريم في هذه الصفحات جولة في عالم الأدب والفكر، متنقلاً فيها من فكرة إلى أخرى، ومن موضوع إلى موضوع، وهو أسلوب سلكته في الدراسة الأدبية؛ لإيماني بأنه هو الأسلوب والمنهج الذي يتفق مع المعنى الشامل للأدب والفكر، وما يعكسانه من مفاهيم واعتبارات في آفاق المعرفة وميادين العلم ومجالات الفكر، وقد أسميت هذا العمل: **مع الأدب والفكر .. سبحات في عالم الفكر والأدب** .. وهذه المادة في الحقيقة هي نفس المادة التي كانت برنامجاً يذاع في إذاعة الجماهيرية بعنوان: صور من الأدب العربي .. خلال الفترة من الستينات وحتى الثمانينات من القرن الماضي، ولذلك يلاحظ القارئ الكريم أن مسحة التصوير وإيراد الصور تغلب على هذا العمل الذي يمثله هذا الكتاب، وقد حصرت هذا العمل في خمسة فصول هي:

1 . **الفصل الأول:** دارت الدراسة والعرض فيه للأدب ومساره، وشمل ذلك العناوين الآتية: من الألوان القمة في الأدب: القرآن وأثره. مظاهر التحول في الاتجاه الأدبي بعد عصر الخلفاء الراشدين. الرواية في الأدب والفكر

ودورها. خطوات بناء الحضارة التي سلكها الفكر الإسلامي. الفكر العربي واتساقه مع الفكر الإنساني.

2 . **الفصل الثاني:** تناول الدراسة للأدب والحياة، وشمل ذلك العناوين التالية: الأدب والحياة. الأدب وقضايا الحياة. الإنسان والحياة. تصوير الأدب للنفس البشرية وما فيها من أبعاد. جانب الصدق والتزامه في الفكر العربي.

3 . **الفصل الثالث:** تناول دراسة الأدب ومؤثراته وخطواته التجديدية والإصلاحية. وشمل ذلك العناوين الآتية: تعدد وجهات النظر في مختلف الجوانب التي يعالجها الأدب من حياة الأمة العربية. الأحداث ومر الزمن وأثرهما في الأدب. خطوات الإصلاح والتجديد في الأدب العربي. استلهام التراث وأثره في الأدب ودوره الفاعل. الدراسات الأدبية والواقع.

4 . **الفصل الرابع:** تناول ترجمة المعاناة والتنوع في المناهج وتوجهات الفكر العربي، وشمل العناوين التالية: أساسيات النص الأدبي. المعاناة الأدبية وترجمتها. ملامح من الشعر الحديث بفعل ما جد في الحياة من جديد. من مهام النشاط الأدبي. التنوع في المناهج والتوجهات التي سلكها الفكر العربي.

5 . **الفصل الخامس:** دار حول التجديد والحداثة والأصالة والصدق في الأدب العربي. وتناول العناوين الآتية: الاتجاهات الحديثة في الأدب العربي. الأدب مرآة صادقة عن حياة الأمة العربية. النزوع إلى التجديد ومساراته في الأدب العربي الحديث. الحداثة والتجديد في الدراسات الأدبية. الأصالة والصدق في الأدب ودراساته.

وفي الوقت الذي أقدم فيه هذا العمل المتواضع، لا أدعي أني أتيت فيه بجديد، ولكن قدمت وحاولت أن أعرض ما أحس به من أصالة وعمق في التراث العربي، بكل ما فيه من صور ومخزون تجلوه الدراسة ويثريه البحث والمتابعة والتناول، فآفاق الأدب والفكر العربيين دائماً في عطاء مستمر وإشعاع متواصل ووهج يدفع الهمم إلى طرق جميع ما فيهما من معطيات، وما يحملانه من مفاهيم في الحياة التي يتقلب فيها الإنسان ويحتاج إلى فهمها والتعمق في أبعادها، وما تعكسه من آفاق.

وهذه الخطوة التي أقدمها في مناحي الأدب وعوالمه ليست في واقعها إلا قطرة من بحر آمل أن تكون قد قدمت صورة من الصور المتلألئة، التي يعج بها الأدب العربي والفكر الرصين الذي جادت به قرائح الأفذاذ من أبناء أمتنا العربية الخالدة، التي أرست دعائم الحضارة وساهمت بفاعلية في ثراء الفكر الإنساني الخالد.

وقد حاولت أن أسجل في هذه الصفحات ما أؤمن به وأحسه من أصالة ونموذجية في العاطفة والإحساس والوجدان الذي يفيض به الأدب العربي، والعمق والبعد الذي يمتاز به الفكر العربي، في جميع ما يتصل بالحياة وما يرتبط بالإنسان من اعتبارات ومفاهيم، في جميع مراحل التاريخ وتقلبات الظروف وتصاريف الزمن، فالأدب العربي حديثاً وقديماً والفكر العربي أيضاً لم يكونا إلا حلقة واضحة من الحلقات التي تفيض بها الحياة الإنسانية، بكل ما لها من اعتبار ومفهوم، وكلما تعمق الإنسان في زواياهما ازداد جديداً ووقف على ما لا يخطر له على بال، فبهذا الإحساس وهذه الفاعلية أقدم للقارئ الكريم هذه الصفحات المتواضعة، آملاً أن تكون قد أضفت لما قدم للمكتبة العربية في

هذا المجال ما هي في حاجة إليه من المزيد، فإن وفقت فذلك ما أريد وإلا فحسبي الله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلف

طرابلس 2002/6/10

الفصل الأول

الأدب ومساره

1 . من الألوان القمة في الأدب: القرآن وأثره:

1 . الكلمة الهادفة البناءة تستوحي مضمونها من التراث الأصيل، الذي يستمد جذوره من الحضارة العريقة، التي تقوم على العقيدة والفكر والبناء الشامخ للإنسان أينما كان وأينما وجد على وجه البسيطة؛ لأنها حضارة مبنية على أساس النهوض بهذا الإنسان واحترامه، فهي تنفّر من التعصب العرقي، وتبعد عن التعامل مع هذا الإنسان على أساس اللون والصورة الخارجية، دون المضمون الحقيقي للروح الإنسانية وأهدافها في هذا الوجود.

ومن هنا كان التراث العربي ممثلاً في الأدب وغيره من صور التعبير والتسجيل الفكري غنياً بالكنوز الفكرية والصور الجمالية الرائعة، وسير الرجال الذين خلدوا بفكرهم وعقولهم من الصفحات المشرقة الوضاءة ما جعل البشرية تنظر لهم في كل زمان وفي كل مكان نظرة الإعجاب والتقدير، وهؤلاء كثيرون ومتعددون في تراثنا العربي، وجوانبهم كثيرة، فيها من الروعة وسخاء العطاء الفكري ما يشد الانتباه إليه وما يجعلنا نعتزّ به، لأن عطاء هؤلاء قدم للإنسانية وما زال يقدم نور المعرفة واليقين، رغم كل المحاولات التي تعرض لها من المغرضين الذين لا يفقهون من المعاني الإنسانية شيئاً ولا يرون في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان إلا الاستغلال البشع لأغراضهم الخاصة وأهدافهم المادية التي لا تدور إلا في إطار الكسب المادي وتقييم الإنسان على

هذا الأساس، الذي لا يزن الأشياء إلا من جانبها المادي الذي لا يقيم لغير المادة وزناً.

يقول الله ﷻ في عكس هذه النظرة بمنطق لا تطوله النظرة المادية وما فيها من قصور: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم.. ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير}[1].

فهذه اللوحة الجميلة في القرآن الكريم ترسم الأصول للذوق الإنساني وما يجب أن يكون عليه الإنسان المتصدق حتى تكون صدقته معبرة عن إحساسه وإخلاصه لوجه الله الكريم، فهي إن كانت في سبيل الله حقاً تكون مضاعفة الثواب والجزاء، بحيث لا يتبعها ما يشوبها من المنغصّات كالمنّ والأذى، والله هو الذي يتولى الأجر الذي يناسبها، والقول الحسن في ردّ السائل والصفح عما قد يصدر منه من سوء التصرف خير من صدقة يكون فيها الأذى والإذلال

[1] الآية 260 – 264 من سورة البقرة.

لهذا السائل المسكين، والله غني عن عباده وصدقاتهم، وحليم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة على ما يفرط منهم.

وفي هذا الأسلوب يوضح الله ﷻ أن الصدقة يبطلها المن والأذى، مثل الذي ينفق ماله بقصد أن يقال عنه: إنه يعطي؛ للظهور أمام الناس وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فهذا مثله كمثل أرض صخرية فوقها تراب يسير أصابها وابل من المطر فتركها صلدة شديدة الصلابة، حيث جرفت المياه ذلك التراب وتعرّت تلك الأرض الصخرية فلم تعد تصلح لشيء لا للنبات ولا للشجر ولا للحياة، وأما من ينفق أمواله بصدق نية وإخلاص لله دون أن ينظر للثناء والإطراء من الناس، وما ينفقها في سبيل الله إلا ازدياداً في الإخلاص واليقين والإيمان بالله واليوم الآخر، فهذا مثله كمثل جنة في مرتفع من الأرض أصابها مطر غزير فآتت محصولها ضعفين، وإن لم يصبها مطر غزير تؤت محصولها في جميع الأحوال، والله ﷻ عليم بما يجري في النفوس وما يقوم به الإنسان من عمل، فلا تخفى عليه خافية، حيث يتولى الجزاء الملائم لكل قصد يصدر من هذا الإنسان المتصدق، والمتصرف مع السائل للصدقة الذي تجره ظروفه إليه، وهو لا يملك إلا الالتجاء لمن يظن أنه يحصل منه على الإحسان.

فهذا التصوير البديع بهذا الأسلوب الذي بلغ القمة في سبك التعبير والبلاغة لهذا الموقف الإنساني وما ينبغي أن يلائمه من التصرف؛ لكي يلائم وجه الله الكريم، ويعمق المعاني الإنسانية المثلى في نفس المتصدق وهو يجود بماله وفي نفس المتصدق عليه وهو يمد يده من المسغبة وشدة الحاجة، في منتهى الإحاطة والشمول للموقف.

وهذا لاشك جانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم الذي تمثل في عدة جوانب، من الأسلوب اللغوي الذي بلغ القمة في التعبير، وتحدّى أساطين البلاغة[1] والبيان الذين كانوا يعدون أنفسهم الحجة القاطعة في هذا المجال، وقد وقفوا أمام القرآن الكريم وسحر بيانه مشدوهين، ولكنهم مع ذلك كابروا، فتحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، فحينئذ تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ولكنهم أيضاً عجزوا، فطلب منهم أن يأتوا بأقصر سورة فعجزوا، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك حيث قال: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين}[2]، ويقول: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً}[3].

وبقي القرآن الكريم مدى الدهر وإلى يوم الدين القمة الشامخة في البلاغة والبيان، من حيث الأسلوب والسبك والتصوير وجميع ما يعطيه المعنى الفني للغة وأسرارها، وما فيها من عجائب يعجز العقل البشري أن يلم بها أو يأتي بشيء منها، مثل ما بينه وفصّله القرآن الكريم الذي قال الله في حقه: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين}[4].

---

[1] انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط5/دار المنار بمصر 1372هـ، ص298-299.

[2] الآية 22-23 من سورة البقرة.

[3] الآية 88 من سورة الإسراء.

[4] الآية 1 من سورة البقرة.

وحين يستعرض الدارس الصور العجيبة التي وردت في القرآن الكريم للمواقف والأحكام والقصص والترغيب والترهيب والحكمة والعظة والعبرة والتدبر في هذا الكون وأسراره، يأخذه العجب العجاب، ويحسّ بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وما هو إلا وحي من السماء: {إن هو إلا وحي يوحى}[1].

وأما جانب الإخبار عن الأمم السابقة وما لها من آثار في جميع مجالات الحياة التي تقلبت فيها، فشيء لا يمكن حصره أو تصوره، ومايزال البحث العلمي يقتفي أثره ويظهر كل يوم صدق ما تعرض له كتاب الله وأوضحه بأسلوبه المسهب، وكلما تعمقت الدراسات فيه كان ذلك متفقاً وسائراً مع الأسس والإشارات التي جاء بها القرآن الكريم.

ومن العجيب في هذا الصدد أن القرآن لم يقف عند حد من حدود البيان في هذا المجال، بل تعداه إلى الإخبار عن أدق الجزئيات التي تتعلق بأحوال الأمم والشعوب التي عفَّى عليها الدهر، ولو رجعنا إلى أساليب القصص التي سردها القرآن الكريم في حق هؤلاء وحق الأنبياء والرسل وما تعرضوا له من أقوامهم، لوجدنا الخضم الزاخر الذي يأخذنا بروعته ودقائقه، وما فيه من المواقف التي تؤكد لنا تأكيداً قاطعاً أن هذا التصوير ليس من صنع البشر أو مقدوره، وما هو إلا من عند الله مبدع هذا الوجود، وهؤلاء جميعاً رسلاً وأقواماً وأمماً وشعوباً وخلقاً، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حيث قال: {لقد

[1] الآية 4 من سورة النجم.

كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}[1].

فالإعجاز في كتاب الله ﷻ من جميع الجوانب التي يتعرض لها الإنسان في حياته ملموس لكل متأمل ومنصف، وهو المنطلق لكل أساس إصلاحي لكل مجتمع بشري، وصدق الله العظيم حيث قال وهو أصدق القائلين: {ما فرطنا في الكتاب من شيء}[2].

2 ـ والإعجاز في القرآن الكريم شمل جميع الجوانب التي تعرض لها وتحدث عنها بأسلوب سلس وإسهاب وتفصيل محكم، وخاصة جانب البلاغة؛ لأنه جانب مهم جداً بالنسبة للعرب الذين جاء القرآن معجزاً لهم ولغيرهم ممن وصل إلى مستواهم في هذا المجال، وأهمية هذا الجانب تتضح في أن العرب كانوا كما هو معلوم من تاريخهم يجيدون البلاغة وضروب البيان، ويهتمون بهما وينفعلون معهما الانفعال الكبير، ومعجزات الرسل لأقوامهم كانت تأتي من جنس[3] ما نبغوا فيه واشتهروا به، لتكون قاطعة البرهان لصاحب الرسالة في دعواه، ولذلك حين كان السحر في عصر نبي الله موسى عليه السلام هو المجال الذي كانوا مهتمين به ووصلوا فيه إلى حد النبوغ، كانت معجزته عليه السلام العصا التي أبطلت ذلك السحر وأعجزتهم، الأمر الذي جعل فرعون وهو ذلك الجبار

---

(1) الآية 1 من سورة يوسف.

(2) الآية 39 من سورة الأنعام.

(3) حسين مكي عبد الرحيم، مذكرات التوحيد للسنة الخامسة الثانوية للجامعة الأزهرية، ط4 1949م، ص66. وانظر مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، محمد رفعت أحمد زنجير، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ص19–20.

الذي ادعى الربوبية يفقد صوابه، ويحاول بكل وسيلة أن يقضي على نبي الله موسى عليه السلام ورسالته، حيث لم يكفه الإنكار لها، بل أخذ يتحدى وجمع السحرة الذين كانوا بملكه، وكانوا يمثلون الصفوة في هذا الميدان، إلا أنهم انقلبوا ساجدين مؤمنين برب موسى وهارون رغم أنف فرعون وتهديده وإغرائه ووعده ووعيده، {قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين}[1].

وحين كان العصر الذي عاش فيه نبي الله عيسى عليه السلام عصراً متقدماً في الطب، وكان قومه في هذا الميدان مبرزين فيه، وقد وصلوا فيه إلى مستوى النبوغ، كانت معجزته لهم إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى، الأمر الذي جعلهم عاجزين أمامه، وما عليهم إلا أن يسلموا بصحة ما جاءهم به، إلا أن منهم من هداه الله سبحانه وتعالى ومنهم من حقت عليه الضلالة.

وحين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كانت جملة معارف الأمة العربية في ذلك الحين وعلومها أربعة: البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة، فأنزل الله عليه القرآن الذي خرقها من البلاغة والفصاحة والإيجاز والنظم والأسلوب الذي لم يهتدوا إليه، وإلى طريقته في المنظوم، ولا علموا في الأوزان منهجه، وخاصة ما ساقه من أخبار عن أحداث مضت وأسرار ومغيبات يأتي بها الزمان حسب ما أخبر، وقد أبطل الكهانة واجتثها من أصلها، لأنها لا تقوم على الصدق ولا تتفق مع المنطق وحكم العقل الذي أشاد به واحترمه وقدره في جميع مواقفه؛ لأنه الأساس الذي يقوم عليه احترام الإنسان، وهو المصدر الذي يبني عليه، لأن العقل والرجوع إليه في كل خطوة يخطوها الإنسان هو المنطلق الصحيح

---

[1] الآية 50-51 من سورة الشعراء.

الذي ينبغي أن تسير منه البشرية في كل ما تريده   من إصلاح شأنها وبناء حياتها وتقدمها، وعلى هذه النظرة الشاملة فإن الكهانة لا تتفق مع العقل والمنطق والعلم، ولذلك أبطلها القرآن واهتم بغيرها من الأمور التي تساهم في إرساء دعائم العقل والعلم ليسير الكون في وضعه السليم.

ووجوه الإعجاز[1] في القرآن كثيرة كما سبقت الإشارة، منها حسن تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته، ووجه إيجازه، وبلاغته التي تجاوزت ما كان عليه العرب الذين كانوا فرسان هذا الميدان، ومنها صورة نظمه والأسلوب المخالف لأساليب كلام العرب وسبل نظمها ونثرها الذي ورد به، وانتهت مقطاع آيه وفواصل كلماته إليه، مما لم يرد به نظير، وحارت فيه عقول العرب وأحلامهم ولم يستطيعوا الوصول إلى مثله من جنس كلامهم، من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.

ومنها ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات حيث لم يكن لها وجود ثم وجدت على الوجه الذي أخبر به القرآن، مثل الإخبار بفتح مكة ودخول المسجد الحرام: {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً}[2]. {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين}[3]. وانتشار الإسلام في مشارق

---

[1] القاضي عياض/ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، بيروت، 253/1

[2] سورة النصر.

[3] الآية 27 من سورة الفتح.

الأرض ومغاربها: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض}[1].

ومنها الإخبار عن الأمم البائدة والعصور السالفة، بأسلوب لا يعرفه إلا الذين تخصصوا فيه من أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم فيه، ولم يصلوا إلى المستوى الذي ساقه القرآن من قصص الأنبياء والرسل، وما لاقوه من أقوامهم، وغيرهم مما هو موضع العظة والعبرة، مثل قصة نبي الله موسى والخضر عليهما السلام، وموسى وفرعون، ويوسف عليه السلام وإخوته، وأصحاب الكهف، والأخدود، وآدم، ونوح، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع، ولوط، وصالح، وغير هذه القصص والأحداث، مما لا يتسع المقام لسرده، وتعرض القرآن له وساقه وفيه من الحقائق ما هو مسلم ومقطوع به، وما يعجز العقل البشري أن يدركه أو يأتي به.

ومنها تحدى قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها وإعلامهم بذلك، وقد عجزوا فعلاً، وذلك مثل مخاطبة اليهود بقوله سبحانه وتعالى: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين}[2] ولكنهم لم يتمنوا الموت.

---

[1] الآية 53 من سورة النور.

[2] الآية 93 من سورة البقرة.

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم له والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته: {مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}[1].

ومنها أن القرآن آية باقية ما بقيت الدنيا: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}[2] {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}[3].

ومنها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه، فالإكثار من تلاوته وترديده يزيده حلاوة ومحبة، وغيره من الكلام مهما بلغ يمج بمجرد التكرار ويمل، والقرآن دائماً غض طري يأنس إليه الإنسان في الوحدة ويرتاح إليه في الشدة، ويفرج به ما حل من كربة، {ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}[4].

وهكذا فإن أوجه الإعجاز في القرآن كثيرة لا تحصى ولا تعد، وفي كل جانب يطلع عليه الإنسان من القرآن يدرك الإعجاز ويشعر قطعاً بأنه من عند الله، وليس في مقدور البشر، يقول الله ﷻ مبيناً ما جرى بين نبيه موسى عليه السلام وفرعون من حوار كان فرعون يرمي من ورائه إلى مقاومة نبي الله موسى عليه السلام القضاء عليه وعلى رسالته إلا أنه أفحم: {قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم

---

(1) الآية 22 من سورة الزمر.

(2) الآية 9 من سورة الحجر.

(3) الآية 41 من سورة فصلت.

(4) الآية 17 من سورة القمر.

لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولوجئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون آئنا لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين}[1].

فهذا الحوار فيه من التحدي الذي كان يدور بين الشرك والإيمان والهدى والضلال، وخاتمته كانت النصر للإيمان، وكانت المعجزة فيه من نوع ما نبغ فيه هؤلاء القوم بحيث كان إعجازهم قاطعاً، غير أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً وكان من المفسدين فكانت نهايته وخيمة، ومصيره بئس المصير.

---

[1] الآية 22-51 من سورة الشعراء.

ومن هذا الحوار ندرك أن الأنبياء والرسل قبل نبينا محمد ﷺ قد وجدوا من أقوامهم العنت والمقاومة والتكذيب، إلا أنهم صبروا وكافحوا واعتمدوا على الله، وقد نصرهم وأيدهم في تأدية رسالتهم، ومن هنا كان هذا التحدي الذي نراه في القرآن لقريش، وكان الإعجاز المعجز في القرآن الكريم لجميع البشر في كل الدهور، هذا القرآن الذي يقول الرسول ﷺ في حقه: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسّك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوجُّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب»[1]. ويقول الله ﷻ في حقه أيضاً: {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً}[2]، وقال: {وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا}[3].

---

(1) انظر: مقدمة الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، والجزء الثاني من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وانظر مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم السابق، ص3.

(2) الآية 9 من سورة الإسراء.

(3) الآية 2-5 من سورة الكهف.

3 ـ هذا هو القرآن الدستور الخالد الذي جاء به الإسلام الذي ظهر في الجزيرة العربية، وأحدث ثورة عارمة في مختلف مجالات الحياة، ونظم للناس أمورهم التي كانت تتيه في فوضى لا نهاية لها، وقبل مجيء الإسلام كان العالم كله تتحكم فيه القوة ولا يستطيع الضعيف أن يعيش دون أن يستند على من يحميه من الأقوياء الذين كانوا يتحكمون في الناس ومصائرهم، ولكن الإسلام حين جاء بمبادئه وأسسه التي قام عليها قضى على كل ذلك، ونظم حياة المجتمع، وركز هذا التنظيم على الأخلاق والمثل العليا التي يحسّ الإنسان في ضوئها باحترامه ومكانته بين المخلوقات في هذا الوجود الرحب الفسيح، الذي يتيه فيه العقل والبصر والوجدان، وحواسّ الإنسان بكل ما لها من خصائص وما فيها من ميزات.

ومن أهم الدعائم التي قام عليها الإسلام، وهي الأساس لبنائه، القرآن الكريم، ذلك الدستور الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فقد أحدث القرآن بمجيئه هزة عنيفة بين الأوساط الأدبية التي كان لها الدور الخطير في مجال البلاغة والبيان، واستطاع بما اشتمل عليه من قوة وإعجاز أن يستولي على الأفئدة والألباب، وأن يغير نظرة المجتمع ومفكريه، وأن يعطي للحياة الثقافية مفاهيم أخرى غير التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، وخاصة فيما يتعلق بالبيان وأساليبه، ذلك الفن الذي سيطر على تفكير العرب، واستطاع أن يأسر عقولهم، فقد جاء القرآن فيه بالعجب، وجمع فيه من الصور ما جعل الأنظار والعقول تشد إليه، الأمر الذي زهدهم في كل ما سواه، لدرجة أن كثيراً من الشعراء وأرباب البيان والفكر اكتفوا بالقرآن

عن قول الشعر، وفي مقدمة هؤلاء لبيد ابن ربيعة العامري، من أصحاب المعلقات[1] وقد بدأ معلقته بقوله:

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبد غولها فرجامها

فقد قيل أنه منذ اعتناقه للإسلام لم يقل إلا بيتاً واحداً هو:

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي   حتى لبست من الإسلام سربالا

وذلك اكتفاء بالقرآن الكريم الذي كان يتردد على لسانه وسمعه، فلا بيان ولا فكر معه، فهو البيان والفكر الذي ينبغي أن يسود، وتعمق مفاهيمه بين الناس.

وفعلاً ضعف الشعر واهتز في كثير من أغراضه، وخاصة التي لها صلة بالشر والفحش، مثل الهجاء، فإن الإسلام في مبادئه وأهدافه لا يتفق معه، ولذلك تأثر الشعر به، ومع ذلك كان كثير من المسلمين يقولون الشعر ويتأثرون به وبأساليبه وفنونه، رغم أن القرآن تعرض لهذا الجانب من الحياة الفكرية، فقد جاء في القرآن الكريم: {والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً}[2].

وفعلاً كانت الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام امتداداً للعصر الجاهلي من حيث أسلوبها ولغتها وأفانين القول فيها، إلا أن رد الفعل الذي أحدثه القرآن لم

---

[1] من معلقة لبيد بن ربيعة العامري، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط7 1964م، ص192.

[2] الآية 224-227 من سورة الشعراء.

تستطع التخلص منه، بل ميزها بلون خاص جعلها تسلك سبيل الدرب الذي رسمه الإسلام وحدد معالمه، وحتى أولئك الشعراء والخطباء الذين وقفوا من القرآن موقف العداء لم يستطيعوا التخلص من تأثيره عليهم، ولم يملكوا إلا أن يهتزوا من أعماقهم عند سماعه.

واستمر الحال على هذا المنوال طيلة عهد الرسول ﷺ وخلفائه من بعده، حتى جاء العصر الأموي حين استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يحول الخلافة إلى ملك عضوض كما يقول المؤرخون، فنشطت الحياة الأدبية في بعض مظاهرها التي لم تكن بارزة بوضوح، وخاصة إذا ما أمعنا النظر في تلك الحروب والصراع على الخلافة والأطراف التي كانت تؤيد الإمام علياً أو الأمويين الذين كان يتزعمهم معاوية.

2. مظاهر التحول في الاتجاه الأدبي بعد عصر الخلفاء الراشدين

1 . بعد استتباب الأمر لمعاوية وظهور شخصية الأمويين فيما بعد، وانتصارهم في تلك المواقف التي كانت تفجؤهم من حين لآخر، أخذ الأدب العربي يبدو في طابعه الذي يتسم به بتلك المرحلة التي يطلق عليها مؤرخو الأدب ونقاده، العصر الأموي التي كان من خصائصها ظهور النقائض بين الفرزدق وجرير، ومن سار في فلكهما.

وقد برز في هذه المرحلة من تاريخ الأدب شخصيات كان لهم الأثر البالغ في إثراء الحياة الفكرية، منهم من كان في مجال الشعر دون سواه، ومنهم من استطاع أن يجمع بين الشعر والخطابة، وقد خلد هؤلاء تراثاً مازال الأدب العربي يتغنى به، ويعده من مفاخره، فالنقائض وما قيل فيها، والخطب وما ورد

فيها من مواقف ومواعظ، وخاصة خطب الإمام علي، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وعبد الملك بن مروان، ونظرته النقدية الصائبة لأولئك الشعراء الذين كانوا يقفون ببابه ويجتمعون في مجالسه، كل ذلك كان حصيلة غنية للدارسة التي أكدت أهمية هذه الحلقة من تاريخ الأدب العربي وتأثيرها البعيد في المراحل التي تلتها، لأنها في واقع أمرها كانت مرحلة تحول ومرحلة تجديد بالنسبة للأدب وأجناسة التي ظهرت في ثوبها الخاص.

ومن أعلام هذه المرحلة المخضرمين النعمان بن بشير بن سعد(1) الذي انحدر من بيت له مكانته في الإسلام، حيث إن والده البشير بن سعد حضر بيعة العقبة، وموقعة بدر الكبرى، وحين توفي رسول الله ﷺ وبويع أبو بكر بالخلافة كان أول المبايعين له، والنعمان هذا أول مولود يولد للأنصار في المدينة، وكان مولده في السنة الثانية من الهجرة، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره جاء مع صبي آخر في سنة لرسول الله ﷺ يريد الخروج للجهاد، ولكنه استصغره ورده، وكان يميل للأمويين، فحين قتل سيدنا عثمان بن عفان ﷺ دفعت إليه نائلة زوجته قميصه فحمله إلى معاوية في الشام، ذلك القميص الذي كانت له قصة طويلة، ويضرب به المثل الآن.

وقد شهد النعمان بن بشير معركة صفين مع معاوية وتولى القضاء بدمشق، ثم تولى الكوفة لمعاوية، ثم تولى حمص، وفي أثناء ذلك تغزل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري برملة بنت معاوية، فأثار ذلك حفيظة أخيها يزيد بن معاوية، فاستدعى كعب بن جعيل التغلبي وطلب منه أن يهجو

---

(1) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط2، دار العلم للملايين بيروت 1969م، 1/383–387.

الأنصار، فقال له: أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله؟! ولكني أدلك على شاعر نصراني يفعل ذلك، فدله على الأخطل، فاستدعى يزيد الأخطل من الجزيرة وأطلقه على الأنصار، فقال الأخطل في حقهم أبياتاً منها:

ذهبت قريش بالمكارم والعلا   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان بن بشير على معاوية وحسر عمامته عن رأسه، وقال: يا معاوية أترى لؤماً؟ ولكن معاوية بما لديه من دهاء وكياسة استرضى النعمان، ورد الأخطل إلى مكانه الذي حضر منه، ولقن ابنه درساً في الحلم.

واستمر النعمان والياً على حمص بقية أيام معاوية وابنه يزيد، وأيام معاوية بن يزيد.

ولما دب الخلاف بين الأمويين وغيرهم على الخلافة بعد يزيد بن معاوية مال النعمان إلى خصم الأمويين عبد الله بن الزبير، فأوغر ذلك صدور أهل حمص عليه، وحين وقعت معركة مرج راهط وانهزم فيها جيش ابن الزبير وتولى الخلافة مروان بن الحكم، تآمر أهل حمص على النعمان وقتلوه، وكان ذلك سنة 65هـ، وهو صحابي جليل روى عن رسول الله ﷺ عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشابهات ومن طاف حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

وكان رضي الله عنه خطيباً وشاعراً مجيداً، ولما جاء إلى معاوية على رأس وفد من الأنصار في أمر هجاء الأخطل لهم، قال للحاجب: استأذن للأنصار، وكان عمرو بن العاص حينذاك عند معاوية، فأشار على معاوية أن يأمر الحاجب

بأن ينادي الوفود بأنسابهم، ففعل، فأبى الأنصار أن يدخلوا حتى ناداهم بلقبهم، فعندئذ دخلوا على معاوية يتقدمهم النعمان وهو يقول:

يا سعد لا تجب النداء فمالنا   لقب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا   أثقل به نسباً على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم   يوم القليب هم وقود النار

ثم أنشد معاوية قصيدة ورد فيها:

أيشتمنا عبد الأراقم خلة   وما الذي تجري عليك الأراقم
وما لنا ثار سوى قطع لسانه   فدونك من يرضيه عنك الدراهم
زراع رويداً لا تسمنا دنية   لعلك في غب الحوادث نادم
متى تلق منا عصبة خزرجية   والأوس يوماً تخترمك المخارم
فإن كنت لم تشهد ببدر وقيعة   أذلت قريشاً والأنوف رواغم
فسائل بناحي لؤي بن غالب   وأنت بما تخفى من الأمر عالم
ضربناكم حتى تفرق جمعكم   وطارت أكف منكم وجماجم

وقد سار شعره على هذا المنوال، وله باع طويل في مجال الخطابة، فقد كان خطيباً مفوهاً، وخطبه كانت في عدة مواقف، ولما ولي الكوفة في عهد معاوية بن أبي سفيان خطب فقال: «أما بعد فاتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيهما يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، إني لم أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لم يثب علي، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالفرقة ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر من يرد به الباطل».

فهي خطبة سياسية فيها من الوعيد والتهديد ما يبين لنا العلاقة التي يحسّ بها هذا الخطيب مع هؤلاء الذين يخاطبهم، من حيث إنهم غير متفقين مع هواه، وإلا لما صدر منه هذا الوعيد الذي بدأه بالتحذير من مغبة الفتنة والمسارعة إليها، وثناه بموقفه الشخصي الذي لم يقاتل فيه من لم يقاتله، ولكنه إن وجدهم مخالفين لإمامهم سوف يقاتلهم بسيفه ما بقي في يده، ويأمل أن يكونوا عقلاء ويعرفوا الحق ويسيروا في هداه حتى لا يأخذهم بالشدة والعنف.

2 . مرّ تاريخ الأدب العربي بمراحل كان يمثل فيها دور البناء الأساسي للمراحل التي تتلوه، وكان في هذه المراحل يسجل ويبني، وإذا رجعنا إلى استعراض الحلقات التي مر بها تاريخ الأدب العربي فسوف نجد أنها حلقات يتمم بعضها بعضاً، ولا يمكن الفصل بينها، حيث إنها تقوم على قاسم مشترك واحد هو بناء الحضارة العربية، ووضع قواعدها وأسسها، وخاصة في مجال العلم والمعرفة الإنسانية، فقد جاء الإسلام وانتشر في فتوحاته وضم أمماً عدة دخلت في الحضارة العربية، وهي تتمتع بماض له تاريخ أصيل في مختلف مجالات المعرفة والعلم، وأخذت الأصول والأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي العربي تبنى على دعائم علمية تتلاءم وحاجات هذا المجتمع الذي يتألف من أمم مختلفة انصهرت في المجتمع العربي، وبدأت تمثل ملامحه التي تميزه كمجتمع حي متحرك يهمه البناء وإرساء دعائم المبادئ التي نادى بها الدين الإسلامي الحنيف، وكانت النظرة فيه متركزة على العلم والمعرفة التي هي النبراس الذي يضيء السبيل إلى الإصلاح في جميع خطاه التي يخطوها نحو المستقبل الذي يؤمن به ويطمح إليه.

ولذلك اتخذت الدراسات العلمية في هذا المجتمع مسارات عدة واتجاهات مختلفة، بعضها كان مركزاً على اللغة، وبعضها الآخر كان مركزاً على التشريع

ومذاهبه وآراء علماء الشريعة في كل ما له شأن يتصل بحياة الناس وعلاقاتهم فيها، وكان للرواية في كل ذلك دورها الكبير الذي استطاع أن يوفر المادة العلمية التي تركز عليها بالبحث والدراسة.

3. الرواية في الأدب والفكر ودورها

1 . إذا تتبعنا حياة العرب قبل الإسلام فسوف نجد أن لكل شاعر من شعرائهم راوياً يروي أشعاره ويختص بها، ويباهي بأنه راوية له، فقد كان زهير بن أبي سلمى راوية لأوس بن حجر، وكان الحطيئة راوية لزهير، وهكذا.

وقد اهتم الناس بهذا النوع من رواية الشعر، حيث كان الشاعر هو لسان القبيلة، والشعر هو المجال الذي تشد إليه الأنظار، ويتبع الناس أخباره، وأخبار رجاله من الشعراء، حتى حكي أنه اجتمع راوية جرير، وراوية نصيب، وراوية كثير عزة، وراوية جميل بن معمر، وراوية الأحوص بالمدينة المنورة، وادعى كل منهم أن صاحبه أشعر، وقد حكمت سكينة بنت الحسين بينهم.

ومن آثار الرواية في هذا الصدد أن بعض الشعراء يهجون قبيلة من القبائل ببيت من الشعر، فيتناقله الرواة، ويؤثر ذلك في القبيلة بحيث ينزلها إلى الحضيض بعدما كانت في القمة، الأمر الذي كان له أثره البالغ في علاقات القبائل والمجتمع العربي القديم، ولذلك حين جاء الإسلام وهو لا يقر مبدأ الفرقة والهجاء في المجتمع العربي، رأى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أن يمنع شعر

الهجاء، لأنه رأى فيه شتم الميت بالحي، وتجديد الضغائن، وله في هذا الصدد عدة مواقف منها موقفه مع الحطيئة[1] حين هجا الزبرقان بن بدر بقوله:

دع المكـارم لا تنـزل بسـاحتها   واقعد فإنك أنت الطـاعم الكاسـي

وموقفه مع بني عجلان الذين دخلوا معه في مناقشة حين اشتكوا إليه من هجاء[2] النجاشي لهم بقوله:

إذا الله عـادى أهـل لـؤم ورقبـة   فعادى بنـي العجـلان رهط بن مقبل

فقال لهم سيدنا عمر: إنه دعا عليكم، ولعله لا يجاب، فقالوا له: إنه قال:

قبيلـــة لا يغــدرون بذمـــة   ولا يظلمـون النـاس حبـة خـردل

فقال عمر: ليتني من هؤلاء، فقالوا: إنه قال:

ولا يـردون المــاء إلا عشــية   إذا صـدر الـوارد عـن كـل منهـل

فقال عمر: ذلك أقل للكاك (الزحمة)، قالوا: فإنه قال:

تعـاف الكـلاب الضـاريات لحـومهم
وتأكـل مـن كعـب بـن عـوف ونهشـل

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:

---

[1] انظر كتابنا حول الشعر العربي، ط1، المؤسسة العامة للثقافة 2010م، ص118. ديوان الحطيئة، دار صادر بيروت، ص108. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط5 بيروت 1984م، ص333.

[2] عبد الكريم النهشلي، تقديم منجي الكعبي، اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، الدار العربية للكتاب، ص308.

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبيد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، قالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأل حسّان فقال: ما هجاهم ولكنه سلح عليهم.

ففي هذه المناقشة كان سيدنا عمر ﷺ يميل بالفهم إلى المعاني القريبة التي يعطيها ظاهر اللفظ، وهي التي تتفق مع روح التوفيق الأخوي التي ينبغي أن تسود المجتمع، بدلاً من تلك الروح الهجائية التي لا تخلق إلا العداء المستحكم، الذي لا تمحى آثاره وتبقى سخيمة في النفوس تكون نتائجها ذلك التنافر والتقاتل الذي تذهب ضحيته الأرواح البريئة.

وهذا ما كان سيدنا عمر، وهو الذواقة للشعر والبيان، حريصاً على محاربته والقضاء عليه، وقد أفلح فيه إلى حد ما ولكن بعد ظهور العصر الأموي وتشجيع الأمويين للصراع القبلي لترسيخ أقدامهم في الحكم حتى يصرفوا الناس عن تصرفاتهم وتتبعها، ظهرت الأهاجي من جديد وأخذت لوناً جديداً عرف بالنقائض، وهو ما كان يدور بين الفرزدق وجرير والأخطل ومن دار في فلكهم وسار على نهجهم وطريقتهم.

وقد أخذت الرواية لوناً جديداً فيما بعد، وتطور الرواة[1] وتنظمت أساليبهم في هذه الرواية من الشعر، حيث عنى العلماء والباحثون بأشعار الفحول من الشعراء ليؤكدوا قاعدة في اللغة وليحصروا ما نطق به العرب في لغتهم، فتعدد

---

[1] الرواة الأعراب، عبد الحميد الشلقامي، ط1، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس/1975م. الأصمعي الرواية، عبد الحميد الشلقامي، مطابع الثورة العربية طرابلس. رواية العربية فيما وراء العراق، عبد الحميد الشلقامي، الإدارة العامة للثقافة.

الرواة وتعددت أساليبهم، وحصروا طرقهم في الوصول إلى معرفة ما يريدون الوصول إليه، وحرصوا على مشافهة الأعراب في البادية، وأخذوا يضربون أكباد الإبل من أجل معرفة كلمة واحدة، أو من أجل النطق بجملة، أو استعمال حرف من حروف الجر.

وهكذا ظهر الرواة حماد الراوية، وخلف الأحمر، وعمرو بن العلاء، وغيرهم ممن كان لجهدهم الصدى العميق الذي مازال تاريخ الأدب يتحدث عنه بالدقة والتفصيل، ومازالت الدراسات اللغوية التي أرسى دعائمها الأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والكسائي وابن جني وغيرهم ممن لا يتسع المقام لسردهم تقوم على تلك الجهود التي بذلت بواسطة الرواة الذين شافهوا أولئك الأعراب وأخذوا عنهم كل ما له صلة باللغة وأساليبها وخصائصها وأسرارها ووسائل التعبير بها عن كل موقف.

وقد بلغ الحرص من هؤلاء الأعلام على تأدية واجبهم في هذا المجال أن دونوا كل ما لاحظوه وسمعوه وحكي لهم من الأعراب على سجيتهم في حلهم وترحالهم، وفي فرحهم وترحهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم.

واستمروا على هذا المنوال إلى العهود التي تلت العصر الأموي، وعدت عهوداً لا يصلح الاستشهاد فيها بأقوال الأعراب وشعرائهم دليلاً على ثبوت قاعدة لغوية أو الانتصار على أن العرب نطقوا بها أو وردت عنهم، حيث اختلط أهل البادية بالحضر الذين كانوا قريباً من العرب والعجم.

2 . وعلى الرغم من ذلك بقيت البادية العربية تحتفظ بطابعها المميز الذي يضفي عليها روح الأصالة وسمة الفصاحة اللغوية، الأمر الذي كان محبباً إلى النفوس ومرغباً إليها، ومرغوباً من رجال الفكر والحكم معاً، حتى أنهم كانوا

يرسلون أبناءهم للبادية للتعلم والاطلاع على ما في المجتمع البدوي من أصالة وعمق إنساني لا يبدو فيه التكلف والتزويق للأفكار والألفاظ، بل تعبير أصيل، وشهامة، وكرم، وفروسية، تبدو فيها الرجولة الحقة التي تنبع من إيمان عميق بالقيم والمثل العليا، التي غرسها الإسلام في نفوس أبناء هذه البوادي، التي لا تعرف إلا الحق والشجاعة في سبيله وسبيل العمل من أجل تعميق مفاهيمه بين الناس.

ولقد بلغ الإيمان به من قبل أولئك الأساطين الذين عاشوا في البادية وولدوا بها وترعرعوا بين أحضانها أن نشروا لواءه في جميع أنحاء المعمور، وليس لهم من العدة والزاد سوى هذا الإيمان، وقليل من العدة والزاد، والحرص الشديد على الاستشهاد في سبيل الله، ذلك المقصد الذي جعلهم يرابطون في كل بلد يصل إليه الإسلام وينتشر فيه نور التوحيد.

وقد استطاع القادة من رجال الإسلام أن ينشروا المعرفة جنباً إلى جنب مع نشر الدعوة التي كانوا يضحون بأرواحهم في سبيلها، فكانوا يعلمون الناس أمور الدين والدنيا، وكانوا يحرصون على ذلك حتى مع أنفسهم، حيث نلحظ هذا الأمر في وصاياهم التي كانوا يوصون بها أبناءهم وأقاربهم في مختلف المواقف وشتى المناسبات، وهذا موقف نسوقه لعقبة بن نافع الفهري حين وصل إلى المحيط الأطلسي قال: اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كذبك حتى لا يعبد أحد من دونك. وقد أوصى

أبناءه قبل مغادرته للقيروان فقال[1]: يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها:

1 . إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللب ويدلكم على مكارم الأخلاق ثم انتهوا عما وراءه.

2 . وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباءة، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، وتبقى لكم الحرصة في الناس ما بقيتم.

3 . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، ويفرقوا بينكم وبين الله ﷻ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط نجا فيمن نجا.

وقد ولد سيدنا عقبة بسنة واحدة قبل الهجرة، وأسلم في فتح مكة، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز العشر سنوات، واستشهد في معركة شهوذة بالزاب سنة 683م وذلك بعد أن فتح الشمال الإفريقي، وأسس مدينة القيروان التي تعد عاصمة الفتوحات الإسلامية أثناء انتشار الإسلام في الشمال الإفريقي، وأصبحت فيما بعد منارة للعلم والمعرفة تهدي للفكر الإنساني كنوزاً من التفكير والتجديد في أساليبه وقوالبه ومعانيه التي عمت الوجود، وأوضحت له سبيل الحق والهداية والرشاد والنور.

---

[1] الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط2004/4م، دار المدار الإسلامي، ص99-100.

4. خطوات بناء الحضارة التي سلكها الفكر الإسلامي

1 . انتشر الإسلام، وقويت شوكته، وانضم للمجتمع الإسلامي أقوام من مختلف الأمم، فتطعمت الحضارة الإسلامية بحضارات الأمم الأخرى، مثل الفرس والرومان وغيرهما من الأمم والشعوب التي دخلها الإسلام، وطبيعي أن يكون هناك تفاعل بين هذه الحضارات والحضارة العربية التي ضمتها وانصهرت بها، وقد تبين ذلك في تلك اللقاءات التي كانت تقوم بين رجال الفكر الذين كانوا يمثلون عدة جوانب من الثقافة والفكر، ويعملون جاهدين أن يرسوا دعائم الثقافة في الأوساط التي كانوا فيها.

وقد استطاعوا فعلاً أن يرسوا دعائم الفكر في تلك العلوم التي دونوها وأسسوا قواعدها على أسس علمية، لها وزنها العميق الذي جعلها ترسخ في الأذهان، وتؤكد حقيقة الفكر الذي نادى بها، وانتبه إلى تقعيدها وتطبيق جزئياتها، وذلك مثل علم النحو واللغة وعلوم الحديث والقرآن والتاريخ والفقه وأصوله والأدب وفروعه.

وكلما مر عصر من عصور الحضارة الإسلامية تطورت أفكار هؤلاء الذين جعلوا همهم تطور الفكر وتقدمه، واتخذوا من المعرفة زادهم في هذه الحياة التي لا يرون لها وجوداً إلا في ظل العلم وما ينادي به من أهداف سامية تدعو إلى الخير وترشد إليه وتبعد من الشر وتنفر منه.

ولذلك فإن المفكرين العرب وطّنوا جهودهم على نشر المعرفة والاستفادة منها وتشجيع كل ما له صلة بها، وهنا كان مفكرو العرب وعلماؤهم في مقدمة الذين ينادون بالتجديد وأساليبه الحديثة التي لا تنهض إلا على أساس الاحترام المتبادل بين الإنسان وظروفه وبيئته.

وقد رأينا عدة علماء برزوا في مجالات معينة تخصصوا فيها وأعطوها ما تستحق من البحث والدراسة المستفيضة التي أعطتها الطابع المميز لها، وقد وصلت إلينا المراجع والمصادر في شتى فروع المعرفة الإنسانية[1] من قبل هؤلاء الذين أرسوا للفكر العربي والإنساني دعائمه واستطاعوا بجهودهم المخلصة أن يضيفوا للتراث الإنساني كثيراً من الجديد، وعديداً من كنوز الثراء الفكري الذي مازال تاريخ الإنسان يتحدث عنه بالإعجاب والتقدير.

ويتجلى ذلك بوضوح في ميادين الفلسفة والنقد الأدبي وعلوم اللغة وما يتصل بها من قواعد وتدوين وتأثير وتأثر في العلوم والمعارف الأخرى التي شملها البحث والدراسة، وخاصة علوم القرآن والحديث، وأجناس الأدب من شعر وخطابة ورسائل ومقامات ومناظرات وغيرها.

وقد كان ذلك مجالاً فسيحاً للدراسات الجادة التي تعرض لها تاريخ الفكر العربي فيما بعد، وأخذ منها منطلقاته وأساليب مباحثه التي رأيناها في عدة اتجاهات سلكها المؤرخون، من الطبري إلى ابن الأثير، إلى ابن خلدون، إلى المقريزي، وغيرهم من أعلام المؤرخين.

---

[1] انظر: عبد الرحمن عطبة، مع المكتبة العربية، ط1978/1م في هذا الصدد. وانظر مفتاح دياب، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، ط1992/1م، طرابلس، ص24-25.

ولم يكن اهتمام الدراسات العربية مقتصراً على جانب واحد من الفكر، بل شمل جميع جوانب الفكر وسار فيها بمقدار يكاد يكون متفقاً، وكانت الظاهرة المميزة لعلماء العرب الموسوعية والشمول، حيث يكون العالم من هؤلاء متضلعاً في علوم عصره تضلعاً كاملاً فلا يبحث في موضوع إلا وله إلمام شامل بما يتصل به من المعارف والعلوم.

ومثل تلك الدراسات العلمية خيال الشاعر العربي، فإنه قد تاه في كل ما يخطر ببال الإنسان من الغزل إلى المدح والفخر والهجاء والوصف.

2 . وقد اختلف الوصف في عدة مسالك، فهو وصف للطبيعة بجمالها ومظاهرها، وما فيها من مباهج تعيد للنفس بعد عنائها ذلك الرواء الذي يجعل الحياة لديها مرغوبة وجميلة، وهو وصف يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من مناظر تهزه وتشده إليها لاعتبارات لا يدركها إلا هو، ويرى من فيض مشاعره أن يترجمها في قصيدة أو قطعة شعرية.

وقد اختلفت نظرات الشعراء ومشاعرهم في هذا المجال، فبعضهم يصف البساتين وأزهارها وما فيها من عصافير تغرد، وبعضهم يصف البحر، وبعضهم يصف النهر وهو يتدفق، وبعضهم يصف الليل وما فيه من ظلام وسكون، وبعضهم يصف الساقية وخرير المياه فيها، وهكذا يتيه الشعراء في هذا المجال الفسيح.

وتشدنا في هذا الصدد ثلاث قطع شعرية، الأولى للطغرائي[1]، وفيها يصف غديراً مر به، فيقول:

عجنا إلى الجزع الذي مد في		أرجائــه الغــيم بســاط الزهــر
حــول غــدير مــاؤه المنتمــي		إلـى بنـات المـزن يشكو الخصـر
لــو لانت الــريح ســموماً بــه		لانقلبــت وهــي نســيم الســحر
حصــــباؤه در ورضراضــــه		ســحالة العســجد حــول الــدرر
وقـد كسـته الـريح مـن نسـجها		درعــاً بهــا يلقــى نبــال المطــر
وألبسـته الشـمس مـن صـبغها		نــوراً بــه يخطـف نــور البصــر
كأنــــه المــــرآة مجلــــوة		علــى بســاط أخضــر قــد نشــر

فهذا التصوير للغدير الذي مر به الشاعر عبارة عن لقطة فنية، فيها من دقة الوصف وبراعة التصوير ما يجعل القارئ لهذه القطعة متذوقاً لروح الفن التصويري الذي أبدعته هذه الشاعرية الفذة، فهو غدير من ماء السحاب، وحصباؤه أصبح دراً، وأما وحله فهو بقايا الذهب حول هذا الدر، وقد كسته الريح مناعة من المطر كما كسته الشمس بريقاً يخطف به الأبصار حين تقع عليه، وهو لخضرته كأنه مرآة انعكس عليها بساط أخضر منشور، فكل هذا التعبير الفني في التصوير يجعل الانتباه مشدوداً بقوة إلى هذه اللوحة الفنية التي رسمتها عبقرية هذا الشاعر وأصالة إحساسه وتذوقه.

---

[1] الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، أحمد الإسكندري وآخرون، مطبعة المعارف بمصر، ط1928/7م، ص282.

وأما القطعة الثانية فلأبي علاء المعري[1] يصف ليلة فيقول:

ليلتـــي هـــذه عـــروس مـــن الـزنج عليهـا قلائـد مـن جمـان
هـرب النـوم عـن جفوني فيهـا هـرب الأمـن عـن فـؤاد الجبـان
وكـأنَّ الهـلال يهـوى الثريـا فهمــــا للــــوداع معتنقــــان
وسـهيل كوجنـة الحب فـي اللون وقلــب المحــب فـــي الخفقــان
يســرع اللمــح فـــي احمــرار كما تسرع فـي اللمـح مقلـة الغضبان
ضـرجته دمـاً سيوف الأعـادي فبكـــت رحمـــة لـــه الشـــعريان
ثـم شـاب الـدجى وخـاف مـن الهجـر فطغـى المشـيب بـالزعفران
ونضــا فجــره علـــى نســره الواقـــع ســـيفاً فهـــمَّ بـــالطيران

فهي قطعة تصور هذه الليلة وسوادها الحالك مثل عروس من الزنج، تحلت بقلائد تبدو عليها وتتميز عن جسمها الأسود بألوانها، وفيها تبدو النجوم والهلال وهو يعانقها كأنهما محبان يودعان بعضهما، ثم أخيراً يأتي الفجر ويبدو بياضه الذي أصبح في نظر الشاعر شيباً للظلام الذي صبغ هذا الشيب فيما بعد بالزعفران، وهو وقت الشروق الذي يبدو فيه الأفق أصفر فاقعاً، فهذه القطعة في الحقيقة تصوير يبدو فيه الفن بأحلى صوره ومعانيه، وتتضح منه قوة التعبير في ذلك الإحساس الذي يحسّ به الشاعر وهو يصور هذا الموقف لنفسه، ثم ينطلق منه لتصوير هذه الليلة التي مرت به، وموقع كل نجم من نجوم السماء التي استحوذ الظلام على آفاقها وأرجائها، فلم يعد يرى فيها سوى النجوم التي اتخذت لكل منها موقعاً ووضعاً معيناً، ومن هنا لم يترك الشاعر

---

[1] السباعي بيومي وآخرون، وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي، مكتبة نهضة مصر، ص56.

دور كل منها، ولم يغفل حتى عن حركاتها وما فيها من خصائص تبدو للناظر لها.

وأما القطعة الثالثة فلنصير الدين الحمامي المعري[1] وفيها يصف داره فيقول:

ودار خــراب بهــا قــد نزلــت	ولكــن نزلــت إلــى الســابعة
طريــق مــن الطــرق مسـلوكة	محجتهــا للــورى شاســعة
فـلا فـرق بـين أنـي أكـون بهـا	أو أكــون علــى القارعــه
تســاورها هفــوات النســيم	فتصــغي بــلا أذن ســامعة
وأخشـى بهـا أن أقـيم الصـلاة	فتســجد حيطانهــا الراكعــة
إذا مــا قــرآت إذا زلزلــت	خشــيت بــأن تقــرأ الواقعــة

فهي تصوير هزلي لدار ينزلها وهي خراب، وتكاد بين لحظة وأخرى تنهار على صاحبها، لتصدع جدرانها وجميع أساساتها، وهي من شدة إهمالها كأنها طريق من الطرق العامة التي يمر بها العام والخاص، ولا فرق عند صاحبها بين أن يكون فيها أو يكون على قارعة الطريق، لأنها لا شيء يسترها، وهو نفسه يخشى عند سجوده أن تنهار عليه.

ففي هذه القطع الثلاث نشعر بالفن الشعري وننفعل معه من أعماقنا، لأنه يمثل الصدق الفني، وفيه من قوة البيان ومعالم الصورة الخيالية والفنية ما يشد الانتباه والفكر، ويجعل الإنسان يتذوق الصورة الفنية، وخاصة حين يتأمل في الأبعاد الحقيقية لهذه الصورة الأدبية الجميلة، لوضع الغدير في القطعة الأولى وجمال الطبيعة الذي شد انتباه الشاعر إليه حتى جعله يصور ذلك المنظر

---

[1] السباعي بيومي وآخرون، الأدب والنصوص، أمانة التعليم، ط1981/1، ص17.

الساحر الخلاب، ولوضع الشاعر وهو يصف ليلته التي داهمه فيها السهاد ولم يأخذ النوم فيها بمعاقد أجفانه، وهي ليلة لم يبد منها إلا نجومها وسوادها، فأخذ الشاعر في تفصيل وضع كل منها، وكذلك الأمر بالنسبة للقطعة الثالثة نحسّ بالروح الهزلية التي استولت على الشاعر، فأخذ يصف داره التي لا يعلم خباياها إلا هو، إلا أنه لا يحاول أن يضفي عليها غير واقعها، فهو يصورها بواقعها ليضفي عنها الصورة الحية التي تمثلها تمثيلاً صحيحاً ولتكون هذه الصورة عنواناً صادقاً على أصالة الفن الأدبي لدى هذا الشاعر، وما له من حسّ مرهف يعبر عن الإحساس الدفين بذلك الشعر الإنساني النابع من واقع الحياة[1] ومن طبيعة البيئة والحياة التي يحياها الشاعر بكل ما فيها من ميزات البساطة والذوبان في المحيط الذي يضمه.

وقد صورت هذه القطع الروح الشاعرية الحقة التي تبعد عن التكلف والقصور، فهي في سياقها وصياغتها وسبكها ولون الصورة التي أعطتها تدل بما لا يدع مجالاً للشك دلالة حقيقية على مدى عمق وأصالة هؤلاء الشعراء في مجال التصوير الفني والإحساس به والتفاعل معه، الأمر الذي يكاد يكون منعدماً عند كثير من الشعراء، وخاصة المجددين الذين أخذوا يخرجون عن عمود الشعر العربي الرصين وقوالبه المأثورة في دقة وعمق.

---

[1] انظر في هذا النسق: محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة، الدار العربية للكتاب/ 1980، ص122-124.

5. الفكر العربي واتساقه مع الفكر الإنساني

1. لا يستطيع الباحث وهو يتتبع مسار الحياة الفكرية في تاريخ هذه الأمة أن يفصل بين ما يدور فيها من أفكار وبين ما يجري على الساحة الإنسانية من نظريات وأفكار تتصل بها من قريب أو من بعيد، وهذا هو الجانب الذي منه استطاع الفكر العربي أن يسجل به الرصيد الدقيق لتاريخ الفكر الإنساني، ويأخذ منه أهم ما فيه من خلاصة يستطيع أن يواصل بها المسيرة ويقدم الإبداع والابتكار الذي برهن على ما فيه من أصالة وصدق وبعد نظر يقوم على الوعي والإدراك السديد الذي يهتم بحقائق الأشياء وجواهرها، ويبني مفاهيمه على أساسها وأساس ما فيها من دقة ونظر.

وليس هذا مجرد تصور يقوم على الخيال، ولكنه حقيقة يلمسها الدارس لتراث هذه الأمة في مختلف مراحلها التاريخية التي مرت بها، والتي ساهمت فيها بعطائها الكبير في إرساء دعائم الفكر الإنساني الذي قامت عليه الحضارة والنهضة العلمية التي لونت كل شيء في الحياة بطابعها الخاص، حتى أصبح كل ما نلاحظه ونستعين به في تصاريف شئون الحياة يقوم على العلم وما فيه من نظريات، وأصبحت الأمور العفوية التي تتم تلقائياً في واقع الحياة والمجتمع تعد غريبة وبعيدة عن المنطق وسنة التطور الذي يخضع لموازين الفكر الذي هو في الحقيقة والواقع برهان الحقيقة الإنسانية التي منها تنبثق جميع ما في الوجود من نظريات تعالج كل ما يلم به البشر من إدراك في قضايا الوجود والحياة، وميادين الفكر والمعرفة وضروب السلوك الاجتماعي والفردي، وما

يلامس ذلك كله من ظروف ومؤثرات لا يستطيع المتأمل والدارس لتاريخ هذه الأمة وتراثها أن يغفلها بقدر ما تشده وبقدر ما تدفعه إلى زيادة التعمق ومواصلة البحث والتأمل، والكشف عن كثير من الزوايا المهمة في القواعد الأساسية التي وضعها الباحثون والعلماء الذين أنجبتهم هذه الأمة الخالدة، وهم كثيرون كانت لهم اليد الطولى في تدعيم مناهج البحث وتوطيد أركان العلم والفكر في الأدب وتاريخه ونقده وطرح قضاياه، وفي الفن ومفاهيمه، وفي الاجتماع وتطوره، وفي التاريخ الإنساني العام وغيره، وفي الكفاح في سبيل الحرية والعدل والمؤاخاة بين الشعوب فوق أديم الأرض.

ففي جميع هذه الميادين وغيرها كان لرجالات المعرفة العربية الدور الكبير والأثر الخالد الذي به استطاع الفكر العربي أن يبرهن على أصالته وعمقه، ومساهمته الجادة الفعّالة في بناء الحضارة الإنسانية والنهضة الشاملة التي نمرّ بها في هذا العصر وما فيه من عطاء وجديد.

والتفاعل مع تلك المساهمات الجادة في بناء الحياة والواقع الاجتماعي هو الامتداد الطبيعي لماضي الفكر الذي قدمته هذه الأمة في فهمها لمعاناة الحياة وما لها من مطالب، وما ينبغي أن يتزود به الإنسان فيها من وسائل لتحقيق آماله وطموحه ومخططاته التي يرمي إليها، من أجل حريته وكيانه وتفهمه لكل ما حوله من أشياء وما يحيط به من حقائق، يرى لزاماً عليه الإلمام الدقيق بما فيها من معنى ومضمون، مهما كان واقعه، ومهما تقلبت به السبل والأوضاع التي يعيشها وينطلق منها في فهمه للحياة وتصوره لما يجري في دروبها من نماذج وصور يتمثل فيها الفكر ويتبين منها الصدق العاطفي والشعور الذي يبديه الإنسان نحو نفسه ونحو الآخرين الذين يشاطرونه أوضاع الحياة وظروفها، وما يكتنفها من تطور وجديد.

والأدب العربي، بنقده ومراحله التي مر بها، وبتطوره الذي تأثر فيه وأثر به استطاع أن ينقل للدارسين والباحثين من أبناء هذه الأمة وغيرهم من النماذج والصور والمساهمات الجادة في الحياة الاجتماعية وغيرها ما يعد أساساً فريداً في بابه، ومادة خصبة لإثراء الحياة الفكرية التي تهدف إلى بناء الإنسان، سواء كانت متعلقة بقضاياه الخاصة وبما يربطه بمجرى القضايا الإنسانية العامة التي يحيط بها الشمول والمطلق، في كل ما تطرحه من قواعد وأسس، وفي كل ما تعنى به من شئون في واقع الحياة والناس، أو في كل ما يتعلق بالفرض والتصور الذي لا يستطيع الإنسان فكاكاً منه، ونطلق عليه النظري المحض.

وهذا هو الجانب الذي منه استطاعت الدراسات الأدبية أن تطل على الفكر الإنساني، واستطاعت منه كذلك أن تواكب قواعد الفكر العام الذي لا يتقيد بالمكان أو الزمان، بل يسير وفق المتطلبات والحاجة التي يمر بها المجتمع الإنساني الذي يستنير بالمعرفة ويقوم على الإبداع وتتبع الأحاسيس والمشاعر المشتركة لدى كل إنسان يضمه هذا الوجود الرحب، بكل ما له من محتوى ومضمون.

ولعل أهم ما يعني الدراسات النقدية في أدبنا العربي المعاصر هو هذه الجوانب الفنية في النصوص التي تتعرض هذه الدراسات لنقدها وتقويمها بما يلائم أن تقوم به من غايات أو إيجاب أو سلب وصدق وغيره، مما تشمله تلك النصوص وتحويه من أهداف هي في الحقيقة الترجمان لمعاناة الأديب وانفعاله مع عصره وبيئته ومحيطه الذي يعيشه هو ومعاصروه، سواء كان ذلك في القضايا التي تتصل بالتراث وتعالجه، أو كان ذلك في قضايا الحياة المعاصرة التي يحياها الإنسان ويهتم بطرحها وإبداع ما يراه لها من علاج وحلول لشتى ما فيها من مشاكل وهموم.

وهذا لا يعني أن التعميم والميل إلى القاعدة هو الأساس الذي ينبغي أن تركز عليه الدراسات النقدية المعاصرة في أدبنا العربي المعاصر، كلا بل إن الاهتمام بما في الواقع الاجتماعي العربي هو المنطلق الأساسي الذي ينبغي أن تركز عليه هذه الدراسات، ولا بأس من أن تهتم بما فيه من عموميات لابد من التوقف عندها وإبراز ما فيها من خصائص لها دورها الفعال في تطور الإنتاج الأدبي، وبناء الإنسان المعاصر الذي يستطيع أن يشق سبيله في دروب الحياة المتشعبة.

يقول المتنبي[1] من قصيدة له في وصف الحمى وهي من اللون الشعري المبتكر:

وزائرتـــي كـــان بهـــا حيـــاء	فليســت تــزور إلا فـــي الظـــلام
بـذلت لهـا المطـارف والحشـايا	فعافتهـــا وباتـــت فـــي عظـــامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها	فتوســـــعه بـــــأنواع الســـــقام
إذا مـــا فـــارقتني غســـلتني	كأنــــا عاكفـــان علـــى حـــرام
كـأن الصـبح يطردهـا فتجـري	مـــــدامعها بأربعـــــة ســـــجام
أراقـب وقتهـا مـن غيـر شـوق	مراقبـــة المشـــوق المســـتهام
ويصـدق وعـدها والصـدق شـر	إذا ألقـــاك فـــي الكـــرب العظـــام

وفيها يقول:

يقول لـي الطبيـب أكلـت شـيئاً	وداؤك فـــي شـــرابك والطعـــام
ومـــا فـــي طبـــه أنـــى جـــواد	أضـــر بجســـمه طـــول الجمـــام
تعـود أن يغبّـر فـي السـرايا	ويـــدخل مـــن قتـــام فـــي قتـــام

---

[1] ديوان المتنبي، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة 1923، ص365.

فأمسك لا يطال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام
إن أمرض فما مرض اصطباري وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما ألقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

فهو في هذه القصيدة يهتم بوصف الداء الذي ألم به، وهو الحمى التي كان انفعاله بها شديد لدرجة أخذ معها يصف بدقة الأحوال التي تمر به حين تداهمه في الظلام، حتى كأن بها حياء لا تزوره إلا في جنح الظلام، بحيث لا يتمكن أحد من رؤيتها وكشفها، ومع كل ما يحاول تقديمه لها من مغريات فإنها لا تقبل إلا المبيت في عظامه، فيضيق جلده عن نفسه وعنها،ويقاسي من جراء ذلك أنواعاً متعددة من الألم والتباريح التي عادة ما يجدها العليل من وطأة الداءة، ويأتي الصباح ليطردها فتترك آثارها في ذلك العرق الذي يتصبب منه، وقد صار يراقب وقت زيارتها من غير شوق إليها، وهي لا تتخلف عن وقت مجيئها المحدد الذي اعتادت أن تزوره فيه، وقد قال له الطبيب الذي حاول علاجه: إن علتك تكمن في شرابك وطعامك، وقد فاته أن هذا الشاعر مثل الجواد الذي بقي طويلاً في الراحة والاستجمام وقد منع عن المرعى والعليق واللجام فهو حتماً يتضرر، ولكن مرض هذا الشاعر لم يؤثر في عزيمته ومضائه، وقد سلم من الحمى إلى غيرها من مستهدفات الكفاح وعزة النفس.

والمتنبي في هذه القصيدة قد صور الحمّى تصويراً بديعاً، ونقل بهذا التصوير إلى الأعماق النفسية أحساسيها وما يجري بداخلها من تفاعل وصراع مع هذا الداء الذي يأتي كأنه زائر له مواعيده وآثاره وآلامه ثم يودع ويترك آثاره.

هذا الوصف هو في الحقيقة تأكيد لما يجري في عصر المتنبي من اهتمام وتيارات تتركز على وصف المعاناة التي يعيشها الأديب شاعراً وغيره، وخاصة ما يتصل فيها بالفروسية وما يتصل بها من أسباب ووسائل، كالخيل وما لها من أوضاع، ولذا نرى المتنبي يعرج على هذا المجال الذي أخذ يتحدث فيه بصدق عن عزيمته وصلابتها، وكل ذلك ترجمة لقضايا عصره.

2 ـ والأدب وقد اتخذ من الاتجاهات في قديمه وحديثه عدة مسالك ومسارات منها ما كان مقتصراً على الدراسات اللغوية وما يتصل بها من قريب أو من بعيد، وهذا لون من الفكر سار معه الأدب العربي حقبة من الزمن كان خلالها البحث اللغوي يمثل الصورة الحية والفكرة الحقيقية لمفهوم الأدب، وبرز من خلال ذلك أناس كان لهم الصدى العميق في إرساء دعائم اللغة والأدب في تاريخ الأدب العربي، وما يزال لجهودهم الأثر البالغ في فهم الحياة الأدبية واللغوية، وذلك مثل الجاحظ، ومثل[1] أبي علي القالي والمبرد، وابن عبد ربه، وغيرهم ممن ساهموا في وضع الأسس الصحيحة للأدب والفكر العربي، وخاصة تلك المراجع التي وصلت إلينا عن طريقهم، هذه المراجع التي لاشك في أنها الدعامة الحقيقية لأصول الأدب والفكر الذي يتردد صداه بيننا، ذلك أن الفكر الحقيقي لابد من أن يستند على دعائم يستمد منها جذوره وحقائقه.

والأدب العربي دائماً يستمد من تلك الدراسات التي شملتها تلك المراجع جذوره وأصالته، لأنها لم تترك جانباً من جوانب الفكر في قضايا الحياة واللغة والفنون الأدبية إلا وأفاضت الدراسة فيها، فكتب الجاحظ حين يرجع إليها الأديب يجد فيها ضالته التي ينشدها، ويلمس منها روح الأصالة والعمق،

[1] انظر مع المكتبة العربية السابق.

والأسلوب الفريد الذي يميز شخصية الجاحظ عن غيره من الأدباء الذين عاصروه وأتوا بعده، فقد كان الجاحظ[1] صاحب مدرسة في الأدب والفكر، وساعده على ذلك سعة اطلاعه وتبحره في مختلف مجالات المعرفة في عصره، الأمر الذي جعل لآرائه قيمتها من النواحي الأدبية والعلمية، واستطاع بنشاطه الفكري أن يؤكد شخصيته في كل مجال تطرق إليه بالبحث والدرس، والرجوع إلى مؤلفاته يقطع لنا بهذه الحقيقة التي لا تحتاج إلى المناقشة والبحث، ولا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفاته لم تترك مجالاً من مجالات المعرفة إلا وتحدثت فيه بإسهاب، وهي جميعاً تعد من المصادر التي يعول عليها في دراسة الفكر العربي، ومن أشهرها كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب البخلاء، ورسائل الصحابة، ورسالة التدوير، وسواها.

والدارس لهذه الشخصية يجد نفسه مشدوداً إليها دون أن يشعر، حيث يحس بأنه أمام موسوعة علمية، فيها من الطرافة والعمق وقوة البيان ما يدعو إلى الإعجاب، وفيها من الغوص على المعاني والتدليل على الحقائق ما يجعل الفكر منسجماً مع روح الحقيقة والبحث العلمي الدقيق، وخاصة في قضايا العلم ومسائل العقل التي كان الجاحظ ينتمي إلى طائفة من مفكريها، وهم المعتزلة الذين كانوا يتزعمون الجانب العقلي من الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي وما تلاه.

فالجاحظ بالإضافة إلى أنه عالم من هؤلاء فإنه كان أديباً يمثل الموسوعية الأدبية بكل ما فيها من أبعاد ومفاهيم، وقد طغت عليه الروح الأدبية، حتى في

---

[1] محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول، الدار العربية للكتاب/1988م، ص279–310. وانظر علم البديع والبلاغة عند العرب، كراتشكو فسكي، ترجمة عبد الحميد الجيري، دار الكلمة للنشر، لبنان/ط2/ 1983م، ص67–78.

مؤلفاته التي كانت تبحث في المجالات العلمية البحتة، مثل كتابه الحيوان، الذي يجد فيه القارئ الأدب والعلم، ويجد فيه الاستطراد المسهب الذي يروح به عن نفسه من عناء البحث العلمي الذي ربما جعله يسأم لو استمر على وتيرة واحدة، وقد يستولي ذلك الأسلوب الرصين الساخر المسترسل في قوة أسره وعبارته على القارئ حتى يجره في دروبه دون أن يشعر، ودون أن يستطيع منه فكاكاً، فتأخذه طلاوة البيان وروعة العرض وعمق المعنى.

ومن هنا كان الجاحظ مدرسة اهتم بها كثير من النقاد والدارسين، واستطاعوا أن يؤكدوا أهميتها ودورها في تاريخ الفكر والأدب العربي، وأن يجعلوا منها منطلقاً للدراسات الأدبية والفكرية التي ساهمت في بناء النهضة المعاصرة، لأنها من الركائز الأصيلة لها التي يعول عليها في هذا المجال.

وقد وصف الجاحظ الكتاب وصحبته، ووصف الجلساء والأصحاب، وكتب في كل ما خطر على بال الإنسان في مسائل النقد والعلم والأدب والفن الذي كان معاصراً له، وكان لكل ذلك صداه في الأوساط الأدبية والعلمية في عصره والعصور التي تلته، وبأثر من ذلك قال الشاعر إبراهيم[1] الأسطى عمر في وصف الكتاب وفضله بمناسبة ما أهدى له من كتب:

أي شيء في حياة المرء أغلى من كتاب
يصقل الذهن ويهديك إلى نهج الصواب
ويسليك إذا ما كنت يوماً في اكتئاب
أو يسرّي عنك غماً في فكاهات عذاب

---

[1] ديوان البلبل والوتر، عبد الباسط الدلال وآخرون، مطبعة م ك الإسكندرية، ط1، 1967م، ص124.

إنـه أنفـع فـي الوحـدة مـن لغـو الصـحاب
ليتنـــي أنفقــت فـــي صـــحبته كــل شــبابي
آه قـد ضـيعت عمـري بـين لهـو وشـراب
بـــين غيـــداء وحـــوراء وخـــود وكعـــاب
وعـزوف عـن الجـد فـي جـو التصـابي
ورقيبـــي ســـجل القـــول وفعلـــي فـــي كتـــابي
مـــا مصـــيري بعـــد حشـــري؟ لســـت أدري
إن يكن في الدهر والحشر كتابي بيميني
يـا لحظـــي! فلقـد فـزت بـدنياي وديني
فـي حيـاتي أقـرع الشـك بسـلطان اليقـين
وإذا نـادى منـادي البعـث يـا أهـل اليمـين
قلـت {هـاؤم اقـرؤا} هـذا حسـابي وديـوني
فيـه مـا قـدمت فـي دنيـاي مـن فعـل ثمـين
فينـــادي ادخلـــوه فـــي ظـــلال وعيـــون
ليتنـــي قـــدمت مـــا يســـعفني أو يقينـــي
حيـرة الحشـر .. وطلقـت شـكوكي وظنـوني
آه لـــو جـــاء كتـــابي بشـــمالي
مـــا الـــذي يجـــري؟ ولكـــن أنـــا مـــا لـــي
أنـا إن ضـاقت بـي الـدنيا وهـد الهـم صـبري
لا أبـالي الهـم مـا دام كتـابي طـوع أمـري
فيــه مـا يمنـع أمثـالي مـن نظـم ونثـر
وبحسـبي أننـي أحيـا بـه فـي كـل عصـر
يـا حيـاة الـروح لا تبعـد عنهـا قيـد شـبر

عيشتي دون كتاب لا تساوي ربع صفر
هو أستاذي الذي علمني الشدو بشعري
حلني من كل قيد غل أعمالي وفكري
فغدوت اليوم كالطائر في سري وجهري
لا أبالي الغيم والرعد ولا الخاطف يسري
أنا حر .. في نشيدي وغنائي
وغنائي وحده في عزائي

فالشاعر في هذه القصيدة بين المعنى الحقيقي للكتاب ومحتواه العام، والفائدة التي يجنيها منه القارئ، وهو يبدأ القصيدة ببيان قيمة الكتاب التي لا يعدلها شيء في هذا الوجود، فهو أثمن شيء في حياة الإنسان، وهو الذي يصقل ذهنه، ويهديه إلى النهج المستقيم الذي ينير حياته ويبعث فيها الأمل والطموح، ثم هو فوق ذلك يسليه إذا كان في ضيق من أمره، ويزيل عنه الغم بتلك الفكاهات العذاب التي يضمها بين طياته، ثم هو أنفع للإنسان في وحدته من لغو القول الذي يسمعه من أصحابه حين يجتمع بهم، وفي العادة يكثر اللغو والعبث ومجاذبة أطراف الحديث، وهو ذو شجون كما يقولون، وشيء مهم كهذا يتمنى الشاعر أن يكون قد قضى شبابه في صحبته حتى يكون تحصيله منه أوفر وأجدى، ثم عقب هذا يتأوه الشاعر على تلك اللحظات التي قضاها بعيداً عن مصاحبة الكتاب، والتي ضيع أوقاته فيها بين اللهو والشراب والغيد والحور الكعاب، وعزوفه عن الحياة الجادة في جو التصابي، الذي عادة ما يصحب طيش الشباب وفورته، والرقيب العتيد قد سجل قوله وفعله في كتابه الخاص به، فهل يا ترى ما المصير الذي يؤول إليه يوم الحشر؟ ويجيب بأنه لا يدري لأن علم ذلك عند الله ﷻ. ثم تغلب عليه العاطفة الدينية فيسترسل في وصف هذا الكتاب الذي سجل عليه من قبل الرقيب العتيد، فيبين أنه إذا كان

في الدهر وفي الحشر كتابه بيمينه فإنه محظوط وقد فاز في دنياه ودينه، وهو في حياته يقرع الشك باليقين فإذا بعث الناس يوم القيامة ونادى المنادي للبعث بقوله: يا أهل اليمين .. فيجيب الشاعر وقد وثق من نفسه وما في كتابه هاؤم اقرأوا كتابي الذي فيه كل حسابي وبيان ديوني، وما قدمت في دنياي من أفعال ثمينة بذلت فيها قصارى ما أملك من جهد، وحين يسمع منه ذلك وتتضح الحقيقة ينادي أدخلوه في ظلال وعيون، وحين يحسّ الشاعر بشدة الحيرة التي يستشعرها الإنسان يوم الحشر يتمنى أن يكون ما قدمه مسعفاً له من هذه الحيرة الموجعة، ثم إنه أيضاً يفترض لو جاء كتابه بشماله، ما الذي يحصل له؟ إنه لاشك سيرتبك ويكون الموقف عظيماً وخطيراً، ولكن يستدرك ويبين أنه لا حيلة له في ذلك، فالمسألة بيد الله والتوفيق منه، والإنسان له في الله ثقة ما دام مؤمناً به وبرسوله وباليوم الآخر.

ثم بعد هذه الجولة الكبيرة والسبحات التي هام فيها الشاعر في تفسير الكتاب وما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج تكون فيها السعادة في الدارين أو الشقاء، يرجع بنا إلى وضعه مع الكتاب ومصاحبته له، فيذكر أنه لا يبالي بالهم ولا يقيم له وزناً مادام كتابه طوع أمره، يستطيع أن يتصرف فيه كيف يشاء، ويستطيع أن يكيف نفسه فيه كيف يريد، وفي هذا الكتاب ما يمكن أن يصرفه ويصرف أمثاله عن النظم والنثر من الكتابة، ويكفيه أن يحيا بهذا الكتاب في كل عصر، لأنه سجل حافل بما قدمه من أعمال تستحق الثناء، وهو حياة الروح التي لا ينبغي أن تبتعد عنه قيد شبر، لأن العيش بدون كتاب لا يساوي شيئاً، فالكتاب هو الأستاذ الذي علمه الشدو بهذا الشعر الذي يعتصره من أعماقه، وهو الذي حله من القيد الذي كبل أعماله وفكره، فأصبح بفضل الكتاب حراً كالطائر الذي ينتقل من غصن إلى آخر، ويشدو بأعذب

الألحان، فهو حر لا يبالي بالغيوم والرعود ولا البرق الذي يخطف الأبصار، ونشيده هو غناؤه وحده، وهو عزاؤه الذي ترتاح إليه نفسه ويبعث إليه الطمأنينة وكامل الارتياح إلى النتائج التي يؤدي إليها هذا الغناء.

فالشاعر في هذه القصيدة يتحدث عن سجيته حيث يبين قيمة الكتاب وفائدته ثم يتحسر على الأيام التي ضيعها بعيداً عن صحبة الكتاب، ويدخل من هذا إلى ما سجله الرقيب عليه وكيف يكون مصيره يوم الحشر، ويستبشر بأن كتابه سيكون بيمينه وأنه سيكون من أهل السعادة بذلك، ثم يلتفت بخاطره إلى الجانب المضاد الذي ربما كان الكتاب فيها بالشمال، ويترك الأمر لمن في يده الأمر، ويعود إلى الكتاب ومصاحبته وأنه بدونه لا قيمة له، وهو الذي علمه الشعر والشدو به، وأطلقه من كل قيد فأصبح لا يبالي بما يقف في طريقه، لأنه حر وعزاؤه الوحيد في نشيده وغنائه بشعره.

هذه هي الصورة التي رسمتها هذه القصيدة في أسلوب سهل وخيال أصيل يبدو منه ذلك العناء الذي تكبده الشاعر في مكافحة الحياة والظروف التي مر بها وقاسى منها ومن أصحابها المتحكمين فيها آنذاك، حتى ليحس القارئ لهذه القصيدة بأن هم الشاعر فيها هو أن يكون حراً، وأن يكون زاده في هذه الدنيا هو الكتاب الذي يبعث فيه المعرفة واليقين بقيمة هذا الوجود، وبقيمة المعاني الحقيقية التي تشتمل عليها الحياة الإنسانية بكل ما تحويه من صور وما تشمله من أهداف ومثل عليا.

ولا يحس القارئ لهذه القصيدة في أسلوبها ولغتها ما فيه وعورة أو غموض أو تكلف، بل سهولة ووضوح وعمق في المعاني التي تشملها، الأمر الذي يشد القارئ إليها ويدعوه إلى التمعن في مضمونها وما ترمي إليه، ولعل هذه الميزة

يلمسها القارئ في كل قصائد هذا الشاعر إبراهيم الأسطى عمر، التي تتميز بالسهولة والأصالة والاشتمال على الروح الشاعرية التي يبدو من أول ملامحها تلك الروح الإنسانية التي ظهرت في عصامية هذا الشاعر منذ نشأته الأولى، حيث عاش يتيماً ومسؤولاً عن أسرة كافح من أجلها وفي سبيلها، واستمرأ الكفاح في سبيل الوطن وهاجر من أجل إذكاء الروح الوطنية ضد المستعمر الغاشم، الذي حاول أن يكتم الأنفاس الوطنية بظنه أنه حين استولى على البلاد يستطيع أن يستولي على العقول، إلا أنه خاب في هذا الظن.

وجذوة الروح الوطنية لم تستكن بين أضلع الشباب المؤمنين بوطنهم وحقهم في الحياة، فالشاعر إبراهيم الأسطى عمر كان يمثل روح الكفاح، وقد سجل مواقفه في عدة من قصائده ويومياته التي بين فيها تاريخ حياته، وأطوار هجرته وما قاسى فيها من آلام ومرارة من أجل تحقيق أماني المواطنين المخلصين الذين لم يخنعوا للذل والهوان، ورغم أن قصيدته هذه التي قدمناها لم تكن إلا تعبيراً عما كان يؤمن به من الزاد العلمي والإيمان المطلق بأهمية الكتاب وخطورة دوره في مصاحبة الإنسان الذي ينبغي أن يؤمن بأن أغلى شيء في حياته هو مصاحبة الكتاب، رغم ذلك كله فإن الجهد الإنساني فيها يبدو بوضوح، ويبدو منه ذلك الظل الذي كان الشاعر يتفيأ أطرافه، وهذا هو الإحساس الذي نود أن نلمسه عند كثير من شعرائنا الذين نرى إنتاجهم ونقرأه دون أن نلمس فيه هذه المسحة الأصيلة للشاعرية ودورها في مجالي المعرفة والكفاح والتواصل الفياض الحافل بالعطاء الإيجابي.

3 ـ والارتباط الوثيق بقضايا الفكر يدفع الإنسان إلى التأمل في كل ما يقطعه ويمر به من خطوات في الحياة، لأنه لا يستطيع أن يمر مروراً عابراً في خطاه دون أن ينعم النظر فيما يلمسه ويراه من قضايا ومشاكل تعج بها الحياة،

ويستطيع التفكير أن يوجه فيها من الاعتبارات ما يجعل التركيز حولها مهما يشد الانتباه إليها، والاستفادة مما فيها من إمكان واعتبارات لها أثرها البالغ في تدعيم الفكر ونشاطه وفاعليته في توطيد أركان الحياة وتبسيط ما فيها من مفاهيم يغيب على كثير من الناس تفسيرها دون أن يكون للفكر دوره الأساسي في تخليلها وتوضيح أركانها وسبلها الإيجابية التي لا تساهم في توطئتها للدارسين والباحثين فحسب، ولكنها أيضاً تساهم في إثراء المناهج التي يتطلبها درس القضايا الاجتماعية والإنسانية التي تشغل المفكرين المعاصرين الذين يرون فيها تجسيداً نموذجياً لمشاكل الحياة المعاصرة في إطارها العام، وتأثير المسار الفكري فيها بوجه خاذ، ذلك المسار الذي لا يحتكم إلا للمنطق والفكر، وما ينادي به العلم من تطبيق في الواقع الذي يحياه الإنسان ويأخذ منه القواعد التي يعتمد عليها في حياته وسلوكه وعلاقاته وتصوره الذي على ضوئه يخطط لما يطمح إليه من آمال يراها المحرك الأساسي لنشاطه في كل ما يقطعه من خطوات هادفة وبناءة لا يفهم ما تؤدي إليه من نتائج إلا بما في القاعدة العلمية من منطق يقوم على التجربة والاستقصاء والحصر الذي ينطلق من الحقيقة ويستهدف ما فيها من مقومات يأخذ منها الفكر في جميع مراحله المعاني التي تدعوه لتسجيل ما يسفر عنها من مواقف ومؤثرات يقوم عليها التطور والحلول الإيجابية لمشاكل العصر التي يحاول الفكر التفاعل معها وتبسيط مناهجها التي تساعد على ازدهار النشاط وتتابع المعاناة التي يراها الإنسان المعاصر تماشياً مع ما فيها من عوامل وترجمة واقعية لتلك المعاناة التي لا تعبر عنها إلا الممارسة الفعلية، ومزاولة ما تحويه من أبعاد وأعماق يراها الإنسان من خلال ملامستها ومعايشتها والتعبير عنها بما يجده ويحسّه من انفعال قد لا يعطيه التعبير اللغوي حجمه بأعمق مما في التجربة والمعايشة من مضمون، وهو الأمر الذي نعده تعمقاً بعيداً في مفهوم المعاناة والتعبير عنها بما يترجمها

عملياً في الواقع الذي تتحتم مراعاته والاهتمام به وبما يحويه من عناصر الإمكان والإيجاب التي لا تتم معالجة المشاكل المعاصرة إلا على أساس ما فيها من إيجاب، سواء كانت تلك المشاكل منصبة على الجانب الاجتماعي الذي تعالجه الدارسة، أو على الجانب الفكري الإنساني الذي يهتم بالفكر وقواعده وتطوره ونقده ومساهمته في المجالات المتعددة التي لا يستطيع الإنسان المعاصر أن يكون بعيداً عنها وعن تأثيرها في نفسه وسلوكه ونظرته لكل ما حوله من معان ومفاهيم، الأمر الذي يشكل توجهه في التفكير المعاصر الذي تقوم عليه الحياة التي يسلكها ومنها تتضح أهدافه ومسارات التفكير فيها وما يمكن أن يستفاد منها من عطاء في عالم المعرفة والبناء الاجتماعي الذي يعمل على إرساء قواعد النهضة المعاصرة، وترسيخ مفاهيمها ومعانيها الإيجابية التي تزيل الغبار عما يعلق بها من غموض وإبهام لا يستطيع الباحثون معه أن يصلوا إلى ما في هذه النهضة من حقائق، وما في تلك الحقائق من فوائد للإنسان الذي يستظل بظلالها، ويحاول أن يواصل النشاط لاختراق ما فيها من حجب يحسّ بها ويرى فيها المانع والفاصل الذي يفصله عن جوهر الحقيقة التي يرغب إدراكها والوصول إليها بشتى الوسائل والسبل، مهما لاقى من مشقة وعنت، ومهما تكبد من ضروب البذل والإجهاد.

والنهضة المعاصرة التي يتابع الإنسان مسارها ويحاول أن يصل إلى أبعادها وأسبابها، ومعرفة جذورها هي الشغل الشاغل للدراسات العلمية التي تعنى بالإنسان ومعارفه، وهي الأساس لكل ما نحاول الوصول إليه من جديد في مختلف مجالات الفكر الإنساني المعاصر، وقد ساهمت إلى حد كبير في التحول الفكري الذي تمر به الإنسانية في هذا العصر، وخلق أنواع وأنماط عدة من أساليب التجديد التي يفسر بها الإنسان في كل مجتمع وبيئة ومحيط ظواهر

الحياة ومظاهر الطبيعة، وعناصر السلب والإيجاب التي تواكبها، وهي تحرك الإنسان وتحف به وتؤثر في كل ما يجري داخل مجتمعه من مؤثرات وتيارات[1] تصطبغ بها الحياة وتبدو في كل ما تفرزه من إنتاج فكري وأدبي وفني نعده لوناً من ألوان الفكر وصورة صادقة لما يعالجه من قوالب لا تتم النهضة التي تعايشها إلا بها، ومن ثم نأخذ في التعلق بها وبما تحدثه من أصداء وجودة في الصياغة والمناهج والأساليب التي ربما تبعدنا عن النقد والتقويم لما فيها من قصور لا نشعر به إلا من خلال الواقع والممارسة الفعلية، فالتفكير وتطبيقه على المشاكل والقضايا المعاصرة هو الأساس المتين الذي تقوم عليه النهضة والبناء السليم لأركانها وشروطها ومقوماتها وجوانب الإيجاب فيها.

ولا يعني التفكير في المشاكل والقضايا المعاصرة هنا مجرد الاهتمام بها، بل يعني الغوص في أعماقها وأسبابها ومسبباتها، والنتائج التي ترتبت عنها، وأدت إلى الواقع الذي تمثله شكلاً وموضوعاً، وهذا حتماً سيدفع التفكير إلى المقارنة والتتبع والدراسة وتجنيد الإمكانيات المتاحة لتذليل العقبات التي قد يصادفها التفكير في سبيل الوصول إلى الأهداف التي يرمي إليها ويحاول من خلالها أن يؤكد النظرة التي يراها في بعض المشاكل والقضايا والمواقف العامة أو الخاصة، التي منها تتضح التيارات والعوامل التي ساهمت في خلق المشاكل التي تدور في المجتمع المعاصر الذي نعده المجال الفسيح للتطبيق العملي والنظري لما نقوم به من دراسة ميدانية تكون حصيلتها ما نحسّ به من نهضة شاملة في المجتمع ثقافياً وأدبياً وفنياً وغيره.

---

[1] انظر: بدوي طبانه، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ط1963/1م، مكتبة الانجلو المصرية، ص411.

والنهضة المعاصرة في هذا الصدد أيضاً تعني التقدم الشامل في مختلف مجالات الحياة المعاصرة وميادينها الفسيحة التي تواكب ما في العصر من تقدم تقني وعلمي وفني، تفك به مغاليق ما في الكون من أسرار استطاع العلم أن يصل إليها ويؤكد الحقائق التي قررها على ضوء ما كشفه من قوانين، ودعمه من قواعد، أصبح الإنسان المعاصر منقاداً إليها برغبة واختيار وارتباط شديد.

وهذا في إطاره العام يؤكد لنا أن النهضة المعاصرة التي نواكبها تقوم على العلم والفكر وتساهم مساهمة فعالة في تدعيمهما وتوطيد أركانهما بما فيه فائدة الإنسان وتنمية مداركه وقدراته التي متى وظفها استطاع أن يستفيد من التقدم والنهضة المعاصرة أكثر، واستطاع أن يصل إلى الحلول الإيجابية للمشاكل المعاصرة التي يمارسها آنياً.

ومن المشاكل العربية المعاصرة التي لعبت دوراً خطيراً في واقع الأمة العربية الفرقة والشقاق والابتعاد عن الوحدة التي هي القوة الحقيقية الدافعة لكيد الأعداء والحاقدين، الذين لا ينفكون عن التربص بهذه الأمة والنيل منها متى ما أمكنهم ذلك.

هذه المشكلة الخطيرة أدرك فداحتها الأدب العربي وهو يدرس واقع الأمة وواقع ما فيها من مشاكل يحاول أن يوجد لها الحلول العملية التي تساهم في نهضة هذه الأمة والتخلص من مشاكلها التي تعانيها، وخاصة هذه المشكلة التي أنهكتها وبددت إمكانياتها ومكنت أعداءها من النيل منها، وما تعانيه في هذا العصر من كوارث ما هو إلا إفراز لهذه المشكلة التي استشرى داؤها، يقول الشاعر أحمد الشارف في هذا الصدد:

يا معشر[1] الأقوام هل من نهضة
وحمية يا معشر الأقوام

أجهلتم أن الدسائس بينكم بلغت بها الأعداء كل مرام
طرقت عقولكم طوارق غفلة أم نمتم والقوم غير نيام
أم فضل دينكم ونور يقينكم غطت عليه وساوس الأوهام
تالله ما كتب الرباط عليكم إلا لحفظ روابط الأحكام
إنا لنرضى بالتنازع شيمة لو كان أمر تنازع وخصام
لكنه خطب تدق وراءه قنن الجبال وشمخ الآكام
ولئن تفرق جمعكم أيدي سبا وبقيتم هملاً بغير إمام
فلقد شقيتم واستراح عدوكم من كل مقدام وكل همام
وإذا سرى داء الشقاق أضركم وشفى عدوكم من الأسقام
عدم اتفاق اثنين أنفع للعدا من ألف قنبلة وألف حسام
إن تسلموا يوماً فرب سلامة رجعت عواقبها إلى الآلام

فقد ساهمت عدة عوامل في تراكم هذه المشكلة وتأثيرها في واقع أمتنا العربية التي لا تستطيع أن تبني نهضتها الحقيقية إلا بتوحيد صفوفها والانتباه للدسائس التي تحاك حولها، وتعمل على تشتيتها وتفرقها.

وقد أدرك الأعداء من كل حدب وصوب ما تملكه هذه الأمة من إمكانيات لو تم توحيدها لما استطاعت قوة فوق البسيطة أن تقف في سبيلها، وقد أدى ذلك كله بالأعداء أن يبذروا بينها الشقاق ويعمقوا جذوره بين أبنائها، وأن يتخذوا

---

[1] الشارف دراسة وديوان، علي مصطفى المصراتي، المكتب التجاري ببيروت، ط1963/1م، ص82.

من العملاء والذيول والصنائع التي تنفذ تعليماتهم وتحافظ على مصالحهم التي تستنزف كل ما لدى هذه الأمة من إمكان.

والجدير بالملاحظة والدراسة أن الكوارث التي حلت بهذه الأمة لم تزد أولئك المندسين بين صفوفها إلا تشبثاً بأفكارهم الهدامة التي لا تخدم إلا الاستعمار وذوي النفوس المريضة، التي لا تهمها إلا مصالحها الشخصية الخاصة، وهم وإن حاولوا تضليل الرأي العام، فإن الأمة العربية ترصدهم وسوف لن يفلتوا من العقاب، فالوحدة آتية ومهما حاول الأعداء ونكلوا بشعوب هذه الأمة وأوطانها فإن يوم الخلاص قريب، والقضاء على مصالحهم وضربها شيء أكيد.

وما نحسّ به من آلام وفواجع وضربات قاصمة في قلب أمتنا في هذه الأيام ما هو إلا نتيجة حتمية للفرقة والشقاق، ولكي نكون صادقين لابد من مجابهة الواقع والتصدي لما نعانيه من تفرق وتشتيت حتى تقوم النهضة المنشودة.

4 . والدراسات الأدبية باعتبارها لوناً من النشاط الفكري حين تهتم بالجانب الاجتماعي من الحياة الإنسانية وتتناول فيه مختلف الألوان التي يضمها هذا الجانب، إنما تكون بذلك قد كشفت النقاب عن بعض المناحي التي يتركز النشاط الفكري عليها أكثر من غيرها، وساهمت بفاعلية وجد في دفع روح البحث والانطلاق بمرونة في تفسير المفاهيم والظواهر التي يتكيء عليها الناس في اتصالهم وارتباطهم بمنابع الإلهام وعوامل التفكير التي تثير فيهم المعاني الشاملة التي تعالج مختلف المشاكل والقضايا التي تدور في الأوساط التي يحيونها، ومنها تنطلق الألوان الاجتماعية والفنية وغيرها،

وعلى أساس تكون النظرات التقويمية التي توزن بها الأفكار، والخطوات التي يقطعها الدارسون والباحثون في هذه المجالات، وما تتطلبه من إسهاب وتتبع وعمق، يتطلب الاهتمام بكل ما يتصل بواقع الحياة الاجتماعية التي تنبع منها الصور والنماذج والوقائع والأحداث التي تشكل الظواهر والألوان التي ننظر لها من الجانب الاجتماعي حيناً، والجانب الأدبي والفني وغيره أحياناً أخرى، مما يدعونا إلى ضرورة الارتباط بالنظريات العلمية وما يتصل بها من المناهج والقواعد والأصول، كي تكون افتراضاتنا التي نطرحها في دراسة هذه الجوانب منطقية ومبنية على القواعد التي يعتبرها الفكر أمراً مسلماً ومقبولاً.

ذلك أن الأساس في فتح آفاق مختلف الدراسات وإثرائها هو الافتراضات التي تثار في تيارها، وما تقتضيه من تفهم ومناقشة وانتباه، ومحاولات مختلفة ومتعددة في شتى الاتجاهات للوصول إلى كثير من الحقائق التي تثيرها تلك الافتراضات بما فيها من فاعلية وعمق وآثار جادة في التعامل مع الخطوات التي يسيرها الفكر المعاصر وتقطعها الدراسات الحديثة والمتطورة التي تنطلق مع الواقع المعاصر الذي يوائم بين النظر والتطبيق، والواقع العلمي الذي ينطلق من منطق التجربة وما يلمسه الإنسان وهو يمارس الحياة ويتفاعل مع ما فيها من إمكان وملابسات لا تقف به عند مجرد التصور والافتراض، بل تجذبه إلى مواصلة الاهتمام والبحث في تأكيد وفهم نتائج الدراسات التي تمليها تلك الافتراضات وما يتصل بها من نشاط وجهود مبذولة على شتى الاحتمالات والأصعدة، ذلك أن قيمة النتائج التي تتوصل إليها مختلف الدراسات التي تقوم على تلك الافتراضات تكمن في الروح الجادة التي يبادر بها الباحثون والدارسون ومن يسير على مناهجهم من المقومين والمهتمين بجوانب المعرفة ومجالاتها وآفاقها المتباينة والواسعة الفسيحة التي تمكن الإنسان المتأمل من

الولوج إلى عدة أصول ومتفرعات من ألوان النشاط الفكري التي تعني بالذوق والمنطق والواقع، وتحاول أن تنمي في الآفاق الاجتماعية أحاسيس الإصلاح ودوافع الإيجاب المبدعة التي تأخذ الأمور من جذورها وتتعامل مع الواقع بما فيه من مقومات لا يتحقق إصلاحه وتقويمه إلا على أساسها، وما تستطيع أن تعكسه من مؤثرات وحوافز يراها الدارسون من المناهج الفاعلة في إزالة مختلف العقبات من طريق الإصلاح والبناء الفكري والاجتماعي الذي يوافق الحياة المعاصرة ويساير ما فيها من جديد دافق بالحركة والتطور والإمكان العميق الذي يرتكز على ما في العلم وقواعده من كشف متواصل تأخذ منه مختلف الدراسات المعاصرة في مختلف شؤون المعرفة حداثتها وحيويتها وواقعيتها ونظرتها الموضوعية التي تبعدها إلى حد ما عن الخيال، وتربطها بالواقع بكل ما فيه من صور وألوان هي كل ما يراه العصر من جديد نعده في جميع إطاراته ومختلف ما يبعثه من تطور وتصور تحولاً جاداً ونقلة نحو ما هو أفضل، ونحو ما يتطلبه العصر من أصالة وتجديد مدعم بروح العلم والبحث والاكتشاف القائم على الحقيقة الشاملة بكل ما تحمله من أبعاد، وما تحويه من مضامين يراها المفكرون الأساس الذي تقوم عليه الحياة المعاصرة التي تتحرى الدقة المتناهية في خطاها التي تقطعها وهي تسير بالإنسان بمختلف مواقعه وبيئاته وأفكاره نحو أهدافه التي يؤملها ويراها من خلال ما يجري في العصر من تيارات ورغبات متداولة بين الناس الذين يعنيهم ما في المعاصرة من جديد، وما في الواقع من موافقة وتناقض مع هذا الجديد الذي ربما دفع بالدراسات الفكرية إلى مسارات وآفاق متعددة ومتباينة كلها تؤدي في النهاية إلى البحث عن عوامل هذا الجديد ومؤثراته، وما يمكن أن يترتب عليه من تغيير في التعامل والمفاهيم السائدة بين الناس الذين لا يقف بهم التساؤل والاهتمام عند الوقوف على ذلك المجال بكل ما يحويه من عناصر التأثير في آفاق الحياة،

ولكنه يدفعهم بكل جدية إلى الاستنباط والاقتباس من الآفاق المتشابهة لتفسير هذا الجديد وتحديد أبعاده وفهم أسبابه ودواعيه، بما يرونه منطقاً وقاعدة تسير بها الحياة في العلاقات والمعاملات والسلوك، وتفسير الظواهر الاجتماعية والكونية بما يتفق وروح العصر في إطاره العلمي والعملي والتقدمي الذي تشرئب إليه الأعناق، وتتوخاه همم الباحثين والدارسين الذين يوالون التأمل والاهتمام في هذه السبل لينطلقوا منها إلى مجالات التطبيق وتقرير القاعدة، واعتماد المناهج التي تقود إلى الحقيقة وتفسير أبعادها، وما فيها من إيجاب يتوخاه البحث والدرس فيما يهدف ويتوخى.

يقول الحصين بن الحمام[1] المري أحد الشعراء الجاهليين متحدثاً عن نفسه وقومه في أسلوب عرفه العصر الجاهلي وأكده بغرسه لروح الفرسية واحترامها:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
ولما رأيت الصبر قد حيل دونها ... وإن كان يوماً ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
تفلّق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الحب ليس بنافعي ... عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة ... ولا مرتق من خشية الموت سلما

فهو هنا يتحدث عن الواقع الذي كان يعيشه في العصر الجاهلي، ذلك الواقع الذي يمجد البطولة ولا يرهب الموت في سبيل العزة والكرامة وصون

---

[1] محمد عبد الرحمن العبيدي، التذكرة السعدية في الأشعار العربية، الدار العربية للكتاب، ص59.

العرض، ولو كان المواجه قريباً وعزيزاً، لأن الحياة الكريمة لا تباع بالذلة والهوان، والموت مهما بعد عنه الإنسان فلابد أن يدركه ولو ارتقى سلماً من خشيته.

والمواقف التي يفرضها الواقع على الإنسان تحتم عليه أن يكون صبوراً مقداماً لا يتراجع إلى الوراء حتى لا تدمى جروحه من الأعقاب، وصبره في تلك المواقف دليل على تمكنه من أعدائه ومجالدته لهم في عنف وقوة وإمعان في الضرب والتقتيل، وبالتالي انتصاره الباهر الذي لا يرد، وبذلك يسجل عزته وبطولته التي يعدها من المفاخر التي يفتخر بها ويتخذها أساساً لمجده وذكرياته الخالدة التي يتغنى بها الركبان ويتباهى بها الأبطال الميامين، الذين تشرئب أعناقهم لمثلها ولما فيها من أمجاد يعدها الباحثون عن الشجاعة والإقدام من العناصر الثرية التي تزودهم بما هم في حاجة إليه من الإلهام والإرشاد في مواقف البطولة ومواطن الشجاعة والإخلاص والإباء.

وهذه النظرة التي نلمسها في هذه القطعة من الشعر الجاهلي تعكس في نفوسنا عدة معان واعتبارات، في مقدمتها الإيمان بالحياة الفاضلة الكريمة التي لا يشوبها التعكير بالذلة والهوان، ففي سبيل العزة يهون كل شيء في هذا الوجود، ومن هنا كانت النظرة للحياة بعيدة عند الناس الذي يحسّون بوجودهم ويدركون بأن لهم رسالة في هذه الحياة، وعليهم أن يؤدوها ويؤكدوا مفاهيمها بما يتعارض مع الذل والهوان، ويتفق مع الصبر والتضحية والفداء في سبيل الواجب، وترسيخ معانيه في جميع الأوساط التي تتعامل مع الحياة على هذا النطاق الذي يقوم على البذل والعطاء ونكران الذات، ومواصلة الجهود التي تربط الإنسان بهذا الواقع الذي يعيشه قدراً ومصيراً محتماً حتى يلتحم مع

الصورة التي تجسدت أمامه، وفي تصوره لكل ما في تلك الحياة من أحداث وأبعاد هي المحور الذي يدور في إطاره.

وليست الصورة التي تصورها أبيات الحصين هذه إلا لوناً من ألوان النشاط الفكري في إطاره الاجتماعي، الذي بدراسته وتسليط الضوء عليه نصل إلى كثير من الفروض التي تكشف لنا صدق بعض النظريات العلمية التي لها صلة بالتراث وتحليل ما فيه من محتويات لها دورها الفاعل في تفسير ما نلمسه من آثار لبعض الظواهر الأدبية والفنية وغيرها من ألوان الفكر ونشاطه القريب والبعيد، وهذا التوجه يعطينا الدليل على أن جوانب المعرفة وتطلعات التفكير الإنساني في كل عصر لها دورها الأكيد في ربط الأحداث والوقائع بأصولها التي ينطلق منها الفكر والبحث ومواصلة النشاط الإيجابي.

5 ـ ولابد للدارس للفكر الإنساني من الرجوع للأوضاع الاجتماعية والتأمل فيها ومقارنة ما تحمله من إمكان ومقومات يستمد منها ذلك الفكر ما هو في حاجة إليه من الصور والشرائح التي توضح مسيرته وتمهد سبيله.

والتأمل في الأوضاع الاجتماعية التي تلامس الفكر يسير في عدة محاور، بعضها يركز على الأفراد الذين يسيرون تلك الأوضاع ويؤثرون فيها ويحاولون دائماً أن يكون زمام الحركة الاجتماعية بأيديهم، وهم يختلفون من حيث التفكير والقدرة على تحمل أعباء تلك الأوضاع، إلا أنهم جميعاً الأقطاب التي تدور حولها الأحداث التي تحرك الأوضاع الاجتماعية بكل ما فيها من ألوان ونشاط وحيوية وفاعلية في الحياة الاجتماعية، التي لا تؤكد للفكر الإنساني أسسه وقواعده فحسب، ولكنها تعمق جذوره وأصالته، وتدفع به إلى الأمام، وتحتم على التحرك الاجتماعي في أي اتجاه التقيد، بما فيه من التزام وقوانين.

وتسلك بعض المحاور الأخرى التأملية في الأوضاع الاجتماعية سبيلاً أخرى تتركز على الاهتمام بما في الواقع من إنجاز وتطبيق عملي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، دون النظر لما يتميز به بعض الأفراد، فالإطار العام هو المستوى العام الذي تصل إليه الأوضاع الاجتماعية من الوعي والتقدم والتحول الإيجابي الذي يسبغ على الحياة الاجتماعية والإنسانية ما هي في حاجة إليه فعلاً من العطاء والنماء.

وهو ما نعده تفاعلاً وحيوية متواصلة يحركها الفكر ويغذيها ما في الواقع الاجتماعي من صدق وإيمان بالفكر وقضايا الإنسان في كل مجال يتقلب فيه، ويتخذ منه السبيل التي يراها ملائمة له، وهو يقطع مسيرته نحو أهدافه في الحياة التي بها يؤمن ويرى فيها المثل الذي يحتذيه ويتخذ منه الحوافز التي تدفعه للنشاط والمشاركة في الأحاسيس والمشاعر والعواطف التي يتخذ منها الدارسون والمقومون القواعد والنماذج والمستخلصات التي يصلون بها إلى أعماق ما يدور في الحياة الاجتماعية من مؤثرات وعوامل تشكل ما نلمسه في الأوضاع الاجتماعية من فكر وإنتاج ومعاناة يترجمها كل ما يجري بين الناس من أخذ وعطاء وتصرف في الواقع الاجتماعي الذي يضمهم أو ينتمون إليه، وتحمل مفاهيمه كل ما يصدر بينهم من تفاعل ونشاط وحيوية.

وسواء سارت محاور التأمل في المجالات التي تتركز على الأفراد، أو المجالات التي تتركز على الإنجاز، فإن الشيء المهم في هذه الآفاق هو المدى الذي استطاعت الأوضاع الاجتماعية أن تصل إليه من التفكير والمعرفة والوعي العميق بالأحاسيس الاجتماعية المختلفة، والمحفزة على الطموح للمستقبل الذي تبني عليه الأجيال وتحقق به الآمال الكبيرة التي تعقد عليها الأمم والشعوب مصائرها، وتفسر بها أحلامها في كل حين، فإن ذلك المدى هو

بيت القصيد في نهاية البحث والدرس، وهو الذي تتوخاه الأفكار الرائدة التي تستبطن الأوضاع الاجتماعية وتدرسها بعمق وفاعلية، وهذا لا ينافي أن تتركز محاور التأمل في الأوضاع الاجتماعية على الأفراد والإنجاز في آن واحد، لأن هذا الاتجاه في التركيز هو المطلوب، فالربط بين الأفراد والإنجاز ما هو إلا توثيق للصلة بين الأثر والمؤثر، الموضوع الذي لابد للبحث من التطرق له، وهو يتناول قضايا الحياة ومقومات الأوضاع الاجتماعية التي يعنى بها الدرس، ويحاول المفكرون أن يصلوا إلى ما فيها من أبعاد.

ومهما توالت الدراسات التي تتناول الأثر والمؤثر في هذا المجال، فإنها لا تستطيع أن تؤكد آثارها في الواقع الاجتماعي الذي هو جزء مما في الحياة والمجتمع من أوضاع، إلا بالفكر وقواعده، وتحليل ما يؤدي إليه من إمكان بالمتابعة حيناً، وبالتأمل والمقارنة حيناً آخر، لأن الاعتماد على الفكر في الخطوات التي تقطعها الدراسة في مختلف قطاعات الحياة هو الشيء المنطقي الذي يتفق وطبيعة الأشياء، ويوافق ما في العصر من تطور لا يقوى على البقاء إن لم يبن على الفكر وأصوله الثابتة التي تقوم على الدقة والاستقراء، وما في الحقائق من جوهر، ومن هنا تأتي الأهمية البالغة للتفكير وتطبيقه في الدراسات الاجتماعية وتقويم الأوضاع التي تترتب عليها من حيث الواقع وما ينبغي أن يواكبه من جهود بناءة في عالم الفكر وتطبيقاته المنهجية والفنية وغيرها، مما يزيل الغبار عن كل ما يكتنف الأوضاع الاجتماعية من غموض وإبهام يعوق مسيرة التقدم والنهضة، التي يحاول الدارسون والمفكرون أن يحققوها بما يبذلونه من جهود في مجالات الفكر والمعرفة، التي يتخذونها المقياس الثابت والصحيح لما تصل إليه المجتمعات الإنسانية من التقدم

والتطور والرقي والإحساس بضرورة تطبيق الفكر ونظرياته، ومواكبتها ومتابعة ما فيها من جديد باعث على التأمل والوصول إلى ما هو أفضل.

وهذا الاتجاه يشدنا إلى الموازنة بين أنواع الإنتاج الفكري في الأدب والفن والعلم وغيره، حيث تختلف مقادير السمات الفكرية فيها من نوع إلى آخر، وبمقدار هذا الاختلاف تكون النظرة إليها، ويكون الاهتمام بها من حيث ما فيها من إيجاب أو سلب في بناء الحياة الاجتماعية وأصولها، يقول الشاعر أبو الحسن بن الجد أحد الشعراء الأندلسيين في وصف ملوك الطوائف والأوضاع التي كان عليها الأندلس في عهدهم الغابر:

في كل يوم غريب فيه معتبر — نلقـــاه أو يتلقانـــا بـــه خبـــر
أرى الملـوك أصــابتهم بأنـدلس — دوائــر الســوء لا تبقــي ولا تــذر
قد كنت أنظرها والشمس طالعة — لـو صـحّ للقوم فـي أمثالها النظـر
نـاموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
هــوى بـأنجمهم خســفاً ومــا شــعروا
وكيـف يشـعر مـن بكفـه قـدح — تحـدو بـه مـذهلات النـاي والـوتر
صـمت مسامعه عن غير نغمته — فمــا تمــر بــه الآيــات والســور
نلقاه كالعجـل معبـوداً بمجلسـه — لــه خــوار ولكــن حشــوه خــور
وحولـه كـل مغتـر ومـا علمـوا — أن الـذي زخرفـت دنيــاهم غــرر

بعد أن بنى المسلمون ببلاد الأندلس حضارة ومجداً ما تزال آثاره تشع على البشرية، مروا بمرحلة من التفكك والوهن، وكل حاكم في ولاية منها استقل بها عن الأخرى، واشتد بينهم الصراع، وعدوهم الحقيقي كان يتربص بهم ويراقب ذلك عن كثب، وحين حانت ساعة الوثوب والقضاء عليهم لم يتردد لحظة واحدة، الأمر الذي أدى في النهاية إلى أفول نجم الحضارة الإسلامية العربية

وانحسارها من تلك البقاع التي مازال التاريخ يعيد مساهمتها وجهودها في بناء الإشراق والتقدم الإنساني بكل إعزاز وتقدير.

وتلك المرحلة من التاريخ تعرف لدى العرب المسلمين بمرحلة ملوك الطوائف، وفيها كان الواقع الاجتماعي متناقضاً، فيه اللهو والعبث والمجون، وفيه الجد والدراسة والبحث، والمجتمع فيه كان متألفاً من شرائح فيها العلماء والمفكرون، وفيها المنتجون في الزراعة والصناعة وغيرها، وأما الحكام فكان لهم وضعهم الخاص، حيث كانت مجالس اللهو والعبث هي السمة البارزة التي تميزهم، وكان الواحد منهم تحيط به عصابة من المغترين، تزين له ما هو فيه من العبث والضلال والجري وراء المتع بكل ما فيها من أنواع الإسراف والفساد، فناموا جميعاً وصمت آذانهم عن غير ما هم فيه من أدوات اللهوو الطرب، حتى أسرى لهم في ذلك الظلام الدامس قدر هوى بهم جميعاً، وكانوا بذلك سبباً في انحسار العروبة والإسلام من تلك الديار، بعد أن خلدوا من الحضارة وبناء الفكر ما تعده البشرية في تاريخها الطويل نقلة فاصلة بين جميع المراحل التي طرقها الفكر الإنساني على اختلاف مناهجه وأنواعه.

هذه خلاصة ما تشير إليه هذه القطعة التي سقناها من شعر أبي الحسن ابن الجد، وهي في إجمالها أيضاً تعكس الصورة التي كانت تمر بها الأوضاع الاجتماعية في تلك الفترة من التاريخ، تلك الأوضاع التي كان التناقض فيها يمثل الواقع الاجتماعي ويؤكد ما تقوم عليه الحياة الاجتماعية، وكان نتائج ذلك كله تلك المآسي التي تجرعها العرب والمسلمون على أيدي أعدائهم الصليبيين الذين لم يراعوا فيهم إلاً ولا ذمة، بل أعملوا فيهم القتل والإبادة والتشريد بدون هوادة ولا رحمة ولا شفقة ولا ضمير.

وحين نستعيد هذا ونحاول مقارنته بالأوضاع الاجتماعية التي يمر بها العرب والمسلمون في الحقبة المعاصرة من التاريخ نستعيد القول: ما أشبه الليلة بالبارحة.. وكأن التاريخ يعيد نفسه، فأولئك الذين ندعوهم بولاة الأمور في واد، والشعوب التي يحكمونها في واد آخر، والواقع العلمي يتطلب الجد والبناء المتواصل، الذي يؤمّن المستقبل ويدعم القوة الحقيقية لأمتنا، حتى تلقن أعداءها الدروس التي تستحقها وتعيد أمجادها بجدارة، ولكن حين يغيب التفكير السديد والنظرة الموضوعية المخلصة وتغلب الأهواء وتنقلب الموازين، وتصبح الأوضاع الاجتماعية مهزوزة وغير متناسقة، فإن كل ما هو متوقع يحصل، وما لا هو متوقع في الحسبان يصير واقعاً وملموساً.

6 ـ وحين يحاول الإنسان أن يتأمل في مجالات الفكر الإنساني يجد أمامه متسعاً هائلاً من الآفاق الجديرة بالاهتمام والدراسة ومتابعة التفكير، فالعلاقات الإنسانية في مختلف مراحل التاريخ استطاعت أن تلعب دورها الخطير في مجرى التاريخ، وأن تعمق من الجذور والمبادئ الأساسية التي تعارف عليها الناس الشيء الكثير الذي مازال المجتمع الإنساني يسير على هداه، وما فيه من آثار في جوانب الحياة التي يعالجها وتحاول الأفكار الإنسانية بمختلف ألوانها واتجاهاتها وأصولها وفروعها أن توضح ما فيها من أبعاد وألوان استطاعت أن تؤكد من المعاني المحفزة على التطوير والإبداع بالقدر الذي يتناسب والمستوى العقلي الذي يصل إليه الإنسان في كل عصر.

والدراسة الجادة مهما أوتيت من الإحاطة والدقة والإيجاب في مجالات العلاقات الإنسانية فإنها لا تستطيع أن تستوعبها، ذلك أن الاستيعاب الكامل لا يتم إلا في فترات طويلة من الزمن، قد تختلف فيها القواعد والموازين تبعاً للتطورات الفكرية التي تجد على الفكر والمجتمع الإنساني في مسيرتهما

الطويلة، وتبعاً لذلك التطور تختلف نظرات الباحثين والمفكرين في أهمية الجوانب التي يتعرضون لها من تلك العلاقات وما فيها من مواقف واعتبارات ومفاهيم لابد من فهمها والوقوف على ما فيها من أبعاد، حتى يستطاع التوصل إلى ما في العلاقات الإنسانية من فوائد تعود بالتساوي على المجتمع الإنساني في تنظيمها وتنسيقها وتكييفها بالوسائل التي يمكن أن تساهم في خدمة الإنسان وبعث الطمأنينة والتجاوب بين أفراده الذين يجسدون تلك العلاقات تجسيداً واقعياً يخلصون من ذلك إلى النتائج التي يلمسونها ويحسّون منها بأهمية الدور الذي تلعبه العلاقات الاجتماعية بين البشر في شتى الميادين والآفاق.

ومن المهم في هذا الصدد أن يشار إلى الاتجاهات التي اتخذتها الكتابات في هذا المجال، فهي كثيرة، بعضها يتركز على الأحداث التي وقعت وكان لها تأثيرها بين الناس، وقد سجلها التاريخ واهتم بها، واتخذها مادة من مواده الأساسية التي دارت حولها الرواية والدراسة والتحقيق في جميع مجالاته وقواعده ونظرياته، وبعضها الآخر سلك سبيلاً أخرى فعني بالأماكن والمدن ومسارح الأحداث وما ارتبط بها من آثار وذكريات وأشخاص وملاحظات في عالم التعامل والصلات الاجتماعية، وانطلق منها إلى دراسة الأوضاع الاجتماعية والعمران وطبيعته ومقوماته المادية والبشرية وغيرها، مما له صلة وارتباط بالعلاقات الإنسانية في مسرح الحياة ومسلك التاريخ بما فيه من قديم وحديث، وبما يحمله من إجمال وتفصيل في جميع ما يستطيع الفكر أن يعالجه من القضايا التي يهتم بها الإنسان ويعني بها الفكر في مناهجه وأساليبه ونظرياته التي تختلف حسب الاعتبارات والمضامين التي تنطوي عليها وتحويها وتحملها في خطواتها التطبيقية وبرامجها العملية التي تعدها الدراسات في مختلف عصورها نهجاً حياً لما في العلاقات الإنسانية من إمكان مؤثر في الحياة

وأساليب التعامل معها في كل موقع يجد الفكر فيه أهدافه التي ينشدها واتجاهاته التي يتوجهها من أجل البحث والتنقيب والتأمل، وفي كل ذلك تتجلى للدارسين الكتابات التي عنيت بالمناحي الإنسانية التي كان للعلاقات الإنسانية والاجتماعية الدور الفاعل فيها وفي الأصالة النابعة من خلال الأفكار التي طرحتها على الساحة الدراسية التي يهمها ما تعكسه الصلات الاجتماعية من أبعاد في الفكر والفن والاجتماع والمعاناة الأدبية في جميع صورها ونماذجها وترجمتها التي تحاكيها ويراها المفكرون والأدباء منهجاً وسبيلاً لفهم الواقع الاجتماعي الذي تنطلق منه الأفكار والدراسات التي لا تعالج هذا الواقع فحسب، ولكنها تهتم بمسار الأحداث التي تغير وجه الحياة بكل ما فيها من مفاهيم، وبكل ما يدور حولها من اهتمام ومعاناة لكل ما يتعلق بها من هموم يترجمها الإنتاج الفكري بألوانه التي نراها في البحوث العلمية واكتشافاتها وما توصلت إليه من مبتكرات في عالم التجديد والمعرفة، وفي القصائد الشعرية والمقالات المتنوعة والقصة والرواية، والنظريات النقدية التي تدور حولها وتحاول أن تبرز ما فيها من مضامين، وفي الفن وما فيه من قوالب وأنواع تعكس الأحساس العميق بالذوق وعمق الجمال ودوره في تبسيط المناهج التي ينبغي للإنسان أن يسلكها في مسيرته مع ركب الحياة الذي لا يتوقف، وتلعب فيه العلاقات الإنسانية والاجتماعية دورها الإيجابي الذي يمكن الدارسين من الوقوف بدقة على الأبعاد الحقيقية التي يستطيع الفكر أن يساهم بها في توطيد هذه العلاقات بين الناس في جميع المجتمعات الإنسانية التي هي في حاجة في كل عصر إلى توكيد الصلة النقية بين البشر، حتى يتعاونوا على خلق المناخ الذي يجعل الصلة بينهم قائمة على الاحترام والود المتبادل الذي يشعر منه الناس أن مهمتهم في هذه الحياة ليست مجرد الإحساس بأعبائها، ولكنها أبعد

من ذلك بكثير، حيث تتعلق برسالتهم فيها وما ينبغي أن يؤدوه من واجب نحو أنفسهم ونحو الآخرين الذين يشاركونهم فيها.

جاء في وصية عبد الله[1] بن شداد لابنه قوله: عليك بتقوى الله العظيم وليكن أولى الأمور بك الله، وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، وتقوى الله خير زاد، وقل كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكـــن التقـــي هـــو الســـعيد
وتقـوى الله خيـر الـزاد ذخـراً وعنـــد الله للأتقـــى مزيـــد
ومـــا لابـــد أن يـــأتي قريـــب ولكـــن الـــذي يمضـــي بعيـــد

أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان، وكن كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعـد مـن الـرحمن فضـلاً ونعمـة عليك إذا مـا جـاء للعـرف طالـب
وإن امـرءاً لا يرتجـى الخيـر عنـده يكن هيناً ثقيلاً على من يصاحبه
فـلا تمـنعن ذا حاجـة جـاء طالبـاً فإنـك لا تـدري متـى أنـت راغـب

أي بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، وإن أحمد بخل الحر الضن بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم:

أجـود بمكنـون الـتلاد وإننـي بسـرك عمـن سـألني لضـنين

---

[1] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط1967/22، 188/1.

إذا جـاوز الاثنـين سـر فإنــه ينــث وتكثيــر الحــديث قمــين
وعنـدي لـه يومـاً إذا ائتمنتنـي مكــان بســوداء الفــؤاد مكــين

ويقول في هذه الوصية: أي بني لا تؤاخ امرءاً حتى تعاشره وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة، فواجه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة، وقل كما قال المقنع الكندي:

إبـل الرجـال إذا أردت إخـاءهم وتوسّـــمن فعـــالهم وتفقــد
فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى نبـه اليـدين قـرين عـين فاشـدد
وإذا رأيــت ولا محالـــة زلــة فعلـى أخيـك بفضـل حلمـك فـاردد

أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وكن كما قال هدبه بن الخشرم العذري:

وكـن معقـلاً للحلـم واصفح عن الخنـا
فإنـــك راء مـــا حييـــت وســـامع
وأحبـب إذا أحببـت حبـاً مقاربـا فإنـك لا تـدري متـى أنـت نـازع
وأبغـض إذا أبغضـت بغضـاً مقاربـا
فإنــك لا تــدري متــى أنــت راجــع

فعبد الله بن شداد في هذه الوصية يتعرض لعدة اعتبارات أساسية ترتكز عليها التربية المثلى في الحياة، ومن ذلك تقوى الله في السر والعلن، وعمل البر ، والجود بالمال في مواضع الحق، وحفظ السر ، والسعي بشرف في الحياة، ومداراة الشر ، واختيار الناس قبل معاشرتهم والحكم عليهم، وإقالة العثرة والمواساة في العسرة لمن يعاشر الإنسان، وإذا أحب الإنسان فعليه يجب

الاعتدال، وإذا أبغض كذلك، لأن الأمور قد تسير على العكس، فتكون هناك مندوحة للتصرف والتعقل.

وهذه الوصية حين يتأملها الإنسان بعمق وترو يجدها من الأسس المثلى التي تتأكد بها العلاقات الإنسانية والصلات الاجتماعية المثمرة التي تساهم في إثراء الحياة الاجتماعية بالنشاط الفكري المبدع الخلاق، الذي يفتح للحياة آفاقها ويمهد السبيل للساعين فيها.

7 - والتركيز في الدراسات التي تعالج قضايا الفكر يتحتم أن ينصب على الواقع الذي تعالجه تلك الدراسات، وارتباطه بالجذور الأصيلة التي تؤثر فيه وتكيفه، حتى تكون تلك الدراسات إيجابية في محاولاتها واتجاهاتها ونتائجها التي تتوصل إليها، وتؤكد بها القيم والأهداف التي ترمي إليها من وراء الجهود المبذولة فيها.

والتوسع في بسط القضايا الفكرية أثناء التناول الدراسي لها يتوقف على مدى الاستيعاب الذي يقابل به الدارسون ذلك البسط، ومدى ما فيه من نماذج مطابقة للواقع الذي يلمسه الناس في حياتهم التي يتقلبون فيها، فهو إذا كان قريباً من ذلك كان مهماً وباعثاً على توسيع الآفاق والاتجاهات والمناهج التي يتوخاها الدارسون وهم يزاولون نشاطهم في مواصلة الدراسة والبحث، ومتابعة ما في الحقيقة من أعماق تتكشف بما يبذل فيها من جهود واستيعاب واسع لقواعد المعرفة وتطبيقها، وإذا كان بعكس ذلك وغير مشتمل على النماذج التي يتعامل معها الناس في واقعهم الذي يرتبطون به، كان نوعاً من الإطناب، وضرباً من التطويل الذي يغلب عليه الطابع النظري المحض، فلا تكون الاتجاهات الدراسية فيه واضحة كما ينبغي أن يكون الوضوح، ولا يساهم

بفاعلية في ربط المناهج الفكرية بمثيلاتها التي يتطلب المنطق الفكري والدراسي اللجوء إليها، واستعمالها، والاستعانة بها في فهم وتوكيد الحقائق التي يراها وتتطرق إليها الدراسة ضمن اهتمامها ودائرة محاولاتها المبذولة في الاتجاهات التي تسلكها، وهي تتواصل في مختلف الاتجاهات والمجالات التي يراها الإنسان ويحسّ بضرورة الوقوف على ما فيها من إمكان، حتى يستطيع الاستفادة منها في السبل التي لها صلة بالتفكير وما ينتج عنه من قضايا يراها المعاصرون من الدارسين وغيرهم منطلقاً للأسس التي يسير عليها التفكير المعاصر وهو يعالج مشاكل الحياة ويضفي عليها روحه وملامحه التي تصطبغ بطابع السطحية في كثير من حالاتها.

وقد يعد ذلك في نظر بعض الدارسين المعاصرين نوعاً من التطوير في الحرص على الوقت وعدم إضاعته في غير طائل، ذلك أن الإطناب والإطالة في بسط القضايا التي تطرقها الدراسة، والدخول في شرح قواعدها، وما يتصل بها من علائق تاريخية وفنية وغيرها، أمر غير ملائم لعصر السرعة الذي نعيشه، فمجرد التوصل إلى الفهم القريب لقضايا الفكر كاف لإيجاد ما تقتضيه من علاج يتوافق مع الحياة التي يحياها الإنسان المعاصر، الذي ليس لديه من الوقت ما يمكنه من الإطالة في القضايا والموضوعات التي يعالجها، كي يستطيع اللحاق بركب المعلومات والاكتشافات المتلاحقة التي يجود بها النشاط العلمي المعاصر، ويفرزها البحث الفكري الذي لم يكن في إجماله إلا خلاصة لما كان من جهود وأفكار في العصور السالفة، في شتى ما يعالجه الإنسان من آفاق في الحياة وواقعها الذي يجسد المعاني الحقيقية للتفكير السائد بين الناس على اختلاف مشاربهم ومداركهم وأفكارهم ومنطلقاتهم واعتباراتهم التي يرونها في كل ما يلمسونه ويتصورونه من مفاهيم وأعراف تدور بينهم، وتخضع للنقد

والدراسة والتفكير الذي لم يكن إلا الميزان لما فيها من جيد ورديء، وضار ومفيد.

وإذا كانت النظرة الحضارية المعاصرة تعتمد في حقيقة أمرها على قيمة الزمن واغتنامه فيما يعود على الإنسان من كسب وفائدة، وتحقيق آمال وطموح، فإن ذلك كله ليس مبرراً مقنعاً للابتعاد عن البحث والتدقيق ومتابعة الحقائق في مختلف مظاهرها وأبعد أعماقها، التي لا تزدهر الحضارة ولا يتقدم العلم ويتطور الفكر إلا بتوفر الجهود وبذلها في أكنافها، ولم يصل الإنسان المعاصر لما يحسّ به من تقدم ونهضة في آفاق المعرفة والكشف العلمي إلا بما توفر لديه من جهود متواصلة في البحوث والدراسات في شتى ميادين الحياة ومتطلباتها.

والدعوة للابتعاد عن التقصي والإطالة في الدرس بحجة الحرص على كسب الوقت، ما هي إلا قصور في الفهم لمعاني التطور والمعاصرة والتحديث، فلا يتم التطور الذي يساهم في نشر الوعي ويهيء الإنسان المعاصر لتقبل العلم ونظرياته ومناقشتها إلا بالتفكير العميق الذي يأخذ القضايا الفكرية من منابعها الأصلية التي تعتمد معرفتها الصحيحة على التدقيق والاستقصاء والتتبع، فهناك فرق كبير بين الإطالة في ذاتها، والإطالة التي توصل الدارس والباحث إلى الأهداف والحقائق التي يسعى إليها.

ومهما تعددت بالإنسان سبل التصور والافتراض، فإن الشيء الوحيد الذي لا يجد المحيص عنه هو أنه كلما تواصلت الجهود في مجالات البحث والدراسة وكانت متركزة على الأصالة والعمق، كانت نبراساً ينير السبيل للتطور والتقدم وبناء الحياة المعاصرة على الدعائم الحقيقية التي تواكب ما في العصر من نهضة شاملة وتقدم سريع واكتشافات علمية متطورة، تدفع بالإنسان إلى

مواصلة الاهتمام بالفكر ونشاطه، والعلم وتقدمه، وفتح آفاقه المختلفة في شتى الميادين وعديد المجالات الواسعة الفسيحة.

قال أبو هلال العسكري[1] في حق العقل وقيمته بين الناس في كل زمان ومكان:

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه وضرائبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس أنه على العقل يجري علمه وتجاربه
ومن كان غلاباً بعقل ونجدة فذو الجد في أمر المعيشة غالبه
يزين الفتى في الناس صحة عقله
وإن كان محضوراً عليه مكاسبه

فهو في هذه الأبيات يذكر أن أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان هي العقل، فالإنسان الذي يتمتع بعقل وافر هو إنسان كامل محترم من الناس جميعاً، والذي يعيب الرجل بين أترابه هو قلة عقله، كما أن الذي يزينه هو كماله، وبهذا العقل يستطيع أن يفهم الإنسان ما يجري حوله في الواقع الذي يحياه، لأنه هو الميزان الذي يزن به العلم وما يمر به من تجارب. ومن هنا تأتي الأهمية البالغة للعقل عند الإنسان الذي يستطيع به أن يقف على أسرار الكون، ومكنون الطبيعة، ويحقق به ما يريد من رغائب الحياة.

ومع كل هذه الأهمية فإنه ليس بقادر على أن يسعد صاحبه في كل الأحوال، ذلك أن بعض الناس ممن لا يتمتعون بنعمة كمال العقل في معيشتهم منعمون أكثر ممن يتمتعون بهذه النعمة، ولكن هذا في الحقيقة ليس بقادح في

---

[1] جواهر الأدب السابق، 454/2. والتذكرة السعدية السابق، ص217

هذه الميزة، لأن الأمر في هذه القضية يرجع للحظ الذي يلعب دوره الكبير في هذا الشأن، وهو هبة من عند الله، ولا دخل للإنسان فيها وفي تصريفها أو منحها.

وإذا كان العقل بهذه المثابة من الأهمية فإن الإنسان الذي وهبه الله هذه النعمة محتم عليه أن يستخدمها فيما يساهم في سعادته وتقدم بني جنسه، والمجال الذي يتيح ذلك هو العلم واستخداماته وآفاقه وميادينه الكثيرة المتعددة، التي لا تقف في جانب إلا لتدخل في غيره، مما يبعث العقل والفكر على النشاط المتواصل والحركة الدائبة التي تنبه الذهن إلى الأسرار الخفية التي يستطيع الإنسان أن ينطلق منها إلى مجالات التفكير والمعرفة الصادقة، التي تجعله يعيد النظر في كل ما يقبله من أسس وقواعد تعالج قضايا الحياة ومشاكلها، وتبعث على التأمل البعيد في كثير من المناهج والسبل السائدة بين الناس، وفي العصر الذي يحتويهم بمعارفه ومفاهيمه، لأن العلم وما يقرره من حقائق في تجدد مستمر، ونظر متواصل. ثم إنه نوعان، نظري وتطبيقي، وكل منهما يتمم الآخر ويعد اتجاهاً ومنهجاً، وللباحث أن يختار ما يراه وما يميل إليه من كليهما، إلا أن توفر هذين الاتجاهين أو المنهجين في كل مجتمع شرط أساسي لنهضته وتقدمه، فلا سبيل للوصول إلى التطور المرغوب وتحقيق الأهداف التي يريدها المجتمع إلا بازدهار العلم التطبيقي والنظري في أرجائه، وعلى هذا الأساس فالاهتمام بالعلم وتهيئة سبيله أمر ضروري للدفع بالحياة الإنسانية إلى الأمام.

وقضايا الحياة المعاصرة وغيرها إن لم يكن البحث فيها والدراسة مبنياً على العلم بأشمل ما فيه من مدلول لا تتحقق حلولها العملية ولا يستطيع الإنسان أن يطور منها ما يراه مناسباً لواقعه وتفكيره، وذلك لا يتفق مع منطق التطور

المعاصر الذي يحتم على الإنسان أن يوجد الحلول المناسبة لتلك القضايا، ويأخذ منها ما يوافق واقعه الذي يحياه ويتقلب فيه، ويستجيب لرغباته التي منها يكون مسعاه ورأيه في الواقع الذي يحياه، ويحاول أن يطوره، ويضفي عليه من الجديد ما يمليه المنطق المعاصر ومتطلبات التقدم في مختلف القطاعات التي يطرقها الإنسان.

فالاختيارات الدراسية التي تتركز على الأولويات في البيئة والمحيط والمجتمع الذي يطمح إلى الأفضل دائماً، من أهم الاتجاهات الحديثة التي تساهم في بذر الوعي وإرساء دعائم التعقل والمنطق السديد في مختلف القضايا والمشاكل التي تسهم فيها المسيرة الفكرية المعاصرة، التي لا ترى لتحركها تأثيراً وإيجاباً بدون الدراسة والبحث، وما في العلم من قواعد، وهذا لا يتحقق على أصوله الصحيحة إلا باستخدام العقل السديد والمعرفة الرصينة، فالعقل والمعرفة والعلم في آفاق الدراسة شيء أساسي، لذلك حين نحاول التركيز في دراستنا على ما في الواقع من جذور لابد من أن نلاحظ هذه الجوانب ونرسم لها الخطوط التي تسير فيها، حتى تكون خطواتنا التي نقطعها ونساهم بها في بناء الحضارة المعاصرة وما فيها من فروع قائمة على المنطق الإيجابي، وعائدة على ما لدينا من متطلبات بالفاعلية والنشاط والتحرك السديد في الاتجاهات العلمية والفكرية المعاصرة التي بها نستطيع أن نساير المدى الفكري المعاصر، وما يكمن فيه من إمكان ووسائل هي الأساس لما استطاع المجتمع الإنساني المعاصر أن يصل إليه من تقدم وتطور وتجديد.

فالنظر في الأساسيات التي ينبغي للدراسة أن تقوم عليها هي المنطلق الحقيقي الذي يتحتم على الدارسين والباحثين أن يراعوه، ليكون لتلك الدراسات أثرها البالغ في البناء الحقيقي للفكر والمعرفة والتقدم.

8 . والفكر الإنساني في كل عصر من التاريخ له طابع يتسم به، وهو حين يرتبط بالحقيقة التي يلاحقها الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من ذلك الطابع بسهولة، بل يؤثر عليه في مساربه وأنواعه ويلونه بكثير من الألوان التي يكون لإدراك الحقيقة خلالها شيء من الغموض والخفاء والتعقيد الذي يؤثر في مسارات الجهود التي تبذل حولها.

وهذا ما يدعو الدارسين والباحثين إلى التأمل والتأني في فهم الأفكار المختلفة التي تطرح أمامهم ويرون ضرورة الاهتمام بها وبما فيها من آثار وتنويع في مجالات العلاج التي تتعلق بالإنتاج الفكري، والمعاناة التي يترجمها، وتقدم النماذج الإيجابية للتعبير والدراسة عن واقع الفكر في العصر الذي يمر به، ومن خلاله تبدو السمات الأساسية التي يتميز بها وترتكز عليها ملامحه وخواصه العامة، التي لعب العصر أدواره الفاعلة في تلوينها والاهتمام بها من قريب أو من بعيد، بما يوافق مدارك الناس ويواكب مسيرة الحياة، ويعبر عن الأحاسيس العامة التي يشعر بها أولئك وهم يحركون الحياة ويتحركون معها إيجاباً أو سلباً.

وعلى ضوء ما في الفكر من نظريات ومفاهيم وقوانين تحاول أن تتفهم كنه الحياة وتوجه المسيرة الفكرية إلى الاتجاه الذي يراه المعاصرون جديراً بالشرح والتفصيل، وتأكيداً مع ما في التعامل مع الفكر من ميزات في كشف الحقائق وتوضيحها بما يعطي للإنسان من معان في ميادين المعرفة والأصالة في آفاقها التي هو باستمرار في حاجة إليها وإلى ما تضفيه من جديد لا تستطيع الدراسات واتجاهاتها المختلفة والرائدة أن تتجاهلها أو تستغني عنها في كل ما تتطرق إليه من أبعاد و أعماق لها صلة بالعصر ومفاهيمه التي تتعدد وتتنوع من مجال إلى آخر ومن بيئة إلى غيرها، ومن منهج إلى منهج، لأن الدراسات

الرائدة لا تكتفي بالوقوف عند النموذج الماثل أو عند المنهج المتداول، أو عند الفكرة السائدة والنظريات التي تعاضدها وتوآزر ما فيها من تأثير، ولكنها تسعى إلى أبعد من ذلك فتربط المجالات التي لها صلة بذلك التعدد والتنوع بعضها ببعض، وتناقش ما فيها من فروض قد تؤدي في النهاية إلى تجاوز كل ما في تلك المناهج من اعتبارات، وتوجه الأمر الذي يهيئ لتلك الدراسات من الجوانب ما يدفع على الاهتمام والمتابعة في عالم التفكير الذي لم يكن مألوفاً من قبل، ويعد ابتكاراً وتجديداً في مجالات الكشف عن الحقائق ودراستها بما يتلاءم وموازين العصر ومفاهيم الحياة السائدة بين الناس الذين يولونها عنايتهم واهتمامهم وخلاصة نشاطهم وتفكيرهم في الواقع الذي يعيشونه ويبذلون قصارى جهدهم في تفسير ما يجري فيه من نشاط وألوان في ميادين الفكر ومعاني البحث والتنقيب عن الجديد، الذي يساهم في بعث المزيد من الفاعلية في مجالات الواقع الذي يحياه الإنسان في كل مكان، حتى تكون الرؤية التي ينظر بها المفكرون للإنتاج الذي يفرزه الفكر بكل ما يحويه من نماذج ومضامين واضحة وعميقة بالقدر الذي لا يساعد فقط على استيعاب القضايا والمشاكل المعاصرة، ولكنه يساعد أيضاً على فرض حلولها ومناقشتها موضوعياً مناقشة فاعلة تكشف مختلف جوانبها، وتنير السبيل بما حولها، حتى يصل إليها تيار الفكر الذي يستطيع أن يطور ما فيها من عناصر، ويرمي بما يجده خلالها من عوامل الشد والتعويق التي تبعد بالفكر عن مجراه الطبيعي، الذي هو الخلق والإبداع ومتابعة ما في الدراسات ونظرياتها من اكتشاف جديد يحفز الإنسان على موالاة التفكير ومتابعة مناهجه ونظرياته وقواعده التي تخدم الحياة الاجتماعية في مختلف ما يجري فيها من ضروب النشاط وأنواع التفكير في عالم الإصلاح والمعرفة والبناء الذي يدعم ما في الفكر من أهداف وطموح وتوكيد لا ينبغي أن يحدّه أو يؤثر عليه التوقف أو التواني أو الشعور بالسأم أو

الابتعاد عن المعاني العميقة التي يتركز عليها الهدف الحقيقي للابتكار والتجديد.

فالفكر ومناهجه مهما تلونا بما يصادفهما من طوابع العصور التي يمران بها فإنهما في حقيقتهما من الوضوح بالقدر الذي يقدمانه من الإضافة في عالم الإبداع ومجالات الابتكار وآفاق التجديد.

ولكن أي إبداع وابتكار وتجديد؟ في الحقيقة والواقع أن الإجابة على ذلك ليست بالأمر الهين، لأنها تتطلب العرض المسهب للمجالات التي يزاولها الفكر، وللزوايا المتعددة التي تتعاورها قواعده ونظرياته، حتى تكون الإجابة بناء على ذلك واقعية وصادقة وممكنة الإدراك عند كثير من الناس والدارسين الذين يهمهم أن يعرفوا قبل غيرهم آثار الفكر ومساراته، وأن يقفوا على ما في نشاطه من ملابسات وغموض وآثار يمليها التطور وما يحتويه من بعد.

ومع ذلك كله فإن المتبادر إلى الذهن أن الإبداع والابتكار والتجديد في هذا المجال هو الاختراع الذي يتفتق عن الدراسة والمقارنة والمزاولة لما في العصر من مشاكل وقضايا وتوجهٍ، ويساهم في توضيح الرؤية والحلول الإيجابية لكل ما يكمن في الواقع من صعوبة وتعقيد، والإتيان بالبديل والنموذج الذي يثري الدراسة ويعاضد النظر الفكري السديد.

وبهذا القدر من المعاني التي يشملها الابتكار والإبداع والتجديد نستطيع أن نستبطن ما نلاحظه من عوامل العصر، وما يجري فيه من مشاكل، وما يدور فيه من نماذج لنصل إلى السبل والمناهج التي نقبلها ونقرها في مجالات الإصلاح والبناء، ونتخذها وسيلة لما نمر به ونعاصره من خطوات ومراحل في آفاق الحياة وميادين الفكر والمعرفة وما يقتضيانه من أساليب التجديد.

يقول عبد الله بن المقفع[1] في الاتصاف ببعض الصفات الحميدة التي لها مكانة وأثر في نفوس الناس منذ التاريخ القديم، لأنها صفات أصيلة تدل على رجاحة عقل صاحبها وقوة إدراكه الفكري وتفهمه للأشياء وأبعادها العميقة التي تحيط بجميع أقطارها، وكذلك حرص المفكرون على توضيحها وشرحها وإظهار ميزاتها التي تلعب أدوارها الإيجابية في بناء المجتمع وتكوين أفراده وبيئاته بما يتفق وواقع العصر: كان لي أخ أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذّ القائلين، كان ضعيفاً مستضعفاً فإذا جد الجد فهو الليث عادياً، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشارك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً، وكان لا يلزم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عنده، وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخّط ولا يتشهّى ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولا تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

فهذه الصورة النموذج التي يقدمها ابن المقفع للأخ الذي يستحق معنى الأخوة والصداقة الحقة تتوفر فيها من الخصائص الخلقية الأشياء الأساسية في تأسيس الفضل وتكوين النفس الإنسانية على حقيقتها التي تستطيع بها أن

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3/1946م، ص105-106.

تغوص في أعماق الحقيقة وأبعادها الجوهرية حين تتعرض لها، وتحاول منها أن تؤكد ما فيها من أصوات وأصداء.

ومن تلك الخصائص التي عظم بها ذلك النموذج عدم الاهتمام بالدنيا والتكالب عليها وعلى بهارجها الزائفة التي تبعد الإنسان عن واجباته وما يتصل باهتمامه من تفكير، فلا تسيطر عليه بطنه ولا يسيطر عليه لسانه، ولا يتحكم فيه الجهل وما يلازمه من ارتجال وحماقة، فلا يتحرك إلا على يقين بالفائدة من تلك الحركة، وهو غير مكثر من الكلام والثرثرة، ولذلك حين يتكلم يبذ القائلين، وهو ضعيف البنية ومستضعف من قبل من تربطه به علاقة الإخاء والمودة، إلا أنه حين الجد ينقلب فيكون كالليث العادي، ثم إنه لا يخوض في غمار دعوة ولا يساهم في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى أسباب العدالة والإنصاف.

وكان ذلك النموذج لا يلوم أحداً فيما يرى العذر فيه وفي مثله حتى يعلم ما عذره، ثم إنه لا يشكو الوجع الذي يلم به إلا عند من يرجو عنده الشفاء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهّى ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الصفات إن استطعت التحلي بها، وهو أمر بعيد المنال، ولكن ما لايدرك كله لا يترك جله كما يقولون.

فابن المقفع في هذه اللفتة شرح معنى الإنسان الكامل، يسوق لنا النموذج الذي منه ينبغي لنا أن نطبق الواقع في التعامل مع ما نراه من صور لهذا الإنسان، وهو وإن كان يسوق فكرته هذه بإسناد ذلك المعنى الكبير إلى أحد أصدقائه وإخوانه الذين يرتبطون به ارتباط المودة والإخلاص، فإنه يهدف من

ذلك إلى إعطاء هذه الصورة طابعها الواقعي الذي يزداد به وضوحاً وجلاء ويقيناً في عالم الواقع.

وقد قدم معظم أفكاره الجيدة المشابهة لهذه الصورة في كتابيه الأدب الكبير، والأدب الصغير، واليتيمة كذلك، وأما كتابه كليلة ودمنة فإن أفكاره فيه تدور في إجمالها في نفس الاتجاه، إلا أن الأسلوب فيها مختلف، حيث جرد من الأشياء التي ساقها من الحيوان وغيره شخوصاً حكى على ألسنتها ما أراد أن يعبر عنه، وسواء كان ذلك الكتاب من تأليفه شخصياً أو من تأليف من نسبه إليه وهو الفيلسوف بيدبا، فإن تفكيره فيه واضح وتبدو من خلاله الخصائص التي تميز بها في الأسلوب والصياغة والمنهج والاهتمام بمناحي الحكمة والتعلق بكل ما فيها من معان وأبعاد يهتم بها الإنسان في كل عصر، لأنها الضالة التي ينشدها وهو يوالي جهوده في الحياة.

وفي هذه القطعة التي يسوق منها ابن المقفع الصورة والنموذج للصديق الذي تتوفر فيه الأخلاق الحقة التي تؤهله للصداقة المثلى، يبدو تأثير العصر وطابعه فيها، ذلك أن العصر الذي عاشه ابن المقفع وهو أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وكانت الأفكار والمعاني والآداب السائدة فيه تدور في إطار المعاني التي ينبغي أن تتوفر في الصديق الحقيقي، و هل الصداقة الحقيقية توجد في الواقع أم لا؟ وأما التعلق بالحكمة وتصيد معانيها وأهدافها والمقارنة بينها وبين غيرها من الأقوال المعتادة، فإن الأمر في ذلك لا يبعد عنه إن لم يفقه، ومن هذا المنطلق راجت أفكار ابن المقفع ووجدت الصدى الكبير الذي أحاط بها، وقد زاد ذلك الاهتمام بالجوانب والأفكار التي كانت تترجم ويحتضنها المفكرون والعلماء ويأخذون منها المستند الذي يتكئون

عليه في تناولهم واتجاههم الفكري الذي يعالجون به مختلف القضايا التي يطرحونها للدرس والتحليل.

وفي عصرنا الحاضر حين نتناول نموذجاً من هذا القبيل نجد الطابع المعاصر أول ملمح من ملامحه، ونجد القاعدة الأساسية التي نحكم بها على جودته تنطلق من مدى ما يتوفر فيه من خصائص العصر وتفهم الواقع بكل ما يتوفر فيه من فاعلية وإمكان ونشاط وتقدير للمعرفة وإفرازها وانعكاساتها.

الفصل الثاني

الأدب وآفاق الحياة

1. الأدب والحياة:

1 . نظرة الناس للحياة تختلف من شخص لآخر، فبعضهم يراها بمنظار مضيء، وبعضهم الآخر يراها بعكس ذلك، وهي في حقيقتها شيء واحد لا يتغير ولا يختلف في شكله أو مضمونه، وقد جاء اختلاف النظر هذا من أن أمزجة الناس غير متفقة، وهذا أمر عادي وهو حاصل في كل عصر وفي كل بيئة ومجتمع؛ لأنه من الجوانب التي تؤكد للإنسان قصوره وعجزه أمام قدرة الله ﷻ، وأهم الجوانب التي تختلف فيها نظرة الناس للحياة تكاد تنحصر في النقط الآتية:

1 . المفهوم العام لمعنى الحياة وما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج يكون لها التأثير البليغ في الإنسان الذي يحس بها ويجري وراءها ويحاول اللحاق بركبها.

2 . الأسلوب والمنهج الذي يسلكه الإنسان في الحياة بكل ما لها من مفهوم ومضامين تجعل الإنسان مكيفاً مع مفهومه للحياة وسائراً في الإطار الذي رسمه لنفسه حتى يحقق أهدافه فيها.

3 . الصور والتصورات التي يدركها الإنسان من مفهومه ومنهجه في الحياة وهي الصور التي يستوعبها ذهن الإنسان لأشكال الحياة وأنواعها وما فيها من ألوان زاهية وباهتة تبعث في الإنسان التشبث بهذه الحياة أو العزوف عنها والزهد فيها وفي كل ما يتصل بها من قريب أو من بعيد.

هذه الخطوط الثلاثة في ظني هي الخطوط العريضة التي تختلف فيها نظرات الناس في فهمهم للحياة وتكييف أنفسهم معها، حيث نجد كثيراً منهم يأخذونها ببساطة ويسر ويستطيعون بكل سهولة أن ينسجموا مع أي موقف يجدون أنفسهم فيه، وشعارهم دائماً: خذ من الحياة ما استطعت، ولذلك فهم يتمتعون بالطبيعة ومظاهرها وينسجمون مع ما في هذه الطبيعة من مظاهر الجمال وسحره فيعبون من كؤوس الجمال وروعة سحره ما طاب لهم ذلك، ولا يفهمون الحياة إلا من هذا الجانب الذي يعبرون عنه بأنه الجانب المضيء، والحياة لديهم فرصة لا تكون إلا مرة واحدة؛ لأن العمر لا يتكرر ولا يمكن أن تصفو الحياة لأحد إلا إذا صفا لها، فالانقباض فيها يختلف مع طبيعتها ويتنافى معها كلية، ولذلك يتحتم أن تؤخذ بمنتهى البساطة والهدوء.

ويرى بعض الناس عكس هذه النظرة؛ لأن الحياة حقيقة لا تعود فيجب أن يلتزم الإنسان فيها جانب الجد حتى لا تضيع في غير طائل، ولابد من أن يحكم الإنسان عقله وضميره في كل ما يصادفه في الحياة حتى يكون تصرفه فيها قائماً على الجد الذي يتطلبه اهتبال هذه الفرصة، والبساطة وأخذ الأمور بتلك الروح التي لا تبالي وتؤدي إلى تضييع كثير من الفرص والأشياء ذات الأهمية البالغة، وهنا كانت الحياة لدى هؤلاء كفاحاً جاداً لا يعرف الجمال والطبيعة إلا من خلال ما يصلون إليه من مكاسب وأهداف مرسومة يؤمنون بها في هذه الحياة، ولا يرون في الحياة معنى بدون تحقيقها.

وقد مثل الشعراء والأدباء والمفكرون وجهتي النظر في الحياة وما لها من مضمون، يقول الشاعر إيليا أبو ماضي[1] في قصيدة له بعنوان: فلسفة الحياة:

---

[1] السباعي بيومي وآخرون، الأدب والنصوص، دار النهضة - مصر، 1977م، ص222.

أيهـذا الشـاكي ومـا بـك داء كيـف تغـدو إذا عـدوت علـيلا
إن شر الجنـاة فـي الأرض نفس تتـوخّى قبـل الرحيـل الـرحيلا
وتـرى الشـوك فـي الـورود وتعمـى
أن تـرى فوقهـا النـدى إكلـيلا
هـو عـبء علـى الحيـاة ثقيـل مـن يظـن الحيـاة عبئـاً ثقـيلا
والـذي نفسـه بغيـر جمـال لا يـرى فـي الوجـود شـيئاً جمـيلا
لـيس أشـقى ممـن يـرى العـيش مـرا
ويظـن اللـذات فيـه فضـولا
أحكـم النـاس فـي الحيـاة أنـاس عللوهـا فأحسـنوا التعلـيلا
فتمتـع بالصـبح مـا دمـت فيـه لا تخـف أن يـزول حتـى يـزولا
وإذا مـا أظـل رأسـك هـم قصـر البحـث فيـه كـي لا يطـولا
أدركـت كنههـا طيـور الروابـي فمـن العـار أن تظـل جهـولا
ومـا تراهـا والحقل ملـك سـواها تخـذت فيـه مسـرحاً ومقـيلا
تتغنـى والصـقر قـد ملـك الجـو عليهـا والصـائدون السـبيلا
تتغنـى وقـد رأت بعضـها يؤخـذ حيـاً والبعض يقضـي قتـيلا
تتغنـى وعمرهـا بعـض عـام أفتبكـي وقـد تعـيش طـويلا
فهـي فـوق الغضـون فـي الفجـر تتلـو
سـور الوجـد والهـوى تـرتيلا
وهـي طـورا علـى الثـرى واقعـات تلقـط الحـب أو تجـر الـذيولا
كلمـا أمسـك الغصـون سـكون صـفّقت للغصـون حتـى تمـيلا
فـإذا ذهّـب الأصـيل الروابـي وقضـت فوقهـا تنـاجي الأصـيلا
فاطلـب اللهـو مثلمـا الأطيـار عنـد الهجيـر ظـلا ظليلا
وتعلـم حـب الطبيعـة منهـا واتـرك القـال للـورى والقـيلا

فالـذي يتقـي العـواذل يلقـى كل حين في كل شخص عذولا
أنـت لـلأرض أولاً وأخيـرا كنـت ملكـاً أو كنـت عبـداً ذليلا
لا خلـود تحـت السـماء لحـي فلمـاذا تـراود المسـتحيلا؟
كـل نجـم إلـى الأفـول ولكـن آفـة الـنجم أن يخـاف الأفـولا
غايـة الـورد فـي الريـاض ذبـول كـن حكيمـاً واسـبق إليـه الـذبولا
وإذا مـا وجـدت فـي الأرض ظـلا فتفيـأ بـه إلـى أن يحـولا
وتوقـع إذا السـماء اكفهـرت مطـراً فـي السـهول يحـي السـهولا
قـل لقـوم يسـتنزفون المـآقي هـل شـفيتم مـع البكـاء غليـلا
مـا أتينـا إلـى الحيـاة لنشـقى فـأريحوا أهـل العقـول العقـولا
كـل مـن يجمـع الهمـوم عليـه أخذتـه الهمـوم أخـذاً وبـيلا
كـن هـزاراً فـي عشـه يتغنّـى ومـع الكبـل لا يبـالي الكبـولا
لا غرابـاً يطـارد الـدود فـي الأرض
وبومـاً فـي الليـل يبكـي الطلـولا
كـن غـديراً يسـير فـي الأرض رقراقـا
فيسـقى مـن جانبيـه الحقـولا
تسـتحم النجـوم فيـه ويلقـى كـل شـخص وكـل شـيء فتـيلا
لا وعـاء يقيـد المـاء حتـى تسـتحيل الميـاه فيـه وحـولا
كـن مـع الفجـر نسـمة توسـع الأزهـار شـماً وتـارة تقـيلا
لا سموماً من السوافي اللواتي تمـلأ الأرض فـي الظـلام عـويلا
ومـع الليـل كـن كوكبـاً يـونس الغابـات والنهـر والربـى والسـهولا
لا دجـى يكـره العـوالم والنـاس فيلقـى علـى الجميـع سـدولا
أيهـذا الشـاكي ومـا بـك داء كـن جميـلاً تـرى الوجـود جميـلا

فهذه القصيدة نظرت إلى الحياة من واسع أبوابها، من زاوية خاصة يراها الشاعر ويؤمن بها، ولا يرى للحياة ولا يدرك معنى بدونها، فالحياة ينبغي أن تفهم من جانبها الجمالي، والإنسان الذي ينظن الحياة عبئاً ثقيلاً هو في الحقيقة عبء ثقيل عليها، وكل من خلت نفسه من حاسية الجمال لا يرى في هذا الوجود شيئاً جميلاً وطعماً مستساغاً، وليس هناك شخص أشقى من إنسان يرى العيش مراً ويدرك أن اللذات فيه فضول زائد، وأحكم أناس استطاعوا أن يفهموا الحياة هم الذين عللوها فأحسنوا تعليلها، وتمتعوا بساعتهم التي هم فيها.

وقد أدركت طيور الروابي كنه الحياة، فهي تتخذ من الحقل الذي هو ملك سواها مسرحاً لها ومقيلاً، وتتغنى مع أن المخاطر محيطة بها من كل مكان، فالصقر قد ملك عليها الجو، والصائدون ملكوا السبل التي تسلكها، وتتغنى وهي ترى بعضها يؤخذ حياً، وبعضها الآخر يقتل، وتتغنى وعمرها قصير جداً، فهو بعض عام، فهل يكون في ذلك عبرة لمن له عقل وفكر؟ فكيف يفكر ويبكي وقد يعيش طويلاً؟ أو إذا أمعن الإنسان نظره في موقف الطير من الحياة فسوف يسهل عليه فهمها ويسلك معها الأسلوب الملائم لها، فالطير فوق الغصون في الفجر تناجي بعضها بعضاً، وتتلوا سور الوجد والهوى وترتلها ترتيلاً، وطور آخر تلتقط الحب من الأرض أو تجر ذيولها فوقها تنعماً بالجو ومتعة الحياة، وهي في حركة دائبة، فكلما عم السكون ووقفت الأغصان عن الحركة صفقت الطيور لها حتى تميل وتتحرك ويكون هذا ديدنها طيلة اليوم، وإذا أخذ النهار في الانسحاب وذهّب الأصيل الروابي والربى والقمم وأعالي الأشجار ووقفت فوقها تناجيه وتودعه لاستقبل يوم جديد.

فمن هذا الجانب الذي سلكه الطير لفهم الحياة ينبغي أن يكون فهم الإنسان لها، حتى يتعلم حب الطبيعة ويترك القيل والقال، والإنسان مهما طالت

به الحياة فهو للأرض في أوله وآخره، ومهما تعلت به الرتب أو صغرت، ولا خلود لحي في هذا الوجود، فلماذا نحاول بني الدنيا أن نوجد المستحيل؟ فينبغي أن تكون نظرتنا للأشياء من زاويتها المشرقة التي تبعث في النفس رواءها وبهجتها، فإذا اكفهرت السماء توقعنا مطراً يحيي الممات من الأرض ويبعث الحياة في الربى والسّهول.

وهؤلاء الذين جفت مآقيهم من البكاء هل شفوا غليلهم بذلك؟ كلا، وإذاً لا داعي لهذا، وما أتى الإنسان لهذه الحياة ليجني منها الشقاء، فأريحوا عقولكم أيها العقلاء لأن كل من تتجمع عليه الهموم تهلكه، فالإنسان ينبغي أن يكون مثل الهزار في عشه يتغنى ولا يبالي بالمخاطر التي تحيط به، ولا يكون مثل الغراب الذي يبحث عن الحشرات، والبوم الذي ينعب الأطلال والخراب، بل يكون مثل الغدير في الأرض تشرب الحقول على جانبيه، وتستحم فيه النجوم، ويرى شخص كل شيء فيه ظله الذي يعكس صورته فيه، ولا يكون مستنقعاً يقيد المياه حتى تستحيل إلى وحول، ونسمة من نسمات الفجر تشم الأزهار وتقبلها، لا ريحاً سموماً مليئة بالغبار والأتربة والعويل الذي تملأ به الأرض في الظلام، وكن مع الليل كوكباً يؤنس الغابات والأنهار والربى والسهول، لا ظلاماً يرخي سدوله على الكون، وبالإجمال كن جميلاً تحسّ بهذا الوجود في جماله وروعته وأنسه.

هذه هي فلسفة الحياة عند أبي ماضي، وهي نظرة خيالية فيها شفافية الشاعر وخياله وأحلامه التي يحسّ بها ويتمنى أن تكون حقيقة يعيشها الناس، ولكل إنسان أن يتصور الصورة التي يدركها للحياة وما فيها، إلا أن واقع الحياة يختلف من إنسان لآخر.

وفي هذه القصيدة يحاول الشاعر أن يغلب الروح الجمالية في الحياة ويتخذ من الطبيعة ومضمونها وما فيها من أحياء وحركة جانباً يدلل به على بساطة الحياة وسهولتها، ويدعو الناس للتمتع بها ما أمكنهم ذلك، وعليهم أن يتخلصوا من الهموم والتفكير فيما يؤول إليه أمرهم، ولهم في الطيور التي تعب من كؤوس الحياة والطبيعة عبرة ومثل يهتدون به، فهي لا تفكر إلا في ساعتها، وتتمتع بأقصى ما تستطيع من مظاهر الحياة ومباهجها، فعلى الإنسان وهو أحوج منها إلى هذه المتعة أن يسلك هذا المسلك، ولا ينظر للحياة إلا من الجانب المتفائل المضيء، وهذه على أي حال لفتة تمثل اتجاهاً من اتجاهات بعض الناس في فهمهم للحياة وفلسفتها وما فيها من مضمون وأهداف.

ويقول الشاعر أحمد الفقيه حسن[1] في قصيدة له بعنوان: نظرة في الحياة:

راحـة المـرء فـي الزمـان عنـاء ونعـــيم الحيـــاة فيـــه شـــقاء
أشـبهت بعضـها الأنـاس ولكـن فرقـــت بـــين جمعهـــا الأهـــواء
كلنـا يطلـب الهنـاء ولـم يـدر بـــأن العنـــاء ذاك الهنـــاء
ويـــود الفتـــى صـــفاء حيـــاة فـــي زمـــان صـــفاؤه أقـــذاء
دائبـاً يطلـب الكثيـر مـن الـدنيا وإن القليـــل منهـــا غنـــاء
كـــل ذي مســـكة عـــيش عـن جميـع الـورى لديـه اكتفـاء
واللبيـب اللبيـب مـن كـان عفـا عـن ثـراء يشـقى بـه الأثريـاء
والصـديق الصـدوق مـن كـان عونـاً
فـــي مقـــام يشـــتد فيـــه البـــلاء
لا تغرنـــك البشاشـــة ممـــن وده كالســـراب مـــا فيـــه مـــاء
قلت الأصدقاء ما بين كل الناس إذ جـــل مـــن تـــرى أدعيـــاء

---

[1] ديوان أحمد الفقيه حسن، وزارة الأعلام والثقافة، ط1 - 1966م، ص319.

إن مــن يطلــب الوفــاء غبــي   فــي زمــان قـد ضــاع فيـه الوفـاء

ففي هذه القصيدة نظرة للحياة تختلف عن السابقة، وفيها بيّن الشاعر أن الراحة التي يطلبها الإنسان في هذا الزمان هي التعب والمشقة، والنعيم في هذه الحياة هو الشقاء الحقيقي؛ لأن المرء كلما تحصل على شيء من الدنيا دعاه ذلك إلى المزيد منها ومضاعفة الجهد فيها، والناس في الحياة متشابهون إلا أن أهواءهم مختلفة، والجميع يطلبون الهناء ولم يدركوا بأن هذا الهناء هو التعب بعينه.

ويطلب الإنسان صفاء الحياة في الزمان الذي أصبح فيه هذا الطلب من الأقذاء، وهو يجري وراء الإكثار من الدنيا في حين أن القليل منها غنى، وكل من له نصيب من العيش فهو كاف له عن جميع الخلق، فالكيس في هذه الدنيا من جنب نفسه الثراء الذي نرى الأثرياء به أشقياء في حياتهم ومعيشتهم فيها، فلا راحة لهم ولا هناء حيث أنهم في تعب مستمر، وهذا أمر نلمسه ونحسّ به ممن نلتقي بهم من أصحاب الأموال والأعمال ومن جرى على شاكلتهم، فالإنسان العزيز حقيقة هو ذلك القنوع بما عنده من نصيب قسمه الله له، فلا يهز عقله ذلك البريق الزائف الذي يجده الكثير من الناس في نظرهم للثراء، كما أن الصديق الحقيقي هو الذي يكون لك عوناً في أوقات الشدة، وأما في أوقات الراحة فكل الناس لك أصدقاء، وخاصة أولئك الذين يظهرون لك البشاشة وهم كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وقد قلت الصداقة الحقيقية بين الناس، فغالبهم يدّعونها ولكنهم في الواقع ما هم إلا أدعياء، والذي ينشد الوفاء في زمان ضاع فيه الوفاء إنسان غبي لا يفهم الحياة ولا يدرك موازينها وما ينبغي أن تكيف به.

هذه نظرة للحياة فيها تقدير كامل لكل ما ينبغي أن يسلكه الإنسان فيها من حكمة وروية وتقدير للظروف التي يمر بها وهو يتقلب في دروبها ومسالكها ومتاهاتها الكثيرة المتعددة، وهي لا تصفى لكل إنسان، والزمان دائماً غير مأمون الجانب والناس فيها غير متفقين في أهوائهم ومشاربهم، فبعضهم يتكالب على الدنيا وزينتها، وبعضهم الآخر زاهد فيها، والإخلاص في الود منهم قليل جداً.

وفي هذه النظرة نحس بالإيمان الذي يستولي على نفس الشاعر، وبالروح العصامية التي تسيطر عليه حتى تكون الثقة الحقيقية لديه في هذه الحياة هي الجد في العمل والإخلاص للواجب الذي يحسّ به الإنسان داخل نفسه بحيث يكون ذلك منبعثاً من المثل العليا التي يؤمن بها، والتي تؤكد بأن الإنسان له دور في هذه الحياة لابد من أن يؤديه، ولا يكون فيه سلبياً كما يتبادر إلى الذهن من الفهم المبدئي إلى هذه القصيدة التي تعكس صورة من تصور هذا الشاعر الإنسان للحياة، وهي صورة تمثل النظرة الجادة التي ينبغي أن تفهم بها الحياة، وأن يكون تصرف الناس فيها على هذا المنوال.

وبين هذه النظرة للحياة، والنظرة التي تراها من جانب اللامبالاة اختلاف كبير، ومبعثه الإدراك المتباين لمضمون الحياة، وهو الأمر الذي نلحظه بين الناس في مختلف العصور والبيئات والمجتمعات، وهو أمر عادي لا يكاد البحث فيه يحتاج إلى برهان أو دليل، ومنه كانت المجتمعات الإنسانية متفاوتة في ظروفها وملابساتها وسلوكها في هذه الحياة التي لا تنتهي عند حد من الحدود مادام الإنسان والفكر ومادامت البشرية في هذا الوجود.

2 ـ فنظرة إيليا أبي ماضي للحياة في قصيدته: (فلسفة الحياة) نظرة خيالية فيها شفافية الشاعر وخياله وأحلامه التي يحسّ بها ويتمنى أن تكون حقيقة يعيشها الناس ويحيونها، وهي من التصورات التي خطرت بباله، ولكل إنسان أن يتصور الصورة التي يراها للحياة وما فيها، إلا أن الواقع يختلف من إنسان إلى آخر، وفي هذه الصورة يحاول الشاعر أن يغلب الروح الجمالية في الحياة ويتخذ من الطبيعة ومضمونها وما فيها من أحياء وحركة جانباً يدلل به على بساطة الحياة وسهولتها ويدعو الناس للتمتع بها ما أمكنهم، وعليهم أن يتخلصوا من الهموم والتفكير فيما يؤول إليه أمرهم، ولهم في الطيور التي تعب من كؤوس الطبيعة عبرة ومثل يحتذى، فهي لا تفكر إلا في ساعتها وتتمتع بأقصى ما تستطيع أن تتمتع به من مظاهر الحياة ومباهجها، فعلى الإنسان وهو أحوج منها إلى هذه المتعة أن يسلك هذا السبيل ولا ينظر للحياة إلا من جانبها المتفائل المضيء.

هذه لفتة تمثل اتجاهاً من اتجاهات بعض الناس في فهمهم للحياة وما لها من أهداف ومضامين.

وهناك من الناس من يرى غير ذلك مثل نظرة الشاعر أحمد الفقيه حسن في قصيدته: (نظرة للحياة) التي سبق التنويه عنها، ولأبي القاسم الشابي[1] في هذا المجال نظرة للحياة في قصيدة له بعنوان: نظرة في الحياة، وفيها يقول:

إن الحيـــــاة صـــــراع فيهـــا الضــعيف يـــداس
مـــا فـــاز فـــي مـــا صـــنفها إلا شـــديد المـــراس
للخـــب فيهـــا شـــجون فكـــن نقـــي الاحتـــراس

[1] أبو القاسم كرو، الشابي شعره حياته، الشركة التونسية للتوزيع - 1973م، ص163.

الكـــــون كـــــون شـــــقاء الكـــــون كـــــون التبـــــاس
الكـــــون كـــــون اخـــــتلاف وضـــــجة واخـــــتلاس

* * *

بـــين النوائـــب بـــون للنـــاس فيـــه مزايـــا
الـــبعض لـــم يـــدر إلا البلـــى ينـــادي البلايـــا
والـــبعض مـــا ذاق منهـــا ســـوى حقيـــر الزرايـــا
إن الحيـــاة ســـبات سينقضـــي بالمنايـــا
ومـــا الـــرؤى فيـــه إلا آمالنـــا والخطايـــا
فـــإن تـــيقظ كانـــت بـــين الجفـــون بقايـــا

* * *

إن الســـكينة روح فـــي الليـــل ليســـت تضـــام
والـــروح شـــعلة نـــور مـــن فـــوق كـــل نظـــام
لا تنطفـــي بريـــاح الإرهـــاق أو بالحســـام
بـــل قـــد يعـــج لظاهـــا ســـيلاً ويطفـــي الضـــرام
كـــل البلايـــا جميعـــاً تفنـــى ويحيـــا الســـلام
والـــذل ســـبة عـــار لا يرتضـــيه الكـــرام

* * *

الفجـــر يســـطع بعـــد الـــدجى ويـــأتي الضـــياء
ويرقـــد الليـــل قســـرا علـــى مهـــاد العفـــاء
وللشـــعوب حيـــاة حينـــاً، وحينـــاً فنـــاء
واليـــأس مـــوت ولكـــن مـــوت يثيـــر الشـــقاء
والجـــد للشـــعب روح تـــوحي إليـــه الهنـــاء
فـــإن تولـــت تصـــدت حياتـــه للـــبلاء

فالحياة صراع لا مكان فيها للضعيف، وما فاز فيها إلا شديد المراس، وللإنسان المخادع فيها حيل شتى، فينبغي أن يكون الإنسان فيها على حذر، والكون الذي يحتوي هذه الحياة مليء بالمتناقضات، فهو كون شقاء والتباس واختلاف وضجيج واختلاس، ويستوي فيه السرور والحزن، ونوائب الدهر فروق للناس فيها ميزات، بعضهم لم يدر إلا الفناء مرتبط بالشدائد، وبعضهم الآخر ما ذاق من الحياة إلا المصائب، وهي في حقيقتها نعاس يختم بالموت والأحلام، فيه آمالنا وخطايانا التي نرتكبها في حق أنفسنا ومن نتصل به من الأحياء، والسكينة والتروي في الأمور والنظر لها في تؤدة وإحكام روح، والروح شعلة من النور لا يقيدها نظام ولا تطفئها رياح التعسف، بل يزيدها ذلك قسوة، وتشتعل لظاها حتى تأتي على كل شيء يقف في طريقها، وجميع المصاعب التي تقف في طريقها تزول ويبقى ما ينبغي أن يكون، ذلك أن الفجر يشرق بنوره بعد الظلام الذي يلف الكون بردائه القاتم السواد، ويأتي الضياء ليعم الكون والوجود.

والشعوب لها حياة حيناً وحيناً لها فناء، فأما حياتها ففي العمل الجاد والكفاح المتواصل من أجل الغد الأفضل، وأما فناؤها ففي الاستسلام للواقع والرضى بحياة الهوان والدون، واليأس في حقيقته موت مثير للشقاء، وأما الجد فهو للشعب روح توحي إليه الهناء، وحياة العزة والكرامة، وإن بعدت عنه هذه الروح أصبحت حياته عرضة للبلاء الذي يحيط به من كل مكان.

هذه هي نظرة الحياة في نظر أبي القاسم الشابي بوجه إجمالي، وهي نظرة فيها من العمق ما يدل على بصر الشاعر بألوان الحياة وما فيها من ملابسات ومواقف للأحياء، وتصرفات الناس بصفة عامة، ذلك أن الناس في هذه الحياة يعملون من أجل تحقيق أهدافهم التي كثيراً ما تكون متعارضة، الأمر الذي من

أجله كانت الحياة صراعاً لا يقوى الضعيف على مقاومته والتصدي له، والكون في إجماله متناقض، والمصاعب التي تقف في سبيل الإنسان وما يرغب تحقيقه من آمال كثيرة، ولذلك فإن النظر في الأمور التي تعترض سبيل الإنسان في هذه الحياة بروية وتثبت هو الروح التي تنير السبيل أمام هذا الإنسان في هذه الحياة، وهي القوة الدافعة للفرد والجماعة من أجل حياة وغد أفضل، وهي الأساس التي ينطلق منه الشعب للحياة التي يريدها ويرى فيها حريته وتطبيق مبادئه التي يؤمن بها ويكافح من أجلها ومن أجل تأكيدها وتدعيم أواصرها بين أفراده ليكونوا مثلاً أعلى في الكفاح من أجل آمالهم وطموحهم في الحياة، وإذا تجرد الشعب من هذه الروح فإن حياته سوف تكون عرضة للفناء وسوف يتسلل المتسلقون إلى مقدراته ليستولوا عليها، ولكن إيمان الشعوب بحقها في الحياة وما ينبغي أن تكون عليه من الحرية والكرامة سوف يكون الدرع الواقي لها، وسوف يرد أولئك المتسللين على أعقابهم.

وإذا أمعنا النظر في وجهات النظر التي رأيناها في فلسفة الحياة لدى هؤلاء المفكرين فسنجد أن الحياة مجال فسيح، لكل إنسان فيه رأيه الخاص، ولكن مهما اختلفت الآراء فإن الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نؤكده هو أن الاستفادة من الحياة أمر وارد لدى كل ذي رأي، ولكن كل حسب اتجاهه، فإن كان جاداً فالاستفادة جادة في أوجه البذل والعطاء، وحبات العرق ليكون مردود الحياة سخياً، وأما إذا كان عكس ذلك فإن الاستفادة ستكون في الإغراق بالتمتع بالطبيعة ومظاهرها وما فيها من روعة وجمال.

3 ـ هذه بعض النظرات للحياة، وهناك من ينظر إليها نظرات أخرى قاتمة السواد بحيث لا يحسّ بالحياة إلا من جانب الشر أو الجنس، ولاشك في أن ذلك بعيد عن الواقع الذي يجب أن تفهم به الحياة حتى يسلكها الأحياء

بالطريقة التي تجعل المجتمع الإنساني يسوده الإخاء والمودة، وتجعل من أفراده عناصر مساعدة في ربط قواعد هذا المجتمع على العدل والأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن تسود بينهم، حتى تسير الحياة في الإطار الحقيقي الذي ينبغي أن يشملها.

والإنسان وهو يبحث عن نفسه في دروب الحياة سوف يؤكد له المادة الأساسية التي تنطلق منها الحياة والتي لا يمكن للحياة أن تستقر على مبدأ أصيل ما لم يفهم الإنسان دوره الطليعي في هذه الحياة، ذلك أن كل شيء في هذا الوجود مسخر للإنسان، ويستطيع أن يستغله بواسطة عقله وتفكيره، غير أن هذا الإنسان لم يتمكن رغم ذلك من استغلال كل ما في هذا الوجود وحاول فقط أن يتنافس مع أخيه الإنسان، الأمر الذي أحال الحياة إلى صراع دائم ومستمر بين الجماعات والمجتمعات والبيئات الإنسانية، بل ودعا ذلك إلى استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، فكانت الحروب وكان الاستعمار وكان الكفاح من أجل الحرية ومن أجل الحياة.

وهكذا تتلون صور الحياة ويتلون الإدراك لها ولمضمونها وما فيها من أبعاد وحقائق تجعل العقل يجري وراء إدراكها وتصويرها بالهيئة والكنه الذي يمثلها.

وفي كل عصر ومجتمع ترى الناس يفهمون الحياة بتصورهم الخاص ويكيفونها بالطريقة التي يحسون بتحقيق أهدافهم فيها بواسطتها، ومع ذلك فهم غير متفقين في هذا الفهم، إلا أنهم يعملون من أجل الحياة ويسيرون في فلكها، وهي دائماً هي الحياة لا تنفك عن الحركة والتفاعل والدوران وتطلب المزيد من السعي والتفاعل والأخذ والعطاء.

2. الأدب وقضايا الحياة:

1 . الاهتمام الشامل في الدراسات الأدبية بقضايا الحياة يرجع إلى أصل الأفكار التي ترى أن الأدب هو المعبر الحقيقي عن كل ما يكمن في الحياة من نشاط، وعن كل ما يدور فيها من مفاهيم يتفق الناس على أنها هي المترجم لكل ما يدور في نفوسهم من أفكار تعالج الواقع الاجتماعي الذي يحيونه ويرون فيه حاجاتهم من الحياة التي تضمهم في إطارها العام بكل ما لديهم من طموح وأهداف توصلهم إلى ما يريدون تحقيقه من غايات تعود عليهم جميعاً بالإصلاح الشامل الذي ينشدونه ويرونه من أهم الوسائل الإيجابية لحل مشاكلهم المختلفة المتعددة التي تموج بها الحياة وتعج بها دروبها ومسالكها المتنوعة.

ومن هنا كان طرح القضايا العامة والخاصة في الدراسات الأدبية، وكان اختلاف وجهات النظر في هذه القضايا وما فيها من مضامين تتصل بالواقع أحياناً، وتتصل بالمستقبل أحياناً أخرى، وما ينبغي أن يقدم له من فروض.

وإذا كان طرح القضايا العامة في الدراسات الأدبية في غالب أحواله يتخذ أسلوباً يتسم بالتعميم، الأمر الذي يراه بعض الدارسين غير مفيد للواقع من الحياة فإنه بكل ما فيه من شمول أمر لابد منه بالنسبة للدراسة والمقارنة والاستقصاء، ذلك أن جميع القضايا الإنسانية حين تعالج إنما تعالج على ضوء قوانين ومقارنات عامة، ومنها يكون التخصص والانطلاق إلى الواقع.

والمسألة في إجمالها تتلخص في أسلوب الدارس نفسه، هل يبدأ من الأمور الجزئية ومنها ينطلق إلى الأمور الكلية؟ أو يبدأ من الأمور الكلية ثم

ينطلق منها إلى الأمور الجزئية التي يفرضها التتبع والدراسة؟ فهذه قضية يرى كل باحث ودارس فيها رأيه الخاص حسب المنهج الذي يرسمه لنفسه في اهتمامه بالقضايا الفكرية والأدبية وغيرها، وهذا لا يعني التغاضي عن الواقع ودراسته واستقصاء ما فيه من جديد يبعث على التأمل وضرورة العلاج والاهتمام، بل بالأسلوب الشامل تتأكد النظرة الموضوعية التي تأخذ الأمور على حقيقتها، وتدعو للرجوع إلى القواعد الفكرية العامة التي تقوم على العلم والتجربة الصادقة، الأمر الذي يعطي للواقع حقيقته وحجمه في اهتمام الكتاب والباحثين وتقويمهم له ونقده بكل ما فيه من عيوب ومحاسن يستطيع الدارس أن يخرج منها بالنتائج الإيجابية المطلوبة التي تتوخى الأحكام الصائبة التي تشد الانتباه للمهتمين بقضايا الحياة وتطور الفكر وألوانه وما فيه من جديد وتجديد، حسب المفاهيم المعاصرة التي يزخر بها الواقع ويلمسها الناس من ممارستهم، لكل ما في الحياة من ملابسات وتطور، ولكل ما في ذلك من أبعاد وأعماق لها تأثيرها وفاعليتها في التأثير على الإنتاج الفكري والأدبي وإثرائه ودفعه إلى الأمام، حيث تنفذ إلى ما يدور في الأوساط الاجتماعية من معان لها الصلة الأكيدة بكل ما يعانونه في الحياة من قضايا، وخاصة تلك التي تتعلق بما لديهم من أحاسيس ومشاعر لا يستطيعون الانفصال عنها أو مجرد الإحساس بها.

2 ـ ومهما يبلغ الاهتمام الشامل في الدراسات الأدبية من مدى فإنه دائماً يدور في قضايا الحياة، ودائماً ينقل الصور التي تجري من خلالها من أجل البحث عن الحقيقة والوصول إلى ما فيها من أوجه واحتمال يستطيع الإنسان أن يستفيد منه وهو يشق طريقه في الحياة ليواكب التقدم ويعالج الواقع الذي

يحياه ويقدم للمجتمع ما يعود عليه بالإصلاح والتقدم، يقول إبراهيم بن كنف[1] أحد الشعراء الإسلاميين الأوائل موصياً بالصبر عند نزول النوائب:

تعزّ فإن الصبر بالحر أجمل ... وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً ... لحادثة أو كان يغني التذلل

لكان التعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر أولى وأجمل

فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامه ... وما لامرئ عما قضى الله مرحل

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسي ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قناة صليبة ... ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

ولكن رحلناها نفوساً أبية ... تحمل ما لا تستطيع فتحمل

فهو يوصي بالصبر ويبين أن مرور الزمن ليس عليه معول بالنسبة للإنسان الذي له نظر بعيد وإيمان قوي، وإذا كان الإنسان يرى جزوعاً عند النوازل ذليلاً لها، فإن الصبر عند نزول الشدائد بهذا الإنسان إذا كان حراً أبياً كامل الإيمان راسخ العقيدة أولى بذلك وأجمل، حيث أن كل إنسان مهما بلغ به الأمد له أجل محدد لا يمكن له أن يتعداه: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}[2]، وليس للإنسان عن قضاء الله وقدره من مفر، مهما بلغت به الظروف والأحوال، ثم يرجع الشاعر لبيان حاله من ذلك فيوضح أن الأيام وإن تبدلت معه بالبؤس أحياناً والنعيم أحياناً أخرى، والحوادث معها تفعل الأفاعيل فما غيّر ذلك منه شيئاً؛ لقوة إيمانه وأصالة عقيدته التي تقوم على الإيمان بقضاء الله وقدره، ولذلك لم تستطع أن تفل من عزمه أو تذله للأمور التي لا

---

[1] جواهر الأدب السابق، 2/278.

[2] الآية 32 من سورة الأعراف.

يجمل بمثله أن يتقلب فيها أو يسلك سبيلها، ورحل في الحياة مع هذه الأيام بنفس أبية عن الدنايا لها من الجلد والصبر القدرة الكافية حيث تحمل ما تستطيع فتحمله؛ لأنها نفس أبية دربت على المرور بهذه المواقف ولديها الصبر الكافي من إيمانها العميق بما يجب أن يكون في هذه المواقف وغيرها من مواقف الإباء والبطولة والصبر واحتمال المكاره والشدائد.

وحين نمعن النظر في هذه القطعة نجد الشاعر قد سلك فيها أسلوب التعميم أولاً، ثم دخل في التفصيل، فهو يحض على الصبر لأنه صفة حميدة للإنسان، ويسترسل في بيان المواقف التي يتعرض لها الإنسان وكلها قد تكون بعيدة عن الصبر، لأنها فقط ظروف خاصة بالإنسان وما أوتيه من قدرة على الاحتمال، الأمر الذي يختلف فيه الناس، حيث يكون لدى بعضهم الاحتمال الذي لا يتصور، ويكون لدى بعضهم الآخر الموقف المناقض لذلك تماماً، وقد يكون هناك موقف وسط عند بعض الآخرين من هؤلاء الناس، وهذه على أية حال مسألة عامة يشترك الناس جميعاً في الإحساس بها والتعرض لما ينتج عنها، وقد عالجها الشاعر بأسلوبه الخاص الذي تنقل فيه من العام إلى الخاص، واستطاع أن يبسط قضية الصبر وما يجب أن يكون موقف الناس منها فيما يحل بهم من نوازل وما يفاجئهم به الدهر من أحداث.

وتبدو في هذه القطعة عقيدة الشاعر بالقضاء والقدر، حيث يسجل إيمانه الصادق بذلك ومنه يسلك في تصرفه في الحياة، حيث لا يبالي بشيء مادام النافع والضار في الحقيقة هو الله ﷻ، ولم يخضع لحوادث الزمن أو يستذل لها، وإنما سار معها بنفس أبية تصبر للشدة كما تقبل على الرخاء.

والشاعر قد سلك في هذه القطعة مسلكاً كان يحمل فيه مسؤولية ما ينتج من حوادث ونوازل للزمن والدهر حتى كأنه هو الفاعل الحقيقي لكل ما يحل بالإنسان؛ لأن هذا الأسلوب هو الذي كان سائداً في عصره، وهو أسلوب عرف في فترة طويلة من الزمن عند الشعراء التقليديين الذين كانوا يئنون من الزمان ويشكون منه ومن صروفه ومن نوازله، مع إيمانهم القاطع بأن الزمن لا دخل له في ذلك، والفاعل الحقيقي إنما هو الله ﷻ الذي بيده ناصية كل شيء في هذا الوجود وهو على كل شيء قدير.

3 ـ وفي هذا المعنى يقول أبو ذؤيب الهذلي[1] راثياً بنيه الخمسة حين ماتوا بالطاعون:

أمــن المنــون وريبهــا تتوجــع	والــدهر لــيس بمعتــب مــن يجــزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً	منــذ ابتــذلت ومثــل مالــك ينفــع
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعاً	ألا أقــض عليــك ذاك المضــجع
فأجبتهــا أن مــا لجســمي أنــه	أودى بنـــي مـــن الـــبلاد فودعـــوا
أودى بنـــي وأعقبـــوني حســـرة	بعـــد الرقـــاد وعبـــرة مـــا تقلـــع
ســبقوا هــوى وأعنقــوا لهــواهم	فتحرمـــوا ولكـــل جنـــب مصـــرع
ولبثــت بعــدهم بعــيش ناصــب	وأخـــال أنـــي لاحـــق مســـتتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم	وإذا المنيـــة أقبلـــت لا تـــدفع
وإذا المنيــة أنشــبت أظفارهــا	ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع
فــالعين بعــدهم كــأن حــداقها	كحلــت بشــوك فهــي عــور تــدمع
حتـــى كـــأني للحـــوادث مـــروة	بالصـــفا المشـــقر كـــل يـــوم تقـــرع

---

[1] فخر الدين عامر وأخرون، النصوص المختارة، مكتبة طرابلس العالمية، ص93.

وتجلـــدي للشـــامتين أريهـــم   أنـــي لريـب الـدهر لا أتضعضـع

فهو يبدأ القصيدة بخطاب نفسه ومحاورتها في إحساسها بالألم من الموت وما يأتي به الدهر من أحداث، ثم يستمر في المحاورة مع أميمة هذه التي تعرض لها، موضحاً واقعه المر الذي خلفه له فقد بنيه الذين حرص على الدفاع عنهم، إلا أن الموت عاجلهم، وإذا أقبل لا مرد له، فهو حكم الله الذي لا راد لقضائه: {والله يحكم لا معقب لحكمه}[1]، وهنا يبين الشاعر أن القضاء والقدر قد حكم عليه فيسلم بذلك ويقره، غير أنه رغم اهتزازه لما حل به من ألم نفسي يحاول أن يظهر لمن يحسّ بالشماتة منه تجلده وصبره الذي لم يكن معه في هذا الموقف العصيب.

وفي هذه القطعة نرى الشاعر يتأرجح في مشاعره بين الزمان والحوادث والقضاء والقدر الذي لا مفر منه، فهو ينحى باللائمة على الدهر الذي لا يعتب ويراجع ما فات منه، وفي الوقت نفسه يؤكد أن المنية إذا أقبلت لا تدفع، وخلال ذلك كله يؤكد تحسره وآلامه وما يدور في نفسه من كلوم حتى كأنه للحوادث متكا وحجر يزيدها اشتعالاً وأواراً.

وإذا كانت هذه القطعة من البكائيات التي كانت صادرة من أعماق النفس، فإنها أيضاً تصوير دقيق لما تصاب به النفس البشرية من جروح غائرة نافذة إلى أبعد ما فيها من أعماق، وهي كذلك مما استخدم فيه الدهر باعتباره مصدراً لما يحل بالإنسان من أحداث ونوازل، وهذه قضية عامة كان الشاعر فيها منطلقاً من الجزء وهو حالته التي وصفها، إلى الكل الذي هو الدهر والأنين

---

[1] الآية: 42 من سورة الرعد.

منه ومن صروفه التي تتوالى ولا ترحم، وليس للإنسان منها من مفر مهما أخذ من الحيطة والاحتراز.

3. الإنسان والحياة:

1 . وحياة الإنسان بكل ما تحويه من أبعاد تمثل المسار الحقيقي لتصرفه، وتنطوي على كل ما يدور فيه من مفاهيم، سواء كان ذلك فيما يتعلق بخاصية نفسه، أو فيما يتعلق بالآخرين والتعامل معهم على مختلف مستويات هذا التعامل ودقته وتأثيره وآثاره البعيدة والقريبة التي يكون لها الصدى العميق في الأوساط الاجتماعية التي يتألف منها هذا الإنسان، وتكون بهذا الصدى ذلك السلوك الاجتماعي العام الذي يألفه الناس فيما بينهم ويتخذونه مقياساً لكل ما يرونه أو يجد لديهم من جديد، ومن هنا تكون المنطلقات الأساسية التي يسيرون معها في حياتهم العامة واضحة لهم جميعاً، ويكون سلوكهم العام قائماً على أساس ما فيها من مبادئ عامة تؤكد صلتهم بعضهم ببعض، وتربط قواعدهم الاجتماعية العامة وما فيها من أعراف لا يرون الحياة إلا من خلالها، ولا يدركون القواعد الاجتماعية الأصيلة إلا بما فيها من بساطة ووضوح يقوم على مقدار ما لديهم من ارتباط واتصال أكيد بواقع الحياة التي يتقلبون فيها ويسيرون في دروبها التي تتكيف تبعاً لما هم فيه من مفاهيم وتبعاً لما يؤمنون به من عادات وتقاليد غالباً ما يكون واقعهم الاجتماعي قد ورثها من الماضي البعيد دون أن يكون لتفكيرهم فيها رأي وتعقل، الأمر الذي يجدون أنفسهم فيه سائرين في منطلقات اجتماعية بعيدة عن الواقع والمنطق.

ويستوي في ذلك المفكر والمثقف وغيرهما ممن هم بعيدون عن التفكير والتأمل، والمهم فقط في هذا الصدد أن الخط الذي يسيرون عليه في الحياة هو

الأساس العام الذي يحترمه الناس ويرون من خلاله السلوك الفاضل، لأنه أمر متوارث بينهم جميعاً منذ مئات السنين، ومنذ حقب طويلة من الدهر.

وهذا وحده كاف لأن يجعله قضية مسلمة غير قابلة للبحث والنقاش وإيراد الاحتمال، فضلاً عن كونه قابلاً للطرح وتبادل وجهات النظر فيه بما يتطلبه الواقع الاجتماعي والتطور، وما تفرضه ظروف الحياة وما فيها من تكاليف ومقتضيات لابد للإنسان من الاستجابة لها وتحقيقها حتى يحقق ذاته ويؤكد ارتباطه بالواقع المعاش الذي يفرضه المجتمع وتؤكده البيئة بكل ما فيها من معان وتيارات تدور فيها صور الحياة العامة والخاصة على السواء.

وإذا حاول الأدب العربي أن يقدم نماذج لسلوك الإنسان في الحياة، فإنه بذلك إنما يقدم صورة للحقيقة العامة التي يدور فيها هذا الوجود بما يحويه من صور وألوان قد تتجاوز حقيقة الإنسان ومفاهيم الحياة؛ لأنه يحكي النموذج الحي لما في الأدب من تفسير، ولما في التأمل الأدبي من معان ليست مقتصرة على فهم الإنسان وسلوكه وتصرفه في الحياة، بل تشمل كل ما يضمه الكون ويتصوره العقل والإدراك من أشياء يحيط بها الحسّ والشعور والوجدان، تارة تتحقق في عالم الواقع، وأخرى لا وجود لها في الحياة وخفايا المشاعر والمدارك.

ومهما يكن من شيء فإن الأدب العربي وحياة الإنسان وسلوكه والتأمل في الكون وما فيه من أمور متلازمة لا يمكن الفصل ولا فهم حقائقها إلا على أساس ما فيها من ارتباط واتصال، ومن هنا كان الأدب مرآة عاكسة لحياة المجتمع الإنساني، وأصبح الأدب الذي لا يخدم الحياة الاجتماعية العامة أدباً غير هادف وبعيداً عن روح الإصلاح والتقدم والبناء والنظرة السديدة.

يقول الشيخ أحمد الشارف[1] في وصف إنسان متكبر يأنف بنفسه على الناس ويرى تركيبه من طينة غير الطينة التي ركب منها الناس الآخرون:

يا من غدا بالتيه يرفع أنفه   نحو السماء وأصله في الماء
وأراه إن لاقيته متذمراً   وقد ارتدى من كبره برداء
وبحسن هيكله ولين قوامه   يمشي ويخطر مشية الخيلاء
وإذا الذبابة لامسته كأنها   وقعت على كأس من الصهباء
بالله قل لي من تكون وكم أرى   في الناس مثلك من بني الغبراء
هل أنت من أفق السماء خلقت أم
كالناس خلقت من طين وماء
اخفض جناحك لابن جنسك واعتبر
سحر البيان وحكمة الشعراء
وارفق ولا تهن الضعيف لضعفه
ومن الشقاء إهانة الضعفاء

هذه الصورة ينقلها الشارف من الحياة التي تعج بأصناف من الناس الذين يختلفون في السلوك العام، وفي فهم الحياة وما فيها من مفاهيم وصور يدركها كل منهم بفهمه الخاص، ويكيف نفسه على ضوء ذلك.

والشاعر وقد لفت انتباهه ذلك التصرف الذي لم يكن له به عهد من عامة الناس الذي يشاركونه ملابسات الحياة وما فيها من سلوك، فاستولى عليه شعور الاستنكار والتعجب من هذه الظاهرة التي لم تكن مألوفة لديه، وفيها بعد عن الأخلاق الفاضلة وما يأمر به الدين والعرف الاجتماعي، فصور هذا

[1] علي مصطفى المصراتي السابق، ص223.

النموذج بريشته وإحساسه ذلك النموذج الذي غدا بالتيه يرفع أنفسه وهو من ماء مهين، وجميع تصرفاته مغلفة بالكبر والأنفة على الناس من حوله، فهو نوع غريب وعجيب، ولذلك خاطبه الشاعر متسائلاً: من يكون؟ حتى يسير في هذا الضلال الذي لا يليق بالإنسان العاقل أن يتورط فيه، فإذا كان مخلوق من السماء وهذا أمر مستحيل فعليه أن ينظر لأهل الأرض، وإن كان مثل الناس مخلوقاً من الطين والماء فإنه يجب عليه أن يتصرف في الحياة مثلهم بحيث يكون سلوكه بينهم مرغوباً، الأمر الذي به يخفض جناحه لأبناء جنسه ويعتبر بسحر البيان وحكمة الشعراء، ويرفق بالناس وخاصة الضعفاء منهم، فلا ينبغي له أن يهينهم لأنهم ضعفاء، لأن ذلك هو الشقاء بعينه.

والشارف في هذه القطعة ينقل لنا من الواقع الصور التي تعج بها الحياة، ويصور لنا النماذج التي يتألف منها المجتمع، وخلال ذلك يضع أيدينا على مواطن الضعف في الحياة التي تتصل بالسلوك الإنساني الذي هو الأساس الحقيقي لما في الحياة الاجتماعية من معان، ولما في هذه المعاني من آثار تعد قواعد عامة يحترمها الناس ويقدرونها ويرون فيها المثل الصادق لنقاء الحياة وتذوقها، وما يجب أن يسود بين الناس من موازين، وما ينبغي أن يتخلوا عنه من صفات تعوق إحكام الرابطة الاجتماعية بينهم، مثل الكبرياء والأنفة وما في حكمهما مما يعد مرضاً من الأمراض الاجتماعية التي ينبغي أن يتصدى لها المصلحون وبناة الفكر الإنساني، الذين يبحثون عن الدوافع الإيجابية في الحياة لكل المجتمعات الإنسانية حتى تكون حياة الناس بعيدة عن المنغصات والعوائق التي تحول بينهم وبين الصفاء الذي تتطلبه روح العمل والنشاط النزيه المبدع الذي يجعلهم جميعاً يشعرون بدورهم في الحياة

الاجتماعية التي يحيونها، ويؤكد وجودهم من خلالها وثنايا ما فيها من روابط لها الأثر البالغ في بث التقدم البناء الهادف.

والشارف حين يلتقط مثل هذه الصورة من خلال ما يشاهده في الحياة الاجتماعية التي يحياها، إنما يسجل بذلك قوة ارتباطه بالبيئة التي كان يعيش بين أركانها، ويعمق فهمه لما كان يدور على مسرح الحياة من ألوان وصور لها آثارها في تكوين الواقع الاجتماعي الذي كان الناس يعيشونه ويسجلون ما يجري فيه من ألوان، بعضها يتفق مع القواعد العامة التي يجري عليها الناس ويرغبونها، وبعضها الآخر يتناقض معها ولا يتفق مع ما يرغبه الناس ويرتضونه، وسواء كانت هذه الصورة التي رسمها الشاعر معبرة عن الإحساس الذي كان الناس يتجاوبون معه أو غير معبرة عنه فإنها نوع من الصور التي تجري على صعيد الواقع، وهو كشاعر قد تأثر بها وترجم عن مشاعره فيها، وقد مثلت معاناته وانفعاله الذي كان يدور في نفسه.

وفي هذه الصورة نجد الأدب الهادف الذي يهتم بواقع الحياة وما يدور في الأوساط الاجتماعية من تصرف وسلوك، وما في هذا التصرف من معان بعيدة تعكس آثارها على الحياة العامة التي يحياها الناس ويتقلبون فيها، بكل ما لديهم من مشاعر وأحاسيس، وبكل ما يمكن أن يؤكدوه من صور صادقة لهذه المشاعر التي تطغى عليهم جميعاً ويشتركون في الاستفادة منها أو الضرر بها.

وتجاوب الشارف مع واقع المجتمع الذي كان يعيش فيه يدل على عمق إحساسه بما كان يجري في المحيط الذي يضمه، ويؤكد صدق مشاعره وشاعريته التي لا تنفصل عن بيئته والانتماء إليها ومحاولة فتح آفاق الإصلاح

بين أركانها حتى تتطهر من جميع العوامل التي تشده إلى الوراء ولا تبعث فيها الإصلاح والتقدم.

وإذا حاول الشاعر من خلال هذه الصورة أن يسلك سبيل الإرشاد بما ساقه من عبارات، فإن طبيعة الموضوع الذي شملته هذه الصورة هي التي فرضت عليه ذلك خاصة وأنه يتمتع بثقافة دينية لا تقبل التيه والكبر والخيلاء وغيرها من الأوصاف التي تمثل الأمراض الاجتماعية وتحكى حقيقتها على أصلها، وهذا في الحقيقة لا يقدح في هذه الصورة ولا يحط من قيمتها الأدبية بقدر ما يؤكد دورها الخطير في الإصلاح الاجتماعي وبناء الحياة الإنسانية على روح الصدق والتجاوب مع الواقع الذي يعيشه الناس ويمارسونه، الأمر الذي يصور التفكير وأساليبه وما فيه من آثار فعالة في تنظيم القواعد العامة التي يسير عليها الناس ويرون من خلالها كل ما يتحتم عليهم أن يحيطوا به من مفاهيم للواقع الاجتماعي الذي يشملهم جميعاً ويعيشون بين ظلاله بكل ما لها من أهداف وأبعاد.

وبهذه الصورة استطاع الشاعر أن يؤكد نظرة الأدب العربي الحديث للحياة، وأن يبرهن على أن الشاعر في كل زمان ومكان هو ابن بيئته، أولاً يصور همومها وما يجري فيها من آمال وطموح وما يصاحبها من تطور وأحداث ونماذج، يبدو فيها اللون الحقيقي للحياة الإنسانية العامة التي لا تنفك عن الحركة والتطور، ولا تستطيع أن تتخلص من الأسس العامة التي يتعارف عليها الناس ويتخذونها قاعدة للسلوك، يقوّمون بها كل ما يرونه سديداً وغير سديد من النماذج والتصرف وما يتصل به من قريب أو من بعيد في واقع الحياة التي يحيونها والبيئة التي يعيشون فيها.

3 . وإذا حاول بعض الناس الذين ينظرون للحياة من خلال مزاجهم السوداوي المتشائم أن يلونوا وجه الحياة العام بما يعتمل في نفوسهم من إحساس قاتم بعيد عن الواقع الذي يعيشه الناس ويمارسونه، فإنهم بذلك إنما يحاولون أن يفرضوا إحساسهم ويبرزوه حقيقة يسلم بها الناس ويدركونها، من خلال هذه الصورة التي يسوقها أولئك المتشائمون الذين لا يرون للحياة وجهها الصحيح الذي يمثل النور والإشراق ويبدد الظلام وحجبه مهما بلغت من القتامة والسواد.

وهؤلاء المتشائمون من الحياة وفي الحياة هم في الحقيقة والواقع ليسوا أناساً عاديين يصدق عليهم المقياس الصحيح لمفاهيم الحياة، وما فيها من صور وألوان تحكي طبيعة الأشياء وأسرارها، وما فيها من أبعاد وأعماق تخدم الإنسان وتفتح أمامه آفاق المستقبل الذي يطمح إليه من أجل السعادة والتطور والبقاء، وتقدم الحياة الاجتماعية في إطارها العام الذي يؤكد الروح الاجتماعية ويرسي دعائمها التي تقوم على البناء والإصلاح الدائب، الذي يعود على الأفراد والجماعات بالفائدة والنفع الشامل، الذي يحقق لهم جميعاً الآمال التي يصبون إليها.

وهذا الواقع الذي يمثل هؤلاء المتشائمين على حقيقتهم التي هم عليها ويصور نظرتهم الموغلة في الضبابية للحياة وما فيها من محتوى ومضمون، لا ينفي أنهم يستطيعون أن يقدموا من الصور التي تتراأى لهم في مفهوم الحياة ما يعد فريداً ومبتكراً في بابه؛ لأنهم ينقلون ما يدور في نفوسهم الجريحة من آلام وأسى وإحساس عميق بالقسوة وما فيها من وطأة وشدة على نفوسهم المتهالكة، الأمر الذي يعد صورة من الصدق في التصوير الذي يعكس ما لديهم من إحساس ووجدان ينبعث من أقاصي مشاعرهم التي لا تتحرك ذاتيتهم إلا من

خلالها، وفي إطارها العام الذي يترجم عن كل ما تحويه نفوسهم من معنى دقيق، سواء كان ذلك مطابقاً للواقع الذي يحياه الناس أو بعيداً عنه، إلا أنه يحكي ما لديهم من تصور وشعور.

والأدب العربي باعتباره سجلاً حافلاً بكل ما في الحياة من نماذج وصور قدم في هذا المجال من الصور والألوان ما هو فريد في موضوعه، سواء كان ذلك في تقديم تراجم هؤلاء المتشائمين وما لهم من سير، أو في نقل ما قدموه من إنتاج يصور أفكارهم ونظرتهم للحياة بنفس المنظار الذي سيطر على أبصارهم وبصائرهم، ولم يفرق في هذا المجال بين الشعراء والكتاب والفلاسفة والمفكرين الذين اتخذوا من الفكر والاهتمام به وسيلتهم في الحياة التي لا يرون سواها بديلاً في هذا الوجود.

4 ـ وقد حاولت نظرات هؤلاء الناس أن تتخذ من هذا الكون وما فيه من آفاق ومشتملات وصفحات ناصعة منطلقها ومادة تصويرها لما تؤمن به من مفاهيم إلا أنها لم تستطع أن تتجاوب مع ما فيه من رحابة وشمول، وهي وإن كانت قاصرة عن إدراك ما في هذا الكون من آفاق فسيحة تمثل النور والإشراق، إلا أنها استطاعت أن تصور بعض الجوانب التي تتألف منها النفس البشرية وتؤكد الإحساس بها وضرورة الاهتمام بما فيها من زوايا لابد من دراستها وتتبع ما فيها من خفايا، وخاصة الباعث على الإحساس بالظلام وعدم الإيمان بالجوانب الإيجابية في الحياة وما يدور فيها من ألوان تمثل الواقع وتحكي حقيقة ما يدور فيه من أفكار لها الصدى العميق في المجتمع الإنساني الذي تتجاذبه الأفكار بما فيها من فاعلية وصدق وسلب وإيجاب.

يقول الشاعر أبو القاسم الشابي[1] من قصيدة له بعنوان: السآمة

سئمت الحياة وما في الحياة وما أن تجاوزت فجر الشباب
سئمت الليالي وأوجاعها وما شعشعت من رحيق يصاب
فحطمت كأسي وألقيتها بوادي الأسى وجحيم العذاب
فأنّت وقد غمرتها الدموع وقرت وقد فاض منها الحباب
وألقى عليها الأسى ثوبه وأقبرها الصمت والاكتئاب
فأين الأماني وألحانها وأين الكؤوس وأين الشراب
لقد سحقتها أكف الظلام وقد رشفتها شفاه السراب
فما العيش في حومة بأسها شديد وصدّاحها لا يجاب
كئيب وحيد بآلامه وأحلامه شدوه الانتحاب
ذوت في الربيع أزاهيرها فنمن وقد مصهن التراب
لوين النحور على ذلة ومتن وأحلامهن العذاب
فحال الجمال وغاض العبير وأذوى الردى سحرهن العجاب

هذه السآمة التي تحكي النظرة القاتمة للحياة من وجهها الثاني الذي لا يمثل إلا الظلام واليأس والأسى والعدم، حيث تضيع الأماني والأحلام ولا يبقى من الإنسان إلا شعوره بالفراغ القاتل الذي يعيشه ولا يجد منه فكاكاً، وهي حالة لا تدعو للرغبة في الحياة والتشبث بها، تلك الحياة التي لا تمثل إلا الكآبة والوحدة والآلام والانتحاب والعدم والموت.

وهذه السآمة ليست إلا نظرة للشاعر في الحياة، فمن إحدى ساعات اليأس التي ألمت به وجعلته يبعد عن مفهوم الحياة الواسع الذي يتنافى مع العدم

---

[1] أبو القاسم كرو السابق، ص174.

والأسى والألم، ويحكي سر الوجود وما فيه من جمال يبعث في النفس الحركة والإحساس بالذات الإنسانية التي تحرك هذا الوجود وتجعله يتناغم مع الحياة وما فيها من ألوان وصور، وما في هذه الألوان والصور من معان ومضامين يتيه الإنسان في حصرها وفهم وتدارك ما فيها من جديد باعث على الحركة والنماء والعطاء الذي لا ينضب ولا يعرف مع مر الزمان حداً من الحدود.

وهذه السآمة من الشاعر تحكي ما تنفعل به نفسه وهو يتقلب في الحياة وما فيها من وجوه، وتعبر عن لحظة مر بها وهو في شعور غير طبيعي دفعه إلى اليأس والقنوط مما كان يحلم به من آمال وطموح كان يؤمل أن يحققها ويحس بها واقعاً ملموساً، إلا أنه وقد أجهده الفكر والتفكير في مسالك الحياة وتكاليفها مر كغيره من الناس الطموحين بلحظات من الفتور والضعف فاستسلم للأفكار القاتمة التي أحاطت به وجعلته يسأم ويترجم عن هذه السآمة بما كان يحس به من آلام وأسى وحرمان وفراغ وعدم، الأمر الذي لون نظرته للحياة باللون القاتم السواد، هذا اللون الذي لا يتفق مع المبدأ الذي سار عليه هذا الشاعر في حبه للحياة وتقديسها والإيمان بها والنظر إليها من وجهها المشرق الذي يعكس ما فيها من جمال وأسرار بعيدة تدعو للتأمل والنظر الصائب لكل ما يحويه هذا الكون، وما يدور فيه من أفلاك وكائنات كلها ميدان فسيح للتفكير وتفسير مفاهيم الحياة المتعددة التي تساهم في بعث الطمأنينة في النفوس بما في الحياة من وضوح وآمال ينبغي للإنسان أن يعمل على تحقيقها وفهم الحياة على ضوئها وما فيها من إيجاب وصدق.

ولعل إحساس الشابي بالألم الذي سيطر عليه من العوامل الرئيسية التي ساهمت في هذه النظرة للحياة التي لم تكن إلا سآمة وبعداً عن الواقع الذي يترجمه ما في الحياة من مفاهيم، ومهما تكن هذه الصورة التي قدمها الشابي

للحياة فهي تحكي واقعاً من الصور التي تدور فيها وتصور ألواناً يلمسها الناس من خلالها رغم عدم إيمانهم بها وبما فيها من مضمون.

وقد تكون هذه الصورة واقعاً معاشاً عند كثير من الناس الذين يحسون بالأسى والألم ويعانون الحرمان ومرارة العدم، وهؤلاء وإن كانوا قلة إلا أنهم نموذج من الأحياء يتقلبون في هذا الوجود ويصورون وجهاً من وجوهها الكثيرة المتعددة التي لا يحصرها العد ولا يحيط بها التصور.

ومن خلال هذه الصورة التي قدمها الشابي للحياة نستطيع أن نتفهم الأبعاد التي تطرق لها في دعوته للحياة والتشبث بها، فهو يحاول أن يكشف كل ما يحيط بالحياة من غموض حتي يتسنّى له أن يؤكد حقيقة ما يكمن في هذه الحياة من إشراق ووضوح لا يمكن أن يكون مفهوماً إلا بتتبع كل ما تحويه الحياة من معان، وما تقدمه هذه المعاني من أبعاد وصور تحيط بها أقطار الحياة.

ولتكون نظرتنا لهذه السآمة واضحة نستطيع أن نؤكد إيمان الشابي بالحياة من خلال ما حاول أن يقدمه في هذه السآمة من ظلال على ما يجري في الحياة من ألوان ينظرها الناس كل حسب إدراكه ومفهومه لما في الحياة من أفكار، وما ضيق الشاعر بهذه الصورة القاتمة التي قدمها إلا حرص سديد على تذوق الحياة وما ينبغي أن تكون عليه من مفهوم يبعث في النفس الإنسانية ثقتها وإيمانها الصادق بالحياة، والعمل على إبراز ما فيها من إشراق حتى يتسنى لجميع الناس في المجتمع الإنساني أن يتذوقوها وينعموا بما فيها من وضوح.

ونظرة الشابي هذه للحياة ليست نوعاً من التشاؤم بقدر ما هي تتبع واستقصاء لكل ما فيها من جوانب قد تغيب على بعض الناس الذي يهتمون بتفسير الحياة وما فيها من مفاهيم، وذلك أن التشاؤم لا يعنيه من كل هذه الصور والألوان التي ساقها الشابي في هذه القطعة إلا الوجه المظلم الذي يعمق الإحساس بالسواد، ذلك الوجه الذي لم يأت به الشابي إلا تعبيراً عن السأم الذي ألم به ودعاه إلى الاهتمام بالأزاهير وما يعتريها من ذبول، والجمال وما يحيط به من شمول، الأمر الذي يؤكد روح التتبع والاستقصاء التي تدل على الحرص على الحياة وما يجب أن تكون عليه من وضوح، ليتعلق بها أولئك الذين يؤمنون بها ويرون فيها كل جديد وكل ما هو باعث للبقاء والجود بالعطاء.

4 . ونظرة الشابي للحياة وإن كانت مفهومة في إطار ما ينادي به من دعوة إليها تمثل النظرة التأملية في الأدب الحديث، وتؤكد صلة الأدب العربي بكل ما يجري في الواقع من ألوان يقودها الفكر ويؤكدها التأمل الوجداني بين أفراد المجتمع العربي الذي ينادي دائماً بربط الصلات في جميع البيئات العربية من جهة ويدعو إلى الاستجابة لكل ما يجري في العالم من جديد له أثره البالغ في الحياة الفكرية والاجتماعية على السواء من جهة أخرى.

وهذه في الواقع خطوات جديدة نحو التقدم والتجديد الخلاق في الأدب العربي الحديث الذي أخذ يتفتح على الحياة بما يجد فيها من جديد ويطرأ عليها من مفاهيم.

4 . تصوير الأدب للنفس البشرية وما فيها من أبعاد

1 ـ وإذا صور الأدب العربي حياة الإنسان العادية اليومية بما فيها من مباهج وسرور، فإنه أيضاً قد صور الجانب الآخر منها تصويراً دقيقاً عكس فيه حقيقة النفس البشرية[1] بما تنطوي عليه من أبعاد وأعماق يكمن فيها الشعور الإنساني، بكل ما فيه من حسّ وشفافية، وبكل ما يمكن أن يتصور حوله من انفعال تجول به نفس كل إنسان في هذا الوجود، فالمآسي والآلام والجراح التي يصاب بها الإنسان كلها تجسم الجانب الثاني لحياة الإنسان، وهي مجال فسيح أفاض فيه الأدب العربي وسجّل فيه من الوثائق ما يعد شيئاً فريداً في بابه، حيث سجّل لكثير من النفوس المكلومة ما كانت تئن به من آلام وجراح ابتلاها بها الحظ وجرها لها الزمان.

وهذا الجانب في الأدب العربي وتراثه يقابل ما ينطوي عليه جانب الانسجام والحبور، ولابد للأدب وهو يسجل جميع خلجات النفس الإنسانية وتطوراتها وتحركها من أن يتعرض له ويستقصي جميع ما فيه من أبعاد وخصائص قد لا يراها الإنسان العادي شيئاً مهماً وهي في واقع الأمر من أهم ما يمكن أن يهتم به الدارسون والمفكرون، وخاصة أولئك الذين يعنون بالدراسات النفسية وما فيها من حقائق تتصل بفهم الإنسان ودراسة جميع جوانبه التي تقوم على الإحساس والوجدان والشعور أحياناً، والتجربة والملاحظة والاستقصاء أحياناً أخرى، وما أكثرها وأفسح ميدانها، ومن نافلة القول تأكيد الأهمية البالغة في الدراسات النفسية على الجانب الآخر من حياة الإنسان.

---

[1] انظر: محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط1971/5م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص428.

وإذا كانت الدراسات النفسية في مفهومها المعاصر قد اتخذت من الإنسان ميدانها ومنطلقها وجوهر قواعدها التي تدور فيها بين الباحثين والدارسين والمفكرين، فإن ما فيها من محتوى يتعلق بالخلجات النفسية للإنسان قد تطرق له الأدب العربي وصوره التراث العام الذي شمل هذا الأدب وغيره من صور الفكر التي صاغها جهابذة الرأي والتفكير في الأدب والتراث العربي في مختلف العصور التي مرت بها أمتنا العربية الخالدة، وهي تؤدي دورها في بناء الحضارة وتعميق المفاهيم الإنسانية التي ينبغي أن تسود بين شعوب الأرض لتفهم الحياة على حقيقتها.

وإذا كان بعض الناس قد ذاقوا مرارة الأسى وويلاته، فإنهم بذلك قدموا رغم إرادتهم للبشرية ألواناً من الأبعاد النفسية التي لا يمكن أن تبرز إلا على تلك الآلام والمآسي التي ينظر لها الأدب من جانب وينظر لها العلم والفكر من جانب آخر، قد لا يكون فيه أي لون من الاتفاق إلا مجرد كونه نوعاً من الأبعاد العميقة في نفس الإنسان التي تمثل قطاعاً كبيراً في التأمل والبحث وفهم حقائق الأشياء التي يحتويها هذا الوجود والكون الرحب الفسيح الذي لا ينتهي عند حد من الحدود التي تشملها المعرفة الإنسانية.

والمهم في ذلك كله أن الأدب العربي وتراثه قد استطاع أن ينفذ إلى كل الأعماق التي لها صلة بالفكر والتأمل، والتي كان لها الأثر البالغ في حياة الإنسان وخلجات نفسه، وخاصة تلك التي تهزها بكل ما فيها من شدة وعمق وأثر ومواقف مازال صداها يتردد على مر العصور التي سجّلها التاريخ العربي.

2 ـ وقد ارتبط هذا الجانب من حياة الإنسان في الأدب العربي بفن الرثاء الذي لعب دوره الكبير شعراً ونثراً، واستطاع أن يصور المعاني البعيدة التي

ينطوي عليها هذا الجانب، كما اتصل بالشكوى من الزمان وأهله وصروفه وأحداثه وما فيه من مفاجآت، الأمر الذي أكد نظرة الإنسان العربي لكل ما يبثه الفكر وينبغي أن يدور حوله التأمل والتفكير في جميع جوانب الحياة التي يدور فيها الإنسان.

يقول نسيب عريضة[1] الشاعر المهجري متشائماً من الحياة التي لا يرى فيها إلا البؤس والشقاء والحرمان والأسى واليأس:

علقت عودي على صفصافة اليأس
ورحت في وحدتي أبكي على الناس
كان في داخلي قبراً بوحشته — دفنت كل بشاشاتي وإيناسي
يا قبر آمال نفسي في ثرى كبدي
يسقيك صوب دم من قلبي القاسي
زرعت فوقك أزهاراً بلا أرج — سوداء مرت عليها نار أنفاسي
ما أروع الزهرة السوداء قد سقيت
بدمعة القلب تحميها يد اليأس
يا يأس صنها فإني قد قنعت بها — ولست أبدلها بالورد والآسي
وأنت والحزن كونا في الضلوع معي
إني عهدتكما من خير جلاسي
كتمت أمركما دهراً فضاق بنا — ذرعاً فؤادي وأفشى سر أنفاسي
فإن أسر في ظلام الليل مستتراً — فالحزن يسطع من عيني كنبراس
حزني غناي فلو فرقته هبة — على النفوس لأثرت أنفس الناس

---

[1] شوقي ضيف، دراسات في الأدب العربي المعاصر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص179 - 180.

فهو في هذه القطعة حزين ينظر للدنيا بمنظار قاتم السواد، لا يسعه إلا أن يبكي على نفسه وعلى الناس، والدنيا من حوله على سعتها كأنها قبر ضيق دفن فيه أفراحه وآماله واستنبت فوقه أزهاراً سوداء تعبر عن حزنه ويأسه، وهو بها في سعادة حيث كانت ذخره من الدنيا التي يحياها ويشعر بها ويميل إليها، ورغم أن هذا الشعور القانط لم يكن الدافع إليه مأساة من المآسي التي تحل ببعض الناس فتعكر عليهم صفو حياتهم وتبدل نظرتهم إليها، رغم ذلك كله فإن نفس هذا الشاعر في هذه القطعة تقطر أسى وألماً وحزناً، وهو في إجماله تفاعل مع الأسى والألم والإحساس النفسي، ويدل على عمق الوجدان في الجانب الذي اختص به بعض الناس من الشعراء وغيرهم من المفكرين.

ولعل هذا الشاعر في قرارة نفسه كان يحسّ بوقع الغربة وتأثيرها عليه، فأخذ يعبر عن هذا الإحساس بحزنه ويأسه من الحياة، وقد تعمق ذلك في خفايا نفسه حتى جعل كل شيء أمام ناظريه شديد السواد وباعثاً للحزن والأسى، ومن هنا انطلق يعزف على قيثارته هذه التي تصور الدنيا والحياة من جانبها المظلم، وهو في ذلك يعبر بصدق عما يكمن في وجدانه من شعور نحو نفسه ونحو الناس الذين يتقلبون معه في الحياة، وقد خيل إليه أنهم يجدون نفس ما يحس به ويدركه.

ويحاول في هذه القطعة أن يتنصل من الاستجابة لما يكمن في نفسه من إحساس قاتم السواد بالكتمان والتستر، إلا أنه يوغل في ذلك الشعور الذي لا يستطيع أن يتخلص منه ولا يملك لنفسه دفعاً له فيصبح في النهاية حزنه هو غناه الذي يترنم به وترتاح إليه نفسه الجريحة التي تجد في الحزن والأسى والألم متنفسها الحقيقي الذي يعيد لها اعتبارها وحقيقتها وفلكها الذي تدور فيه.

وهذه النظرة المجافية للواقع من الحياة رغم أنها بعيدة عن منطق العقل وتحكيمه تمثل طبيعة بعض الناس، ولا يبدون طبيعيين إلا من خلالها، ذلك أن الناس في هذه الحياة لم يكونوا على وتيرة واحدة، وأمزجتهم فيها متعددة مختلفة، بل واستعدادهم الفطري فيها هو الذي يؤهلهم للغوص في أعماق هذه المشاعر وخفاياها وأسرارها التي تخفى على كثير من غيرهم ممن لم يكن لهم في هذا المجال باع.

وتاريخ الأدب العربي فيه من الشواهد في هذا الصدد ما لا يحصى ولا يعد من أولئك الذين فطروا على هذا النسق أو حلت بهم المحن، فدعتهم للسير في هذا السبيل دون أن يشعروا، وقد سجلوا فيه من المواقف والصور ما هو جدير بالدراسة والبحث والاستقصاء.

والشاعر نسيب عريضة في تفاعله مع نفسه في إحساسها بالأسى والألم تجاوز ما يتصل بذاته إلى ما يتعلق بالآخرين الذين يشاطرونه ألوان الحياة وصورها، وذلك في قصيدته[1] الأخرى التي يقول فيها:

جاش في قلبي عزيف من وتر   يسكر القلب ويفشي ما ستر
ضاق ذرعاً بالأسى لكنه   ظل في كتمانه حتى انفجر
فاسمعوا أنّاته تروى لكم   رجع ما ردد صوت الغير
عن ظلام العيش في سجن البقا   عن فيافي التيه عن ظلم القدر

إلى أن يقول:

عن عذارى بذلت أعراضها   في سبيل العيش بئس المتجر

---

[1] المصدر السابق.

عـن ديـار بعـد مجـد خملـت وبنوهـا الصـيد صـاروا فـي النفـر
مـا بقـى مـن عـز أجـداد لهـم غير ذكر من غدا ضمن الحفر
عـن وكـم مـن أنـة فـي وتـري فـي صـداها عنعنـات عـن خبـر
بـاطلاً ترجـون لحنـاً مفرحـاً قطعـت إطـراب أوتـاري الغيـر
فـدعوا قلبـي مـع البـاكين فـي مـآتم العـيش علـى حـال البشـر

هذه النظرة التشاؤمية بالنسبة للحياة التي يتقلب فيها جميع الناس، وهذا التتبع المستقصى للهفوات التي تمر بهذا هذه الحياة ليس إلا إمعاناً من الشاعر في إحساسه الدفين بالألم والأسى واليأس الذي سيطر على نفسه وجعلها أسيرة لهذا الشعور الخاطئ رغم أنه متنفس لبعض الناس الذين يلتقون مع هذه المشاعر في هذه الطريق.

وهو وإن حاول أن يتلمس التبرير لهذه النظرة التي نظر بها للحياة، فإنه لم يستطع التأكيد القاطع على صدق هذا الجانب من الحياة، بحيث يراه الناس جميعاً أمراً عادياً وطبيعياً كما يرون به الجانب الآخر من الحياة؛ لأن الناس بحكم فطرتهم يميلون إلى الجانب المضيء من كل شيء، وخاصة ما يتعلق بتصرفهم وسلوكهم، ومن هنا كانوا بعيدين عن كل ما يحجب عنهم هذا الميل.

وقد عُدَّ الناس الذين يميلون إلى الجوانب المظلمة في السلوك العام والحياة غير طبيعيين وأصحاب مزاج سوداوي لا يحسون بالجمال ولا الأمل والبهجة والحبور، ومهما قال التعليل العلمي في حقهم من توجيه وتبرير فإنهم في الحقيقة مرضى وضعفاء لا يستطيعون أن ينهضوا بالحياة وأعبائها، وما فيها من تكاليف تتطلب الصبر والجهد والعطاء المتواصل الذي يتنافى مع اليأس ويتعارض مع الحزن والأسى، ويستمرئ الألم والحرمان من أجل الوصول إلى الحقيقة والإيمان بها وترسيخ قواعدها بين الناس في هذا المعمور.

نعم هناك صنف من هؤلاء الناس لا يصدق عليهم هذا المجال، وهم أولئك الذين تعرضوا للمآسي والآلام المبرحة التي حلت بهم وجرها لهم القضاء والقدر، فهؤلاء لهم جانب خاص لا يتفق مع واقع هؤلاء المتشائمين خلقة الذين يلونون وجه الحياة بمنظارهم القاتم ويمثلون الانهزام والهروب أمام الحياة والواقع الذي ينبغي لهم أن يواجهوه ويغيروا منه وجه التاريخ الذي يسجل الجوانب المشرقة وغيرها دون أن يبالي بما يواجه من صعاب.

3 - يقول أبو القاسم الشابي[1] من قصيدته: الأشواق التائهة:

يـا صـميم الحيـاة إنـي وحيـد مـدلج تائـه فـأين شـروقك
يـا صـميم الحيـاة إنـي ضـائع ظـامئ فـأين رحيقـك
يا صميم الحياة قد وجم الناس وغـام الفضـا فـأين بروقـك
يـا صـميم الحيـاة أيـن أغانيك فتحـت النجـوم يصـغي مشـوقك

* * *

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا غريـب أشـقى بغربـة نفسـي
بـين قـوم لا يفهمـون أناشـيد فـؤادي ولا معـاني بؤسـي
فـي وجـود مكبـل بقيـود تائـه فـي ظـلام شـك ونحـس
فاحتضـني وضـمني لـك بالمـا ضـي فهـذا الوجـود علـة نفسـي

لـم أجـد فـي الوجـود إلا شـقاء سـرمدياً ولـذة مضـمحلة
وأمـاني يغـرق الـدمع أحلاهـا ويفنـي يـم الزمـان صـداها
وأناشـيد يأكـل اللهـب الـدامي مسـراتها ويبقـي أسـاها

---

[1] أبو القاسم كرو السابق، ص245.

وورداً تمـوت فـي قبضـة الأشـ ـواك.. مـا هـذه الحيـاة المملـة

* * *

سـأم هـذه الحيـاة معـاد وصـباح يكـر فـي إثـر ليـل
ليتنـي لـم أفـذ إلـى هـذه الـدنيا ولـم تسـبح الكواكـب حـولي
ليتني لم يعانق الفجر أحلامي ولـم يلـثم الضـياء جفـوني
ليتنـي لـم أزل كمـا كنـت ضـوءاً شـائعاً فـي الوجـود غيـر سـجين

فالشابي في هذه القصيدة تحدث عن الحياة، وصورها بأنها سأم معاد مكرور، وصباح يأتي في إثر ليل، وتمنى ألا يكون قد أتى لهذه الدنيا وهذه الحياة، وما فيها من رتابة وتكرار ممل! إلا أن ذلك شيء ليس في إمكانه وهو أمر بعيد عن إدراك الإنسان وأمانيه، وسر من الأسرار التي استأثر الله بعلمها ولم يسمح بتحقيق أمانينا فيها؛ لأنها من الأمور التي يعجز العقل البشري عن فهمها وتحديد كنهها وحقيقتها.

والشاعر هنا تحدث في هذه القصيدة بأسلوبه الخاص وخياله الملهم عن سر من أسرار الحياة بثه مشاعره وما يدور في وجدانه من أحاسيس ولواعج، نحو نفسه ونحو قومه ونحو هذا الوجود والحياة وما فيها من قيود وظلام وسأم دائم مستمر، لا يبعث في النفس رواءها وبهجتها وما فيها من إحساس يترجم عن الحياة الإنسانية وما تطمح إليه من أمان عذاب يبدو فيها الإنسان وهو سر من أسرار هذا الوجود على حقيقته، ويترجم فيها تلك المعاني الخالدة التي ارتبطت بمفهومه وما له من مدلول يشد الانتباه إليه ويجعله مصدراً للتأمل والتفكير، ومبعثاً للتدبر والاحترام، حيث ما كان وأين ما حل في هذا الكون الذي سخره الله له وجعله خليفة فيه بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى دقيق، وإذا كان الوجود والحياة بهذه الصورة التي وردت في قصيدة الشابي فإنهما لا

يستحقان كل هذا الشعور والاهتمام الزائد، حيث إنهما لا يحققان للإنسان على هذه الصورة أي أمنية من أمانيه التي يصبو إليها ويحلم بتحقيقها.

ولكن هل الحياة والوجود في حقيقتهما الشاملة بهذه الصورة القاتمة السواد التي ساقها الشاعر ألماً ودماً يقطر؟

في الحقيقة والواقع أننا إذا تأملنا في الأمر ملياً فسوف نجد أن المسألة تختلف عن ذلك بكثير، ولكن الشاعر هنا يغلب عليه الإحساس بالألم الحاد الذي جعل كل شيء أمامه يذوب في هذا الإحساس ويغلف بهذا السواد القاتم والضباب المعتم الذي لا يجعل الأشياء تبدو على حقيقتها وكنهها، وهي نظرة خاصة للشاعر في الحياة والوجود وما فيهما من صور وألوان ومعان تتعدد فيها نظرات الناس وتختلف فيها مشاعر الشعراء ومداركهم وأحاسيسهم ووجدانهم الذي لا يقف عند حد من الحدود، التي يسبح فيها الخيال سبحاته التي تشمل كل ما في الوجود.

وصور الحياة وما فيها من إيجاب وسلب وخير وشر وظلام ونور، وفائدة تعود على الإنسان فيها وهو يعاني منها ويسير في دروبها، ولعل تعرض الشاعر في هذه القصيدة لأسرار الوجود والحياة وما فيهما من عطر ورحيق وبروق وأغان ونجوم وفجر وأحلام وورود ونشيد وشذى ورؤى يشعرنا بتعلقه بالوجه المشرق الذي هو الوجه الحقيقي للحياة والوجود وما فيهما من ميزات؛ لأن الشاعر طغى عليه الشعور بالألم الحاد المفرط فحال دونه ودون الوصول إلى ذلك، بل جعل الصورة لديه معكوسة فنقلها أمامنا كما هي حتى نشاركه ما يحس به من آلام تجيش بها نفسه، وتطفح على نشيده الذي يسوقه ذائباً في هذه الآلام التي يحس بها ويعانيها.

ومهما يكن من أمر فإن خيال الشاعر في هذه القصيدة استطاع أن ينتقل بنا في دروب الحياة والوجود، وأن يقف بنا على ما فيهما من أسرار وقفات نتأمل منها المعاني التي سيطرت على نفس الشاعر وساقها لنا بأسلوبه المقنع، وهو الأساس الذي انطلقت منه القصيدة في بدايتها ليصل في النهاية إلى الغاية التي أرادها وكانت هدفه منذ الوهلة الأولى لإنشاد هذه القصيدة، وتلك هي أمنيته التي رددها بصراحة ووضوح في عدم مجيئه إلى الوجود والحياة ليبقى سراً منطوياً في العدم، وضوءاً شائعاً في الوجود غير سجين.

هذه هي السبيل التي سلكها أبو القاسم الشابي في هذه القصيدة وعبر فيها عن إحساسه وإيمانه بما في الحياة والوجود من مثل ومعاني لا تستحق من الإنسان أن يهتم بها كل هذا الاهتمام وأن يتكالب عليهما هذا التكالب المميت؛ لأنهما عند التأمل البسيط لا يساويان شيئاً من هذا الإحساس العميق الذي نبذله نحوهما.

ومن هنا كان لابد لنا أن نأخذهما بتلك البساطة والسهولة التي لا تكلفنا شيئاً من العناء والمشقة ذلك التفكير القاتل المضني، الذي يبعث في النفس السأم والقلق والضجر بكل ما في الوجود والحياة رغم أن باطنهما لا يخلو من إشراق ونور وتفتح ينسجم مع النظرة البسيطة السهلة للحياة وما في الوجود من أسرار تدفع الإنسان إلى الخير وتحفزه إلى الإشراق الذي ينشده ويطمح إليه في ثقة واطمئنان من أمره.

وهذا المسلك من الشابي لون من ألوان الخيال المتعددة، وهو دور من الأدوار التي يؤكدها الخيال في أصالة النص الأدبي وما له من فحوى ومضمون في الأسس التي ينبغي أن تراعى في قيمة النص الأدبي وإدراكه وما

له من فعالية وأثر في تمكين النص الأدبي وأداء مهمته وتخليده ورصانته عند النقد السليم.

هذه هي النظرة للحياة عند أبي القاسم الشابي في بعض مواقف الإحباط لديه وشعوره بالألم والأسى والحزن الذي ألم به، وهي نظرة أعمق في هذا المجال عند نسيب عريضة الذي لم يكن الدافع له إلى هذه النظرة الإحباط الطارئ من الحياة، بل هو الإحساس الأصيل في نفسه بالحياة من جانبها المظلم الذي لا يتسرب إليه النور والإشراق والوضوح.

4 . وأمامنا في هذا المجال وجه آخر للحياة فيه نظرة بعيدة واسعة تحض على السلوك الواضح الذي يبدو فيه الإشراق والوضوح والنهاية التي تترتب على الحياة بما بعدها من مصير، يقول الخليفة عثمان بن عفان[1] ﵁ في آخر خطبة خطبها:

إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله. اتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا}.

ففي هذه النظرة يتمثل القطع واليقين في الاعتقاد بالله والاعتصام به واللجوء إليه، كما تتمثل الدنيا وقيمتها التي لا يصح لعاقل أن يغتر بها، لأنها

---

[1] جواهر الأدب السابق، 118/2.

فانية زائلة لا يليق بالإنسان سديد النظر أن يعتمد عليها وينشغل بمظاهرها الكاذبة، فهي في الحقيقة إنما كانت مقدمة للآخرة ووسيلة إليها، ويحسن بالإنسان العاقل أن يستفيد منها في صلاح أمره وحسن آخرته، ولذا أكدت هذه النظرة على فناء الدنيا وبقاء الآخرة وحثت على إيثارها على الدنيا، فإن الشيء الذي يبقى أهم من الشيء الذي يفنى وخاصة إذا كان المصير في النهاية إلى الله أحكم الحاكمين، كما تؤكد هذه النظرة الواضحة وتحض على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة وما فيها من سعادة وهناء ونعيم مقيم.

ثم تتجه في شقها الثاني إلى الترغيب في تقوى الله عز وجل، وتقوى الله ﷻ ليست منحصرة في حد محدود من العبادة، بل هي أمر شامل لكل ما فيه مرضاة الله وقرباه والبر في سبيله من صلاة وزكاة وحج وصدقة وسلوك وتعامل مع الناس بكل ما يعود عليهم بالخير العميم وإصلاح أوضاعهم وأحوالهم التي يتقلبون فيها بالعلم ونشره وبسط المودة بينهم بما يجعلهم يشعرون بالأخوة الصادقة والحرص على مصالحهم التي تشملهم جميعاً، وتؤمن لهم الحياة الكريمة التي يعملون من أجل تحقيقها وهم يهدفون إلى تحقيق السعادة لهم ولجميع البشر في هذا الوجود الذي لا يتم للحياة وجهه الصحيح فيه إلا بالأمل والاطمئنان والطموح.

ومن هنا كانت التقوى في هذه النظرة جنة ووقاية من بأس الله الذي يمهل ولا يهمل، ووسيلة إليه لنيل مرضاته والظفر بالجزاء الأوفى الذي يجزيه لعباده المتقين، وفي الوقت نفسه تؤكد هذه النظرة الحذر الشديد من تقلب الأحوال التي يكون الإنسان فيها معرضاً للعقاب الشديد.

ثم تعرج على أمر خطير جاء الإسلام لمحاربته وحذر منه لنتائجه الوخيمة التي تترتب عليه، وذلك هو الفرقة والابتعاد عن الجماعة، فالاتحاد هو الأساس الذي ينبغي أن يتمسك به المسلمون المؤمنون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويودون أن يؤلفوا بين القلوب ويعملوا على إرساء دعائم المجد للأمة والمجتمع الذي يعيشون فيه، فالعمل على توحيد الصفوف وربط الصلة بين المؤمنين مبدأ أساسي نادى به الإسلام وحض جميع المسلمين على تطبيقه، وأمر في أكثر من آية من القرآن الكريم بالحرص عليه، وواضح أنه سر النجاح في الدنيا والآخرة، كما أكد مقابل ذلك أن الاختلاف والفرقة هما سر الفساد والضلال والهلاك الذي يقضي على مقومات الأمة والمجتمع، ومن هنا نفرت هذه النظرة من التفرق والتحزب وذكرت بما جاء في كتاب الله من نعم أنعم الله بها على عباده المؤمنين، حيث كانوا أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخواناً واستطاعوا بذلك أن يقيموا حضارة أذهلت الدنيا بما فيها من خير وسعادة وجمال.

هذه هي النظرة التي قدمها الخليفة عثمان ﷺ في إجمالها، وهي تدور حول الحض على التمسك بالآخرة والزهد في الدنيا وتقوى الله والالتزام بالجماعة وعدم التحزب والتأمل والاتعاظ بنعم الله التي لا تحصى، وقد كان الخيال فيها مركزاً على ترسيخ الإيمان وتعميقه في نفوس المؤمنين المخاطبين بها، واستطاع ذلك الخيال الرصين النابع من تعاليم القرآن أن يضرب على الإحساس الدفين للمؤمنين الذين يهمهم في المرتبة الأولى أن تكون آخرتهم سعيدة هنيئة، وأن يعملوا في سبيل ذلك على نشر المبادئ التي نادى بها الإسلام وحض عليها، من أجل بناء مجتمع الكفاية والعدل.

ونلمس في أسلوب هذه الفكرة الإيجاز الذي يدل على تلك المعاني الواسعة البعيدة التي لا يفي بها الحصر في سبيل نشر المودة والإصلاح في المجتمع الإنساني، ومن هنا كان الخيال فيها نافذاً إلى الأهداف التي ترمي إليها، في قوة ورصانة وبعد أصيل نابع من الإيمان العميق بكل ما ينادي به الإسلام من مبادئ الخير للإنسان وسعادته.

وهكذا هو الخيال الأدبي وألوانه يسير في كل موقف بحسب ما يقتضيه وبحسب طبيعته وطبيعة الظروف التي تحيط بصاحب النص الأدبي وما له من مكونات عقائدية وغيرها مما نراه مشحوناً في النص وبادياً فيه.

فهذه النظرة فيها من التفتح على الجوانب المضيئة من الحياة ما يختلف ويتعارض مع النظرات التي يملأها الحزن والأسى والتبرم بالحياة والنظر إليها من جانبها المعتم، وهذه وتلك أنواع من الصروف ومتطلبات الظروف وتقاسيم الحياة ومفاهيم الناس فيها بحسب تراكيبهم وما جبلوا عليه، ولعل في كل ما تقدم من ألوان النظر للحياة نوعاً من المعرفة وتوجهاً نحوها مما يعد توطئة ومقدمات للفكر في شؤون الحياة وغيرها.

5. جانب الصدق والتزامه في الفكر العربي

1 . الجهود التي بذلها المفكرون من أبناء أمتنا العربية الخالدة في مجال المعرفة وميادين الفكر لم تكن قائمة على النظرة الآنية التي تكتفي بما تصل إليه من معارف وأفكار ونتائج وقتية، ولكنها كانت تركز على النظرة المستقبلية التي تتلاءم مع الفكر الإنساني وتتفق مع الروح العلمية التي تقوم على العمق والأصالة والبحث المتواصل الذي يؤكد صدق التجربة وفعاليتها وتأثيرها الإيجابي، الأمر الذي خلد تلك الجهود وأعطاها من القوة ما جعلها مستمرة العطاء المتواصل الذي لا يتاثر بما يحيط به من ملابسات وظروف وقتية.

ومن هذا الجانب كان للفكر العربي أثره البالغ في تأكيد النظرات الموضوعية لكل ما طرحه من نظريات وقدمه من أفكار في مجالات المعرفة التي ماتزال تردد في جميع مواقفها ملامح الفكر العربي وطابعه الخاص، الذي تعمق بجذوره في ثناياها، وفي كل ما بسطته من مضامين سواء كان ذلك في واقع الحياة وما ينبغي أن تقوم عليه من أسس ونظام اجتماعي أو فردي يعنى بالنواحي الخاصة لكل إنسان في هذا الوجود.

ولعل جانب الصدق والتزامه في الفكر العربي هو التأكيد القاطع لأهمية الدور الذي استطاع أن يقوم به في ترسيخ مفاهيمه في المعرفة الإنسانية التي تتوارثها الحضارات المعاصرة للأمم والشعوب، وهو البرهان القاطع أيضاً على أن التراث العربي بكل ما فيه من معنى ومضمون قد ساهم مساهمة إيجابية في

تقدم هذه الحضارات وبنائها حتى وصلت إلى المستوى الذي نشاهده ونلمس آثاره فيما وصل إلينا من ملامح ومظاهر للحضارة والتقدم في هذا العصر.

وتأكيد هذه الفكرة بالنسبة للجهود التي بذلها أبناء أمتنا العربية في شتى مجالات المعرفة ليس معناه أننا نريد فقط أن نسجّل مساهمتنا في الحضارات المعاصرة لمجرد المفاخرة بذلك والتبجج به، ولكن معناه أن جهودنا في سبيل البناء الحقيقي للإنسان لم تذهب هدراً، وأن أمتنا العربية قدمت من البذل والعطاء في سبيل الإنسان ما يعجز الفكر عن حصره، ومانزال تقدم الشيء الكثير، وما يزال من بين أبنائها من يستطيع أن يغير مجرى التاريخ، ويعطي للحضارة الإنسانية مفهومها وتفسيرها الصحيح الذي يعيد إليها واقعها الإنساني، ويجعلها تسير في خدمة الإنسان أينما وجد وحل بدلاً من أن تتخذ شكلاً معيناً وتخدم فئة خاصة من الناس دون سواهم.

ومهما اختلفت وجهات النظر في تفسير المعاني التي تعنيها الحضارة المعاصرة، فإن الإنسان العربي لا يهمه من مضمونها إلا ما فيه الخير للإنسان وبنيه، ذلك الجانب الذي يخدم الناس جميعاً ويربط بين بيئاتهم وأفرادهم ومجتمعاتهم، حتى يكون للحياة طعمها الصحيح الذي يقوم على الألفة والمحبة بين البشر، وييسر الفهم الواضح لموازين الأشياء التي يتداولونها بينهم وفي حياتهم اليومية التي يعيشونها ويتحسسون من خلالها واقعهم الذي يضمهم في إطاره العام.

ذلك أن الإنسان العربي لم يقف في يوم من الأيام في وجه أي جهد يبذل من أجل تقدم الإنسان وبناء حضارته، بل ساهم وقدم من الجهود الصادقة في هذا المجال ما يعد آية في البذل والعطاء، وكان في ذلك يهدف إلى ترسيخ

المعاني المثلى بين بني الإنسان حتى يقوم مجتمع العدل والمساواة، وتستقيم ظروف الحياة الهنيئة لكل من في هذا الوجود، وتنتفي الأنانية وعوامل الشر في النفوس، تلك العوامل التي لا تستقيم معها مفاهيم الحياة.

2 . يقول أحمد رفيق المهدوي[1] من قصيدته: التمثيل والممثلون:

جعلوا من التاريخ أصدق شاهد   فكأنمـــا نشـــروا بـــه الأجيـــالا
وتخيروا من أحسن الأخلاق ما   زان الملـــوك وميـــز الأبطـــالا
فانظر إلى فعل الجميل محببا   قـــد بينـــوه لمـــن أراد كمـــالا
والشـــر ممقوتـــاً تـــرى آثـــاره   عـادت علـى أهـل الشـرور نكـالا
وتأمـل الحـب الشـريف يزيـد   حفـظ العهـود مـع الوفـاء جـلالا
أكـرم بفـن يجعـل المعقـول فـي   حيـــز العيـــان مجســـماً أشـــكالا
للعلـم والأخـلاق خيـر وسـيلة   لـو أحسـن المتصـرف اسـتعمالا
ينحـى مـن الغـم النفوس مهذبا   ويزيـــد افرنـــد العقـــول صـــقالا
إنـــي أرى التمثيـل مـن غاياتـه   نشـــر الثقافـــة لـــو أرى إقبـــالا
فـانظر إلـى المغـزى ودع مـا دونـه
لا تشـــغلن بغيـــر ذلـــك بـــالا
خـذ مـا يـراد مـن الروايـة واطـرحن
مـــن لهوهـــا مـــا يضـــحك الجهـــالا
ولغايـة مـا كـان منهـا مضـحكا   كـي لا تضـيق بـه النفوس مـلالا

---

[1] عبد ربه الغناي، رفيق في الميزان، منشورات مكتبة الأندلس، بنغازي/1967م، ص157 - 158.

فهو يركز على التاريخ بل ويخاطبه في مطلع هذه القصيدة، ويبين أن التاريخ أصدق شاهد للأحداث ونشره إعادة للأجيال وشحذ للهمم، حيث يكون فعل الجميل فيه محبباً للنفوس، والشر تعود آثاره نكالاً على مقترفيه، والحب النقي الطاهر يزداد مع الوفاء تألقاً وجلالا، وفن التمثيل يجعل المعقول في حيز المشاهدة أشكالاً مجسمة، وهو للعلم والأخلاق الفاضلة خير وسيلة إذا أحسن استعماله، ويذهب السآمة والملل ويهذب النفوس، ويزيد العقول صقلاً، ومن أهداف نشر الثقافة بين الناس في هذا المجتمع.

ثم عقب ذلك ينصح الشاعر بأن يركز الإنسان على الأمور الأساسية الجوهرية في التمثيل، بحيث يكون النظر إلى المغزى الحقيقي من التمثيلية، وطرح ما دونه من الأمور المضحكة التي ينساق وراءها الجهال الذين لا يرتبطون بالمغزى الحقيقي للتمثيلية، وبطبيعة الحال فإن الإضحاك في حد ذاته يكون مقصوداً في التمثيل حتى لا يمل المشاهدون وتكل نفوسهم.

وعقب ذلك يقول في أسلوب حكيم:

إن صـح مـا قيـل الحيـاة روايـة	خـذ للحيـاة مـن الحيـاة مثـالا
لا تنظـرن إلـى الممثـل هازئـا	جـل الممثـل أن يكـون مـذالا
كل امرئ ما عـاش فهو ممثل	لروايـة أدوارهـا تتـوالى
المرء في هذي الحياة مشاهد	وممثـل لـم يعـد ذلـك حـالا
أعمالنـا فصـل نمثلـه ومـا	خلـف السـتارة يشـبه اسـتقبالا
الكـون مسـرحنا ونحـن روايـة	مقصـودنا ذات الإلـه تعـالى

وفي هذا المقطع لفتة إلى التأمل والمقارنة بين التمثيل والواقع الذي يعيشه الإنسان في هذه الحياة، فإن بعض الناس ينظرون إليها على أنها رواية، فإن

صحت هذه النظرة فليأخذ الإنسان منها مثالاً يسير عليه، ولا ينبغي للعاقل أن ينظر للممثل إلا بالتقدير والاحترام، حيث إن كل إنسان حي ممثل في الحقيقة لرواية تتوالى أدوارها، وهو في واقع أمره مشاهد وممثل معاً لا يتعدى ذلك بحال من الأحوال، وأعمالنا التي نقوم بها في هذه الحياة فصل نقوم بتمثيله، والكون مسرح فسيح، وحياتنا فيه رواية مقصودها ذات الإله ﷻ.

هذه باختصار هي الفكرة العامة التي يسوقها أحمد رفيق المهدوي حول التمثيل والممثلين، وهذا الفن العظيم الذي يحكي المسرح أستاذ الشعوب.

وإذا تأملنا فيها وجدنا الشاعر يحاول أن يربط بين واقع التاريخ وبين ما يقوم به هذا الفن من تجسيد لهذا الواقع ثم تمجيد الصفات الحميدة والتنفير من الشر وما يتصل به، ثم المقارنة بين الحياة الواقعة وبين الرواية في إطارها العام، وهذه فعلاً محاولة فيها من الإحساس بأهمية التمثيل ودوره في بناء الحياة الاجتماعية ما يؤكد بذل الجهود الصادقة فيه حتى يقوم بدوره على الوجه المرغوب، إلا أنه رغم ذلك كله لم يحاول أن يشير إلى الدور أو الأدوار التي قام بها هذا الفن عند بعض الأمم ممن اشتهروا في هذا المجال.

وإذا كان الشاعر قد سلك طريق الحكمة في نهاية القصيدة، فإنه بذلك ينقلنا إلى مجال من الخيال تتجلى فيه الروح الشاعرية التي تسلك سبيل المقارنة والتخيل الذي يحاول دائماً أن يربط الخيال بالواقع ويأخذ منه العبر والموعظة، وهذا ما فعله رفيق في نهاية هذه القصيدة، حيث أوضح أن ذات الله في النهاية هي المقصودة من ذلك كله.

ومهما يكن من أمر في هذا الموضوع، فإنه يحكي جانباً مهماً من جوانب الحضارة الإنسانية في إطارها العام، ذلك أن فن التمثيل والرواية أمر ساهمت

فيه الحضارة وأسهم هو في إيجادها أيضاً، وجميع الأمم المتقدمة حضارياً لها في هذا المجال باعها الطويل الذي سجله التاريخ.

3 - وإذا كانت الأمة اليونانية والأمة الرومانية قد سجّلتا في هذا المجال من النماذج ما يعد أساساً لكل ما فيه من تفصيل، فإن النهضة العربية الحديثة في بداية هذا القرن قد ساهمت فيه بما يعد أساساً كبيراً للجهود التي ما تزال تبذل فيه حتى الآن، كل ذلك مواصلة للجهود التي تبذل من قبل أبناء هذه الأمة في سبيل توطئة أكناف الحضارة الإنسانية، وخدمة الإنسان في هذا الوجود في سبيل فتح الآفاق الواسعة الفسيحة أمام الإنسان العربي ليفهم واقعه في الحياة من جهة، ويسهم في إثراء الفكر الإنساني من جهة أخرى.

ومن هنا استطاع الأدب العربي أن يقوم بدوره في تعميق الجذور الحقيقية لمعاني الحضارة والفكر، وتطور الحياة التي ينبغي أن يحياها الإنسان، حتى تتجاوب أصداء الفكر بين جنباتها، وتحسّ مجتمعاته بانتماء أفرادها إليها، وإيمانهم بمعاني الحياة كما ينبغي أن تفهم وتتطور.

والأدب العربي في هذه القضية متطور يحكي المفهوم الواسع العميق الذي يجسّد الروابط الصادقة التي تربط جميع المجتمعات الإنسانية بكل عناصر الخير والعطاء الصادق، وفي الوقت نفسه يمثل الصبغة الحقيقية لما ينطوي عليه الإنسان العربي من وفاء وحب وإخلاص يعمق بصماته على التاريخ وحضارة الإنسان وما فيها من صور وجوانب مشرقة مضيئة ينعم بها المخلصون في جميع المجتمعات الإنسانية من أولئك الذين يعملون من أجل الخير ونكران الذات ونشر العدالة بين الناس جميعاً، بغض النظر عن أصولهم ومعتقداتهم وما يدورون فيه من صروف.

6 . الأدب وشتى الموضوعات من الحياة

1 . الأسلوب الفني في الإنتاج الأدبي يقوم على الصدق والإحساس العميق لدى الأديب بالقضايا التي يعالجها ويحسّ بها ويرى من خلالها الواقع الاجتماعي الذي ينبغي أن ينال اهتمامه، ويؤمن بأن علاجه من أهم الواجبات الملقاة عليه وعلى أمثاله من الأدباء والمفكرين، الذين يمثلون الإحساس الصادق بالمسئولية الاجتماعية، وضرورة بعث الروح العاملة بالصدق والإخلاص للتوعية الاجتماعية التي تحوي في ثناياها تقدير المسئولية وما يترتب عنها من نتائج في جميع المواقف التي يمر بها المجتمع في حياته الخاصة والعامة.

ومن هذا الجانب كان الأديب مرآة صادقة لواقعه ومجتمعه وبيئته[1]؛ لأنه بإحساسه العميق الذي يجسّد قضايا هذا المجتمع وتلك البيئة يستطيع أن يقدم الصورة الحقيقية لحياة الناس، ويستطيع أن ينفذ إلى أدق الأشياء التي تتخلل هذه الحياة.

ولهذا كان البعد الذي يعطيه الأديب الحقيقي عن عصره وبيئته بعداً حياً تكمن فيه الخصائص التي يتميز بها ذلك العصر وتلك البيئة، وبهذا الاعتبار كان النقاد القدماء في الأدب العربي يعدون الأديب بارعاً وصادقاً في إنتاجه إذا صور عصره وبيئته، ويعيبون عليه إذا لم يفعل ذلك، ويقولون أن الأديب ابن بيئته أولاً، بمعنى أنه إذا لم يستطع أن يعالج قضايا بيئته وعصره فإنه لا يستطيع أن يعالج غيرها من القضايا والمسائل التي تتعلق بالإنسان وحياته.

---

[1] عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر، ط1968/2م، ص260 .282.

والقضايا التي يعالجها الأديب سواء كانت معاصرة له أو غير معاصرة، لا تفهم على أساس أنها معضلات يتعرض لها الأديب ويوجد لها الحلول المناسبة في الأدب وغيره من مجالات الفكر والعلم، ولكن المقصود في هذا الصدد هو أن الأديب يصور المواقف وما يتصل بها من أفكار ومسائل ويسلّط الأضواء عليها؛ كي تكون واضحة ولها شأن في ميدان الفكر والمعرفة الإنسانية؛ لأن تلك المواقف لا تنحصر في مجال أو نوع معين حتى يلتزم لها العلاج والحل المناسب.

ولذلك كانت نظرات الأدباء والشعراء في هذا المجال مختلفة، حيث نجد لدى كل أديب اتجاهاً معيناً، فبعضهم يعنى بالقوالب التي يؤدي بها الإنتاج الأدبي ولا يحيد عن ذلك، وبعضهم يلتزم بفكرة معينة يرى في إبرازها وتعميقها لدى الباحثين وغيرهم تحقيقاً للروح الفنية وقضايا الإنسان التي ينبغي أن تحظى بالاهتمام دون غيرها.

وهكذا كانت وجهات النظر بين الأدباء متباينة، وفي هذا التباين يبدو الوضوح في الإحساس الصادق الذي يصدر منهم نحو قضايا المجتمع، حيث يكون ذلك الإحساس المنطلق الحقيقي لعلاج قضايا الحياة الاجتماعية وتأكيد الصلات التي تربط أسس هذه الحياة بالواقع الذي ينبغي أن يكون موضوع التفكير الاجتماعي؛ كي تتقدم هذه الحياة وتعطي لمن يعيشها أو يأتي بعده المفهوم الصحيح للحياة الإنسانية وما ينبغي أن تفهم به حتى تكون النظرة السائدة بين الناس أن الفكر والحياة شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

ومن الاتجاهات التي يسلكها كثير من الأدباء التعبير بصدق عما يؤمنون به من أفكار في الحياة، وما ينبغي أن تفهم به.

وقد سلك هؤلاء الأدباء عدة مسالك، حيث زهد بعضهم في الدنيا، ورغب بعضهم فيها في أسلوب وعرض يتفق مع الفكرة التي يدين بها، وهي جميعاً لا تخرج عن الوصف بالإحساس الذي يجيش بخاطره.

وفي هذا المجال يقول أبو العلاء المعري[1]:

دنيـــاك تحـــدو بالمســـ ـــــافر والمقـــيم جمالهـــا
فعّالـــة غيـــر الجميـــل فكـــم هويـــت جمالهـــا
نقصـــت مســـرّتها فمـــا يجـــد الســـعيد كمالهـــا
والـنفس تخـدم فـي الحيـاة بجهلهـــــا آمالهـــــا
حـــتّم تعتـــف الرفـــاق حزونهـــــا ورمالهـــــا
متظللـــــــين بأيكـــــة صـــنع الهجيـــر ظلالهـــا
ألفـــت غـــرامهم بهـــا فتصـــــوت إذلالهـــــا
كـــالخود أدت للمحـــب جفاءهـــــا ودلالهـــــا
قـــالوا مللنـــا باللســـان ومـــا الضـــمير ملالهـــا
قبضـت علـى الحر الكريم يمينهـــــا وشـــــمالها
طلقتهـا مذمومـة حـين ابتليـــــت خصـــــالها
ولـو أنهـا جاءتـك عفـواً مـــــا أردت وصـــــالها
وسـلمت مـن هـم بيـرح إذ بتـــــت حبالهـــــا

[1] شروح سقط الزند، تحق: مصطفى السقا وآخرون، الهيئة العامة المصرية للكتاب/ 1987م، ص2019 . 2024.

لمـــا حمتـــك مهاتهـــا بعثـــت إليـــك خيالهـــا
فصدفت عن ذات السّوار ولـــم تـــرد خلخالهـــا
عرفـــت غايـــة بـــدرها لمـــا رأيـــت هلالهـــا
والشـــمس عنـــد شـــروقها علـــم اللبيـــب زوالهـــا
وعظتـــك أيـــام تمـــر فهـــل فهمـــت مقالهـــا
إن غيـــرت حـــال الأنـــام فمـــا تغيـــر حالهـــا
ســـلبتك أوقـــات الشـــباب فمـــا أصـــبت منالهـــا
تجـري بنـا جـري الخيـول وقـــد ســـئمت مجالهـــا
وسـريت تحـت المـدجنات مماريـــــاً أهوالهـــــا
في فتيـة تجـزي إلـى البيت الحـــــرام فعالهـــــا
أو راكبــاً وجنـــاء تشـــكو بـــــالفلاة كلالهـــــا
عادتهـــا للطيـــر تنقـــر بالضـــــحى أوصـــــالها
وأكلـت صـمغ الطلـح فـي بيـــــداء ترفـــــع آلهـــــا
تبغـــي بمكـــة حاجـــة قـــدر العزيـــز مآلهـــا
حتى قضيت طوافها سبعا وزرت جبالهـــــــــــا
وســـمعت عـــن صـــباحها ومســـــائها إهلالهـــــا
ترجـو رضـا الملـك الـذي مـــنح الملـــوك جلالهـــا

فهو في هذه القصيدة يعالج قضية اجتماعية من قضايا عصره، حيث يتعرض لوصف مسافر للحج كان متعلقاً بالدنيا ثم اتجه بكل جوارحه إلى الله وعزف عن الدنيا وما فيها من مباهج.

وقد بدأ الشاعر بالحديث عن الدنيا، حيث بين أن الدنيا تداعب كل إنسان بمباهجها ويستوي في ذلك المسافر والمقيم، وهي فعّالة لغير الأشياء الجميلة،

ومع ذلك يتعلق الإنسان بجمالها الزائل البرّاق، ومسّرتها دائماً ناقصة؛ لأنها زائلة والإنسان السعيد لا يجد فيها الكمال، لأنها فانية، والنفس الإنسانية تحاول تحقيق آمالها في الحياة التي تحياها من الدنيا بجهلها وعدم تفكيرها فيما يؤول إليه حالها فيما بعد، ولو أنها فكرت في المآل الذي ستكون عليه لعزفت عن ذلك، وإلى متى يكلف رفاق الحياة أنفسهم مشقة السير في الطريق الوعرة وهم في هذه الدنيا كالمستظلين بمجموعة من الأشجار التي منع هجير الشمس ظلالها من أن تظل، ولكن أمر هذه الدنيا عجيب؛ لأنها ألقت في نفوسهم الغرام بها وعودتها الذل والهوان في سبيل الالتصاق بها، فهي كالفتاة الجميلة تبدي لمحبها جفاءها تارة ودلالها تارة أخرى، وهؤلاء يقولون مللنا من الدنيا بلسانهم، وأما ضميرهم الذي يطوي حقيقة أمرهم فإنه يخالف ذلك، وقد قبضت هذه الدنيا على الإنسان الحر الكريم بيمينها وشمالها، فأين له من الخلاص منها؟! وأنت أيها المسافر إلى الأماكن المقدسة طلقتها مذمومة، حيث اختبرت مداخيلها وما فيها من خصال، ولو أن هذه الدنيا جاءتك عفواما فإنك تريد وصلها، لأنك بشر تضعف أمام إعرائها، إلا أن الله ﷻ هداك وسلمت من هم يوجع إذا قطعت أسبابها، ومع ذلك فهي حين بعدت عنك بحقيقتها لم يتركك طيفها وبعدت عن هواها وما يتصل بها؛ لأنك عرفت ما تؤدي إليه؛ لأن الإنسان اللبيب يعلم من شروق الشمس حتمية زوالها، ولاشك في أن الأيام التي تمر قد وعظتك وقد فهمت منها مقالة حالها، وهي إن غيرت أحوال الناس فإن حالها دائماً واحد لا يتغير، وإذا تأملت فيها فستجد أنها سلبتك أيام الشباب أغلى أيام في عمر الإنسان يعتز بها ويستعيد ذكرياتها في حياته، وهي تجري بنا بني الإنسان مثل جري الخيول إلى النهاية، وقد حللت أيها الإنسان ذلك المجال الذي تجري فيه أيام الدنيا، حيث علمت المصير الذي تكون عليه فسرت في ظلام السحب تمارس أهوال الحياة في مجموعة من الشباب قاصداً حاجة لك

بمكة المكرمة قدر الله أن تحققها، فقضيت الطواف بها، وزرت المعالم التي ينبغي أن تزورها في هذه المناسبة، وسمعت وساهمت صباحاً ومساءً في التهليل والتكبير، وفيه من التضرع لله، كل ذلك رجاء لرضا خالق هذا الكون الذي أعطى للملوك النعمة التي يتمتعون بها من الجاه والسلطة وسواها.

هذه بصورة عامة الفكرة التي تدور حولها هذه القصيدة، وهي فكرة واضحة وعادية بالنسبة لما يحصل في الحياة، ولا يكاد يجد الإنسان فيها من الجديد ما يستحق الذكر أو التوقف عنده، إلا أن الرؤية التي يراها الشاعر وتخطر بباله غير ما نراه ونعتقد أنه لا يتطلب التوقف عنده، ذلك أن الشاعر كما سبق أن بينا يصف الواقع الذي يعيشه بكل ما فيه من صور واضحة وقاتمة، ويتوقف كثيراً عند الأشياء المألوفة ليخرج منها بالجديد الذي لا يخطر على البال.

فهو هنا يتخذ من الدنيا منطلقاً لوصفه لذلك الموقف الذي يجمع بين المتناقضين، الدنيا بما لها من بهرج ورواء، والزهد والعزوف عنها وما فيه من قهر للنفس والتغلب عليها، وهذه لاشك قضية تتطلب التأمل والإغراق في التفكير، فالدنيا أمر غير هين، وخاصة تلك المغريات والآمال والطموح فيها، ومثل ذلك المغالبة والسيطرة عليها للتخلص من ذلك كله.

وقد عالج الشاعر هذه القضية وعرضها بأسلوبه الخاص؛ لأنها كانت من القضايا التي لها الصدى الكبير في عصره ولها الصلة الأكيدة بما التزمه من الزهد في الدنيا ومباهجها، وقد حملت هذه الصورة إلى الفكر الإنسان النموذج الواقعي للأدب الذي يتعرض بإحساس فلسفي لقضايا الزهد، وصورت الحياة بالطريقة التي يراها الشاعر ويحسّ بها بكل ما له من أبعاد وعمق، ومن هنا كانت الصورة واضحة لا تحتاج إلى مزيد من البيان، رغم أن الشاعر حاول

فيها أن يخوض في أسلوبه الفلسفي الذي عرف به، وليس في ذلك ما يعيب هذا الأسلوب، أو هذه الطريقة التي وردت بها هذه الصورة الفنية في أدب الفكر الذي يتصل بالجانب العقلي قبل اهتمامه بالجانب الفني.

ومهما يكن هذا الأسلوب الذي سلكه هذا الشاعر، فإنه كان في المستوى الذي استطاع به أن ينقل الصورة التي كان يحسّ بها في داخل نفسه ومشاعره، وبذلك استطاع أن يدفعنا إلى التأمل في مضمون هذه القصيدة التي كانت تصور الحياة الدنيا بما تستحق أن تفهم به، وهذه هي الطريقة التي نفهم بها الصدق الفني لدى الأديب الذي يعالج قضايا الفكر، فما الصدق الفني إلا النقل الأمين لمشاعر الأديب وأحاسيسه في أي موضوع يعالجه، سواء صادف ذلك هوى عند غيره أم لم يصادف؛ لأن الأديب الحقيقي هو الذي يقدم لنا الصورة الحية لما يعتلج في نفسه من أفكار ومشاعر تسهم في تقدم الحياة وتطورها وتعمل على نشر الفكر وتدعيمه، سواء كان ذلك في الشعر أو القصة أو المقالة أو غيرها من أجناس الأدب وأنواعه الكثيرة والمتعددة التي تتشابك مع الحياة الإنسانية ومقتضياتها وما فيها من أنواع وصور ومضامين.

2 ـ وإذا كان طابع الفكر العربي الأصلي هو الوضوح والعفوية والسهولة، فإنه بذلك استطاع أن ينفد إلى أعماق المعاني التي يريدها ويتعامل بها مع الحياة في الأحداث التي يمر بها، وفي تكييف الحياة العربية التي يحياها الإنسان العربي ويتقلب في مشاكلها اليومية، ويحاول أن يوجد لها الحلول العملية المناسبة التي تتلاءم مع مقتضيات العصر وملابساته وظروفه وما يوجد فيه من إمكانات لها دورها الفاعل في فهم الأحداث وتوجيهها والإفادة منها في عوامل التطور والبناء بالنسبة للواقع الاجتماعي والأدبي والتاريخي والاقتصادي وغيره، الأمر الذي كان به ذلك الفكر في إطاره الصحيح الذي

يستطيع أن يتطور مع نمو الحياة التي تحياها الأمة العربية، وأن يعبر بوضوح عن طبيعتها وتكوينها الذي لا يخرج عن هذا الإطار في سياقه العام.

فهي من الأمم التي حباها الله بنعمة العيش في الصحراء واستلهام ما فيها من وضوح وسعة وما يجري فيها من إلهام وتأمل في رحاب الكون الواسع الفسيح، الذي عكس في نفسية هذه الأمة وتفكيرها ما نحسّ به ونجده من وضوح وعفوية قل أن يتوفر مثلهما في غيرها من نفسية وشعور الأمم الأخرى التي لم تنل حظ هذه النعمة، ولم يكن لديها من الوضوح وبعد الرؤية في الأمور التي تعنّ لها وتعترض سبيلها، مثل ما نراه وندرسه ونشاهده في واقع وتاريخ هذه الأمة، التي صارعت وكابدت الشدائد والفتن والدسائس واستطاعت بهذا اللون من التفكير السهل الواضح العفوي العميق أن تشق طريقها وأن تتغلب على كل ذلك بيسر وبعد نظر وصبر وصمت، وأن تسجل في هذا المجال من المآثر ما يعد فريداً في نوعه، وسبقاً في عالم المعرفة، وعلامة المواقف الحية التي تتطلب النظر الدقيق والحكمة البالغة، التي تهدف إلى الحقيقة وفهم وتأكيد ما لها من جذور وأعماق يستطيع منها إنسان هذه الأمة أن يتفاعل ويتعامل مع المراحل التي يمر بها من التاريخ، وأن يكيف نفسه مع الأحداث التي تمر به، سواء منها ما تعلق بمجتمعه أو غيره من المجتمعات الأخرى التي تربطه بها صلة، وأن يكون في ذلك في حجم مستوى المسؤولية الملقاة عليه نحو أمته ونحو الإنسانية، حتى يسجّل أن الأمة العربية وفكرها الأصيل النابع من كيانها ومقوماتها الحقيقية تستطيع في كل مرحلة وفي جميع الأوضاع التي توجد عليها أن تقدم العطاء وتساهم بجد وعفوية في بناء التاريخ الإنساني وحضارة البشر، لأنها من الأمم التي لا تبلى والتي وهبت إمكان

الحياة الذي لا ينتهي، فهي فكر وأصالة ووضوحاً تقوم على النظر الصائب الدقيق في جميع ما يهمها من شؤون الحياة.

ومن هنا فإن ما تفرزه من تفكير، وما تأتي به من نماذج في مجاله لا يبعد عما فيها من ميزات وما تتمتع به من خصائص، نستطيع بكل بساطة أن تلمسها في ميادين الدراسات الفكرية والأدبية وغيرها، وأن نلوح بها في كل حين ونحن نسير في منعرجات الأفكار ودروب التاريخ التي نحلل من خلال المواقف والمشاكل والظواهر التي تعترض سبيل البحث والاستقصاء التي تتركز حول مفاهيم الحياة الاجتماعية في الوطن العربي، ودراسة ما فيه من أساليب التفكير التي وإن اختلفت في المظهر والشكل، إلا أنها في الواقع والجوهر شيء واحد.

وقد يكون لبعض هذه الأساليب الاعتبارات البيئية ما يحتم ظهورها بذلك اللون الذي نراها به، ولبعضها الآخر ما يجعلها في مستوى قريب من أمزجة الناس وتعاملهم في المحيط الذي يعيشونه، وهو الأمر الذي ألزمهم بهذا اللون من أساليب التفكير وفهم قضاياهم وحل مشاكلهم على ضوئه وعلى أساس ما فيه من ميزات، في مقدمتها توافقه مع ما لديهم من إمكان وإحساس ومشاعر لا يجدونها في غيره من الأساليب التي يراها سواهم واضحة ومجدية ومؤكدة للتوجهات التي يقصدونها ويبحثون عما وراءها من أهداف وغايات.

فالسهولة والوضوح في الفكر العربي كلها عوامل تدعونا إلى القطع واليقين بأنه فكر نموذجي يطرح قضايا الإنسان المعاصر الذي أصبح همه في كل ما يعنّ له من خطوات أن يركن إلى الاختصار والإيجاز، وأن يهجم على الحقيقة بدون أن يهتم بالثوب الذي تقدم فيه، وألا يعطي للألوان التي تتشكل بها الجوانب التي تحيط بها أي نوع من الاهتمام، لأنها شيء ثانوي وزائد بالنسبة

لما يريده من الحقيقة التي يقصدها ويرمي إليها، ويرى بها الأحداث والحياة المعاصرة التي تحركه وتستقطب نشاطه وحركته وفاعليته فيما حوله من أشياء، هي الأساس التي يؤكده واقع العصر وما فيه من جديد وتطور وتحديث في الأطر والمفاهيم وفي الإمكانات التي يراها الناس من الباحثين والدارسين والمهتمين بقضايا الفكر ومشاكله وما فيها من فروض وحلول على المدى القريب والبعيد والعملي والخيالي الذي لا يتفق مع مادية الحياة المعاصرة، التي لا تأخذ الأمور إلا من جوانبها المادية الصرفة، التي لا تقيم اعتباراً لكل ما يرتبط بالقواعد والأسس النظرية مهما كان لها من تأثير ومهما بلغت من قوة النظر والاعتبار عند النظريين من أصحاب النظر.

وبقطع النظر عن مناقشة هذه الفكرة فإنها نوع من التوجه الذي يرى به الفكر المعاصر بعض القضايا أو تيارات الأفكار التي قد تكون من بين الأفكار الوافدة على بيئتنا العربية التي استقبلت منها الكثير، ومع ذلك فهي لم تبعد بها عن أصلها ولم تمح عنها شيئاً من ملامحها العميقة التي تؤكد حيويتها وفاعليتها المستمرة في الحياة عامة، وفي الحياة الاجتماعية وفي التطور الإنساني العام الذي يتفاعل مع ما يتوفر لديه من إمكان ومع ما يتوفر فيه من مؤثرات استطاعت البيئة العربية أن تحدثها وتدفع بذلك التطور إلى التفاعل معها.

وفي هذا التوجه الفسيح الذي تعطيه أبعاد الفكر العربي في شتى مجالات التأمل وفي جميع نواحي التحليل العملي في مجالات الحياة المعاصرة وغيرها نستطيع أن نؤكد قدرة الفكر العربي واستيعابه لكل ما يعن للإنسان المعاصر من طموح وتطلع للمستقبل وقدرة على حل قضايا الواقع بكل يسر وسهولة، وبقدر ما فيه من عفوية ووضوح، وبحجم ما يكمن فيه من شفافية وعمق، وهو

الأمر الذي يحفزنا إلى البحث والمتابعة عن آثاره وألوان ما قدمه من إبداع وابتكار وجديد في أساليبه وتطوراته وتراثه وتاريخه وعطائه الإيجابي الذي سيظل نموذج الصدق فيه.

كتب(1) عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن أبي جعفر إلى أحد إخوانه يعاتبه قائلاً: «أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريرة، فأطمعني أولك في إخفائك، وأيأسني آخرك في وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك فاجتمعنا على ائتلاف، وافترقنا على اختلاف، والسلام».

فهذه الرسالة لون من ضروب الفكر في معالجة قضايا الحياة التي تتفاوت حسب مراحل التطور والعصور وما يسود فيها من أنواع الفكر القضايا والمشاكل والحلول.

وتعبر هذه الرسالة عن نموذج الأفكار التي كانت متبادلة بين الناس من المفكرين وغيرهم في صدر الإسلام وما تلاه من العصر الأموي.

وفيها يبدو وضوح الفكرة التي يعالجها الكاتب، إذ أن صاحبها يعبر عن حيرته التي وجدها مع صاحبه فهل يقطع بالثقة فيه وحسن الظن به حيث بدأه باللطف والنية الحسنة قبل أن تسبق له معرفة به، الأمر الذي يحمله على تأكيد الثقة فيه والإخلاص في مودته وصدق إخائه، أو يحتاط لذلك وييأس من مودته

---

(1) السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، 128/1.

وإخلاصه له؛ لأنه بادره بالجفاء دون أن تبدر منه جريرة يؤاخذ عليها، الأمر الذي يجعله متأكداً من عدم إخلاصه ومودته، فالرسالة تشمل موقفين للمخاطب بها، موقف يدل على الانسجام وصدق الطوية، ويدعو للتجاوب ومبادلة المشاعر الصادقة، وموقف يناقض ذلك كله ويبعد بصاحبه عن التجاوب ومبادلة المشاعر، وهذا هو الذي جعل الكاتب في حيرة من أمره واتجه في نهاية الرسالة إلى الابتهال إلى الله ﷻ أن يلهمه الحقيقة ليتصرف على ضوئها ويصل إلى الأهداف الواضحة التي يريدها.

فالفكرة التي اشتملت عليها هذه الرسالة رغم غموض موقف المخاطب بها تبدو في منتهى الوضوح والعفوية والسهولة، وهي نموذج لما يسير عليه الفكر العربي قبل أن يخالط ما وفد عليه من صناعة وتعقيد لفظي، حيث كان ينطلق من طبيعته وواقع ما فيه من تكوين يعبر عن ذات أمته وكيانها ومقوماتها التي انطلقت منها، واستطاعت أن تغرس بها آراءها ومبادئها في نفوس الناس، وأن تقودهم إلى البناء الحضاري الأصيل الذي ينبع من ذات الإنسان، ويراعي ما فيه من إعداد وإمكان هو الأساس المتين لاستمرارية وحيوية ما لديه من تفكير.

وقد استطاعت هذه المسحة من الفكر العربي في أصالته أن تقدم من العطاء الفكري والأدبي وغيره ما يعد تأسيساً للدراسات المختلفة، وبناء لمعالم الحضارة الإنسانية التي مازال الإنسان يتفيأ ظلالها ويرتوي من معينها الذي لا ينضب.

وإذا أردنا أن نحقق الأصالة العربية التي نصبوا إليها في خطانا التي نقطعها نحو الحياة المثلى التي نطمح إليها، فلابد لنا من متابعة المراحل التي مر بها الفكر العربي، وأخذ ما فيها من عمق ويسر ووضوح، حتى نستطيع من

خلال ذلك أن نؤكد صدق الرؤية العربية لكل ما يصادفها من أوضاع الحياة، ونبرهن واقعياً على أن الفكر العربي في أصالته لا تقف أمامه المشاكل، وهو فكر لا يركن للتبعية ونكران الذات، ولا يسير إلا في الطريق الصحيح الذي لا يعرف الالتواء والاعوجاج.

3 ـ والجوانب التي يستطيع الأدب أن يعالجها من الحياة كثيرة وبقدر ما فيها من سعة وشمول وعمق ما يستطيع أن يقدم فيها من صور يقدم بها الوجه الصحيح للحياة ويبرز فيها الآفاق الرحبة التي تزيد الفكر نشاطاً ، وتعكس على مختلف الجوانب التي تضمها الحياة وتتألف منها ومما فيها من مضامين المعنى الكبير الذي يربطها بالفكر ونشاطه ويدعمها بالبحث المتواصل الذي يفيد الاتجاهات المختلفة في الأدب والفن والاجتماع وشتى المناحي التي تنمي الاهتمام بالدراسة وآثار التفكير، وتحفز على مواصلة النشاط الذي يتركز على تتبع آفاق الفكر وحصرها وملامح الفن والاستفادة منها وصور الإنتاج الأدبي والنشاط الاجتماعي، وتأكيد ما فيها من معان وأبعاد باعثة على التأمل والملاحظة والوعي بما في الحياة من تطور وفاعلية، وبما في الواقع الذي يحياه الناس ويتقلبون فيه من مواءمة لذلك التطور وتلك الفاعلية أو بعد عنها، الأمر الذي يبعث على الاهتمام بدراسة الأسباب والمسببات والظواهر التي لها دور في تأثر الواقع الاجتماعي بعوامل التطور والسير في سبيل ما يتطلبه من نشاط وتفاعل مع ما يجد في الحياة من جديد، تستيطع الدراسات الأدبية أن تبرز الوجه المشرق للحياة التي يزيدها وضوحاً ويعطي للمتأملين فيها من الصور والمضامين والأبعاد ما يؤكد لديهم الإحساس بضرورة التفاعل مع ما تقتضيه من حركة وما يفيده البحث في أطرافها من إيجاب يدرك منه المجتمع والأفراد

قيمة الحياة الحقيقية من جهة، ويحسون بما تتطلبه من نشاط وحركة وتفاعل وتطور وانسجام وتجديد من جهة أخرى.

ومهما تعمق التأمل في الحياة وتعددت الجوانب التي يتعلق بها ويتصل بما فيها من أسباب، فإن التوجهات التي تترتب على ذلك لا تقف عند حد معين، وفيها من التنوع ما يدفع بالفكر ونشاطه إلى مواصلة الدراسة والتتبع الذي تجد فيه الدراسات المقارنة من النماذج ما هي في حاجة إليه، ومايؤكد دورها في المجالات التي تتناولها وتهتم بما فيها من حقائق ومجالات يرى فيها الأدب والفن والفكر من الأبعاد ما يشد الانتباه إليها، ويحتم الاهتمام بما فيها من معطيات تنعكس على ما يدور في نفوس الناس من إحساس وتجاوب مع تلك المعطيات التي هي في الواقع النتائج الإيجابية للتأمل والخلاصة للدراسات المقارنة والمفهوم الذي تشمله الحياة فيما تشمل من مفاهيم وأبعاد.

فالدراسات الفكرية المتأنية التي تحاول أن تتبع ما في الحياة من جوانب تستطيع أن تقدم الجديد في كل ما تقطعه من خطوات جادة، كما تستطيع أن تقدم من المفاهيم التي تستوعبها الحياة ما يثري الفكر الإنساني الذي يجد في تلك المفاهيم سعة وشمولاً وقدرة على الفاعلية والنشاط والإبداع وتقديم الجديد الذي يقوم عليه التطور والتقدم، وما في الحياة من تفاعل.

ولكن تلك الدراسات رغم ذلك كله لا تستطيع مهما بلغت من العمق والإمكان وقوة القدرة أن تستوعب جوانب الحياة كلها وجميع آفاقها وميادينها التي لا يحصرها العد ولا يحيط بها ما في وسع الإنسان من إمكان، ومن هذه الجوانب كان للتأمل في آفاق الحياة أثره البالغ في تنمية الفكر والإنتاج الأدبي والنشاط الفني، وكان لاختلاف وجهات النظر في شتى قطاعات الحياة

وقضاياها المختلفة مبرارته التي يستند عليها، ويرى بها من الاعتبارات ما يعد منطلقاً وأمراً معقولاً.

ولسعة الجوانب التي تحتويها الحياة ولا يجد الإنسان مندوحة للبعد عنها والتأمل فيها والبحث عن تفسير أسبابها واختلاف مظاهرها ومكوناتها الأساسية والجانبية، كان لابد للإنسان من إعمال النظر فيها والالتجاء للتفكير الذي يجعل الروية فيها واضحة أمامه حتى يستطيع أن يواكب الحياة بما تتطلبه من إمكان والصور التي يقدمها من التفكير في جوانب الحياة.

ومن إعمال النظر فيها يجد النشاط الأدبي فيها المادة التي يستمد منها قدرته على معالجة القضايا الاجتماعية وتحليلها والمساهمة في بناء الفكر الإنساني وتطور الحياة الاجتماعية على ضوء ما في الواقع من إمكان وإحساس بما تتطلبه حاجات الإنسان وظروفه وما يمر به من مؤثرات.

وخلال ذلك كله تجد الدراسات الفكرية التي تهتم بما في الحياة من جوانب من المظاهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية والتيارات الفكرية والاعتبارات الفنية وسواها ما يجعلها في وضع يمكنها من القدرة على العطاء والتغيير والدفع إلى ما في الحياة من مشرق وجديد وإلى ما في الواقع من أصالة وحديث مفيد.

والجوانب التي تشملها الحياة كثيرة، وكلما جال الإنسان بفكره أو ببصره فيها وجد السعة والشمول وازداد تعلقاً وانسجاماً مع ما يلاحظه ويلمسه من نماذج وصور، وفي الجانب الواحد يقف على مختلف الصور التي توضح واقع ما تصوره وتعنى به ويرى فيه الإنسان من الاعتبارات ما يدعوه للتعلق به ومتابعة ما فيه من أبعاد.

فالطبيعة وهي قطاع وجانب كبير من الجوانب التي تشملها الحياة حيث يجول الإنسان فيها بفكره أو بصره يجد فيها من النماذج والصور والآفاق ما يشده إلى الأبعاد والأسرار والألوان التي لا تخطر على البال لولا تأمله في جانب الطبيعة من الحياة، ولذلك نرى الشعراء مفتونين بما في الطبيعة من جمال وعمق وتعدد في الصور والألوان، يقول أحد الشعراء[1] المعاصرين في الربيع:

وافـــى فصـــيّر كـــل روض	معرضـــــــاً للعبقريـــــــة
وأثـــار فـــيّ وقـــي بلابلـــه	الهــــــوى والشــــــاعرية
وافـــــى فـــــرد فقيــــرة	الربـــوات فـــي الـــوادي ثريـــة
وكســـــــا خمائلهـــــــا	غلائلهـــا وقـــد كانـــت عريـــة
وافـــى فخـــفّ إليـــه قلبـــي	ظامئــــــاً يرتـــــاد ريـــــه
قلبـــي كنحـــل الله يظمـــأ	للزهـــــــور الســـــــكرية
يـــا بســـمة الزهـــر السّـــري	وبســـمة الخـــود السّـــرية
كلتاكمـــــــا بتشـــــــببي	وتصـــــببي أبـــــداً حريـــــة
قـــل يـــا ربيـــع لكـــل متـــر	راتـــــع فـــــي أكثريـــــة
أنـــا قـــد كســـوت لـــك الريـــاض	فهـــل كســـوت لـــي البريـــة

فهو يتأمل الربيع وما تجود به الطبيعة في فصله على الأحياء من جمال ونشاط وحيوية، حيث تكون الرياض معرضاً لما في الطبيعة من أسرار وفن تعجز العبقرية الفذة عنه، ولروعة ذلك المعرض وقوة تأثيره وسحره تتحرك بلابل الطير وتناجي الطبيعة وتتبادل الهوى وتقدم من الأنغام والروح الشاعرية ما يزيد الإحساس عمقاً وتأثراً بالطبيعة في هذا الفصل الذي يعد من الفصول التي

---

[1] شاعر البراري، النصوص الأدبية السابق، ص259.

يتعلق بها الإنسان لجماله وقوة تأثيره في الأحياء الذين يرون في الفصول الزمنية اختلافاً جوهرياً لا يقف بالحياة عند حد من الحدود التي يتصورها الإدراك ويقع عليها الحسّ لأن هذا الفصل حين يقبل تصبح الربى البلقع عامرة بالألوان المختلفة من العشب والنوار والأزهار والخمائل التي كانت في عرى تام مكسوة بثياب متباينة الألوان، وحين يقبل هذا الفصل تسرع إليه قلوب الشعراء ظامئة ترتوي مما فيه من رحيق، فهي مثل النحل يظمأ لما في الأزهار والنوار من رحيق سكري، وبسمة الزهر الجميلة والفتاة الناعمة كلتاهما جذيرة بتشبب الشعراء وصبابتهم بها.

وهؤلاء الشعراء يخاطبون الربيع بأن يطلب من الأغنياء والأثرياء الذين يتكالبون على جمع المال أن يتشبهوا بالربيع في جوده على الأحياء ويقوموا بواجبهم نحو الفقراء والمعوزين الذين هم في حاجة إلى ما في أيديهم من أموال حتى تكون الحياة ودروبها ممهدة للناس جميعاً ولا يشعر أحد فيها بالمشقة والتعب، في حين ينعم غيره بالراحة ولا يحس بما في الحياة من مشاق وحرمان.

فهذا الجانب من الحياة الذي تمثله الطبيعة يبرز ما فيها من أسرار ويدعو الإنسان للبحث والتأمل والمقارنة والاهتمام بما في الأطراف البعيدة والقريبة من الحياة من معان وآفاق رحبة.

والشاعر في هذه القطعة كان يتأمل الطبيعة ويقدم التصور الشامل الذي يراه للربيع وما فيه من بواعث وجمال وسحر، فلم يقدم التفصيل ويسترسل في سرد الأمثلة والصور، إذ كان يتحدث عن فصل الربيع بشعور مفعم بما في الطبيعة من سحر وتأثير لا يجد الإنسان أمامه إلا التجاوب مع ما في الطبيعة

من دواع ومؤثرات يحس منها بالتقلب والتفاعل الذي يجري في الحياة ويستهدف ما فيها من أبعاد.

هذه صورة في جانب الطبيعة والحياة، وهناك صورة أخرى تمثل جانباً للطبيعة والحياة في فصل الخريف، يقول أحد الشعراء[1] المحدثين في فصل الخريف الذي تظهر فيه الطبيعة بمظهر مغاير للربيع:

حال لون الرياض بعد ازدهار ... وتمشى الذبول في الأزهار
وبدت وحشة الخمائل لما ... فارقتها سواجع الأطيار
وتعرّى وجه البسيطة مما ... كان يكسوه من حلى النوار
وعرا صفحة السماء قطوب ... فهي ترمي من غيظها بشرار
وتفشى الشحوب في ورق الغصن
وخفت نضارة الأشجار
إنها ثورة الطبيعة قد ... زادت عن الكائنات كل قرار
إنها ثورة لها يتذكر ... بأن الخريف في إدبار
إنها طلعة الشتاء وما ... أثقلها في النفوس والأفكار
هي والله كالشجى في حلوق الناس
أو كالقذى على الأشفار
يا زماناً مضى سريعاً وولّى ... بأمان للعالمين كبار
فيك أنس الأديب إن ضاق ... بالناس وسلوانه من الأكدار
فيك للشاعر الذي ينشد الحسن ... مثال من رقة الأشعار
فيك للموجَع الحزين جلاء النفس
مما تشكوه من أضرار

---

[1] الشعر أحمد حسّون، النصوص الأدبية السابق، ص261.

فالشاعر في هذه الصورة يتعرض لآثار الطبيعة في فصل الخريف الذي تنعكس فيه الآية عن الربيع، فتتغير الرياض وتذبل أزاهيرها وتصبح الخمائل موحشة خالية من الأطيار الساجعة بأنغامها المتجاوبة في الأرجاء، ويتعرى وجه الأرض مما كان يكسوه من العشب والنوار، والسماء نفسها تصير في وضع مقطب تعلوها السحب، وتصدر منها الصواعق التي ترمي بالشرر، وبالجملة يتفشى الشحوب في أوراق الغصون، وتجف نضارة الرياض والأشجار.

وهذه الظاهرة هي ثورة الطبيعة التي لا تترك الاستقرار للكائنات، وهي أيضاً ثورة تدل على أن الخريف نفسه في إدبار، كما أدبر الصيف وقبله الربيع، فهي طلعة الشتاء الثقيلة على النفوس.

هذه الثورة للطبيعة هي حركة الزمان الذي ولّى ومضى بأمان كبار للعالمين، ففي الزمان وفصوله وما فيها من عبر أنس الأديب حين تضيق به السبل، ولا يطيب له العيش مع الناس، وفيه سلوانه مما يكدر نفسه ويحيق بها من المنغصات.

وفي الزمان للشاعر الذي ينشد الأنس والحسن ويتعلق بأسباب الجمال ومظاهره المثال الرائع من الأشعار الرقيقة، وفيه للإنسان الحزين الذي أوجعته الحوادث جلاء النفس مما تشكوه من الأضرار، فالطبيعة وما تحدثه من حركة يبدو فيها الإحساس بدورة الزمان وآثاره في الفصول التي تشملها السنة تجسيد للجوانب التي تحتويها الحياة فيما تحتوي.

ولا تستطيع الدراسات المختلفة مهما أوتيت من الفاعلية والإحاطة أن تستوعبها جميعاً، فهي كل ما تستطيع أن تتناوله منها القدر الذي تقع عليه

أنظار الدارسين ويتعلق به اهتمامهم، ويصل إليه إدراكهم وتصورهم في إطار البيئة والمحيط الذي يضمهم ويحتويهم، وكلما توسعوا في معالجة الآفاق التي تبدو لهم من جوانب الحياة ازدادت الحياة والدراسة إثراء وقدرة على العطاء والفاعلية والإيجاب.

4 - لا يستطيع الدارس للحياة الاجتماعية أن يبتعد عن التيارات والأفكار التي تسود تلك الحياة وما يجري فيها من موازين التفكير الاجتماعي التي تشكل ما نلاحظه من مظاهر وظواهر نحاول أن نتعمق في دراسة أسبابها ودواعيها، ونصل فيها إلى الآراء والتفسيرات الواضحة والمقنعة التي تصل بنا في النهاية إلى سلوك السبيل الإيجابية، التي تجعلنا على يقين من صدق ما نمارسه من أعمال في الواقع الاجتماعي الذي نعيشه ونزاول ما يدور فيه من أفكار ومعاناة وغايات نحاول أن نستوعبها في المناهج التي نخططها لمسيرتنا في الحياة بصورة عامة.

وهي وإن اختلفت في واقعها وتفسيراتها فلا تقصّر في إجمالها عن أداء ما نشعر به من توجه نحو معالجة المشاكل الاجتماعية التي تشمل المناهج وتنوع الأفكار وتطورها، وما تعكسه من إمكان يرى فيه الدارسون والباحثون والمقومون للفكر وحركته وتوجهه الاعتبارات الأساسية التي تدعو لضرورة رصده وفهم ظواهره وما تشكله من ألوان ونماذج وصور يجد فيها الباحثون ما يعتبر جديداً في مجالات الدراسة ورصد تطورات المناهج الاجتماعية وما يتصل بها من ظواهر تساعد على فهم الحياة والمعاناة التي يعانيها الإنسان المعاصر وتكيف مشاكله وتوضح تفسيره لكل ما يعترض سبيله من قضايا، سواء كانت اجتماعية محضة، أو كانت فكرية واجتماعية في آن واحد، يستطيع الفكر أن يستخدمها في أهدافه ومشاكله التي لا تقف عند حد من الحدود أو مجال معين، ويستطيع

الإصلاح الاجتماعي أن يركز عليها خطواته الهادفة التي يقوم بها ما يراه من سبل ومناهج وأفكار واعتبارات عامة وخاصة، مما يدعوه إلى الموازنة والمقارنة والاهتمام بكل ما يجري في الواقع من معان وملامح تجمع بين الفكر وبين تطبيقاته العملية التي لا تخضع للملاحظة فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك تقبل التعديل وتطاوع في بحث المجالات المختلفة التي يراها الدارسون لوناً من ألوان التطور وخطوة هادفة من خطوات التقدم الاجتماعي والأدبي والفني.

وهذا التفسير للمراحل التي تمر بها الحياة الاجتماعية يقوم في واقعه على أساس ما تشمله من أحداث وتصرف إنساني في كل ما يجري في ذهن الإنسان من تصور في عالم الواقع ومجالات المعاملة والأخذ والعطاء الذي لا يتقيد إلا بالقوانين التي تمليها الحياة الاجتماعية وطبيعة ما يسودها من أفكار ومثل يعتمد عليها التفسير الذي يحلل الظواهر والمعاناة التي يمر بها ويعانيها المجتمع وأفراده وباحثوه ومفكروه الذين يهمهم أن يؤكدوا ما فيه من ميزات وأن يسجلوا ما لديه من مواقف يعدها الفكر الإنساني قاعدة ونقلة صادقة بالتحول الفكري إلى ميادين البناء الذي يستهدف الإنسان والرقيّ به إلى الأفضل على أسس ثابتة ومدعمة بروح الصدق والإيمان بما في العلم ومباحثه من إيجاب يتجلى بالغوص في أعماق الواقع الذي يحياه الإنسان في كل عصر وبتفسير الحقائق التي تجري بين الناس بأسلوب علمي يعتمد البحث وموالاته ويقوم على الدقة والملاحظة التي تمليها الدراسة الموضوعية الهادفة التي تخلق المناخ الذي يساعد على فهم الأفكار الحية التي تعين على التطبيق العملي لما يصل إليه العصر من تقدم وتوضيح في فهم وتفسير الظواهر والتيارات الاجتماعية التي تنبثق منها القضايا والمشاكل التي يراها المعاصرون لوناً جديداً مما تجود به الحياة، ويقف الإنسان أمامه في غاية من الحيرة والارتباك، الأمر الذي

يحدو به إلى البحث عن التبرير والتفسير الذي يقبله ويراه مطابقاً للواقع والمنطق والعقل.

وهو وإن اقتنع بمنهج يسلكه في فترة من الزمن، فإنه سوف يعود إلى هذا البحث عن منهج آخر يحاول من خلال ما يلمسه أن يكون تفسيره وتبريره مغايراً لما سبق أن قرره وركن إليه على أساس قاعدة منطقية لا يشوبها نوع من الشك أو التردد.

كل هذا أو غيره وهو كثير نلاحظه ونحن نحاول أن نجد التفسير والتحليل للظواهر والتيارات الاجتماعية التي تعج بها الحياة، ويحسّ الإنسان المتأمل بضرورة تفسيرها وفهم أبعادها وسبر أعماقها حتى يستطيع أن يطرح الأفكار التي تساهم في تعميق المعاني التي لا تتم النهضة الشاملة إلا بها، وبالتالي مناقشة النظريات التي تدفع بها التيارات المعاصرة في مجالات الإصلاح والوعي والإحساس بمعاني الحياة الإنسانية، وما تتطلبه من جهود في سبيل إرساء دعائمها ومقوماتها واحترام الناس لها حتى تكون الأهداف الاجتماعية التي يرمي إليها المجتمع قدراً مشتركاً بين الأفراد الذين يتألف منهم.

وفي سبيل الوصول إليها يكون الإحساس بمسؤوليتهم لا يقل عن الإحساس بواجبهم الذاتي الذي لا يمكنهم الانفكاك عنه، وهو ما نعده مسئولية فردية واجتماعية، وننطلق منه إلى تقويم الواجبات التي نزاولها في الحياة الاجتماعية، ومن هذا التقويم نحاول أن نفسر الظواهر والتيارات الاجتماعية.

والمشكلة التي يعانيها الإنسان العربي المعاصر هي مشكلة فلسطين، التي نكب فيها العرب والمسلمون بجرح دام لا يندمل إلا بتطهيرها من رجس الصهاينة المفسدين في الأرض، الذين لم يعرفوا للإنسان حرمة، وهمهم الوحيد

هو القتل والتشريد والدمار، ونشر الفساد والرعب بين المواطنين في الأرض السلبية، ويأبى القدر إلا أن يمكنهم من إشباع رغبتهم في إراقة الدماء العربية الطاهرة لأولئك الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، ويعاني العرب والمسلمون الصدمات من جراء عبث هؤلاء المفسدين.

ونجد الشعر يردد تلك الآلام ويترجم ما فيها من لوعة وأسى، حاثاً على الجهاد والثأر من هؤلاء الظالمين، ويطالعنا في هذا الصدد شاعر معاصر[1] بقصيدة بعنوان: حزيران الحزين، وفيها يقول:

وللسيف أصدق أنباؤه	تزال بها ظلم الغيهب
ولكن أسيافنا كلها	غدت خشباً فهي لم تضرب
فليس ابن أيوب قدامنا	يلوح بالصارم الأعضب
وليس ابن حمدان مستنفرا	يصيح لشعر أبي الطيب
ولا ثم معتصم غاضبا	يلبي زبرطية المنسب
فهل نضب الشرق؟ يا ليته	معيناً كما كان لم ينضب
فلسطين يا حلم النازحين	ويا أمل المشرق المنجب
ويا قبلة الطهر صلى إليك	المسيح وأسرى إليك النبي
ورفرف حول جمالك الطهور	ملائكة الله في موكب
لقد كنت معنى يشد الوجود	فأصبحت لفظة مستغرب
بنوا العرب في كل أقطارهم	بأفكارهم أنت لم تغربي
لقد جندوا لك ما يملكون	عواطف شرقية المشرب
وآسوا جراحاتك النازفات	بفيض من الكلم الطيب
وحكامهم كلهم غاضبون	لأجلك يا عزة اليعرب

---

[1] شاعر معاصر.

ولكـــنهم بعــدُ مـــا عبـــروا بغيـــر حـــديثهم المغضـــب

هذه القطعة تترجم الإحساس الدفين الذي يشعر به الإنسان في الوطن العربي والإسلامي نحو هذه المشكلة التي شغلته، ولم تزدها الأيام إلا تعقيداً ومضاعفة لما يصدر عنها من آلام، وإذا كانت فلسطين في أيامها الزاهرة معنى كبيراً يشد الأسماع ويهز الوجود، فإنها في هذا التاريخ أصبحت رمزاً للبلاء والأسى، وبنوا العرب في جميع أقطارهم لم تغب عن أفكارهم، وجندوا لها ما يملكون من العواطف، وضمدوا جراحها بالكلم الطيب، وحكامهم غاضبون إلا أنهم عبروا عن هذا الغضب بالحديث الذي يقطر بالتهديد والموت الزؤام.

هذه المشكلة وهذا هو أساسها، العدو الصهيوني، يخطط وينفذ، وفي كل مواجهة معنا يقطع مرحلة معينة من مخططه، ونحن نتبادل الخطب الرنانة والقصائد العنترية، ونملأ الدنيا ضجيجاً، وفي النهاية تكون المآسي التي يهتز لها الضمير الإنساني، وتكون حصيلتها حصد أرواح الآلاف من الأبرياء، ولا نملك إلا العويل والصياح، وكأن أمتنا جفّ معينها وهي التي تملك القوة وتستطيع أن توقف جميع الأعداء عند حدودهم، ولكن أين العزم والصدق؟ وأين الحكام الحريصون على شرف هذه الأمة ومجدها؟ هذا هو أساس المشكلة، وهذا هو حلها الطبيعي الذي نحن في حاجة إليه.

ومن هنا استطاع الأدب العربي أن يقوم بدوره في تعميق الجذور الحقيقية لمعاني الحضارة والفكر وتطور الحياة التي ينبغي أن يحياها الإنسان حتى تتجاوب أصداء الفكر بين جنباتها وتحسّ مجتمعاته بانتماء أفرادها إليها وإيمانهم بمعنى الحياة كما ينبغي أن يفهم ويتطور.

والأدب العربي في هذه القضية متطور يحكي المفهوم الواسع العميق الذي يجسّد الروابط الصادقة التي تربط جميع المجتمعات الإنسانية بكل عناصر الخير والعطاء الصادق، وفي الوقت نفسه يمثل الصبغة الحقيقية لما ينطوي عليه الإنسان العربي من وفاء وحب وإخلاص يعمق بصماته على التاريخ وحضارة الإنسان وما فيها من صور وجوانب مشرقة مضيئة ينعم بها المخلصون في جميع المجتمعات الإنسانية من أولئك الذين يعملون من أجل الخير ونكران الذات ونشر العدالة بين الناس جميعاً، بغض النظر عن أصولهم ومعتقداتهم وما يدورون فيه من صروف.

الفصل الثالث

الأدب ومؤثراته وخطواته التجديدية والإصلاحية

أ ـ تعدد وجهات النظر في مختلف الجوانب التي يعالجها الأدب من حياة الأمة العربية:

1 ـ جوانب كثيرة هي التي عالجها الأدب العربي من حياة الأمة العربية في تاريخها الطويل، وساهم بها في نشر التراث العربي، وصور الفكر الإنساني الذي خلد لهذه الأمة أمجادها ومواقفها التي ما تزال موضع التقدير والإعجاب لدى الدارسين والباحثين المعنيين بتطور الفكر والدراسات المتعلقة به، وما يمكن أن يستخلص منها من أصول وقواعد في النقد والتقويم والإبداع، ومناهج الإنتاج الأدبي الذي يعنى بقضايا العصر ومشاكل المجتمع، وتنظيم الوسائل التي يقوم عليها الإصلاح والبناء في الحياة الاجتماعية العامة، وما يرتبط بها من آفاق في المعرفة والفكر وعوامل التقدم والتطور.

وإذا كانت هذه الوسائل التي يعنى بها الأدب مختلفة ومتفاوتة بين المهتمين بالنشاط الأدبي والفني وسواه، فإن ذلك لا يعني شيئاً أكثر من تعدد وجهات النظر في علاج مختلف القضايا والمواقف التي يطرقها التفكير، ويحاول كل باحث من وجهة نظره الخاصة أن يتناولها بأسلوبه الذي يراه ويلتزم به في التفاعل مع القضايا والمشاكل العامة والخاصة، التي ترتبط بالفكر الإنساني ونماذجه، بمختلف ما فيها من ألوان وخصائص، وبمختلف ما تحويه من تعبيرات ومضامين، لعل أهم ما فيها من ميزات هو اتصالها المباشر بقواعد الفكر الإنساني العام واعتمادها على ما فيه من ميادين في تفسير الحقائق وربطها وبسط سبلها وأركانها وأهدافها التي ترمى إليها، ويرى فيها الأدب وإنتاجه الآثار الفاعلة في الحياة وإصلاحها والمجتمع وتطوره والبيئة وتوعيتها.

وتنوع وجهات النظر في اختلاف الوسائل واختيارها، وهي التي يدرس بها الإنتاج الأدبي ويقوم على أساسها وأساس ما لها من أبعاد يدل على الثراء الفكري، وعلى أن وسائل العلاج لقضايا الفكر لا تقتصر على منهج بذاته، بل تقوم على عدة مناهج لكل باحث ودارس أن يسلك منها ما يختاره ويروق له، إذ أن اتجاهات الكتاب والباحثين وسواهم في اختيار الأساليب والسبل والمناهج التي يسلكونها غير متفقة، فكل منهم له ميوله الخاصة التي قد تتركز في الآفاق الخيالية التي تستلهم الخيال وتجري وراء كل ما له به صلة، وقد تتركز في الآفاق العلمية التي لا يهمها إلا التوصل للحقيقة، وقد تتركز في العاطفة والمشاعر والوجدان وما يدور فيه من ضروب وفنون، وقد تحاول المزج بين ذلك كله.

وبقدر ما في التوفيق بين وجهات النظر هذه من عسر تتأكد الاستفادة منها حين يتم التوفيق بينها ومقارنتها وتبيين ما لكل منها من ميزات.

والتنوع في استخدام الوسائل الدراسية في الإنتاج الأدبي وتطويره قد يدعو إلى التكرار ومراجعة المناهج التي تعتمدها الدراسة ويستند عليها التقويم الفني، ومع ذلك فإن الفائدة مؤكدة منه، والرجوع إلى مراجعته ومتابعة ما فيه من إمكان وتوجهات فكرية وفنية وغيرها يعطي للدارس والمتأمل في الإنتاج الأدبي بكل ما فيه من أجناس وأنواع وضروب فكرة واضحة وإلماماً تاماً بالأصول العميقة التي يدور حولها الإنتاج الأدبي وتتركز حولها وجهات النظر التي تتناوله بالتقويم والدراسة والتوجيه.

والمهم جداً في التعامل مع النصوص الأدبية وتفسير الإنتاج الأدبي بكل ما يحمله من مفاهيم هو الوقوف على توجهات الباحثين الذين يتناولونه،

وتوجهات الأدباء الذين أنتجوه، حتى تكون الأفكار المتداولة بين كل منهم بينة وبعيدة عن التعقيد والغموض، ويسهل على ضوئها فهم ما يحتويه الإنتاج من أفكار وتوجهات وتفسير وتوفيق؛ لأن القصد من الدراسة المتابعة للإنتاج والمقوّمة، هو الوصول إلى قيمته الحقيقية، من حيث مستواه وتأثيره.

والوقوف على توجهات كل من الباحثين والمنتجين يبرز الجوانب المهمة والمختلفة التي تعطي الصورة الواضحة للإنتاج الأدبي، وما يتصل به من دراسات تقويمية وفنية وسواها، وذلك يفتح المجال أمام كثير من الأفكار التي تدفع بالإنتاج الأدبي إلى التجاوب مع ما يدور في الحياة من نشاط، وإلى الارتباط بما يدور بين الناس من قواعد وأصول في التعامل والعلاقات والصلات، الأمر الذي ينطلق منه الإنتاج إلى طَرْق كل ما يدور في واقع الحياة الاجتماعية من تصاريف، وإلى الإسهام الجاد في تطوير الأفكار التي تدور فيها، وتوعية الناس بمسئوليهاتهم العامة والخاصة على السواء.

وإذا كان النشاط الأدبي في إطاره العام يبرز جانباً من جوانب الفكر في المجتمع، فإن الإلمام بكل ما يدور فيه من توجهات ويتصل به من لفتات يجعل التناول للقضايا التي يعنى بها الفكر في إطاره العام ميسراً وقائماً على أسس منطقية، فيها من الإيجاب ما يؤكد الحرص عليها ومتابعتها وبذل الجهود في سبيل توطيد أركانها وترسيخ دعائمها في الأوساط الفكرية والثقافية والفنية والأدبية التي يهمها ذلك، والتي لاشك في أن الفكر والمنطق هو الأساس الذي تقوم عليه وتحاول دائماً أن تهتدي بما فيه من موازين يزيدها التأمل والدرس والمتابعة وضوحاً وفاعلية وتأكيداً.

ومن منطلقات التقويم والتوجهات التي يتوجه بها الأدباء والدارسون نحو الإنتاج الأدبي ودراسته يتم التفسير لكل وجهة نظر يراها صاحب الإنتاج الأدبي فيما يقدمه من ألوان الفكر، ورغم أن فكرة الاتجاه نحو معالجة موضوع ما تتوقف على ميول الأديب وثقافته ومدى تأثره بمقومات عصره وما يجري فيه من نشاط فكري، فإن لمحات الفكر وعناصره العامة تظل هي الأساسيات التي يتجه إليها النظر في الإنتاج الأدبي، ويتوجه إليها التقويم في كل ما له من آثار في الواقع الذي يدور فيه، وفي الحياة التي يعالج مشاكلها وهمومها وما يتعلق بها من نشاط في مختلف الآفاق والمجالات التي تتصل بها.

والتقويم الأدبي حين يتناول الأفكار التي يسوقها الإنتاج فيما يسوق من مفاهيم، يحاول أن يقف على المنطلقات والأساسيات التي انبثق منها واستند على ما فيها من قواعد وأصول وظلال؛ ليركز على المؤثرات والعوامل الفكرية التي لونته وشحنته بما يلمس فيه من حس وعاطفة وخيال وسواه، الأمر الذي يجعل فهم ذلك الإنتاج والإفادة منه في الإرشاد والتوجيه الاجتماعي قضية متداولة بين الدارسين والباحثين والمتأملين في مختلف قضايا الحياة وصلتها بالجوانب الفكرية، من أدب وفن واجتماع وغيره.

وعلى أساس هذا التوجه في النظر للنشاط الأدبي يكون التوفيق بين الاتجاهات التي نلحظها متباينة في الإنتاج الأدبي بين كل من الدارسين والمنتجين راجعاً إلى الميول الشخصي لكل منهم، وإلى الثقافة والأفكار العامة[1] التي تدور في واقعهم الذي يتقلبون فيه ويلمسون الحياة وما يجري فيها

[1] جميل سلطان، كتاب الشعر، المكتبة العباسية، ص189 وما بعدها.

من خلاله، وخلال مؤثرات العصر وتياراته المتعددة التي لا يمكن للإنتاج الأدبي مهما كان نوعه أو حجمه أو أثره أن يتجاوزها ويكون عنها بمعزل.

وهذه قضية لا تحتاج إلى النقاش والبرهنة والإقناع بتسلميها، حيث صار النقد والتقويم الأدبي يراها من الجوانب المهمة في الإنتاج الأدبي، وأصبحت من العناصر الأساسية في تحليل المفاهيم والمعاني والمضامين التي يتناولها الإنتاج الأدبي، أو يسير إليها، أو يؤكد ما فيها من جديد وابتكار، وبات من القواعد النقدية في الأدب أن الإنتاج الأدبي الذي يبعد عن عصره ولا يتناول قضاياه وما يجري فيه من مشاكل وتصاريف لا يعد من الوجهة التقويمية المعاصرة إنتاجاً كاملاً، بل ينقصه أهم ما ينبغي أن يتوفر فيه من عناصر هو الصدق الذي لم يكن إلا التجاوب مع روح العصر وما يدور فيه من قضايا ومشاكل وأفكار ومضامين.

وفي إطار كل ما تقدم من أساسيات يقوم عليها التوجه في الإنتاج الأدبي وفي تقويمه وتناول كل ما يتصل به من تأثير نلمس مختلف القضايا التي يعالجها الإنتاج الأدبي ويتعامل معها النقد والتقويم في آفاقه وميادينه وشتى ما له من مجالات.

2 ـ يقول البارودي[1] في مطلع العصر الحديث في قضية الشعر ودوره في الحياة ومقوماتها:

للشعر في الدهر حكم لا يغيره ... ما بالحوادث من نقض وتغيير

---

[1] عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ط2/ مكتبة النهضة المصرية/ 1950م، ص143.

يسمو بقوم ويهوى آخرون به   كالدهر يجري بميسور ومعسور
له أوابد لا تنفك سائرة   في الأرض من بين إدلاج وتهجير
من كل عائرة تستن في طلق   يغتال بالبهر أنفاس المحاصير
تجري مع الشمس في تيار كهربة
على إطار من الأضواء معسور
تطارد البرق إن مرت وتتركه
في جوشن من سبيك المزن مزرور
صحائف لم تزل تتلى بألسنة   للدهر في كل ناد منه معمور
يزهى بها كل سام في أرومته   ويتقي البأس منها كل مغمور
فكم رسخت بها أركان مجهلة   وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به   ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً وكم أودى بمنقبة   رفعاً وخفضاً بمرجو ومحذور
أبقى زهير به ما شاده هرم   من الفخار حديثاً جد مأثور
وفل جرول غرب الزبرقان به   فباء منه بصدع غير مجبور
أخزى جرير به حي النمير فما   عادوا لغير حديث منه مشهور
ولولا أبو الطيب المأثور منطقه   ما سار في الدهر ذكر كافور

هذه نظرة البارودي للشعر وتأثيره ودوره في الحياة، وهي نظرة كان الماضي يقرها؛ فالشعر كان بمثابة الصحافة في مختلف الأوساط التي كان يدور فيها، وهذه النظرة ليست جديدة على الحياة العربية؛ حيث كان الشعر هو اللسان المعبر عن الرغبات والأماني، وكان الشاعر هو الناطق عن قومه وقبيله، وبمجرد ما ينشد قصيدة في الأسواق التي كانت تقام لهذا الغرض وغيره تسرى بين الناس مسير النار في الهشيم، وتتلقفها الأفواه والألسن وتسير بها الركبان في مختلف الأصقاع وشتى الأماكن والبقاع، ويتناولها الرواة والنقاد

والدارسون، ويتجاوب صداها في مختلف البيئات والأوساط، وتصبح النموذج الذي يستشهد به ويتمثل به في مختلف المواقف والموضوعات المشابهة، فالشعر في نظر البارودي حكم لا يغير أثره ما في الأحداث من تغيير ونقص، وبه يسمو أقوام وينخفض آخرون، وله حكم سائرة تجري مع الشمس في أصقاع الأرض، وهو صحائف ما تزال تتلى من قبل الدهر في كل ملتقى عامر يزهو بها كل من له أصالة وثقة في نفسه، ويتقي البأس منها غيره، فكم ثبت بها من ملك وكم أخمدت بها من أنفاس مغرورة.

ثم إن الشعر في إطاره العام ديوان أخلاق يبدو منه ما سطره الفكر الإنساني وطرقه وأشاد كثيراً من المجد، وقضى على كثير من المناقب، وخلد به بعض الشعراء كثيراً من الأبطال، وثلم به بعضهم الآخر بعض القبائل والمشاهير، فهذه النظرة للشعر تراه من الجانب الأخلاقي والمثالي، وتعده من المقومات التي تقوم عليها القيم المثلى للحياة الإنسانية.

ولكن هذا ليس جوهره الذي تقوم عليه حقيقته، إذ أن جوهره الأصلي: هو الكلام الموزون المقفى، أو هو الكلام ذو العبارة الموحية. والمهم أن وجهة نظر البارودي هذه في الشعر وجهة رآها على ضوء ما كان يؤمن به ويراه ويتأثر به من مؤثرات يعج بها عصره وما سبقه، وهي نظرة كان القدماء يقرونها ويعتبرون الشعر من أسمى المناقب التي يتحلى بها الإنسان، يقول أبو تمام[1]:

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه   مغارم في الأقوام وهي مغانم
ولا كالعلى لم ير الشعر بينها   فكالأرض غفلاً ليس فيها معالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى

---

[1] المصدر السابق، ص144.

بغـاة النـدى مـن أيـن تـؤتى المكـارم

فهو هنا يعد الشعر من المكارم التي لا تعد لها أية فضيلة، والنقد الذي يتعرض لدراسة هذين النصين ويحاول تقويمهما على أساس موضوعي، قد يختلف معهما في هذه النظرة من حيث الجوهر الأساسي للشعر، ومن حيث الدور الذي يؤديه؛ لأن الشعر في واقع أمره ليس قيمة مثلى، وفي دوره الذي يؤديه ليس عنصراً من عناصر الوعظ، وإنما هو وسيلة من الوسائل التي ينتشر بها الوعي ويعبر بها الفكر عن لون من ألوانه في الحياة التي يحياها الإنسان.

والإلمام بكل من وجهتي النظر لكل من الشاعرين السالفي الذكر والنقد الذي يتعرض لهما ييسر فهم الأفكار التي تدور في واقع العصر، وما في ذينك النصين من وفاق أو خلاف لها، وهذا يوقفنا فعلاً على القيمة الحقيقية لهذين النصين ولما يدور في العصر من جديد يراه الفكر خطوة من الخطوات الجادة نحو التطور وتطويع النص الأدبي لما في الحياة من مقتضيات، تعدها الدراسات الأدبية من الجوانب التي لا غنى عنها للبحث والاستقصاء وكشف الحقيقة[1].

3 ـ وفي كل عصر من التاريخ تجدّ مفاهيم في الحياة يتعلق بها الناس ويرى فيها بعض المفكرين جوانب مهمة تتصل بتفسير بعض الظواهر الاجتماعية والأدبية وغيرها، من الظواهر التي يرى الفكر ضرورة الغوص في أسبابها وملامحها وتفهمها بدقة حتى يتم الإلمام بجميع ما يجد في الحياة من جديد، يتخذ منه الفكر منطلقه، والأدب ميادينه الفسيحة التي منها تتسع آفاقه

---

[1] انظر في إطار التطور بمعنى الشعر، إحسان عباس والنقد الأدبي، الدار العربية للكتاب/ 1984م، ص186 وما بعدها.

وتثرى جوانبه وتوضع أسسه العامة التي يتم التعارف عليها من خلال ما يقدمه من نماذج وصور وابتكارات، تقدم للإنسان الحلول المختلفة لمشاكل الحياة والعصر الذي يعيشه ويحاول أن يحيط بكل ما فيه من فكر ومؤثرات عامة وخاصة، تبرز فيها القيم التي يعتمد عليها الناس والمفكرون في تقويم الفكر وما في الحياة من مشاكل، سواء منها ما تعلق بالأدب أو الاجتماع أو العمران أو السلوك العام، وسواء منها ما كان محلياً متصلاً ببيئة معينة أو عاماً عالمياً يمسّ واقع الإنسان أينما وجد وكان وأينما حل واتجه في الكون ودروبه والحياة وتشعبها، وما تقتضيه من متطلبات لا يستطيع الإنسان المفكر منها فكاكاً وفراراً وبعداً مهما تشعبت به السبل ومهما حاول حولها من تبرير، لأن للحياة وإنسانها ضرورات يستطيع منها أن يحدد أهدافه وانطلاقه كما يستطيع منها أن يفرق بين الأمور التي لا تحتمل التمديد في تصرفاته والأمور التي تحتمل أكثر من التأجيل والتمديد.

وحين دخلت في الفكر العربي تلك التيارات التي التقى بها مع حضارات الأمم والشعوب الأخرى التي ضمها الإسلام بلوائه، وكان الفكر العربي غايتها التي تنشدها في مختلف المجالات التي تطرقها، بدأت مسحة هذا الفكر الأصيلة تتأرجح بين الغموض والتعقيد، وأخذنا نرى من الصور الفكرية الباهتة ما يبعد بنا عن جوهر الحياة ومضامينها الحقيقية التي لا تعالج إلا بالفكر الصادق الذي لا ينفذ إلا لما فيها من أعماق وأبعاد، فظهر السجع والتلاعب بالألفاظ والمهارة في التعقيد في الكتابة، والاختلاف في كثير من القضايا الشكلية التي لا صلة لها بواقع الناس وحياتهم، الأمر الذي خلق هوة فاصلة بين واقع الحياة الاجتماعية والتفكير وما ينبغي أن يقدمه في سبيلها من علاج ومقترحات لتطويرها وبعث عوامل الأصالة والجد والإبداع فيها، وخاصة تلك

الجوانب التي تنظم الصلات الاجتماعية وتربط الجهود المبذولة بذلك التنظيم الذي يحركه الفكر والرأي الصائب السديد الذي يقوم على المنطق وتحري الصدق وفهم الحقيقة وبسط الأفكار النيرة التي تتصل بها بين الأوساط الفكرية التي تدفع بعجلة التقدم في المجتمع إلى الأمام، وتأخذ من الخطوات التي تقطعها في مجالات الفكر والمعرفة المواقف والقواعد الفاعلة التي تهيئ المناخ الصالح لازدهار الفكر وتكريسه على أسس واضحة وسليمة.

وقد رأينا نتيجة لذلك طابع السهولة والعفوية والعمق الذي لاحظناه في الفكر العربي يختفي في خضم الشكلية والسطحية التي أخذت تسيطر عليه وتحاول أن تطبعه بطابعها، وأن تجعل منه أداة طيعة لهدم كل ما قدمه من عطاء في مجالات الإصلاح والبناء.

وقد طغت هذه الصور الباهتة على المفهوم الذي تجسّد به الفكر العربي في عهود الانحطاط التي مرت بها الأمة العربية التي كانت فيها مغلوبة على أمرها بفعل العوامل الخفية التي كان أعداؤها يبذرونها للنيل منها، ولإعطاء الصورة المشوهة عن كل ما لديها من إمكان، وخاصة ما يتعلق بالفكر والمعرفة، وما يتصل بالجوانب الإنسانية المشرقة التي تعكس ما لدى هذه الأمة من استعداد فطري فيها يتعدى جميع الاعتبارات التي يراعيها الإنسان.

ومما زاد في تعميق الصورة المشوهة عن الفكر العربي فترة ليست بالقصيرة أن مجموعة من القياديين الذين أتيحت لهم فرص التوجيه والسلطة في تاريخها الطويل لم يكونوا من أبنائها، وإنما كانوا بالإضافة إلى ذلك من الحاقدين الذين يهمهم في المرتبة الأولى أن يغضوا من شأنها، وأن يعمقوا ما يجدونه من هفوات ومنافذ؛ ولذلك رأينا في تلك العهود الصراع الفكري في القضايا البعيدة

عن الواقع التي تدور في الفرض والخيال وتتعلق بالأمور التي لا يحسها الفرد في المجتمع وتدفعه إلى الجري وراء ما فيها من بريق ولمعان وما يحيط بها من ألوان زاهية تجدر فيه الإحساس بالواجب والشعور بالمسؤولية نحو الواقع الذي يحياه والتاريخ الذي يسجله والأمة التي ينتمي إليها، ولها من الأمجاد والتاريخ العريق ما يحتم عليه أن يتحرى كل خطوة يقطعها في حركة الزمان والمكان، وما يحيط بهما من ملابسات وظروف واعتبارات هي المقياس الذي تقوم عليه حركة الفكر وما فيه من إيجاب وعطاء للإنسان وتطوره وتقدمه في مجالات الحياة الفسيحة التي استطاع الفكر العربي بما فيه من أصالة وإحساس صادق أن يوطئ أكنافها وأن يدعم قواعدها الصحيحة بما أمدها به من عطاء وجديد وإضافة على ما سبقه من أفكار.

4 - وهذا في إطاره العام لا يعني أن الفكر العربي فكر جامد لا يتأثر بغيره من الأفكار التي يحتك بها ويلتقي مع روافدها، ولكنه يعني أن الفكر العربي في أصالته دائماً لا ينساق مع الأمور العارضة التي لا تبدو فيها الحقيقة بكل ما فيها من أبعاد؛ لأنه في صفائه ووضوحه لا يتفق مع الغموض ومع التكلف الذي يخرج بالحياة عن طبيعتها.

ومن هنا كاد أن يتوقف عطاؤه حين زج به في متاهات الغموض، ومحاولات التوفيق بين الأفكار اليونانية والرومانية والفارسية والهندية وغيرها، ورأينا مسحة من الإنتاج الفكري خليطاً من تلك الأفكار، يحاول بعض الدارسين أن يطلق عليها بكل ما فيها من نشاز معاني الفكر العربي، وهذا بدون شك تعسّف وتحميل للفكر العربي ما لا ينبغي أن يحمل، وهو المنطلق الذي أخذ منه بعض الدارسين المقاييس والقواعد التي على ضوئها حكموا على الفكر العربي بالقصور والسطحية والبعد عن قضايا الحياة والواقع.

وهذه نتيجة حتمية يصل إليها الدارسون حين تكون نظراتهم للفكر العربي من هذه الزاوية، وتزداد سوءاً حين يعتريها الدسّ ومحاولات التضليل والتشويه من الذين في قلوبهم مرض من فلول الحاقدين على هذه الأمة.

وتتضح هذه النقطة بكل ما لها من أبعاد حين نرجع للتاريخ وندرس حلقات الالتقاء بحضارات الأمم والشعوب وما عكسته جهود المندسين فيه في مجالات الفلسفة والتصوف وعلوم التاريخ وميادين الحياة، كالصناعة والزراعة وغيرها من الحرف التي يحسّ الباحث بكل يسر أن الفكر العربي لم يهتم بها وكان يراها بعيدة عن متناوله، بناء على النظرة التي رسمها المندسون بين الأمة العربية من أنها أمة لا نصيب لها في تلك المجالات، والاحتراف فيها يعد عيباً في نظرها.

ومن هنا كان الإنسان العربي من وجهة النظر هذه يتعالى عن الاشتغال بهذه الحرف، وهذا بطبيعة الحال أمر لا يتفق مع المنطق في تكوين الإمكانيات التي تتألف منها حضارات الأمم والشعوب، وإذا مرت الأمة العربية بفترة من تاريخها لم تسجل فيها شيئاً يذكر في تلك المجالات لاعتبارات معينة كانت مراعاتها أهم، فليس معنى ذلك أن استعدادها الفكري والفطري لا يستطيع أن يستوعب تلك المجالات أو يقدم في صددها شيئاً.

وإذا سلمنا بهذه النظرة فإن الإصلاحات التي قدمها العرب في مجالات الصناعة وغيرها في كل قطر حلوا به أيام ازدهار حضارتهم كيف تمت، وعلى أي أساس بنيت، إن لم تكن لهم قدم راسخة وفكرة نيرة ودراية واسعة وخبرة طويلة.

فالحقيقة التي لا ريب فيها أن بعض الحلقات التاريخية من حياة الأمة العربية وتاريخها الطويل حاولت فيها بعض الاتجاهات المغرضة أن تقوم بالتشويه وإعطاء الصور المزيفة عن الفكر العربي وإنتاجه الأصيل الذي ينبع من ذات الإنسان وواقع الحياة ويتحرى الحقيقة في أجلى صورها وأوضح معانيها.

وهذا هو المنطلق الذي يهمنا أن نوجه إليه أنظار الباحثين والدارسين، وأن نعني به ونحن نتعرض لدراسة الفكر والتراث، ونقدم فيه من الصور المشرقة والمضيئة ما يبعد عن فكرنا وتراثه وأصالته كل ذلك الغثاء، من التعمية والتكلف والإسفاف الذي لا يهدف إلا للنيل منه ومن أصالة هذه الأمة وعطائها وما أسدته على الحضارة الإنسانية من إفرازات في مختلف ميادين الحياة.

يقول أبو بكر بن دريد[1] من مقصورته المشهورة في حق الناس والتعامل معهم:

والنـــاس كالنبــت فمنــه رائــق	غـض نضـير عـوده مـر الجنـى
ومنـــه مـــا تقـتحم العـين فـإن	ذقت جناه انساغ عذباً في اللهى
والنـــاس ألـــف مـــنهم كواحـــد	وواحـــد كـــالألف إن أمـــر عنـــى
وللفتـــى مـــن مالـــه مـــا قـــدمت	يـــداه قبـــل موتـــه لا مـــا اقتنـــى
وإنمـــا المـــرء حـــديث بعـــده	فكـــن حـــديثاً حســـناً لمـــن وعـــى
وآفـة العقـل الهـوى فمـن عـلا	علـــى هـــواه عقلـــه فقـــد نجـــا
كـم مـن أخ مسـخوطة أخلاقـه	أصـــفيته الـــود لخلـــق مرتضـــى
إذا بلـوت السـيف محمـوداً فـلا	تذممـــه يومـــاً إن تـــراه قـــد نبـــا

---

[1] جواهر الأدب السابق، 2/401-420.

فابن دريد هذا من أفذاذ اللغة، وكبار الأدباء الذين قدموا من العطاء في مجال الفكر واللغة والأدب الشيء الكثير، الذي قامت عليه الثقافة العربية الأصيلة، ومقصورته هذه تتألف من مائتي بيت وتسعة وعشرين، جمع فيها كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم، وقد شرحها كثير من العلماء، وعارضها أيضاً غير واحد من الشعراء، والأبيات السالفة نموذج منها، وفيها يتعرض لتوضيح بعض الأخلاق التي شاهدها من بعض الناس الذين تعامل معهم ومارس بينهم مر الحياة وحلوها، ولذلك نجد الحكمة تتخللها، وتبدو فيها بوضوح تام، فالناس معادن كما يقولون، منهم السهل اللين ومنهم الصعب الذي لا يقبل التفاهم والانقياد، وفي المواقف الحرجة والشديدة أحياناً الواحد منهم يساوي ألفاً، والألف لا يصل إلى مقدار واحد في بعض الأحيان، وللإنسان من الفائدة ما بذله من العطاء من ماله لا ما اقتناه وملكه، والمرء في حقيقة الواقع هو الذكر الحسن الذي يبقى في حياته وبعد مماته؛ ولذلك ينبغي للإنسان العاقل أن يكون حريصاً على ذلك، ومن آفات العقل اتباع الهوى والميل معه وعدم النظر في الأمور بحكمة وتعقل، والمفكر الحقيقي هو الذي يعلو عقله على هواه حتى لا يقع في المحاذير، ويتورط في المشاكل التي لا طائل من ورائها إلا الندم وضياع الوقت والجهد والمال.

فهذه النظرة الشاملة لأصناف الناس وشئون الحياة والعادات والتقاليد والحكم والأمثال والتاريخ العربي التي شملتها هذه المقصورة، ما هي إلا مسحة من الفكر العربي الأصيل الذي انطلق من واقع الحياة العربية التي اتخذت سبيلاً للدراسة والبحث والاستقصاء في مختلف مجالات المعرفة التي كان التفكير يتطرق إليها ليقيم الموازين الصحيحة التي بنيت عليها الحضارة التي نلمس معالمها ومبتكراتها في هذا العصر، ولولا ما قدمه الفكر العربي من

عطاء، وما ساهمت به الأمة العربية من جهود، مثل ما لاحظنا من كبار مفكريها وعلمائها، لما كان للحضارة الإنسانية على أقل تقدير هذا الوجه المضيء بهذه السرعة المذهلة، بل ربما تأخر تقدمها فترة ليست بالقصيرة في تاريخ الأمم، أو لم تصل إلى هذا المستوى في أدنى الفروض والتقدير؛ لأن الأدوار الإيجابية التي ساهمت بها الأمة العربية في بناء الفكر الإنساني ليست هينة، والوقوف عندها ليس من العبث، والاهتمام الجزاف، وإنما هو حلقة من حلقات التأمل الذي يوصل صاحبه إلى الحقيقة الصادقة والفكر الأصيل.

5 ـ والمحاولات الجادة التي قام بها الفكر العربي في مختلف القضايا الإنسانية وفي مختلف العصور التي واجهها هذا الفكر لم تكن إلا نوعاً من تطوره في أساليبه المختلفة لمجابهة الجديد في الحياة الاجتماعية التي يمر بها ويعطيها الصور والألوان الدافعة للحركة والإيجاب؛ كي تتخذ من الأصالة والتحري الصادق في مجالات البحث والحقيقة طريقها التي تسلكها وتعالج بها كل المشاكل التي تلم بها وتعترض سبيلها.

ولذلك كله لم تقتصر معالجات الفكر العربي في تاريخه الطويل على قطاع معين في الحياة التي كانت سائدة في كل عصر بقدر ما كان مستوعباً لكل ما يتصل به من القطاعات الأخرى التي لا تتم مكونات العصر إلا بتوافرها واستيعابها على حقيقتها، حتى تكون معالجات القضايا المطروحة جذيرة تنظر لواقعها وأسبابها ومسبباتها وما نشأ عنها من مضاعفات وأصداء استطاعت أن تفعل فعلها في الماضي والحاضر وربما المستقبل، وأن تجعل من الخيال حقيقة واقعة يلمسها الناس فيما يتقلبون فيه من معاملة وعطاء هو النتيجة لما يهدف إليه الفكر في إطاره العام.

ويحاول الباحثون من ورائه أن يؤكدوا بهذه المحاولة مدى قدرة هذا الفكر على التجاوب مع التطور الذي تمر به الحياة العامة من جهة، ومدى ما فيه من خصائص تدعم أصالته في استيعاب المشاكل التي يعيشها الإنسان المعاصر وحلها على ضوء ما فيه من متطلبات ورؤى مختلفة من جهة أخرى، مما يؤكد ملاءمته للطبيعة الإنسانية التي تأخذ في كل مرحلة تاريخية طابعها الخاص، أو يبتعد عنها ولا يلتقي معها في أي خط من خطوطه التي يسير فيها ويرى بها الأشياء في أحجامها الطبيعية.

ولكن الشيء المؤكد الذي أبرزته الأحداث وتجارب الإنسان وهو يقطع مسيرة التاريخ أن الفكر العربي لم يتناقض مع المفاهيم الصحيحة للحياة، وكان في كل ذلك الرائد الذي ينير السبيل أمام بناة الإصلاح والحضارة والتقدم الذي تنشده الشعوب، وتسعى للوصول إليه المجتمعات والأمم في الأرض.

وجميع الخطوات التشويهية التي أراد المغرضون أن يلفقوها له لم تنل منه شيئاً، وأمام المحك والبحث لم تستطع المقاومة، بل زاد هذا الفكر بذلك جلاء ووضوحاً وقدرة وفاعلية، وليس ذلك حكماً جزافاً يقوم على العاطفة وعدم التوثيق، ولكنه حقيقة سجلها التاريخ ووعاها في جاهليته وإسلامه، وأكدها في المواقف الخالدة التي عالجها الفكر العربي في البلاد التي فتحها العرب المسلمون في المشرق والمغرب، بل وفي مختلف البقاع التي كتب للإنسان العربي أن يتواجد فيها، تلك المواقف التي جعلت البشرية كلها تشعر بما استطاع الفكر العربي أن يزودها به من عطاء في شتى ما تحتاج إليه من إمكان، سواء ما كان منه متصلاً بتنظيم الأسرة والمجتمع، أو ما كان منه متصلاً بتطلعات الإنسان التي يطمح إليها وتنظم صلاته بكل ما حوله من الناس والأشياء، وتحدد حجم تعامله معها، وإطاره الذي لا ينبغي أن يتعداه،

حتى تستقيم له الرؤية التي يستطيع أن يرى بها الحياة على حقيقتها الناصعة، وبذلك يهتدي إلى الغايات والأهداف التي ينشدها من وراء ما يقدمه من بذل وعطاء وجهود متواصلة بحسب ما في الحياة من سعي متجدد ومتواصل لا يجد الإنسان منه فراراً مهما حاول وقدم من جهود في سبيل ما يشعر به معها من واجب وما يحس به خلالها من مشاعر هي الأساس الذي ينطلق منه الفكر إلى القطاعات التي يتناولها، من حيث الشكل والموضوع، ومن حيث الاعتبارات التي يقوم عليها التفكير في تلك القطاعات التي تمس اهتمام الإنسان ونشاطه وتعكس تفاعله في كل ما يقدمه من إنتاج يترجم معاناة المفكرين وهم يحاولون تأصيل قواعد الفكر ومتابعتها ونقدها على ضوء ما في الواقع من تفسير وممارسة توضح أهمية المسارات الفكرية ودورها الفاعل في إدراك الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان وهو يشق طريقه نحو البناء والحياة المثلى.

ومن هذا المنطلق كان الفكر العربي يصارع التيارات الوافدة التي تحوي كثيراً من الاعتبارات البعيدة عن أصالته وصفائه، فهو رغم اعتداده بما قدم له من حصائل الفكر لم يهمل الاعتماد على ما فيه من مقومات، وراح يغوص في كل ما يعن له من موضوعات بتلك المقومات، وظهر ذلك جلياً في الصراع الذي نشب بين بعض الباحثين في علم الكلام الذي مال فيه بعضهم إلى آراء الفلاسفة، ومال فيه بعضهم الآخر إلى مخالفتهم، ولم يسلك في تلك المباحث كلها سبل الفلاسفة ومحكمي العقل المطلق، لاعتبارات منطقية يعجز الفلاسفة وأحكام العقل المطلق[1] عن تفسيرها، واستطاع الفكر العربي بما فيه من عفوية

---

[1] انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي/ لبنان، ص458-467. ومع المكتبة العربية السابق، ص340.

وأصالة أن يفسرها ويصل إلى ما فيها من أعماق، دون أن يلجأ إلى التكلف والوعورة والابتعاد عن طبيعة الإنسان العربي وعقله السليم الذي يعايش مراحل التطور التي مر بها، ويقدم فيها من ضروب العطاء الإنساني ما يعد أساساً حقيقياً لبناء الحياة الاجتماعية في كل عصر، الأمر الذي تميز به العطاء الفكري في التاريخ العربي بأبعاده الكبيرة الواسعة التي كانت في حقيقتها أبواباً للتحول ومصدراً للإلهام في حياة الإنسان الذي عايشها واهتم بما فيها من إمكان نحس به في تلك الحصيلة الفذة من التراث بكل ما يحويه من مفاهيم وأبعاد، وبكل ما يشمله من دراسات وآفاق مازال العقل الإنساني يعثر فيها على الجديد والإبداع الأصيل الذي لم يؤلف في تاريخ كثير من الأمم وعطائها.

وليس التراث وحده هو المجال الوحيد الذي يتجلى فيه نشاط الفكر العربي وعطاؤه الواسع العريض، فهناك المناهج العلمية والمباحث التجريبية التي رافقتها وبرهنت على صدقها وتقويمها، وهناك الإبداع[1] في الفنون والآداب وأصول العمران، وقواعد الحكم والسلوك والتعامل في مجالات الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم والشعوب.

والرجوع إلى المصادر التي دونها العرب ومفكروهم يعطينا البرهان القاطع على أصالة فكر هذه الأمة ونفاذه إلى أقصى الأعماق التي يحتاجها الإنسان ويلم بها ويعالجها، إيجاباً وسلباً، ويدلي فيها بما في استطاعته من إمكان، وتعد تلك المصادر التي لم تغفل ما في الحياة الإنسانية من احتياج ومتطلبات إنتاجاً صادقاً وترجمة حقيقية لما بذله الفكر العربي وقدمه من معاناة رائدة للفكر الإنساني، وما تتأثر به من ملابسات، وما يمر بها من ظروف لابد للإنسان

---

[1] المصدر السابق، ص434.

من معايشتها والتفاعل معها والتصدي لما فيها من عوامل الخلق والإبداع بالقدر الذي يستطيعه وتسمح به مفاهيم العصر وتقاليده وعاداته ومعارفه الخاصة والعامة على السواء، بكل ما فيها من سلب وإيجاب، وخصوص وعموم.

يقول الشاعر يحيى الغزال من شعراء الأندلس في الزهد ووصف أحوال الناس وتقلبات الزمان معهم:

الناس خلق واحد متشابه	لكنما تتخالف الأعمال
ويقال حق في الرجال وباطل	أي امرئ إلا وفيه مقال
ولكل إنسان بما في نفسه	من عيبه عن غيره أشغال
يستثقل اللمم الخفيف لغيره	وعليه من أمثال ذاك جبال
وينام عن دنياه نومة قانع	بنعيم دنياه وذاك خيال
ورأيت ألسنة الرجال أفاعيا	طوراً تثور وتارة تغتال
فإذا سلمت من المقالة غيرما	تجني فأنت الأسعد المفضال

ولكي نفهم أهمية هذه القطعة وما فيها من أعماق وبعد نربطها بشخصية قائلها[1] فيحيى الغزال ذو تجربة طويلة، تقلب في السفارة بين أمراء الأندلس وغيرهم في عصره من أمراء الفرنجة، وهاجر إلى المشرق حيث التقى بما فيه من مفكرين كانوا محط الأنظار في الشرق والغرب، فأكسبه ذلك خبرة ودراية بالإضافة إلى ما يتمتع به من فطنة وذكاء حاد، جعله موضع الإعجاب والتقدير في كل مكان حل به.

---

(1) انظر محمد مندور، في الأدب والنقد، ط1952/2م، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص68-72، ص166.

وفي هذه القطعة يتعرض لحقيقة الناس وأخلاقهم ويوضح أن الرجال يقال في حقهم الصدق وعدمه، ولا يوجد إنسان في الناس إلا وهو عرضة للنقد، والإنسان العاقل هو الذي تشغله عيوبه عن عيوب الناس، ولكن هناك صنف من الناس ينتقد غيره في أبسط الأشياء التي يلاحظها منهم، ولو تأمل في سلوكه وما عنده لأدرك أن ما لديه من ذلك أضعاف مضاعفة، ويطمئن لما تغدقه عليه الدنيا من نعيم ظاهر، وذلك خيال مفرط في الاطمئنان، وألسنة الرجال حين تتعمقها تجدها متقلبة، فطوراً تكون لاذعة كالأفاعي، وطوراً تثور وتغتال كل ما يقف في سبيلها من مقومات، وفي النهاية إذا حاسب الإنسان نفسه وسلم من مقالة الناس فيه بغير ما تجني يداه فهو الموقف في هذه الحياة التي لا يسلم فيها إلا العاقلون الذين يأخذون الأمور فيها بحكمة وروية.

وفي هذه القطعة تبدو تجربة يحيى الغزال الطويلة التي عرف فيها الناس ومعادنهم واختلاف تصورهم ومداركهم وتقلبهم في شئون الحياة ومع الزمان، وهي صورة حية من حصيلة ذلك السعي الكبير في عصر من عصور هذه الأمة الخالدة التي زودت الإنسانية بكل ما في الفكر من نماذج يجد فيها المفكرون والباحثون غاياتهم التي ينشدونها وهم يواصلون البحث والتنقيب عن عوامل البناء والإصلاح.

وهذه النظرة التي نلمسها في هذه القطعة وغيرها من الإنتاج الفكري الذي جادت به القريحة العربية في تاريخ الفكر، وتدعيمه بما يزيد آفاق الحياة الإنسانية رحابة وصدقاً وإيجاباً في جميع الآفاق التي يطرقها الفكر الإنساني هي التوجه الإيجابي الذي لم يتخل الفكر العربي عن متابعته في جميع القضايا التي تعرض لها وأوجد لها الحلول العملية التي ساهمت بفاعلية في توضيح معاني التقدم والتطور ونشر الألفة والوعي بين بني الإنسان في مختلف دروب

الحياة وملابساتها التي لا تقف بها عند حد من الحدود مادام الإنسان يسعى في جنباتها.

6 . تحاول الدراسات الجادة متابعة الإنتاج الفكري العربي الذي ترجم المعاناة الفكرية التي عاناها الفكر العربي في مختلف مجالات المعرفة وفي مختلف العصور والأوضاع التي مر بها العالم العربي وإنسانه الذي تأثر بتلك المعاناة والأوضاع والعصور، وأفرز ذلك حصيلة فكرية وقف عندها الدارسون والباحثون يولونها اهتمامهم، ويطبقون عليها مقاييسهم المختلفة بحسب انطباعهم والمؤثرات التي أثرت فيهم، وتعرضوا لما فيها من دوافع قد تكون موجبة أو سالبة.

وتستهدف تلك الدراسات في إطارها العام الوقوف على ما في الإنتاج الفكري العربي من ملامح وجوانب أصيلة أو وافدة، وفيها من القوة والإيجاب ما يؤكد أهمية الإبداع والابتكار والقدرة الخلاقة في الفكر العربي الذي قدم للحضارة الإنسانية من وجوه الإشراق ما أمدها بكثير من عناصر الإيجاب، وجعلها في متناول الإنسان المعاصر الذي تفيأ ظلالها وتنعم بما فيها من عطاء هو خلاصة لجهود مضنية بذلها المفكرون والدارسون في مراحل عدة من التاريخ الإنساني الحافل بشتى ما قدمه الإنسان من وجوه الإشراق، وجوانب العطاء الذي يرتكز عليه بناء الحياة الاجتماعية بوجه عام، والذي منه تتضح الملامح العامة للنهضة الإنسانية الشاملة التي نعدها تقدماً وتطوراً عاماً في حياة البشر ونتخذها منطلقاً لأحكامنا التي نصدرها على مدى التقدم الذي وصل إليه العالم دون أن نحدد أمة أو شعباً أو ناحية بعينها، ثم من ذلك نعرج على العوامل الأساسية لشروط النهضة واعتباراتها وعواملها وما فيها من إبداع وأصالة وعمق، حيث نوازن بين الشعوب والأمم ومنعطفات التاريخ، وأدوار الفكر

الفاعلة التي استطاعت أن تقدم من المناحي المضيئة ما هو جدير بالمتابعة والدراسة والاستقصاء في حياة كل أمة أو شعب.

وفي حلقات الفكر الذي عمق ما في تلك الحياة من جوانب لها أثرها البالغ الذي يشد الانتباه حولها، مثل الحياة العقلية اليونانية والحياة القانونية الرومانية القديمة التي مازال صداها في الدراسات العقلية والفكريةموضع الاعتبار الذي لا يستطيع الفكر في حركته أن يغض النظر عنها أو يتجاهل ما فيها من حلقات أقل ما يقال فيها إنها تثري مجالات البحث والدراسة وتوسع آفاق المقارنة، وتدعو للتأمل في الخطى التي يقطعها الفكر عند كل أمة من شعوب الأرض التي تختلف في وسائل ومناهج التفكير وتتنوع في تلك الوسائل والمناهج بمقدار ما هو متوفر لديها من إمكان وهو الأساس الحقيقي الذي تنطلق منه حركة التفكير وإنتاجه ومعاناته وما تؤدي إليه من إفراز في عالم المعرفة والبحث عن الحقيقة بكل ما فيها من صور وما لها من أبعاد وما تشمله من مضامين وتجزئة واتحاد يبعث على موالاة التفكير وتسلسله والاهتمام بكل ما فيه من تطور وشمول يستطيع الإنسان من خلاله في كل عصر أن يستند عليه في تحقيق أهدافه ومفاهيمه ومطامحه التي يصبو إليها ويرمي من ورائها إلى تأكيد مشاعره وأحساسيه وبناء ذاته التي يرى بها الأشياء وما لها من حيز وأحجام يفرض عليه الفكر وتطوره أن يحيط بها ويكون على دراية بما تستقطبه من مؤثرات تستطيع الدراسة والبحث أن تحددها وأن تقف على ما فيها من عناصر مهمة في حياة الإنسان وواقعه الذي يحياه ويسعى في سبيل النهوض به بكل ما لديه من إمكان، وما في حوزته من جهود يبدو تصورها بحسب ما في كل عصر من مقاييس ومفاهيم يراها الدارسون والباحثون أساساً وقاعدة للتقدم والعطاء الصادق الذي لا يساهم في حياة المجتمع الذي بذلها فحسب، وإنما

يساهم أيضاً في أوضاع كافة المجتمعات الإنسانية التي تنشد التطور والإشراق وتحرص على الاستفادة من التجارب الصادقة التي يفرزها الفكر وتحركه الفاعل الذي لا يهمه إلا الجوانب التي تبعث فيه الحركة وتدفعه إلى المزيد من العطاء الدائب الذي يسعى إليه الإنسان في كل حين.

ومن هنا كان الإنتاج الفكري العربي مركزاً على ما في الإنسان من جوانب مشرقة دفعته إلى فهم تجارب الآخرين والاستفادة منها والاستنارة بما فيها من اعتبار في تلك التراجم التي قام بها عدد من المفكرين الذين احتواهم المجتمع العربي وسيطر عليهم فكره بكل ما فيه من معاناة وبكل ما أحدثه من مؤثرات استطاعت أن تحتوي على ما وفد عليها من جديد نتيجة تلك التراجم التي نقلت لذلك المجتمع أفكار الأمم التي صهرها واندمجت فيه، وهي مختلفة شكلاً وموضوعاً عن فكره الأصيل الذي يحركه ويؤثر فيه ويتجاوب معه وبه مع الآخرين.

ورغم تعدد هذه الأفكار الوافدة وتعدد إفرازاتها المتباينة، فإنها لم تستطع أن تغير من واقع الفكر العربي وأصالة تحركه وطبيعة اندماجه بقضاياه التي كان يعالجها ويعنى بها وبكل ما فيها من أبعاد، بل زاده ذلك قوة وتفتحاً في آفاق التوسع نحو ما لدى الإنسان العربي من اهتمام كان بعيداً عن تصوره أو لم يكن في حاجة إلى طرقه قبل وفود تلك الأفكار ومؤثراتها وما أدت إليه من تساؤل حتمت الحياة الفكرية أن يتناوله الفكر العربي بمده حتى لا يبقى ثغرة للناقدين الذين يهمهم أن يوسعوا ما يرونه من منافذ يعتبرونها من ملامح القصور والسلب في آفاق الإنتاج الفكري العربي الذي تكيف حسب رؤية الإنسان ومراحله التطورية، وخاصة ما يتصل منها بالواقع المعاصر الذي يحرص الفكر العربي أن يكون على صلة دائمة بما فيه من جديد متطور

وباعث على الحركة والإيجاب في كل ما في الحياة من أبعاد يعالجها الفكر ويوضحها المنطق العلمي الذي يقوم على التجربة والنظر وتحري الحقيقة وما فيها من أساليب علمية لا تعتد إلا بالعقل وأحكامه الصحيحة التي يرى فيها الباحثون والدارسون نظرتهم الصادقة التي يراها الإنسان المعاصر في كل مجتمع نموذجاً للصدق والعطاء وعنواناً للدراسة الجادة التي تقوم على الدقة وتحريها في جميع المناهج والأساليب التي تسلكها.

وفي هذا الإطار الذي يراعي المفكرون فيه جوانب الصدق وتحري الحقيقة والدقة في فهم أبعادها وأهدافها ومناهجها كان تحرك الفكر العربي وإنتاجه في المستوى الطبيعي الذي ظل يسير فيه نحو الأهداف التي يرمي إليها والتي انطلق نحوها وهو يحاول الإصلاح والبناء في الحياة الاجتماعية العربية وغيرها، وقد حاولت بعض المساعي والتيارات أن تصده عن أهدافه وأن تلونه بغير طابعه الحقيقي إلا أنها فشلت ولم تستطع الوقوف في سبيله، رغم ما فيها من كثافة وما أحيط به من ظروف كانت في منتهى الغموض والتعقيد، وظل الفكر العربي على أصالته وقدرته على الفاعلية.

يقول المتنبي في أبيات من الحكمة التي هي سمة بارزة في شعره وتدل على التفكير العربي في كل ما حوله من أشياء وظروف وملابسات:

ومن سر[1] أهل الأرض ثم بكى أسى
بكى بعيون سرها وقلوب

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا ... وأعيا دواء الموت كل طبيب

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... منعنا بها من جيئة وذهوب

---

[1] ديوان المتنبي السابق، ص245.

تملكهـا الآتـي تملـك سـالب وفارقهـا الماضـي فـراق سـليب

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها

ويجهـد أن يـأتي لهـا بضـريب

فالمتنبي في هذه القطعة يسوق ألواناً من الحكمة التي يميل إليها الإنسان في كل عصر لأنها خلاصة لتجارب طويلة مشتركة بين بني البشر وبين أحاسيسهم التي يحسون بها في هذه الحياة التي تبدو حركتها واضحة من خلال هذه الحكمة العميقة، فالإنسان الذي يسر أهل الأرض بما يقدمه من ألوان المسرة ثم يلم به الأسى فيبكي إنما يكون بكاؤه بنفس العيون والقلب الذي قدم به المسرة، وإذا فارق الشاعر أحبته بطريقة أو بأخرى فإن هذا ليس بدعاً؛ لأن الناس قبله قد فارقوا أحبتهم ولم يستطيعوا علاجاً لذلك حيث أعيا الموت في النهاية كل طبيب، وإذا كان الإنسان قد حاز شيئاً من الدنيا فإن ذلك ينبغي أن يكون باعثاً له على التفكير في الأعماق البعيدة التي تبين له أن الناس الذين أتوا على هذا المنوال لو عاشوا جميعاً لما وجد لنفسه موضع قدم فيها، ولحرم من الذهاب والإياب في أي مكان يريده، ومن طبيعة الحياة أن القادم الجديد فيها يتملكها بشدة، وأن المفارق لها يزهد فيها، وفي نهاية المطاف إن الإنسان الذي يحسد الشمس على ضوئها يجهد نفسه ويكلفها المشقة والأذى، وخاصة إذا حاول أن يأتي لها بمثيل يضارعها في الضوء والإشراق الشيء الذي يستحيل تحقيقه.

فهذه الصورة من التفكير والتأمل ضرب من التوجهات التي يعالج بها الفكر العربي كثيراً من القضايا التي يعايشها ويلامس ما فيها من أبعاد، وهي توجهات معقولة حين تتطابق مع ما في معاناة الإنسان من واقع، ومع ما يترجمها من إنتاج يتصل بتنظيم الحياة الاجتماعية ويؤكد طموحها ويفتح أمامها

كثيراً من الآفاق الواسعة التي تطل على منافذ الحياة الإنسانية بكل ما فيها من شمول وبكل ما فيها من اعتبار يستطيع الفكر أن يبرزه ويجعله في متناول البحث والدراسة والاستقصاء والمتابعة.

وفي هذا المنهج الذي يتوخاه التفكير العربي تتضح أصالته وقدرته على الجمع بين التطبيق والتجريد وهو يعالج المشاكل التي يعنى بها ويتخذ من التجارب الإنسانية خلاصتها وما فيها من إيجاب إزاءها، وإذا كانت الدراسات الجادة للإنتاج الفكري العربي مهتمة بالمناهج التي تطبقها حول هذا الإنتاج فإن ما في الفكر العربي من مناهج ينبغي ألا تكون بعيدة وخفية عن تلك الدراسات، سواء اعتبرت ضرباً من الإنتاج أو شيئاً آخر مختلفاً عنه في التصنيف الذي تراه وتصل إليه في البحث؛ لأنها من الجوانب الأساسية والمهمة في فهم الفكر العربي ومحاولات تطوره وتأثيره في كل ما حوله من مجالات يرى فيها الإنسان ملامح الصدق وعناصر الإيجاب والإبداع والتجديد.

7 ـ لا يعني الاهتمام بجانب من جوانب الحياة الفكرية في الدراسات الأدبية وسواها إغفال الجوانب الأخرى التي لها صلة بالموضوعات التي تتناولها الدراسة، بل الاهتمام بتلك الجوانب يثري تلك الدراسات ويفتح أمامها السبيل لإثارة القضايا المهمة التي يستطيع الأدب أن يعالجها ويعكس ما فيها من صور حية على الواقع الاجتماعي الذي لا يستطيع أن يكون بعيداً عن الفكر إذا أريد له التطور ومواكبة ركب التقدم المعاصر الذي ينهض على كل ما في الفكر والعلم من معطيات ونظريات ومكتشفات وجديد، فوحدة الموضوع فعلاً مهمة في علاج كل قضية والتزام الموضوعية في الدراسة. والتطبيق العملي في كل خطوة يخطوها الإنسان وهو يدرس وينقد ويوازن ويقارن من الأساسيات التي لا يكون للدراسة والبحث نتائجها الإيجابية إلا بمقدار ما في ذلك الالتزام

من استمساك وتقييد؛ إذ الخروج عن الموضوعية في الدراسة معناه عدم إعطاء الموضوع الذي يعالج حظه من الاستقصاء والطرح، الأمر الذي لا يقطع بصحة النتائج التي تسفر عنها الدراسة ويتوخاها البحث، وخاصة إذا استرسل البحث في الاستطراد وتتبع الأمثلة والفروض المترتبة عنه، وعما فيه من إمكان يدفع بالدراسة إلى الابتعاد عن الموضوعات الأساسية التي استهدفتها أساساً وانطلقت من جوانبها التي يتركز عليها الاهتمام بالقضايا المهمة في الحياة التي استقطبت الأنظار حولها وأكدت الحاجة الملحة لطرحها للبحث والدراسة والتحليل واقتباس ما فيها من أبعاد ومعان ومضامين يرى فيها النشاط الأدبي والإنتاج الفكري من الاعتبارات والأسباب ما يوجب تركيز الاهتمام عليها وإعطاءها الأولوية في العلاج لقضايا الواقع التي يساهم علاجها وتحليلها في مواصلة النشاط الفكري الذي يضفي على الحياة رواءها ويجعلها بمختلف ما لها من تفاسير واضحة في أساليبها وصلة الناس بها وتعلقهم بما يكمن فيها من جديد هو العنصر الحقيقي لما يعج فيها من حركة ولما يستقطب حولها من أنظار يتركز حولها الاهتمام.

وهذا لا يعني أن هناك تعارضاً بين الموضوعية وتعدد الاهتمام بالجوانب الفكرية المختلفة من الحياة، وإنما يعني في أبرز ما يعني أن الموسوعية في الدراسات المختلفة لها دورها الكبير في الإحاطة بالحقائق وحصر الأسباب التي تقوم عليها قضايا الحياة ومشاكلها، فالاهتمام بمختلف الجوانب التي تستوعبها الحياة يجعل الدارس على بصيرة وعلم ووعي بالموضوعات التي يبسطها وتشد انتباهه، كما تؤكد دوره في الأفكار التي يطرحها والنظريات التي يناقشها أو يتخذ منها الموقف الذي يراه. فالذي يعالج قضية اجتماعية وهو لا يلم بما يجري على الساحة العالمية من أفكار تتصل بها من قريب أو من بعيد، وكل

ما يلم به فقط هو الأساس الذي تقوم عليه تلك القضية، نظرته لاشك تعد من النظرات الضيقة.

وبعكسه تماماً الإنسان الذي له إلمام واسع بما يدور في الساحة العالمية من أفكار ونشاط وحركة وتفاعل اجتماعي.

وهذه فكرة نستطيع أن نسجلها على جميع القطاعات التي يعنى بها الفكر والأدب والفن وسواه، ونستطيع أن نتفهم بها الفرق الدقيق بين الموسوعية النيرة التي تستوعب مختلف الجوانب من الحياة وبين الاقتصار على جانب معين وقصر النشاط وتركيزه عليه.

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه دعوة إلى الابتعاد عن التخصص في الدراسة الذي أصبح العصر الحديث يتطلبه، وأصبح من العسير أن يتم تطبيق الموسوعية بمعناها الدقيق في مختلف القضايا التي تدور في العصر وهي مناط الاهتمام.

ولكن في الحقيقة أن هذه الفكرة ليست دعوة إلى ذلك، بقدر ما هي توجه نحو التوسع في إحراز الأفكار والمعلومات العلمية التي بمقدار توفرها وسعتها ودقتها يكون للدراسات المختلفة في كل قطاع من قطاعات الحياة أثرها وفاعليتها وجدواها.

ثم هي في الواقع توجه نحو الموضوعية الدقيقية في كل موضوع يتطرق إليه الدرس والتأمل، وإذا كان لابد من الاستطراد في بعض الجوانب من الحياة التي يتعلق بها الاهتمام والتركيز بمقدار ما يتطلبه البحث والتوضيح وتدعو إليه الحاجة الملحة دون استرسال في الأمثلة والتطبيق.

يقول أحد الشعراء[1] مفتخراً بنفسه على الطريقة المتبعة في الفخر باعتباره غرضاً من أغراض الشعر في أسلوبه القديم:

وقـور وأحـلام الرجـال خفيفـة   صـبور ونـار الحـرب مرجلها يغلـي
أنـا ابـن الـوغى والخيـل والظبـا   وسـمر القنـا والـرأي والحـل
فقل للذي ظـن المعـالي قريبـة   رويـداً فلـيس الجـد يـدرك بـالهزل
فمـا تصـدق الآمـال إلا لفاتـك   إذا هـم لـم تعطفـه قارعـة العـذل
فـلا تعترف بالـذل خوف منيـة   فـإن احتمـال الـذل شـر مـن القتـل
ولا تلتمس نيل المنى من خليقة   فتجني ثمار اليأس من شجر البخل
ومـا أنـا والأيام شتى صـروفها   بمهتضـم جـاري ولا خـاذل خلّـي
أسـير علـى نهـج الوفـاء سـجية   وكل امرئ فـي النـاس يجري علـى الأصـل
تركـت ضـغينات النفـوس لأهلهـا   وأكبـرت نفسـي أن أبيـت علـى دخـل
كذلك دأبـي منذ أبصـرت حجتـي   وليداً وحب الخير من سمة النبل
أقـول وأتلـو القـول بالفعـل كلمـا   أردت وبـئس القـول كـان بـلا فعـل
أرى السـهل مقرونـاً بصـعب ولا أرى   بغيـر اقتحـام الصـعب مـدّرك السـهل
فمـا يبعـث الغـارات إلا مهنـدي   ولا يركـب الأخطـار إلا فتـى مثلـي

فالشاعر فارس يفخر بنفسه ويذكر أنه من الرجال القلائل الذين لا يهابون الموت، وسعيه للمعالي دائماً بالجد، لأنها لا تدرك إلا به، وآمال الإنسان لا يحققها إلا بالإقدام ومضاء العزيمة، وعلى الإنسان الحر ألا يعترف بالذل مخافة الموت، فاحتمال الذل والمهانة أشد من القتل، وعلى الإنسان أن يعتمد

---

[1] محمود سامي البارودي، النصوص الأدبية السابق، ص223.

على نفسه ولا يحاول أن ينال ما يبتغيه من مخلوق مثله؛ فإنه إن فعل ذلك كانت حصيلته اليأس من نيل مبتغاه، ثم يتحدث الشاعر عن صفة الوفاء التي جبل عليها، فهو لا يهضم حقوق جاره ولا يخذل صديقه ويسير في الحياة على طبيعة الوفاء؛ لأنه من أصل عريق، وقد ترك الضغن لمن هم أهله وترفع بنفسه أن تبيت على الضغن، وهذا هو سلوكه منذ أن بلغ العقل، فحبه للخير سجية أصيلة فيه، وحب الخير أساساً من علامات النبل وكرم الطباع، وهو حين يقول يفعل؛ لأن القول بلا فعل من الصفات المذمومة، والأمور السهلة في الحياة تكون مقرونة بالأمور الصعبة، ولا يدرك الأمر السهل في الحقيقة بغير اقتحام الأمر الصعب.

وإنسان هذه صفاته من الشجاعة والإقدام والوفاء والقول المقرون بالفعل واقتحام المصاعب هو الذي يشعل نار الحرب عن طلابها، ولا يركب المخاطر عند لزومها إلا فتى مثله، تزود بكل ما في الرجولة من معان واعتبارات ومفاهيم.

هذه خلاصة هذه القطعة الفخرية وتركيز الاهتمام عليها في الدراسة يدور في فحواها العام الذي يربط الصفات العامة التي عددها الشاعر وبمجموعها تكون البطولة، وهذه النظرة المتكاملة لموضوع هذه القطعة هي الشيء المنطقي في فهمها وبسط ما تعطيه من أبعاد وتعكسه من مفاهيم؛ لأن الشاعر من الجانب الموضوعي الذي يتناوله ويدور فيه يفتخر، وافتخاره لا يتم إلا بتحقيق الصفات التي ساقها مجتمعه فيه، وكلما أوغل في سرد هذه الصفات ونسبتها إليه كان مكانه في البطولة والشجاعة والإقدام والفخر فسيحاً وعريقاً.

فالموضوع الذي تتناوله هذه القطعة هو الفخر والتزام الحديث والدراسة التي تتناوله بمفاهيم الفخر وشرح مدلوله هو التزام بالموضوعية واستقصاء لهذا الموضوع وبسط لما فيه من أبعاد وما يتصل به من أفكار وقضايا وتحاليل.

ولكن هذا لا يمنع من البحث والدراسة لكل صفة من الصفات التي سردها الشاعر على انفراد وتبيين ما فيها من ميزات وآثار في حياة الإنسان وسلوكه وعلاقاته ومعاملاته وجميع صلاته الفردية والاجتماعية التي لها دور في واقع المجتمع وما يدور في أطرافه من تصاريف يقوم عليها التفكير وينطلق منها العلاج لكل ما يتقلب فيه من قضايا ومشاكل وحلول؛ لأن الإنسان ابن بيئته[1] كما يقولون، والصفات التي يتصف بها ويتحلّى بما فيها من ميزات نابعة أصلاً من البيئة والمحيط والوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه وتربّى على ما فيه من عادات وأصول وأعراف وتقاليد، ومن هذا الجانب يكون الفرد في المجتمع عامل أخذ وعطاء، فهو عامل أخذ حين يتصف بما يسود المجتمع من عادات وسمات وعامل عطاء حين ينقل لهذا المجتمع ما تأثر به من البيئات والمجتمعات الأخرى التي يحتك بها لأي سبب من الأسباب، وبأية وسيلة من الوسائل التي تتطلبها الحياة ويطبقها الفرد وهو يسير في دروبها.

فالحديث على كل صفة في هذه القطعة على انفراد ليس بعيداً عن التزام الموضوعية التي تتطلبها دراستها والبحث فيها؛ إذ أن ذلك يعطي مفهوماً واسعاً لمعنى الشجاعة ومدلول البطولة، ويثري موضوع هذه القطعة بما يؤكد القيم المثلى ودورها الإيجابي الذي يبعث في الإنسان الإيمان بنفسه ويجعله على

---

[1] انظر نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري، محي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب، ط1981/1م، ص133.

بصيرة بما في الحياة الإنسانية من جوانب فيها الخير وفيها السبيل الواضحة للذين يحترمون الإنسان ويقدرون قيمة المثل العليا.

وهذا الاتجاه الذي يسلك التحليل والمتابعة واستقصاء الجزئيات في كل موضوع هو الأمر المهم في الدراسة وهو البعد الذي أصبحت الدراسات الهادفة ترمي إليه وتركز على ما فيه من إمكان لبعث الوعي العلمي والاتجاه المنطقي الذي يحاول أن ينبه ويسلط الأضواء على الجوانب المهمة في الحياة والواقع المعاش الذي يراه الإنسان ملموساً ويتعلق به هدفاً وتصوراً؛ إذ الدراسات المختلفة لقضايا الحياة والفكر لم تعد تهتم بسرد النظريات وإثارة الموضوعات الفرضية البعيدة عن واقع الإنسان وممارساته اليومية بقدر ما هي مركزة على اهتمام الإنسان في الواقع الذي يمارسه ويتفاعل مع ما فيه من قضايا ومشاكل.

وهذا الاتجاه قد يقلل شيئاً ما من الموسوعية ويدعو شيئاً ما أيضاً إلى التخصص والبعد عن الاستطراد والاسترسال في القضايا والموضوعات الجانبية من الحياة الواقعية، إلا أنه يدعو للأصالة والعمق والاستقصاء في تناول مختلف الموضوعات التي يعنى بها ويراها من الأساسيات التي يقوم عليها الفكر المعاصر والدراسات الهادفة التي لها صلة بكل ما في الحياة الفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية من جوانب.

ومهما تنوعت جوانب الدراسة وتعددت أفكارها واختلفت وجهات النظر بين الباحثين فيها فإن الشيء المهم أن الاهتمام بجانب من جوانب الفكر لا يعني إغفال الاهتمام بالجوانب الأخرى التي يراها كل باحث ودارس بمنظوره الخاص ووجهة نظره التي يقتنع بها، وإثراء الدراسة يتم بالقدر الذي يثار فيها من أفكار

وقضايا ونظريات يراها البحث من الآفاق الرحبة للنشاط الفكري ومواصلته وأثره البعيد.

8 - والاتجاهات الأدبية المختلفة التي تعنى بالقطاعات التي يشملها الأدب لا تنحصر في لون بذاته من ألوان التفكير بل تشمل كل القطاعات التي يعنى بها التفكير ويعالجها ويهتم بما فيها من إمكان يستطيع الواقع الاجتماعي أن يتأثر بما فيه من عوامل باعثة على العطاء والفاعلية والإيجاب، وباعتبار أن الأدب من العوامل الأساسية في خلق روح النهضة والتوعية بين المجتمعات الإنسانية فإن الاتجاهات الفكرية التي يشملها وتبرز من خلال ما فيه من قطاعات تستطيع أن تؤكد الدور الإيجابي الذي يقوم به الأدب في الواقع الاجتماعي(1) وبعث روح النهضة بين الأفراد الذين تكون قدرتهم على العطاء والاستجابة للصالح العام بمقدار ما لديهم من وعي وبمقدار ما يتوفر لديهم من اهتمام ومتابعة وعلاج للتفكير وقضاياه التي تتصل بشئون الحياة وترتبط بواقع الإنسان وتتعلق بما يحيط بالبيئات والمجتمعات من عوامل مادية ومعنوية يجد فيها التفكير من الآفاق الرحبة ما يدعوه إلى الخلق والإبداع وإثراء البحث ومواصلة الجهود في ميادين المعرفة ومجالات التأمل في قطاعات الطبيعة ومكونات الوجود ومحتويات الكون التي يسبح فيها الفكر ويرى فيها التصور من الظواهر ما يعد مادة خصبة للدراسة والتفكير الحي الذي يوفق بين الاتجاهات التي تعنى بالواقع المادي من جهة، والاتجاهات التي تهتم بالمعنويات من جهة أخرى؛ إذ أن محتويات الكون ومكونات الطبيعة وقطاعات

---

(1) عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر، ط1955/5م، ص42-47. الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، دار الفكر، ط1968/2م، ص305-330.

الحياة والوجود تشمل هذين الاتجاهين بمقادير لا يستطيع الفكر الإنساني أن يستوعبها ويحيط بكل ما فيها من مؤثرات وإمكان.

والفكر الإنساني في جميع مراحل الحياة التي يمر بها الإنسان لا يستطيع وهو يعالج قضايا المجتمع أن يكون بعيداً عن مفاهيم الطبيعة ومكونات الوجود ومحتويات الكون التي تساعده وتسانده على تفسير الظواهر التي يلاحظها، والتوصل إلى الحقائق التي يعنى بها ويحرص على تأكيدها والاستفادة مما فيها من عطاء مادي ومعنوي وسواه.

وإذا كانت الحياة الإنسانية عامرة بالمشاكل، فإن ما في الطبيعة ومكونات الوجود ما يساعد على حلها وتوفيق ما يلاحظ فيها من تنافر وتناقض وبعد عن الاتساق والانسجام، وذلك كله من البواعث الأساسية والدواعي الإيجابية التي تشد الانتباه إلى الظواهر الطبيعية ومكونات الوجود لخوض البحث والدراسة فيها وفتح آفاق العطاء أمام الإنتاج الأدبي والنشاط الفكري والتأمل الفني الذي يشتمل على كل ما في الدراسة من اتجاه يرى فيه الإنتاج الأدبي من الاعتبارات والمفاهيم ما هو جدير بالمتابعة والتقويم، ومنه تتم الخطوات الناقدة للفكر وما قد يعترض سبيله من نشاط في الحياة الاجتماعية التي يتقلب فيها الإنسان المعاصر الذي يحاول بكل ما لديه من وسائل مادية ومعنوية أن يقف على حقائق الحياة ويسير في دروبها المختلفة على أسس منطقية من التجارب الفكرية التي مر بها ومارسها.

وإذا كان النشاط الأدبي وإنتاجه يتجرى في أصالته المنطق والفكر، فإن الخطوات التي يسيرها الإنسان في الحياة لتكون فاعلة وإيجابية تستلهم التجربة وتستند على التفكير وتحاول أن تبعث مفاهيم التوعية الاجتماعية بين

الجماعات والبيئات التي تدور بينها وترى فيها الواقع الذي ينبغي أن تهتم به وتعالجه وتقف على ما فيه من عناصر الإصلاح والبناء وتطوير الحياة بجميع ما لها من اعتبارات ومعان وتفاسير.

وإذا استطاع النشاط الفكري في أية صورة من صوره، أدباً أو فناً أو سواه، أن يتعمق في أبعاد الحياة التي يعيشها الإنسان المعاصر ويقف على كثير من الأسباب التي تتكون منها مشاكلها المختلفة التي يتيه الإنسان في أعماقها، فإنه بذلك يكون قد ساهم بصدق وفاعلية في بعث الوعي وتأكيد ضرورة الاهتمام به.

والأصالة التي يقوم عليها النشاط الفكري تجعل منه مرجعاً للاستلهام والاستنارة والاستشهاد به في المواقف المماثلة التي تمر بها الحياة في كل عصر يحل به الإنسان ويحاول أن يستنير فيه بالتجربة وما لها من قوة وتأثير في الواقع الاجتماعي وما يدور فيه من صلات وروابط بين الناس في مختلف ما يتعلق بهم من شئون، ويطمحون إليه من آمال.

ومن هنا كان لتأثير الأصالة الفكرية صداه الكبير في الإنتاج الأدبي الذي ظل يحفل بالتجربة ويوليها عنايته الفائقة فيما ندعوه بالحكمة ونعده تعبيراً صادقاً عن الحقيقة بكل ما تحمله من ألوان ومعان ومفاهيم، سواء كان ذلك التعبير في مقام المدح أوالوصف أو الرثاء أو سواه.

يقول أحد الشعراء الذي عاش في القرن السادس راثياً أحد الفرسان في أسلوب من الحكمة والتفكير العميق الذي يستلهم التجربة:

إذا لـم يكـن مـن حـادث الـدهر موئـل

ولـم يغـن عنـك الحـزن فالصـبر أجمـل

وأهون ما لاقيتَ ما عز دفعه   وقد يصعب الأمر الأشد فيسهل

ومـا هـذه الـدنيا بـدار إقامـة   فيحـزن فيهـا القـاطن المترحـل

هـي الـدار إلا أنهـا كمفـازة   أنـاخ بهـا ركـب وركـب تحملـوا

لنا ولها في كل يوم عجائب   يحـار بهـا لـب اللبيـب ويـذهل

تجرّد نصلاً والخلائق مفصل   وتتـبض سـهماً والبريـة مقتـل

فلا نحن يوماً نستطيع دفاعها   ولا خطبهـا عنـا يعـف فيجمـل

ولا خلفنـا منهـا مفـر لهـارب   فكيـف لمـن رام النجـاة التحيـل

ولا ناصر إلا التململ والأسى   وماذا الذي يجدي الأسى والتململ

نبيت على وعد من الموت صادق

فمـن حـائن يقضـي وآخـر يمطـل

وكل وإن طال الثواء مصيره   إلى مورد ما عنه للخلق معدل

فـوا عجبـاً مـن حـازم متـيقن   بأن سوف يردى كيف يلهو ويغفل

كفى حزناً أن يوقن الحي أنه   بسيف الردى لابد أن سوف يقتل

فالشاعر في هذه الأبيات يتعامل مع التجربة الحقيقية التي يلمسها كل إنسان ويتحراها كل مفكر يتخذ من الفكر سبيله التي ينطلق منها في دروب الحياة التي لا يستطيع الإنسان أن يتعرف على معالمها ومجاهيلها إلا بالتفكير والتأمل والتأني والإلتزام بالحكمة وما في التجربة من إلهام ومجاراة للمنطق والصواب.

وفي هذه الأبيات يبين الشاعر أنه إذا لم يكن من مصائب الدهر بد فالصبر أجمل بالإنسان؛ لأن الحزن لا يجدي، وكل أمر يراه الإنسان صعباً هو في الحقيقة من أسهل الأمور بالتحمل والصبر، ثم إن الدنيا ليست بدار إقامة

وبقاء، فما هي في الواقع إلا مثل صحراء يمرّ بها الناس وسيتبعهم الباقون لأنها طريقهم الوحيد، والحياة مهما طالت فمصيرها الفناء، والإنسان لا يملك دفع الخطب ولا الهروب من آلام الدنيا، والحاذق اللبيب من اجتهد في الحياة واستعد لما بعدها.

هذه إجمالاً خلاصة الفكرة التي تدور حولها هذه الأبيات، وتحاول أن تسلط عليها ما تراه من أضواء، وهي فكرة رغم أنها مطروقة، تعد جيدة بالنسبة لاستلهام الحقيقة في أبعادها المختلفة وسبلها المتعددة التي تحتل التجربة الواقعية جل أبعادها، ومن هذا الاعتبار تعد هذه الفكرة لوناً من ألوان الأصالة الفكرية التي يتوخاها النشاط الفكري ويحاول الإنتاج الأدبي أن يكون على صلة وطيدة بها، ليتمكن من القيام بدوره في الحياة التي يتقلب فيها، وبالتالي يضمن الاستمرار والتأثير والفاعلية في كل ما يعالجه من قضايا ويهتم به من أسس ومفاهيم، ويحاول من خلال هذه الأصالة أن يتصدّى للتيارات والأفكار الوافدة التي قد لا تنسجم مع البيئة والمجتمع وما لهما من ماضٍ وتراث ومجد، ولا تعني الأصالة في هذا الصدد الذي تسوقه فكرة هذه الأبيات مجرّد الاتكاء على الزهد في الدنيا والاعتقاد بفنائها وزوالها، وإنما تعني فقط التأمل في الحقيقة التي يحتمها الواقع ويفرضها المنطق ويراها الإنسان بعقله بعيداً عن العاطفة والمشاعر الرقيقة التي تسلمه للخيال وتدفعه إلى التيارات والأحاسيس البعيدة عن الحقيقة التي يراها الأساس الفعلي لكل عمل جاد يحاول الإنسان أن يقوم به في الحياة ويقدم به وجهها الصحيح للأحياء الذين يلتفون حوله ويحاولون أن يستلهموا أفكاره ونشاطه الأدبي والفكري والفني وسواه.

ولعل روح الصدق الذي تشيعه هذه الأبيات بالنسبة للموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر تدل على ما كان يجري في عصره من أفكار في الحياة وبين

الناس الذين كانوا يعيشونها ويعانون ما فيها من آثار، وليست الفكرة التي تسوقها هذه الأبيات هي الوحيدة الدافعة إلى التأمل ومراعاة الواقع والحقيقة في عصرها، بل هناك أفكار واتجاهات أخرى قد تكون متناقضة معها، ومع ذلك فيها من الأصالة والعمق ما يدعو إلى الاهتمام بها ومتابعتها وأخذ العبرة منها، وهذا ما تعنيه الدراسات النقدية حين تقارن بين النصوص الأدبية والاتجاهات الفكرية التي تتضمنها وتحاول أن تترجم ما فيها من معاناة في الواقع الاجتماعي الذي يتقلب فيه النشاط الأدبي ويحاول أن يزيل ما يتعلق به من غبار التخلف والغفلة والبعد عن الجديد ومفاهيمه الحديثة التي تزيد الحياة جلاء ووضوحاً وبساطة وتدفع الأفراد إلى النشاط والحركة والإحساس بما لديهم من إمكان في الإصلاح والبناء والقيام بما يتطلبه لهيب الحياة من نشاط على مختلف الأصعدة والاتجاهات.

والنشاط الأدبي حين يتحرى الفكر ويستهدف التأمل في كل ما حوله من أساسيات الطبيعة ومكونات الوجود يستطيع أن ينقل للناس المعاني المهمة التي تكمن فيها الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان في كل عصر، وبذلك تتلون الاتجاهات المختلفة التي يشملها وتكون أسسها التي تقوم عليها واضحة المسار وبينة المنهج، ويرى فيها الدارس من الآفاق ما يدعوه للتفاعل معها سلباً وإيجاباً.

وهذا هو المهم في الإنتاج الأدبي؛ لأنه يبصر الأفراد والجماعات بما يحيط بهم من أفكار وتوجهات معاصرة وهم في غفلة عنها، ولا ينبغي لهم أن يكونوا بمعزل عما فيها من تأثير، ومهمة النشاط الأدبي الأساسية هي التبصير والتوعية بكل ما يحيط بالحياة من اعتبار وما يتقلب فيها من مفاهيم في الواقع

الذي يعيشه الناس والمستقبل الذي يتوقعونه ويرون شواهده بأفكارهم وأحساسيهم.

9 . تختلف الاتجاهات الفكرية في فهم وتفسير الظواهر والتيارات التي تمر بها الحياة الاجتماعية حيث يعتمد بعضها على تحليل هذه الظواهر والتيارات وبحث أسبابها الأساسية التي انطلقت منها واستطاعت أن تدفع بها إلى الواقع الذي نقومها به، ونفهمها من خلاله وخلال ما يحويه من إمكان مادي ومعنوي مؤثر في ذلك الواقع وباعث على الحركة والفكر وأسباب التطور الذي يلائم الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من معان وصور وأهداف يراها الفكر المعاصر في مختلف قطاعات الحياة ومجالات البناء عاملاً فاعلاً في ابتكار وتجديد أساليبه التي تلائم واقع العصر وما يتطلبه من مواكبة مع الأحداث ومعايشتها وتفهمها بالمستوى الذي يحسّ به الإنسان في كل مكان ومجال تكون فيه الرؤية للأشياء واضحة يستطيع منها الفرد في المحيط الاجتماعي والبيئة التي تضمه أن يستوعب كل ما يكتنفه من معطيات وكل ما يلابسها من عوامل السلب والإيجاب حتى لا يكون بعيداً عن واقعه في حقيقة أمره وغير واع بما فيه من إمكان هو الذي على ضوئه يكون تحركه نحو الأهداف والاتجاهات المستهدفة شيئاً واضحاً ومقرراً على أسس منطقية ومدروسة أخذ منها التفكير أهم الجوانب التي بنى عليها سبله ومناهجه التي يسلكها ويحاول منها أن يصل إلى جوهر الحقيقة التي يرمي إليها، ويرى فيها من المعاني والمقومات الإنسانية ما يعده أساساً متيناً للانطلاق بالواقع الاجتماعي نحو ما هو أفضل ونحو ما هو دعامة حية للتطور الذي يقوم عليه التأمل والتفكير الذي لا يأخذ الأمور بظواهرها ورنينها، ولكنه يستبطنها ويحاول أن يغوص في أعماقها وأبعادها وتحليل جميع عناصرها؛ ليؤكد صدق ما يراه فيها على أصول ثابتة ومقررة

ليجعل من ذلك التطور الذي يرمي إليه نقلة إيجابية في إصلاح الحياة الاجتماعية، وفهم ما يعتورها من تيارات وظواهر لا يستطيع الإنسان أن يتفهمها على حقيقتها إلا بالدراسة المتأنية التي تقوم على التحليل والمقارنة والاستهداء بما في العلم من نظريات واتجاهات وتوجهات، تمليها قواعد المعرفة وقوانينها المختلفة والمتعددة التي لا يرى العلم ومنطقه غضاضة في تنوعها وتعددها واختلاف اتجاهاتها ومناهج عطائها، في شتى ميادين الحياة وآفاقها الواسعة الفسيحة التي تملي على الفكر من ضروب التأمل والاهتمام ما يدعوه دائماً إلى الاستمرار في الكشف على مزيد من أنواع تلك القواعد والقوانين والمناهج المعرفية التي تعمق في الإنسان في كل عصر الإحساس بضرورة البحث ومواصلة الدرس للتزود من المعرفة ومعينها؛ لأنها السلاح الوحيد الذي يستطيع به الإنسان أن يحقق ما يصبو إليه من أهداف بعيدة وقريبة، وهي المنطلق الذي منه يتم تفسير الظواهر الاجتماعية والتيارات التي تمر بها الحياة في كل مجتمع وواقع إنساني.

وبمقدار التعمق فيها تكون النتائج الإيجابية التي تخلص إليها الحياة الاجتماعية وما يتركز حولها من اهتمام ودراسة ومحاولات لفهم أسباب التيارات التي تكتنف الواقع الاجتماعي في كل عصر وكل بيئة؛ لأنها الأداة الوحيدة التي تستطيع النفوذ إلى الأبعاد القصوى من الأعماق التي يحاول الإنسان الرجوع إلى جذورها وما تؤديه من وجوه في ميادين التحليل والإقناع، وهذه حقيقة لا سبيل لنكرانها في جانب المعرفة وهي التي بها يسلم الباحثون أن المعرفة هي السلاح الذي ينبغي أن يكون في متناول الإنسان مهما كانت ظروفه والأوضاع التي يمر بها ومهما اكتنفه من عوامل لا خيار له فيها؛ ذلك أنها توازي ما يشعر به من إحساس في هذه الحياة التي لا تنفك عن طلب

المزيد الذي لا يتم استيعابه إلا بالمعرفة وما فيها من إمكان ومعطيات وخلق وإبداع وابتكار.

وهنا نستطيع ونحن نحلل الظواهر الاجتماعية وأسبابها ودواعيها أن نؤكد الدور الذي تمليه المعرفة في فهم ذلك كله والوقوف على عوامل السلب والإيجاب فيه واختيار المناهج الواضحة التي تخدم المجتمع وتتطور بالواقع المعاش إلى ما هو أفضل.

وهذا لا يعني أن المعرفة وحدها تستطيع أن تزيل الغطاء عن ملابسات الظروف التي تمر بها الأوضاع الاجتماعية وتقدم الحلول الإيجابية لكل ما يعترضها من مشاكل، ولكنه يعني فقط أن المعرفة لها الدور الأساسي في فهم الأسباب والدواعي في هذا المجال؛ لأن المعاناة والممارسة في هذا الصدد من الجوانب التي لا تقل أهمية عن المعرفة بل هي المصدر الذي تستقي منه المعرفة ما تصل إليه من نتائج تعتمدها الدراسة والبحث ويستخلص منها الإنسان المتأمل الأفكار والاتجاهات التي يراها ويحسّ بفاعليتها ودورها في ميادين الإصلاح ومجالاته المختلفة التي تتركز عليها التفسيرات للتيارات والظواهر الاجتماعية.

يقول الشاعر[1] إبراهيم الأسطى عمر من قصيدة له بعنوان: رهين المحبسين، يخاطب فيها أبا العلاء المعري ويستعرض فيها بعض الظواهر الاجتماعية التي أصبحت شائعة بين البشر واعتادها الاستعمار البغيض:

أبا العلاء وأنت اليوم منتسب لعـالم طـاهر مـن كيـد أشـرار

---

[1] ديوان البلبل والوكر السابق، ص107.

ما كنت تصنع لو شاهدت عالمنا
والنـــاس للحـــرب أغنـــام لجـــزار
هل تشتري صحف الأخبار تعلن عن
قتـل الألـوف وعـن تـدمير أمصـار
أم كنت تقنع كالمعتاد مبتعداً عن سائر الناس في ركن من الدار
لاشك عندي سكنى الغاب أفضل من
ســكنى بــلاد بهــا الإنســان كالضــاري
فالوحش أرحم في ذا العصر من بشر
هــم الوحــوش بــدوا فـــي زي أبـــرار
أبا العلاء ونحن اليوم في زمن فيـه الحقيقـة لـم تظفـر بأنصـار
زعمت أنـك رهـن المحبسـين وقد
كنـــت الطليـــق فلـــم تخضـــع لتيـــار
دافعت مستنكراً عن راحة قطعت
مـــا بالهـــا قطعـــت فـــي ربـــع دينـــار
فمن يدافع عن نفس تساق إلى مـوت بـلا جنحـة تقضـي ولا ثـار
تسريح كفك برغوثاً ظفرت بـه فـي عرفنـا خـور أو ضـعف أفكـار
نقضي على بعضنا من شهوة نزعت
للشـــر بـــالموت مـــن تحليـــق طيـــار
لا عطف لا دين لا أخلاق تردعنا
عـــن فعلنـــا لـــلأذى عمـــداً بتكـــرار
وعلمنا اليوم لو تدري فضائله عمت جميع الورى لكن بأضرار
لقد تفنن في حصد النفوس وفي هدم البيوت وفي استعباد أحرار
وجـاء باختراعـات تـدمر أر كـان الحضـارة بـالفولاذ والنـار

فالشاعر في هذه القطعة يخاطب أبا العلاء المعري الذي كانت له فلسفة خاصة في الحياة والتعامل مع الناس والأحياء جميعاً، ويعالج في هذا الخطاب ظاهرة خطيرة من ظواهر العصر، استشرى بلاؤها وشرها بين بني الإنسان، وتلك هي التسلط والاستعباد الذي توحش فيه الإنسان واعتدى فيه على بني جنسه، وأصبح الناس يساقون في الحروب كالأغنام التي يسوقها الجزار للمذابح، وتفاقم ذلك البلاء لدرجة صار معها الوحش الضاري أرحم من الإنسان في هذا العصر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن العلم وهو النور الذي يهدي البشر إلى سبيل الإصلاح والخير سخر للدمار والفناء وحصد النفوس البريئة لإرضاء شهوة الشر والانتقام.

فهذه اللمحة التي يسوقها الشاعر إبراهيم الأسطى عمر فيها العرض والتحليل والسبر البعيد لظاهرة من أخطر الظواهر التي أصبحت مألوفة في قاموس الاستعمار البغيض الذي يحاول بكل ما يملك من مقدرات أن يذيق الشعوب التي تقع في قبضته أقسى ألوان العسف والتدمير والإبادة، وهذا ما نلمسه في واقع الأمة العربية التي تسلطت عليها قوى البغي والظلم الاستعماري في هذا العصر، وأخذت تمارس أقسى ما عرفه البشر من أنواع الظلم وأبشع أساليب القهر والطغيان، وما نراه في لبنان وفلسطين وسواهما مما عايشته الشعوب العربية ما هو إلا ترجمة صادقة لتلك الوحشية التي يمارسها الغرب والصهيونية العالمية والجهالة الأمريكية التي لا تنفك عن محاولة القضاء على أمتنا وإذلالها، لتستولي على ما لديها من إمكانيات، والشيء الذي يدعو للحسرة والألم أن أبناء هذه الأمة يشعرون بذلك ويدركونه، ومع ذلك فإن اهتمامهم بهذا الخطر المحدق لا يرقى لدرجة ما فيه من عنف وتدمير وحقد، ومازال حكامهم

على صلة بهذا العدو اللدود الذي لا يتورع لحظة عن التنكيل بهم وبأمتهم وشعوبهم وأمنهم.

2 . الأحداث ومر الزمن وأثرهما في الأدب:

1 . ومن هنا يكون للزمان دوره الكبير في تفهم الأحداث التي يمر بها الإنسان ويعانيها وينفعل بها ويترجمها في إنتاجه الذي يقدمه لبنيه وعصره وبيئته، ويكون للواقع الذي يحياه أثره في الصور والنماذج التي يقدمها مبصومة بإحساسه وانفعاله ومشاعره، التي تبدو فيها الضرورة حيناً والسعة أحياناً أخرى، ويبدو فيها الطابع العام الذي يسيطر على العصر والبيئة، وما يعكسه من ملامح، وما في تلك الملامح من مفارقات تدعو للتأمل والدراسة والنظر والمقارنة بين تلك الملامح وغيرها، من عوامل الإنتاج الأدبي والفني والفكري، التي توضح بما لا يدع مجالاً للشك مفاهيم العصر وما فيها من جديد، ومفاهيم الحياة وما فيها من أصالة وحدوث، وما في كل ذلك من انعكاس للنظريات التي يقوم عليها الاتقان في صناعة الأدب والنقد والفكر، وهو المجال الذي يؤكد الاهتمام الكبير بحتمية الدراسة الجادة التي تستجلي التوجهات التي تتولد عن مفاهيم العصر وما تحدثه من جديد، في عالم الفكر والمعرفة، وفي مجالات الكلمة الهادفة التي تنبثق من الصدق، بكل ما فيه من أبعاد، وبكل ما يشمله من مفاهيم لتعبر عن مشاعر الإنسان المعاصر وتؤكد ما في نفسه من صفاء يتناقض مع ما يتعارض مع هذا الصدق وما يمكن أن يؤديه في عصره من نوازع، هي في الحقيقة الرصيد الذي يجد فيه الإنسان المفكر المعين الذي يمده بما يراه لازماً لتحقيق أهدافه التي تعمل على إرساء دعائم هذا الصدق الذي لابد منه لتأكيد الجودة في الإنتاج الأدبي، وغيره من أنواع الإنتاج التي يجود بها الفكر وتترجم ما يحويه من مدلولات في معاناته.

والصدق في هذا الصدد لا يعني مطابقة الواقع فحسب، بل يعني ما هو أشمل من ذلك مما يمكن أن نفسره فنياً وقاعدياً بمفهوم الصدق، فالإنتاج الأدبي الجيد في تصويره وتعبيراته التي تنسجم مع ما يشعر به الناس من أحاسيس ووجدان يعد من الصدق الفني[1]، ولو كان مشتملاً على بعض المبالغات التي تزيد أو تنقص في موضوعها الذي تعالجه، وتهتم به وتحاول أن توضح ما فيه من جوانب واعتبارات لها دورها الفاعل في حياة الإنسان، وتاريخ العصر وما يعكسه من ملابسات ومفاهيم يرى فيها الإنسان اللقطات اللازمة للتسجيل والدرس والبحث.

وقد تهتم المفاهيم السائدة في العصر في بعض المراحل من التاريخ ببعض الملامح التي يراها الناس غير متممة للحياة العامة التي يحياها الناس، ولكنها نوع من تجليات الفكر وتصوراته التي لابد من حدوثها وتصورها وتفهمها؛ كي تتم حلقات الدراسة والفكر في تفهم خلفيات الأفكار والنماذج والمناهج التي تعالج قضايا العصر ومشاكل الحياة والناس، وهو الأمر الذي نعده تتبعاً وتفحصاً للحقائق في مختلف الأوضاع التي يمكن أن يتصورها العقل الذي يهتم ويعمق بالقواعد والأسس التي يحدثها العصر بناء على ما هو سائد فيه من مفاهيم، لا يتم تفسير الظواهر والأشياء إلا على ضوئها وعلى ما فيها من أبعاد.

وهذا التوجه في فهم وتفسير الظواهر والأحداث طبقاً لمفاهيم كل عصر هو المنطلق الحقيقي الذي منه يستطيع الدارس أن يتفهم الإنتاج الفكري الذي

---

[1] انظر: بدوي طبانة، التيارات الأدبية المعاصرة السابق، ص338. النقد الأدبي الحديث السابق، ص222. حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، البشير المجدوب، الدار العربية للكتاب، 1982م، ص181.

يجده أمامه، كي يستطيع منه أن يصل إلى كثير من الواقع الذي يعالجه ويهدف إليه، وهو يسير في درب الحقيقة وظلال الكلمة الهادفة الصادقة التي تعنى بخلجات الإنسان وحركاته وفكره، وتيارات الحياة التي يحياها، وما فيها من مشاكل وحلول يعتريها التطور والتجديد واختلاف الفهم والتقويم بناء على ما تحمله من إمكان وعناصر، وعلى ما يدور فيها من حركة ونشاط وانطلاق نحو الأفضل في مفاهيم العصر والحياة وتحديد الأدوار الفاعلة التي يستطيع الإنسان استلهامها في مجالات الإصلاح والبناء،، التي هي الهدف من وراء ما يقدمه من معاناة وإنتاج في عالم الفكر والأدب والفن وغيره.

وبناء على هذه الرؤية فإن تفسير النصوص الأدبية مجرة عن مفاهيم العصور التي ولدت فيها يعتم على كثير من الخلفيات والمعاني الثانوية الدقيقة التي تتضمنها ولا تفهم إلا في إطارها وملاحظتها، وهنا يكمن الداء في كل ما نجده ونلاحظه من أحكام مجحفة في حق كثير من النصوص الأدبية وغيرها التي تفسر منفصلة عن عصرها بقصد أو بغيره، وهو من الأخطاء التي تورط فيها كثير من الدارسين بحجة أن النص وحده ينبغي أن تتوفر فيه عناصر الجودة التي تجعله صالحاً في كل عصر وكل بيئة، ولا يهم بعد ذلك ما يرتبط به من اعتبارات.

وهذه فكرة رغم منطقيتها لأول وهلة، فإنها تغفل ما يحيط بالنص من أجواء وظلال يعد بدونها إطاراً مفرغاً من كل مضمون عدا المضمون اللغوي العام لما في كلماته من مدلول، وهو وحده لا يكفي في الحكم والتقويم الأمثل.

2 . يقول السلطان العبدي[1] أحد الشعراء في العصر الأموي في قطعة من الحكمة والموعظة:

أشـاب الصـغير وأفنـى الكبيـر   كـــرّ الليـــالي ومـــر العشـــي
إذا هزمـــت ليلـــة يومهــــا   أتـــى بعـــد ذلـــك يـــوم فتـــي
نـــروح ونغـــدو لحاجاتنــــا   وحاجــة مــن عــاش لا تنقضـــي
تمـوت مـع المـرء حاجاتــه   وتبقـــى لـــه حاجـــة مـــا بقـــي
إذا قلــت يومـــاً لمـــن تـــرى   أرونـــي الســـري أروك الغنـــي
وســرك مــا كــان عنـد امـرئ   وســـر الثلاثـــة غيـــر الخفـــي

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن تجربة ويقين بما رآه ومارسه في الحياة، وقد سجّله وقدمه عصارة من فكره، وأوضح فيه آثار الزمن على الإنسان وحركة الزمن نفسه وواقع الإنسان في الحياة وما يحركه فيها من حاجة، والناس في كل زمان مبتلون بعدم التفريق بين الأشياء بما ينبغي أن يكون، حيث يبدو الخلط الكبير بين الإنسان السري والإنسان الغني بماله وما ملكت يمينه، والسر الحقيقي الذي يحرص الإنسان على عدم إفشائه وانتشاره هو ما كان بين اثنين من الناس، أما إذا جاوز ذلك بأن كان بين ثلاثة فهو لا يعد سراً؛ لأنه حتماً غير مكتوم مهما قدمت له من مبررات ومسوغات معقولة ومنطقية.

وفي هذه الأبيات تبدو وحدة البيت التي كانت شيئاً متعارفاً في النقد القديم، فإن هذه الأبيات حين تفرق على انفراد يكون كل بيت منها معبراً عن فكرة

---

[1] المختار من التراث العربي حماسة أبي تمام، وزارة الثقافة، دمشق، 1978م، ص225. والتذكرة السعدية السابق، ص197.

مستقلة، وهذا المفهوم هو المعيار الذي كان الشعر يقوم به، وعلى أساسه يفهم الشعر ويعطى حظه من الأحكام والأصالة وغيرها.

وقد تعارف النقد الحديث على عكس هذا المهفوم في الشعر المعاصر، حيث شاعت الوحدة العضوية في القصيدة، وضرورة تحققها ليستكمل الشعر عمقه وأصالته الفنية.

ورغم كل هذا التعارض أو الخلاف في استحداث المفاهيم في كل عصر حول تفهم الأدب ومضامينه وتقويمه واستيفاء عناصر الأصالة فيه مع الجودة، فإن الشيء المهم الذي يظل قاسماً مشتركاً في كل عصر هو الأهداف والمعاني العامة التي يحافظ عليها الأدب ونقده، ويحاول أن يقدمها في أسلوب يعطي للحياة مفاهيمها الصحيحة ومعانيها الحية التي تقدم للإنسان ما يحس به من حاجة، وما يراه فيها من إحساس في إطار الميزات والملامح التي يتسم بها المجتمع وتتقلب فيها الحياة الإنسانية بكل ما لها من خصائص.

والأدب العربي قديماً وحديثاً لم يغفل هذا الاتجاه ولم يكن بعيداً عنه في جميع ما عالجه من قضايا ومشاكل على ضوء ما يجدّ فيه من مفاهيم وأسس واعتبارات، يتحدد منها الموقف والأحداث والأهداف وينطلق منها التقويم والتفسير لكل ما في الواقع من صور ومضامين، سواء كانت متصلة بالجانب الفردي أو الاجتماعي أو غيرهما، والمهم أنها تصور الواقع وتهتم به وتعطي للإنسان فيه حجمه الصحيح الذي يؤكد ما فيه من بعد وأعماق وموازين.

3 . خطوات الإصلاح والتجديد في الأدب العربي:

1 ـ كان للأفكار التي نادت بها مدرسة جمال الدين الأفغاني وتلاميذه الصدى الكبير في بعث روح الإصلاح في شتى مجالات الحياة، وخاصة مجال الكلمة والأدب، حيث أخذ المفكرون الذين تتلمذوا على مدرسة الأفغاني في نشر آرائهم الإصلاحية التي تجاوب لها الرأي العام في العالم العربي الذي كان متعطشاً لتلك الآراء التي وجد فيها ضالته المنشودة، فأخذ أسلوب الكتابة يتخلص من الأسلوب القديم الذي كان يسير على طريقة أصحاب الصنعة اللفظية التي طبقتها مدرسة ابن العميد والقاضي الفاضل وغيرهما، ممن كانوا يرون في الصناعة اللفظية براعة ومقدرة فائقة في الأدب وما يتصل به من أفكار، وظهر أسلوب الترسل الذي يهتم بما يقدمه من أفكار ومضامين دون أن يعنى بالصناعة اللفظية، من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها، وقد لمسنا ذلك في كتابات الإمام محمد عبده التي يمثلها كتابه: رسالة التوحيد، وكتابات تلميذه رشيد رضا، ثم من أتى بعدهما ممن كان لهم الدور الكبير في تعميق الإصلاح وأسسه في حياة المجتمع العربي الحديث.

وقد تركز الإصلاح في عدة جوانب من حياة الأمة العربية التي كافحت الاستعمار والغزو الصليبي في مختلف أشكاله، وأهمها الجانب الفكري الذي منه كانت انطلاقة النهضة الحديثة التي نلمسها الآن.

وظهر في بداية هذه النهضة من المفكرين من استطاعوا أن يرسوا دعائم الفكر العربي ويعززوه بالأفكار الحديثة التي ظهرت في العالم المعاصر، وأخذ تأثيرهم على المجتمع والشباب العربي بصفة عامة صداه العميق في جميع مجالات الحياة، وخاصة الأدب الذي ظهرت فيه الأفكار التجديدية في الشعر والقصة وإحياء التراث.

وصاحب هذه الأفكار التجديدية دراسات كانت تمثل النقد الحديث الذي برزت فيه المدارس الحديثة في الأدب العربي الحديث، وبعض هذه المدارس كان يستمد أصوله ونظرته للأدب على حسب تصوره واعتماده على التراث القديم، مثل ما فعل الشيخ حسين المرصفي ومن تتلمذ عليه في كتابه الوسيلة.

وبعضها الآخر تأثر بالدراسات الغربية وأفكار الغرب ورأى في التشبث بالقديم دون تطعيمه بالآراء وما تنادي به المدارس الغربية الحديثة تقوقعاً وبعداً عما ينبغي أن يقوم به الأدب من إصلاح وبناء في حياة المجتمع العربي وتقدمه.

وكان يمثل المدرسة الأولى في الشعر البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم، والمدرسة الثانية العقاد وعبد الرحمن شكري والمازني وعلي محمود طه.

ويلخص بعض الباحثين محاولات التجديد في الشعر العربي الحديث في أربع نقاط هي:

أ . ما يتعلق بالشكل، حيث لم يعرف الشعر العربي القديم إلا نوعاً واحداً من الشعر هو الشعر الغنائي، وقد عبر الشاعر العربي به عن كل ما أراد من غزل ورثاء ومدح وهجاء وحماسة وفخر وغيره، وقد حصل هذا بالرغم من أن العرب احتكوا بثقافات أمم أخرى، مثل الفرس والهنود واليونان، وهي ثقافات عرفت أنواعاً أخرى من الشعر غير الشعر الغنائي، إلا أنهم لم ينقلوا عنها شيئاً، واقتصروا على نقل الفلسفة والعلم، وظل الأدب العربي بعيداً عن الأنواع الأخرى من الشعر حتى أواخر القرن التاسع عشر، حيث ترجم السوريون بعض الأعمال الأدبية الكبرى إلى اللغة العربية، وألفت بعض الفرق التمثيلية في العالم العربي، وتنقلت بعض منها في بلدانه لتأدية بعض الروايات المشهورة،

وبتأثير ذلك وغيره من مهاجمة بعض المفكرين الغربيين أمثال رينان للعقلية السامية، حاول الشعراء العرب أن يسدوا هذا النقص، فظهرت الملحمة والمسرحية الشعرية على لسان شوقي ومطران، وعرفنا مصرع كليوباتره، ومجنون ليلى، ثم قيس ولبنى لعزيز أباظة.

ب . ما يتعلق بالموضوع الذي يكتب فيه الشاعر، وظهر في هذا المجال من محاولات التجديد مدرستان، الأولى تدين بالتعبير الجماعي، والثانية تدين بالتعبير الفردي الذاتي، ويمثل الأولى شوقي وحافظ وخليل مطران، ويمثل الثانية العقاد وعبد الرحمن شكري والمازني وعلي محمود طه، وشعراء المهجر كميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وإلياس أبو شبكة، ومن رأي المدرسة الأولى أن الشعر تعبير عن روح الجماعة وأحاسيسها وآمالها في الحياة؛ ولذلك عبروا عن الحركة الاستقلالية، ومدحوا رجالها ورثوهم، وتطرقوا لجميع مجالات هذه الحركة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وعبروا عن آمال العرب في صراعهم ضد الاستعمار وتطلعهم للحياة الحرة، كما عبروا عن مشاعر العالم الإسلامي عندما تعاطف بنوه ضد الجشع الاستعماري الأوروبي. وأما أصحاب المدرسة الثانية فقد بدأوا انطلاقتهم بالهجوم على أصحاب المدرسة الأولى، بأنهم قدماء في تفكيرهم وصورهم الشعرية، وما هم إلا مقلدون لشعراء العصر العباسي، وهم شعراء مناسبات، وشعرهم لا وحدة فيه، وشجع هؤلاء مجموعة من النقاد تشبعوا بالثقافة الغربية في مقدمتهم الدكتور طه حسين والدكتور حسين هيكل، وذهب هؤلاء إلى أنهم شعراء الوجدان بما فيه من فكر وعاطفة ووهم وتصوير، إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم بحسب أمزجتهم، فكان العقاد شاعر الفكرة، والمازني شاعر العاطفة، وعبد الرحمن شكري شاعر الوهم، وعلي محمود طه شاعر التصوير الحسي.

ج . وفيما يتعلق بالجانب الثالث من مجالات التجديد، فإنه كان منصباً على اللغة، ذلك أن اللغة هي أداة التعبير الأدبي شعراً وغيره، إلا أن أصحاب المدرسة الأولى لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى التجديد في اللغة، حيث إن اللغة العربية خلال عصور تطورها قامت بهذا النوع من التعبير ومرنت عليه، وأما أصحاب المدرسة الثانية، فقد اكتشفوا أن اللغة التي أحياها البارودي وسار على نهجها شوقي وحافظ فقدت رونقها وطرافتها، وأصبحت جامدة وعاجزة عن التعبير عما يحسون به من حالات نفسية وعقلية؛ ولذا رأوا أن يتخلصوا من التعبيرات والكلمات القديمة، وينتقوا تعبرات وكلمات جديدة تناسب تجاربهم، وتكون أقدر على التعبير عن خلجاتهم والتأثير في نفوس الناس، فعمدوا إلى تبسيط اللغة، وابتعدوا عن الحماس والدويّ الذي امتازت به لغة شعراء المدرسة الأولى، وأدخلوا في اللغة صوراً وتعبيرات جديدة، جعلت كثيراً من الناس يشعرون بغرابتها وبعدها عن التعبير العربي السليم.

د . وفيما يتعلق بالجانب الرابع من محاولات التجديد فإنه كان مركزاً على الوزن، وهو مشكلة خطيرة أساسية في الشعر العربي، وكل وزن في اللغة يختص بمجموعة من التعبيرات والتأليفات اللغوية لا يستطيع الشاعر أن يتخلص منها إلا إذا كان ذا مقدرة فائقة في اللغة، وكلما امتد تاريخ اللغة وكثر شعراؤها صعب على الشاعر الجديد أن يعبر عن نفسه في هذه الأوزان ويتخلص من التعبيرات القديمة التي تؤدي إلى اتهامه بالتقليد، وقد كانت المحاولات في هذا المجال متعددة تشمل التخلص من قيد الوزن والقافية.

هذه بإجمال هي محاولات التجديد في الشعر العربي الحديث، وهي محاولات تقوم على مدى التأثير الذي أحدثته الأفكار التي وفدت على المجتمع العربي من الحضارة الغربية التي درسها مفكرونا وشعراؤنا ورأوا فيها تطوراً

تحتمه الحياة المعاصرة وطبيعة التجديد فيها، إلا أن ذلك يدعونا إلى التأمل والوقوف على المفاهيم الصحيحة لمعنى الشعر ومدلوله الذي نحسّ به من واقع حياتنا، وما فيها من مشاعر وعادات وأعراف وتقاليد قد لا تتفق مع التيارات التي تفد علينا من الأمم الأخرى.

ومن هنا فإن دعوة التجديد في الشعر لا ينبغي أن تؤخذ على علاتها، بل لابد من تفهمها وأخذها بحذر شديد؛ لأن التخلص من المفهوم الشعري السائد لدينا ليس بالأمر الهين، ويفتح المجال فسيحاً لكل من هب ودب لقول الشعر، وذلك ليس بالأمر السهل، ومن العسير جداً التفريق بين النثر الفني، وبعض أنواع الشعر الجديد، أو الشعر المنثور الذي نرى ألوانه بين أيدينا من نماذج الشعر الحديث.

يقول نزار قباني[1] من قصيدته طوق الياسمين:

شكراً..

لطوق الياسمين..

وضحكت لي وظننت أنك تعرفين..

معنى سوار الياسمين..

يأتي به رجل إليك .. ظننت أنك تدركين..

---

[1] محاولات جديدة في الشعر العربي الحديث، عبد المحسن عاطف سلام، مطبعة جامعة الإسكندرية/1957م، ص19.

وجلست في ركن ركين..

تتسرحين..

وتنقطين العطر من قارورة وتدمدين..

لحناً فرنسي الرنين..

لحناً كأيامي حزين..

فالشاعر في هذه القطعة قد تلاعب بتفاعيل القصيدة، رغم أن القافية فيها باقية على حالها، وفيها تصوير بديع لمن أهدى إليها طوقاً من الياسمين، وقبلته منه ببرود وشكرته، ثم جلست في ركن قصي تسرح شعرها وتنقط العطر من قارورة وتدمدم لحناً فرنسياً في رنته، وهو لحن حزين مثل أيامه التي غلّفها الحزن.

ويقول الشاعر بدر شاكر السياب[1] من قصيدة حفار القبور:

درب كأفواه اللحود..

لولا التماعات الكواكب وانعكاس من ضياء..

تلقيه نافذة .. ووقع خطى تهادى في عياء..

يصغى له الليل العميق .. وحارس تعب يعود..

وسنان يحلم بالفراش .. وزوجة تذكي السراج ..

---

[1] المصدر السابق، ص20.

وتؤجج التنور صامتة وأخيلة اللهيب..

تضفي عليها ما تشاء من اكتئاب وابتهاج..

فالشاعر في هذه القصيدة تلاعب بعدد من التفاعيل، ولم يلتزم فيها بقافية واحدة، وفيها يصف الحارس المسكين وهو يغالب النوم ويحلم بالفراش الذي يأوي إليه، وزوجته تذكي السراج وتؤجج التنور صامتة، واللهيب يرسم بأخيلته على وجهها ملامح الانفعالات التي تبدو منها.

وهكذا يسير التجديد في مجالات الشعر الحديث الذي يقوم على التحرر من الوزن والقافية، الأمر الذي كان يسمى عمود الشعر العربي الذي التزمه الشعر العربي في مختلف مراحله التي مر بها وانطلق منها.

2 . وقد تناولت الاتجاهات الفكرية الحديثة في الأدب العربي عدة جوانب، كان من أبرزها نظرة الأدب للحياة، هذه الفكرة التي تعمقت جذورها لدى مجموعة من المفكرين الذين مارسوا فن الأدب والكلمة، وتشبثوا بها في فهمهم للأدب وما ينبغي أن يعالجه ويهدف إليه.

فالفكرة الأدبية التي لا تحمل مضموناً يخدم المجتمع ويساهم في تطوير الحياة وتقدمها فكرة غير مجدية، مهما بلغت من الجودة الفنية والرصانة في الأسلوب، ولا تعدو أن تكون تلاعباً لفظياً لا يمت إلى الفكر وما ينبغي أن يهتم به الأدب الذي هو عصارة الفكر وجوهره.

ومن هذا المنطلق أخذ الأدب يهتم بهموم الناس ويصور الحياة الاجتماعية وما فيها من مظاهر ونماذج، وصار الكتاب والشعراء والمفكرون يتخذون من الحياة المعاشة التي يشاهدونها ويعيشون وقائعها مادتهم التي يقدمونها في

قصصهم وقصائدهم وبحوثهم ومقالاتهم، واستطاعوا بذلك أن يسجلوا خواطر الناس ويصوروا آمالهم وطموحهم في هذه الحياة بأسلوب سهل وطريقة مبسطة ساهمت في تقدم المجتمع العربي المعاصر وتطور الحياة فيه وشد الانتباه نحو الجوانب المهمة في الإصلاح والعمل على بعث روح الحياة فيها، لتواكب ما يجري على الصعيد العالمي من أفكار حية فيها من الأصالة والعمق ما يدعو إلى تأكيدها.

وبهذه النظرة للأدب العربي المعاصر استطاع المفكرون من أدبائنا أن يرفعوا أصواتهم في المحافل الدولية، ويؤكدوا مرونة الفكر العربي وأصالته التي ينتمي إليها، ومساهمته الفعالة في بناء الإنسان المعاصر كما ساهم من قبل في بناء الحضارة الإنسانية وإرساء دعائمها، في تلك المواقف والصور التي قدمها نموذجاً حياً لمفاهيم الفكر والفضيلة والمثل العليا التي يحترمها الإنسان في كل عصر من عصور الإنسانية الخالدة.

وعلى هدى ذلك كله بدأ الفكر العربي المعاصر من خلال الإنتاج الأدبي الذي قدمه الأدباء المعاصرون من أبناء الأمة العربية في الدراسات التي تناولت النقد الأدبي والتراث والإبداع في عدة مجالات من الأدب، اتسمت بطابع التجديد والإصلاح، وفي مقدمتها مفهوم الأدب والقصة والمسرحية والشعر.

وقد تأثر الفكر العربي المعاصر في كل خطاه التي قطعها في مجالات الإصلاح والتجديد، بما يجري على الساحة العالمية من أفكار، وبما يطرح في حلبات النقاش من نظريات وآراء، إلا أنه دائماً يتخذ لنفسه الطابع المميز الذي يجعله واضحاً ومفهوماً حتى يستطيع الاضطلاع بمهمته التي يقوم بها، وهي

الإصلاح والتجديد وبعث الوعي بين الجماهير، وفي مختلف البيئات والطبقات الاجتماعية التي يدور بينها ويتخذ منها الأرضية التي ينطلق منها في عطائه.

يقول لسان الدين بن الخطيب[1] من موشحته التي عارض بها موشحة بن سهل الإسرائيلي الأندلسي:

جادك الغيث إذا الغيث	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما	في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات	ينقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا	مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض	فثغور الروض منه تبسم
وروى النعمان عن ماء	كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما	يزدهي منه بأبهى ملبس
في ليال كتمت سر الهوى	بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها	مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب	أنه مر كلمح البصر
حين لذ الأنس شيئاً أو	هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما	أثرت فينا عيون النرجس

فهو يسلك سبيلاً جديداً حاول بعض الشعراء الأندلسيين أن يجددوا في الأسلوب المعروف في الشعر العربي الذي يقوم على التزام الوزن والقافية.

وكان للموشحات التي أحدثها الأندلسيون صداها ودورها الكبير في محاولة التجديد في الشعر العربي، إلا أنها لم تحدث الأثر الكبير الذي يجعل الشعراء

---

[1] النصوص المختارة السابق، ص276.

العرب يسيرون على غرارها، وبقيت هذه المحاولة مجرد فكرة نادى بها أصحابها ولم تحقق أهدافها، واستمر الشعر العربي على أسلوبه الذي يلتزم الوزن والقافية، حتى جاءت النهضة الحديثة واتجهت نظرات التجديد لمختلف قطاعات الأدب العربي، وحاول الشعراء المحدثون أن يثوروا على قواعد الخليل بن أحمد الفراهيدي التي وضعها للشعر العربي والتزمها الشعراء من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث.

وقد أثارت هذه المحاولة كثيراً من المفكرين والدارسين لهذا الجانب الهام من الأدب العربي، فأخذت الأفكار تدور بين الرفض والقبول والتأييد لها، حيث رأى بعض الدارسين أنها استجابة صادقة للتطور الذي تفرضه حتمية الحياة المعاصرة التي تأثرت بالتيارات الفكرية المعاصرة المختلفة التي تفسر مفهوم الشعر بمعنى يفوق حصره في الوزن والقافية، ذلك المفهوم الذي لم يتجاوزه التفسير القديم للشعر.

وإذا كانت المعارضة الشديدة لهذا الاتجاه قائمة على الحفاظ على مقومات خصائص التراث الفكري في الأدب العربي، فإن هذه المحاولة قد وجدت الصدى الكبير بين كثير من الشعراء الذين ساروا على نهجها، وأصبح الشعر الحر والمرسل وغيرهما أمراً معروفاً عند النقاد والباحثين.

3 - يقول الشاعر[1] أحمد رفيق المهدوي من قصيدة له يدعو فيها للتخلص من أوزان الخليل:

أمـا آن للشـعر أن يسـتقل ... ويخلـص مـن ربقـة القافيـة

---

[1] رفيق في الميزان السابق، ص113-114.

فقـــد طـــال والله تقييـــده بتقليـــدنا الأعصـــر الخاليـــة
إلـى م نسير بـوزن الخليل ونرسـف فـي قيـده العـائق؟
وللشــعر فــي كــل لحــن مجــال مــع الــنغم الشــائق
سل الموسيقا عن النغمات أيمكـــن للفـــن تجديـــدها
فما بالنا فـي فعول فعول وقفنـــا نحـــاذر تجديـــدها
إذا كان للوزن فيما مضـى عرفنا من الشعر تلك البحور
أنعجــز بــالوزن عــن أن بحــوراً تزيــد بمــر الــدهور

ويختم هذه الأبيات بقوله:

فيا شاعر العصر جدد لنا من الـوزن غيـر الـذي نعـرف
ولا تخش مر انتقاد الغلاة فســـوف يؤيـــدك المنصـــف

فهي دعوة صريحة للتخلص من السير على عمود الشعر القديم، وانتهاج الأسلوب الجديد الذي لا يرى ضرورة التقيد بالوزن والقافية، الأمر الذي يعد تقييداً لحرية الشاعر وتقليداً أعمى للقديم لمجرد قدمه، والشعر له في كل لحن مجال جميل وفسيح مع النغم الشيق الذي تهتز له المشاعر والعواطف، وهل يستطيع الفن أن يحدد النغمات الموسيقيةّ؟ إنه بلا ريب لا يستطيع ذلك، وإذن فما بالنا في هذه التفعيلات التقليدية وقفنا نحاذر التجديد ونخشاه مع أنه هو المطلوب ومنطق الحياة المتطورة؟ وإذا عرفنا في الماضي تلك البحور التقليدية من الشعر فهل نعجز اليوم ونحن في قمة التطور عن أن نزيد بحوراً أخرى؟

هذه هي نظرة رفيق المهدوي في التجديد في الشعر العربي بالنسبة للوزن والقافية، وقد ساندها بما ساقه من مبررات، ثم ختمها أخيراً بدعوته لشاعر العصر بأن يجدد لنا من الأوزان غير الذي نعرفه، ونهاه بألا يعتد بالانتقاد

المر الذي سوف يتعرض له من الغلاة الذين لا يرون في غير الوزن والقافية شعراً.

ولكن هل سار معها رفيق وطبقها في كل ما قدم بعدها من شعر؟

الحقيقة أن ذلك لم يحصل رغم أنه حاول السير عليها في بعض إنتاجه، مثل قصيدته: نزهة على بحر مرمرة الطويلة[4] التي يقول فيها:

البحر مثل النسيم ساجي ... والليل داجي..
والبدر قد مال بابتهاج ... مثل المناجي..
همت بنا الفلك باتئاد ... على انفراد..
خلا لنا الجو من معادي ... ومن مفاجي..
سارت كما تشتهي الرياح ... لها انسياح..
ربانها فوقها جناح ... شق الدياجي..
والموج أفضى بعد الجنون ... إلى سكون..
وسنان لم يخل من شجون ... ولا اختلاج..
والليل جذلان فهو يرى ... بنور بدر..
ولا يبالي بضوء فجر ... ولا انبلاج..
والبدر حيران في شعاع ... خلف التلاع..

فلم يتقيد فيها كما ترى، واسترسل فيها في وصف نزهته البحرية التي كان جو الطبيعة الساحر فيها مستولياً على نفس الشاعر وإحساسه ووجدانه، ولذلك كان وصف الطبيعة فيها هو المظهر الأساسي رغم طول هذه القصيدة التي

---

[4] المصدر السابق.

كان الشاعر فيها يسير على النهج التجديدي الذي نادى به، ورأى فيه تطوراً لحياة الشعر وتقدمه في الأدب المعاصر.

ومهما كانت الاعتبارات التي استند عليها دعاة هذه الفكرة في الأدب الحديث، فإنها تدور حول إعطاء مزيد من الحرية للشاعر للتعبير عن إحساسه ووجدانه، وتحاول مواكبة التطور الذي أحدثته الحياة المعاصرة في كل شيء.

وقد وجدت هذه الفكرة صداها بين المجددين والنقاد والدارسين، وأصبحنا نرى في ذلك مزيداً من العطاء الفكري الذي يقوم على المقارنة والموازنة، بين ماضي الفكر العربي وحاضره، وبين المساهمة الفعالة التي يستطيع الأدب العربي المعاصر أن يقوم بها في إثراء الفكر الإنساني الذي هو ملك للناس جميعاً، وبه تقاس حضارتهم وتقدمهم ومسيرتهم في درب الإصلاح.

4 . والمحاولات الجادة للإصلاح في مفتتح هذا العصر تناولت اللغة وأساليبها ومناهجها، من حيث المفردات والقاعدة والنظرية والتطبيق، كما تناولت مختلف الجوانب الاجتماعية الأخرى التي تطلب التطور الذي يمر به العصر إصلاحها وبسط الرأي فيها ومتابعة ما يتصل بها من قريب أو من بعيد.

وبتفصيل شامل ودقيق يمكن الاستفادة الكاملة من تلك الجوانب التي لها دورها الفاعل في بناء الحياة الاجتماعية وإصلاحها وتأكيد التقدم والتطور وبعث الوعي في جنباتها، كإصلاح مناهج التعليم وتطويرها بما يحقق الأهداف المرجوة منها، والبحث عن منابع الفكر العربي الأصيل في جميع قضايا الحياة التي يمر بها الإنسان. وفي جميع نشاط الفكر وإنتاجه الذي تمثل في الأدب مثلاً وحكمة وخطابة ورسالة إخوانية ومقامة وقصة وقصيدة ومقالة وبحثاً

وسواه، وتمثل في الفلسفة في البحث عن حقائق الأشياء وجواهرها وأعراضها والتوفيق بين الدين والعقل والخير والشر وما وراء الطبيعة وسوى ذلك من القضايا والآراء التي أثارتها الفلسفة وناقشها المفكرون والفلاسفة الذين كان لهم دورهم الفاعل في بناء النهضة التي استطاع الفكر العربي أن يتبوأها في العصر الحديث.

كما تمثل في تلوين الحياة الاجتماعية العربية بالصبغة التي تلون بها الواقع المعاصر من الاعتماد على العلم ونظرياته ومكتشفاته، وما فيه من أعماق وأبعاد لا تنهض الحياة المعاصرة إلا على ضوء ما فيها من إرشاد وتوجيه ومنطق وموضوعية وبعد عن الأحكام المسبقة التي لا تتفق وطبيعة البحث وتتعارض مع تقبل وجهات النظر التي تساهم في إثراء الفكر وازدهار الثقافة، وتنوع السبل التي يستلهمها الإصلاح، وتحاول الآراء الفكرية المعاصرة أن تتخذها أسلوباً للنظرية والتطبيق، ليكون الواقع الذي تدور فيه وتبرز معالمه وخصائصه قائماً على الأصول الصحيحة التي يتوخاها الفكر الإيجابي الذي يبني الحياة الاجتماعية ويغرس فيها المعاني المثلى التي يحترمها الفكر ويتقبلها العقل، ويستفيد منها الإنسان في كل عصر، وكل مجتمع وبيئة.

وبالمحاولات الجادة لحركات الإصلاح التي قام بها قادة الفكر المعاصر في بدايات العصر الحديث استطاع المجتمع العربي أن يتفهم الواقع الذي كان يدور فيه، من تبعية وتخلف واعتماد على الغير في أبسط ما له من احتياج، وأدق ما له من خصائص، وأبرز ما لحياته من مقومات، فأخذ يؤكد وجوده، ويعمل على تجاوز مراحل التخلف والتبعية والاعتماد على الغير، ويحقق الاكتفاء الذاتي، ويخوض المعارك تلو المعارك في هذه السبيل مع قوى الظلم

والعدوان التي تحاول بشتى الوسائل أن تشده إلى الوراء، وتجعله مطية لمآربها وأطماعها.

ورغم المحاولات المتعددة التي تبذلها قوى البغي للاستيلاء على مقومات المجتمع العربي وإمكانياته ومقدراته فإن أبناء هذا المجتمع في شتى الأصقاع التي تحتويهم قد تصدوا لذلك وشعروا بخطورة النتائج التي ينجرون إليها لو استمروا في سباتهم العميق.

وهنا أخذ الإنسان العربي يكافح ويبذل الجهود المضنية من أجل تحقيق ذاته وتأكيد أصالته وبعث الإحساس بالمسؤولية التاريخية بين جميع أفراده، ليقفوا سداً منيعاً أمام قوى الظلم والعدوان التي لا تنفك تنفث سمومها بينهم، لتثبيط عزائمهم والتقليل من شأنهم.

وقد شمل كفاح الإنسان العربي شتى الساحات التي تدور فيها الحياة ويتقلب فيها الإنسان المعاصر، وهو يحاول اللحاق بركب الحضارة السائر، فكان في التراث وإبراز خصائصه، وفي الاجتماع ومشاكله، والزراعة وتطويرها، والاقتصاد ووسائله وسبله، والعمران وتحسينه، والتعليم والفكر والفن والأدب وتسخيره لكل ما يخدم الحياة ويفيد الإنسان ويساعد على توعيته وتطويره ويبعث فيه روح الأمل والنشاط والحيوية والفاعلية، ويجعله إنساناً حياً واعياً مدركاً لذاته وشاعراً بوجوده ومتفهماً لإمكانه وقدرته على العطاء الإيجابي الذي يمكنه من التصدي لجميع التيارات والرياح التي تعصف به، وهو يتصدى للكفاح الذي يخوضه في المعترك السياسي الذي فرضته عليه قوى الشر والبغي والظلم والفساد، التي تحاول فرض سيطرتها على المجتمعات الإنسانية فوق أديم

الأرض؛ لاغتصاب حريتها والتمتع بمقدراتها، ومسخ شخصيتها، وجعلها أداة طيعة في يدها.

والإنسان العربي وهو يخوض هذا المعترك منذ البداية يكافح من أجل الحياة أو الموت، فهو لا يستطيع في هذا العصر أن يعايش قوى الفساد الاستعماري الرهيب الذي تمثله أمريكا الحاقدة والصهيونية المتغطرسة والغرب الصليبي، ومن هنا كان إصراره العنيد على استمرار الكفاح والمقاومة المتواصلة بإيمان وصدق ويقين لا يشوبه ريب ولا يزعزه هول.

ولم يقف كفاح الإنسان العربي منذ بداية العصر الحديث في نطاق محدد من مجالات الحياة، بل شمل كل ما تتطلبه النهضة المعاصرة من نشاط، وخاصة جوانب الفكر والفن والأدب، ففي النشاط الفكري أخذ اهتمام الباحثين يتركز حول الجديد الذي يقوم على الممارسة والتطبيق، ويساعد على تطوير واقع الحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان العربي، ويزيل الغبار عما علق بها من غبار التخلف والجمود الذي ترسب في نفسه نتيجة لعوامل مختلفة أوجدتها الظروف التي مر بها المجتمع العربي القديم، الذي سيطرت عليه الفرقة والاختلاف في عصور الانحطاط التي ساهمت قوى الشر على تكرسيها في بعض أوساطه.

وحين أفاق هذا المجتمع من سباته العميق، أحسّ بقدرته وإمكانه وقيمة مقدراته، فأخذ يعمل على مختلف الأصعدة على لم شعثه وتوحيد جهوده والاستفادة مما لديه من رصيد مادي ومعنوي، ليسير في ركب الحضارة ويعايش الحياة المتطورة بما تقتضيه من فكر وعلم ووعي، ويقف أمام التيارات التي تحاول بكل إصرار اقتلاعه، واستطاع أن يثبت وجوده ويؤكد دوره الفاعل

في بناء الحضارة الإنسانية وتقدم الحياة المعاصرة، وصار ينظر للمستقبل وما يأمل أن يصل إليه خلاله من أهداف.

يقول أحد شعراء النهضة المعاصرة[1] حاثاً على السير إلى الإلمام بركب الحضارة والتقدم، مخاطباً في ذلك المجتمع العربي الذي يتوق إلى النهضة والمستقبل المشرق:

ما[2] في التوقف من	فإلى الأمام إلى الأمام
إن التوقف سبة	تزرى بإنسان الكرام
إنا لفي عصر به	يقصي القعود عن المرام
إنا بعصر أهله	يستيقظون من المنام
عصر به الإنسان طا	ر محلقاً فوق الغمام
عصر التذرع بالمعا	رف للدفاع عن الذمام
يا شعب لا تنكص على	الأعقاب من دون اقتحام
في النكص من حذر	ذام يعيبك أي ذام
أما الرجال فنجحها	في فعلها لا في الكلام
وإذا الخطوب تتابعت	فهي السهام على السهام
وإذا الشعوب تخاصمت	فالحق في حد الحسام
إن اليراع إذا ونى	فالسيف أحفظ للذمام
الحر لا يخشى إذا	قال الحقيقة من ملام
ولقد بدأنا نبتني	والله يكفل بالتمام

---

[1] هو جميل صدقي الزهاوي، عبد الحميد حسن وآخرون، النصوص الأدبية، دار المعارف بمصر، ص124.

[2] المصدر السابق.

يـــا مـــنهلاً لـــم اســتطع ورداً إليـــــه مـــــن الزحــــام

يـــا علـــم إن ترويـنــي يـــا علـــم مـــت مـــن الأوام

يـا علـم أنـت الشـمس قـد بزغــت تضـــيء بـــلا لثـــام

مـــزق كبـــرق خـــاطف يـــا علـــم أحشـــاء الظـــلام

فهو يحض المجتمع العربي المتطلع إلى المستقبل الذي يطمح إليه على العمل الجاد الذي يدفعه إلى الأمام، ويطلب منه أن يستمر دون توقف؛ لأن التوقف عن بناء المستقبل والعمل من أجل إشراقه يعد وصمة في جبين الأحرار الكرام، فإن العصر الذي نعيش فيه يحتم على المجتمع الذي يريد الحفاظ على كيانه أن يعمل من أجل تحقيق آماله التي يصبو إليها، وقد أخذ أهل هذا العصر في كل صقع من أصقاع الدنيا يستيقظون مما هم فيه من غفلة وسبات عميق، فاستطاع الإنسان فيه أن يحلق في أجواء الفضاء وفوق الغمام، فهو عصر الاعتماد على المعرفة في الدفاع عن النفس والشرف؛ لذلك ينبغي للإنسان العربي ألا يتراجع فيه عن اقتحام أبواب المعارف والعلوم التي تجعله بمأمن عن العدا إن هو استطاع التزود منها بالقدر المطلوب، ثم إن نجاح الرجال الذي يجب أن يلاحظ كامن في فعلها الذي تقوم به وتقدمه، لا في الكلام الذي تتفوه به وترده، والخطوب إذا تتابعت فهي مثل السهام التي تتراكم، والشعوب إذا تنازعت ولم تجد وسيلة التفاهم بينها فالسيف هو الذي يبرز الحق ويفصل في الأمر، وفي جميع ما يمر به الإنسان من مراحل البناء والإعداد للمستقبل، فإن العلم هو السبيل والمنهج والوسيلة التي تنير أمامه الطريق، وتمكنه من العمل الجاد في تبصر وروية وإعداد حقيقي يجعله على يقين من الوصول إلى المستقبل المشرق الذي يرنو إليه.

هذه اللفتة من هذا الشاعر فيما قدمه من حض ونصح وحكم وتعبير عما كان يدور في نفس الإنسان العربي في مفتتح هذا العصر، الذي استيقظ فيه وشعر بضرورة العمل من أجل بناء المستقبل الذي يتطلع فيه إلى توحيد الكلمة والصف، ومجابهة قوى الفساد والعدوان والفرقة؛ ليستعيد أمجاده السالفة ويأخذ مكانه تحت الشمس كإنسان له دوره الفاعل في الحياة الإنسانية، واثره الكبير والعظيم في حضارتها وتأسيس أركانها وقواعدها وتحقيق آمالها وطموحها في كل ما تسعى إليه في هذا الوجود الواسع الفسيح، الذي ينعم الإنسان العربي بالعيش في جزء كبير منه يحتوي على إمكان هائل من إمكان العالم المعاصر.

فالبحث عن عناصر النهضة، ومحاولات التوعية والتنوير بين أفراد المجتمع وبيئاته في بدايات هذا العصر تجسيد للكفاح الذي تناولته حركات الإصلاح المختلفة التي تركزت على الحياة الاجتماعية ونشاط الفكر فيها إنتاجاً ونظراً.

وإذا كان الإنسان العربي قد أعطى الكثير من جهده في سبيل التغيير إلى الأفضل، ومن أجل بناء المستقبل الذي يتطلع إليه، فإن هناك معوقات وقفت في طريقه كانت من صنع أعدائه وذيولهم، ومع ذلك فهي بالنسبة إليه لا تساوي شيئاً؛ لأن إيمانه القاطع بحقه في الحياة ووصوله إلى غاياته التي ينشدها أقوى من كل معوق، وأعمق من كل ظن أو تخمين من الأعداء المتربصين، الذين لا ينفكون عن العناد ومحاولات التعويق والشد إلى الوارء والواقع المتخلف.

وما نشاهده في هذا العصر من تكتل ضد المصالح العربية في مختلف المحافل الدولية من قوى الظلم، ما هو إلا لون من ألوان التعويق التي تقوم بها

في وجه النهضة العربية وتوحيد الأمة العربية وإعادة بناء مجدها الأصيل الذي استطاع في حقب طويلة من التاريخ أن يقود الفكر الإنساني، ويقدم للإنسان في كل بقعة من الأرض الحلول الإيجابية لكل ما يعترض سبيله من مشاكل، ويمنحه الصور الجميلة الممتعة من الفكر والفن والأدب، ومختلف أنواع النشاط ونماذجه التي تزهو بها الحياة وتزدهر، ويزداد الإنسان بها وقوفاً وإلماماً على ما في الكون والطبيعة من أسرار وأبعاد وأعماق، يرى العلم ومكتشفاته فيها من الاعتبارات والمفاهيم والمعاني ما يقف به على كثير من الحقائق التي تزيده إثراء وسعة وشمولاً.

فالفكر العربي لم يقف في لحظة من لحظات التاريخ مكتوف اليدين أمام المشاكل التي تجابهه، وجميع محاولات التعتيم التي تصدت له استطاع بما لديه من إمكان أن يتجاوزها.

ومهما حاولت القوى المضادة له أن تسلبه من خصائص وميزات، فإنه سوف لا يمكنها من ذلك، وسوف يبرهن لها على أصالته وقوته وقدرته على العطاء والفاعلية والصدق، الذي يفرضه على جميع محاولات الإصلاح التي يقوم بها الإنسان في هذا العصر.

والدراسات الواعية التي تعنى بالإصلاح الاجتماعي من حياة الأمة العربية، إذا لم تركز جهودها على العناصر الأساسية التي لها الأولوية، مثل اللغة والعقيدة والأسلوب الذي يطبق في واقع الحياة والتعويق الذي تقوم به قوى الظلم والفساد، فإنها لا تستطيع أن تقدم شيئاً تفيد به هذا المجتمع وتبعث فيه النشاط والحيوية.

5 ـ وأوجه الإصلاح ومجالاته كثيرة، يجدها الباحثون الذين لهم عناية واهتمام بمتابعة تطور الحياة الاجتماعية التي يتقلب فيها الناس، ويرون ضرورة الوقوف على ما فيها من أبعاد تزيدها الدراسة والتأمل والمتابعة وضوحاً وتأثيراً، تنعكس فاعليته على الواقع الاجتماعي الذي يتقلب فيه الناس، ويرون من خلاله مفاهيم الحياة ومسالكها ودروبها التي تستحق الاهتمام والتركيز وبذل الجهود المتواصلة، من أجل الوصول إلى الأفضل الذي يدعم تلك الجهود، ويفضي إلى وجه الحياة الصريح المجرد من كل إضافة أو مبالغة أو تهميش، والإصلاح الذي ينطلق من الاهتمام بكل ما في الحياة الاجتماعية من نشاط هو الذي يستطيع أن يقدم الجوانب المهمة التي يجد فيها المتأملون السبيل التي ينطلقون منها إلى الأساسيات التي يرى الباحثون ضرورة النهوض بها، والتأكيد على ما فيها من عناصر الإيجاب، التي تساعد على فهم الوسائل التي يعالج بها الإصلاح في جميع آفاقه وميادينه وأبعاده، وعلى تحديد تلك الآفاق والميادين والأبعاد التي ينطلق منها النهوض بالواقع الاجتماعي ويتطلب إصلاحها وبسط جوانبها وتأكيد الأدوار الفاعلة التي تستطيع أن تقدمها وسيلة ومنهجاً، من مناهج الإصلاح الذي يبعث في الواقع الاجتماعي حيويته ونشاطه وقدرته على البناء وبعث روح التقدم والتغيير إلى الأفضل، الذي يؤكد الاستجابة لما هو الهدف المرغوب الذي يسعى إليه الباحثون، ويبذل في سبيله المصلحون الجهود الصادقة التي تدل على صدق الرؤية ورحابة التفكير وعمق التأمل في الخطى التي يقطعونها، من أجل تطوير الحياة التي يتقلبون فيها من جهة، وإعطاء الأولوية في بث الإصلاح للجوانب المهمة من جهة أخرى؛ كي تكون الخطوات التي يقطعها الإصلاح ويقرها الدارسون المعنيون بكل ما فيه من أدوار أولية وثانوية قائمة على التفكير الواعي، الذي لا يستمد وجوده إلا من الواقع الذي يعنى به ويركز عليه الجهود والاهتمام، ويحاول من خلاله أن

يصل إلى الأهداف التي يرمي إليها ويخطط لما فيها من أبعاد تراها الدراسات الجادة في الإصلاح من السبل المهمة التي تفتح مجالات التفكير الإيجابي لكل ما في الإصلاح من اعتبار، يراه الأفراد والمجتمع وما يضمه من فئات وبيئات أمراً أساسياً للدراسات المعنية بالإصلاح ونشر وسائله وتهيئة سبله وفتح ميادينه وآفاقه في جميع ما في الحياة من قطاعات ووجوه، يستطيع الإنسان منها أن يبرز الجوانب المهمة التي يتناولها بالإصلاح ويزاول النشاط فيها على ضوء ما في التفكير الجاد من عطاء وتأثير وقدرة على البذل.

وقطاعات الحياة التي يستهدفها الإصلاح، قد تتركز في تنظيم الحياة الاجتماعية وما يتخللها من مؤثرات وتيارات، وقد ترتبط بالنشاط الفكري وإنتاجه وقضاياه المختلفة في الأدب والفن والاقتصاد وسواه، وقد تنحصر في علاقات الناس وسبل التعامل الذي يجري بينهم، من حيث الوسائل والأساليب، ومن حيث الاهتمام بالجديد ومتابعة مظانه وعوامله وتأكيد ملامحه وصوره ونماذجه التي يجد فيها النشاط الإصلاحي المعاني والمفاهيم المتعددة التي يستطيع بواسطتها أن يبرهن على صحة التوجهات التي يقرها ويسلكها في مسالكه التي يسلكها في علاج القضايا والمشاكل التي يتناولها ويحلل أسبابها ويبسط عواملها وآثارها ومؤثراتها في كل أفق من آفاق الواقع الذي تعكسه الحياة ويشمله نشاطها المختلف الذي لا يقف بها عند حد معين.

وإذا كان الإصلاح بما له من مفاهيم وبكل ما يتناوله من ميادين هو التوجه بالواقع نحو الأفضل، فإن الجهود التي تبذل فيه لا تتركز إلا على التغيير إلى الأفضل.

ومن هذا المنطلق كانت دعوات الإصلاح المترددة في ساحات التاريخ وفتراته المتباينة منصبة على الواقع الذي كان يحتويها، وما يجري فيه من نشاط في مختلف الآفاق من الحياة التي يجسدها ذلك الواقع ويبرز معالمها وخصائصها، في العرف الذي يجري بين الناس، وفي وسائل التعامل الذي يدور بينهم، وفي ألوان الصلات والروابط التي تجمعهم ويرون بها القواعد العامة والخاصة التي تنظم ذلك التعامل وتحدد الخطوط التي يسيرون عليها ويؤكدون الاعتبارات التي يبنون عليها كل ما في الحياة من أسس، وقواعد للسلوك والتعامل وتفسير ما يعنّ لهم من ظواهر فكرية وفنية واجتماعية وسواها، مما تقتضيه سنن الحياة وطبيعتها.

ولم يقف الإصلاح في مفتتح هذا العصر في قطاع معين من قطاعات الحياة، فشمل الجانب الاجتماعي وتعمق في مختلف الوسائل التي ينهض بها هذا الجانب، ويتطور بحسب ما يتطلبه الواقع من تقدم ووعي وإحساس بما يدور في الحياة بصورة عامة، فركز على اللغة باعتبارها الوعاء الذي يقدم به الفكر الذي يخدم الحياة ويبسّط مفاهيمها ويذلل مشاكلها ويوضح حلولها.

يقول أحد المصلحين[1] في بداية هذا العصر في حق اللغة العربية ووجوب التشبث بها واستعمالها في كل مجال من المجالات المتعددة والمختلفة:

لغة أودع في أصدافها	من قوانين الهدى أبهى درر
أفلم ينسج على منوالها	كلم التنزيل في أسمى سور
لغة تقطف من أغصانها	زهر آداب وأخلاق غرر

---

[1] الخضر حسين، محمد صالح رمضان وآخرون، النصوص الأدبية، دار مكتبة الشرق الجزائرية، ط1/1968م، ص180.

هـي بحـر غـض علـى فلآلـئ البحر ليست تنحصر
ضربت في كل فن ساحر من فنون القول بالسهم الأغر
أفما أحسست في أجراسها دقـة تـذهل عـن نغـم الـوتر
ورقيـق اللفـظ يسـري فـي ما سرت نظرة ظبي ذي حور
لفظها الجزل لـه وقـع كما يقع السيف إذا السيف خطر
وابنها المنطيق إن جز به في مجال القول جلّـى وبهر
يبـرز المعنـى متـى شـاء طرزها في كل معنى مبتكر
فاسـأل التـاريخ ينبيك بمـا أنجبت أرض قـريش ومضـر
مــن خطيـب مصـقع أو مفلـق يسـحب أذيـال الفخـر
ضــل قــوم سـلكوا فــي سبباً أوهـن مـن حبـل القمـر
ألقمـت فـي نطـق قـومي مــن لغــى أخـرى فأضـناها
بعــض مــن لــم يفقهــوا قـــذفوها بمـــوات مســـتمر
نفـــروا منهـــا لـــواذاً وإذا جف طبع المرء لم تغن النذر

فاللغة العربية الفصيحة أودع فيها من قوانين الهدى ما يجعل الإنسان العربي على بصيرة في حياته العامة والخاصة، ويكفيه دليلاً على ذلك أن القرآن الكريم شريعته الخالدة نزل بها، ووسعته بكل ما فيه من تفصيل وإجمال ونظم وقوانين، في كل ما يتعلق بالإنسان من سلوك ومعاملات وعلاقات وتأملات وأفكار وسواها، ثم هي بالإضافة إلى ذلك معين للآداب والأخلاق، ضربت في كل فن من فنون القول بسهم وافر، ففي أجراسها دقة وعذوبة تذهل الإنسان، ولفظها الرقيق يسري في الحشى كما يسري فيه الجمال ويؤثر، ولفظها الجزل له تأثير ووقع مثل وقع السيف إذا خطر، وابنها المتكلم بها إذا وقف في مجال القول بهر الألباب وسحرها، فهو بواسطة ما فيها من قوة على العطاء يبرز المعنى الذي يريده متى شاء، وفي صور شتى شأنه في ذلك شأن من له

رصيد لا ينضب، ولا يعجز أن يسير على منوالها في كل مجال يتطرق إليه من الابتكار والتجديد ومفاهيم كل عصر يمر به من التاريخ، الذي إذا رجعنا إليه نستلهمه فإننا نجده يمدنا بما كان لهذه اللغة من أمجاد، في القول والفكر والفن، وقد جانب قوم سبيل الرشاد حين سلكوا في الحفاظ عليها سبيلاً واهياً ألقمت فيها هذه اللغة أحرفاً من لغات أخرى كانت سبباً في فساد فهمها، فقذفها بعض من لم يفهم أسرارها ويفقه قدرها وقوتها وقابليتها للعطاء بالموات المستمر، وهذا خطأ فاحش لا ينهض له دليل من المنطق أو التاريخ والواقع، فهو قصور وتقصير محض في حق هذه اللغة التي لا يمكن للأمة أن تنهض وتستعيد أمجادها إلا بنهوض هذه اللغة وازدهارها، وحرص أبنائها على فهم أسرارها وأساليبها ومناهجها وقواعدها الأصيلة.

واللغة قبل أن تكون الوعاء الفكري للأمة هي الرابطة الوحيدة لكيانها في كل أصقاعها التي تقع فيها، وهي الوسيلة الفريدة لتوصيل أحاسيسها ومشاعرها وعواطفها بين جميع أفراد هذه الأمة، في مختلف بيئاتها وشتى مجتمعاتها وأفرادها مهما تباينت لهجاتها وتنوعت أساليب استعمالها في مجالات الحياة وميادينها وآفاق نشاطها الاجتماعي والفكري وسواه.

فالاهتمام بها والعمل على تدعيمها وازدهارها اهتمام بكيان هذه الأمة، ونشر لما فيها من إمكانيات فكرية وفنية وعلمية.

ومحاولة التعتيم على أهمية لغتها، والتقليل من قيمتها بوسائل بعيدة عن المنطق والواقع وروح العلم، ما هي إلا محاولة للنيل منها، وما هي إلا عملية طمس لما يكمن فيها من ميزات واستعداد فطري للعطاء الإيجابي الذي يخدم الإنسان أينما حل، وفي أي عصر وجد، وفي أي مجتمع قدر له أن يكون.

وما مرت به هذه اللغة من مراحل إبان ازدهارها وسخائها في العطاء الفكري وسواه على مستوى المجتمع الإنساني العام شاهد على ذلك، ودليل مادي على صحة هذه الوجهة.

فالتركيز على اللغة العربية في هذه القطعة والإشادة بدورها وقدرتها على العطاء، ومطاوعتها لكل مجال تتخذ فيه وسيلة وترجمة لما فيه من إمكان أسلوب ومنهج من الأساليب والمناهج التي سلكها الإصلاح في الجانب الاجتماعي، من حياة الأمة العربية.

وقد توخى الإصلاح هذه السبيل في عدة جوانب رأى ضرورة التركيز عليها؛ لبعث الصحوة بين أفراد هذه الأمة؛ كي تعمل على نشر الوعي بين أفرادها وأحاسيسهم بكيانهم وإزالة ما علق بهم من تخلف[1]، وذلك مثل الاهتمام بالعلم والحرص على نشره وتأكيد دوره في تطوير الحياة وتقدمها والاستفادة مما فيها من إمكان.

يقول أحد الشعراء[2] في مفتتح هذا العصر في فضل العلم وتحصيله:

تعاليت يا عصر البخار مفضلا
على كل عصر قد قضى أهله نحبا
فكم ظهرت للعلم فيك بها آمن السيف الذي كذب
هو العلم يعلو بالحياة ويجعلها كالعلم محمودة

---

[1] انظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط1981/1م، طرابلس . تونس، ص94-98.

[2] هو معروف الرصافي، عبد الحميد حسن وآخرون، النصوص الأدبية، دار المعارف بمصر، ص203.

فكـل بــلاد جادهــا العلــم رباهــا وصـــارت تنبــت العــز

متــى ينشــئ الشــرق الــذي أغبــر

سـحابة علـم تمطـر الشـرف العـذبا

فهو يمجد العلم ويثني على دوره في التقدم والتطور والإصلاح، في كل أفق من آفاق الحياة الكثيرة التي تزدهر وتتفتح سبلها أمام العاملين من أجل تقدم المجتمع وإحياء الأمة وبعث أمجادها.

وهذا الأسلوب الذي يركز على الأهمية للعلم ودوره الفاعل في البناء وتذليل مسالك الحياة أسلوب من أساليب الإصلاح الاجتماعي الذي يركز جهوده في واقع الحياة الاجتماعية التي يتقلب فيها المجتمع العربي، وهو وإن أخذ بحكم التطور الذي تمر به الأمة العربية في تاريخها الحديث طابع القدم وصار غير مألوف أمام الأساليب الحديثة، التي أخذت تدلف للأغراض والمجالات التي تعنى بها وتعالجها مباشرة، فإنه قد استطاع أن يؤدي دوره في بعث الإحساس بضرورة التجاوب مع ما يجري في العصر من تقدم وتطور وتعامل، مع العلم واختراعاته ومكتشفاته وما أحدثه من فاعلية وانعكاس وتأثير.

4 ـ استلهام التراث وأثره في الأدب ودوره الفاعل:

1 ـ وحين يدرس الإنسان الصور والمواقف التي ينطوي عليها الأدب العربي يجد نفسه في مجال فسيح لا يقف فيه في زاوية إلا وتشده زاوية أخرى، لها من الأهمية ما يضطره إلى النظر فيها، والدراسة الأدبية مهما كان نوع تركيزها على الصور والمواقف ذات الأهمية في تاريخ الأدب والفكر الإنساني، فإنها تنبه إلى الجوانب التي ينبغي أن يكون لها حظ من الاهتمام؛ لأنها منطلق واقعي من منطلقات الإصلاح الاجتماعي والفكري، ذلك أن الدراسات الأدبية

حين تركز اهتمامها على الصور والمضامين التي يمر بها الفكر في أية مرحلة من مراحله تعطينا مقارنة عن الحياة الاجتماعية في مختلف الظروف التي تواجهها الحياة الإنسانية. وبتلك المقارنة نستطيع أن نستخلص القواعد والأسس التي نسير عليها ونحن ننطلق إلى الأهداف التي نريدها لبناء المجتمع الفاضل، الذي يعتز بمجده وتاريخه وما خلده من تراث حضاري، له أثره البالغ في تاريخ الأمم والشعوب، وله من النماذج ما يزال فريداً في مجاله.

وليس هناك من شك في أن مواصلة الدراسة في ميادين الفكر سوف تكشف لنا الحقائق الكامنة في ذلك التراث الذي نتمسك به وبأهدابه عن إيمان ويقين، بأنه تأكيد أصيل لمنطلقاتنا الفكرية التي ننطلق منها ونوجه أفكارنا وآراءنا نحوها، ويعي دورنا الحقيقي في هذه الحياة، وحتى يكون على بصيرة من أمرنا في كل ما نقطعه من خطوات في مجالات الإصلاح والبناء، التي تقوده دائماً إلى الجوانب والمجالات التي لابد من إصلاحها وعلاج ما فيها من أساسيات، تدفع بالحياة الاجتماعية والفكرية والفنية وسواها إلى الأمام، وتجعل من العاملين في سبيل ذلك شعلة من الحركة الذاتية المتواصلة التي تتحرك وتحرك إلى الإصلاح والفاعلية فيه، وليقوم الإنسان فيه بتأكيد الصلة بين ذلك الماضي الحافل، وبين الحاضر الذي ينبغي أن يرتبط بالفكر وأن يدعم خطاه ومراحله بالتأمل العميق في النتائج الإيجابية التي يصل إليها ويحققها من الجهود المبذولة في سبيل البناء والإصلاح.

ولذلك فإن الدراسات الأدبية المعاصرة التي لا تهتم بتراثنا الأصيل وتحاول أن تكون بعيدة عن كل ما له صلة بهذا التراث، لا تمثل لدينا تلك الأحاسيس التي نهتز لها من أعماقنا ونتجاوب معها بكل مشاعرنا رغم عمقها وإحاطتها وما فيها من جديد؛ لأنها تبعد بنا عن طابعنا الاجتماعي الأصيل الذي يؤكد

وجودنا، وبالتالي تغترب بنا عن مجالاتنا الفكرية التي ألفناها، وقدمنا بها للمجتمع الإنساني أفكارنا وحضارتنا التي مازلنا نعدها الأساس الوحيد لإصلاح الإنسان في هذا الوجود[1].

وقد مثل فكرنا العربي خلجاته وتأملاته ورغبته في الحياة وزهده فيها، وانغماسه في الملذات وعزوفه عنها، وسبحاته في الكون وجمال الطبيعة وما فيها من أسرار، وما في هذه الأسرار من مواعظ وعبر.

والإنسان وهو يتطلع إلى تاريخ الأدب العربي في روية وتأمل يقف على الصور التي يشده ما فيها من أصالة وعمق، ويجد في هذه الصور ذلك العطاء الذي يثري الحياة الفكرية ويبعث فيها روح البحث وروح الطموح إلى المزيد من الفكر الإنساني الهادف، الذي ينمي في الإنسان المعاني الفاضلة التي تدفعه إلى الخير وتبعد به عن جانب الشر، وخاصة تلك الصور التي تترجم مواقف الرجال وتعبر عن خلجات نفوسهم في تلك المواقف الخالدة التي سجلها التاريخ ومازال صداها يتجاوب، حيث عدت من الركائز التي ينبغي أن يقوم عليها الإصلاح، وذلك مثل ما قام به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مجال العدل والحرية وتصريف شئون الرعية.

وقد تحدث الأدب العربي في جميع مجالات التصوير التي لها صلة بالحياة التي يحياها الإنسان الذي يمثل الرغبات المختلفة التي تنفعل بها نفسه التي لا يستقر لها قرار، فهي تارة تلهث وراء الدنيا وما فيها من مباهج للتنعم بها والتمتع بمباهجها حتى لا ينقضي العمر في غير طائل منها، وتارة أخرى

---

[1] محمد التركي التاجوري، حول التراث العربي، منشورات الجامعة المغاربية، ط2004/1م، ص117.

تزهد فيها وفي أعراضها الزائلة التي لا تلبث أن تزول تنعم الإنسان فيها أو لم يتنعم، فهو راحل عنها طال به المقام أم قصر؛ ولذلك فلا فائدة من الجري وراء الملذات والانغماس فيها؛ لأنها لا تدوم ونتائجها في النهاية ألم وحرقة.

وفي الزهد في الدنيا وزينتها وهو المال يقول الشريف الرضي:

يأمن الأقدار بادر صرفها	واعلم بأن الطالبين حثاث
خذ من تراثك ما استطعت	شركاؤك الأيام والوراث
لم يقض حق المال إلا	وجدوا الزمان يعيث به فعاثوا
تحنو على عيب الغني يد	والفقر عن عيب الفتى بحاث
المال مال المرء ما بلغت	الشهوات أو دفعت به
ما كان منه فاضلاً عن	فليعلمن بأنه ميراث
مالي إلى الدنيا الغرورة	فليخز ساحر كيدها النفاث
طلقتها ألفاً لأحسم داءها	وطلاق من عزم الطلاق
سكناتها محذورة وعهودها	منقوضة وحبالها أنكاث
أم المصائب ما يزال	منها ذكور نوائب وإناث
إني لأعجب من رجال	بحبائل الدنيا وهي رثاث
كنزوا الكنوز وأغفلوا	فالأرض تشبع والبطون
أتراهم لم يعلموا أن التقى	أزوادنا وبدارنا الأجداث

فهو يذكر أن الأقدار تجري بما لا قبل لنا به؛ ولذلك ينبغي المبادرة لصرفها؛ لأن طلاب الحوائج في هذه الحياة يعملون من أجلها بسرعة، وعليك أن تأخذ من حصيلة ما في يدك ما استطعت؛ لأن الأيام والوارث الذين يأتون بعدك هم شركاؤك في ذلك، وهم الذين يفوزون بالفائدة في كل ما اقتنيت، ولم يكن لك من الحرص والحرمان إلا التعب والحساب، وقد عرف قيمة المال وأدى

حقه أناس تصرفوا فيه ولم يحرموا نفوسهم منه بما استطاعوا من أوجه التصرف المعقولة التي تؤكد فهمهم الحقيقي للحصول على هذا المال، والإنسان الغني يغطي على عيوبه غناه سواء كان جاهلاً أو أحمق أو غيره مما يعد عيباً من عيوب الإنسان، في حين أن الإنسان الفقير بعكس ذلك فقره هو الذي يبحث عن عيوبه مهما كان من الكمال، والمال في حقيقته مال الإنسان إذا حقق به رغباته أو دفع به نوائب الدهر، وما فضل منه عن قوته فهو ميراث آيل لمن يأتي بعده من الوارث، وإذا كانت الدنيا وزينتها بهذه الصورة فإن الشاعر يتنصل منها ويصفها بأنها غرورة، وقد طلقها ألفاً ليحسم داءها العضال، فهي في سكناتها محذورة، وفي عهودها منقوضة، وهي أم المصائب التي تصيب الإنسان، والعجب من أناس تمسكوا بها وكنزوا الأموال فيها وحرموا أنفسهم من تحقيق رغباتها ولم يعملوا لآخرتهم فيها، فهل هؤلاء ظنوا أنهم خالدون فيها وجهلوا أن التقوى هي الزاد الحقيقي الذي يتزود به الإنسان في رحلة الخلود وأن الديار الحقيقية هي القبور؟!!

هذه هي الصورة التي يسوقها الشريف الرضي للزهد في الدنيا، وهي صورة تدور حول الأقدار وتصاريفها وما يجب على الإنسان حولها، وهي تصوير حقيقي لقيمة المال الذي يجري وراءه الإنسان ويحاول أن يجمع منه ما يستطيع بكل ما له من إمكانيات وطرق مشروعة وغير مشروعة، في حين أنه فان ولا ينقل منه شيئاً إلا ما قدمت يداه من أعمال البر التي يلاقي بها وجه الله ﷻ في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. ولم يعرف حق المال إلا أناس أدركوا هذه الحقيقة فتصرفوا فيه على ضوئها.

ومن آثار المال على الإنسان أن الإنسان الغني عيوبه مستورة بغناه، وأما الإنسان الفقير فإنه ذو عيوب كثيرة، ولا قيمة للمال إلا إذا دفع به الإنسان

غوائل الدهر وحقق به آماله والباقي منه لمن يأتي بعده، والدنيا في حقيقتها غرورة لا ينبغي للإنسان أن يطمئن إليها ويركن لمباهجها؛ لأن جميع ما يبتلى به الإنسان في هذه الحياة حب الدنيا والتمسك بها والتشبث بمظاهرها الكاذبة، فكل ما يحل بالإنسان هي الأساس فيه، فسكناتها يتحتم أن تؤخذ بحذر شديد، وما فيها من عهود كلها منقوضة، والناس الذين يتكالبون عليها ويكنزون الذهب والفضة ويحرمون أنفسهم وغيرهم من العيش الكريم فيها، هؤلاء الناس مبعث للعجب والدهشة؛ لأنهم يتصرفون بغير عقولهم ويسيرون في الحياة بغير تأمل؛ إذ أنهم لو تأملوا في النتيجة التي يصلون إليها من تصرفهم هذا لكانوا على غير هذه الصورة؛ لأنهم سوف يدركون أن الدنيا محدودة، وأن هذا المال الذي يكنزونه ما هم إلا حراس عليه، وأن الزاد الذي ينبغي عليهم أن يتزودوا به هو تقوى الله، وصرف هذا المال في الوجوه الحقيقية التي تعود عليهم في الدنيا والآخرة بالفوز المبين.

وفي هذه الصورة التي ينقلها لنا الشريف الرضي بيان واضح لما كان يدور في نفسه من عزوف عن الدنيا ومباهجها، وتقرير صادق لما كان يحس به من الناس من تكالب على الدنيا ومتعها في ذلك المجتمع الذي كانت رغبات الناس فيه تتصارع على الحياة في آخر العصر العباسي.

وقد كان الشريف الرضي ينتمي إلى آل البيت ويعد نفسه ممن لهم الحق في الخلافة، وقد كان ممن لهم المكانة الرفيعة في العلم والأدب بالإضافة إلى كونه من الشعراء الذين لهم وزنهم في تاريخ الأدب العربي، ورغم تضلعه في مختلف العلوم، فإن شعره يمتاز بالرصانة، وقوة الأسر، وجودة العبارة، وقد ظهر في شعره أثر معارفه اللغوية، والعلمية، وشخصيته القوية التي كانت تمثل العزة النفسية وإباءها.

والشريف الرضي وهو يتحدث عن الزهد في الدنيا يمثل الجانب الذي ينظر به للدنيا وقيمتها، وبين فيه الدور الذي يلعبه المال في نفوس الناس، إلا أنه مع ذلك تحدث عن الدنيا بنظرة أخرى، حيث افتخر وهجا وتغزل في أسلوب يختلف عن هذا الأسلوب، وهو في كل ذلك يطل بشخصيته الفذة ويعتز بنسبه الشريف الذي يستمد منه قوته ومكانته، وقد استطاع بذلك أن يؤكد الدور الحقيقي الذي قدمه للفكر والأدب في شعره وإنتاجه الذي ساهم به في ميادين الفكر، مثل جمعه لخطب الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه في كتاب نهج البلاغة الذي تولى شرحه فيما بعد كثير من العلماء والباحثين الذين اهتموا به غاية الاهتمام.

2 . لا يعني الرجوع للتراث ودراسته واستلهامه وتأمل ما يحويه من إمكان التشبث بالماضي لمجرد كونه ماضياً فحسب، ولكن يعني البحث عن الأصالة والعمق وتتبع الجذور لكل فكرة أو رأي أو خاطرة أو جديد؛ ذلك أن أية فكرة أو رأي أو جديد لابد له من أصل ينطلق منه ويستمد قوته من الاتكاء عليه، وهذا الأصل لا يتم تكوينه في لحظة من الزمان، بل لا يتم تكوينه على الصورة التي يعد بها أصلاً يرجع إليه ويتخد سبيلاً للدراسة ومناطاً للتأمل وجانباً للمقارنة والتوخي إلا بعد أن يسلخ[1] من الزمان قروناً وعصوراً يكون خلالها مبعثاً للاهتمام ومثاراً للتفكير.

والدراسات المختلفة في الأدب العربي التي تعنى بالتراث وتركز على ما فيه من آفاق تحاول أن تبرز الجوانب الأساسية للنشاط الفكري الذي حواه

---

[1] انظر النقد الأدبي الحديث بين الأسطورة والعلم، محي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب/ 1988، ص39–40.

التراث واستطاع التفكير الإنساني أن يستفيد مما شمله من إمكان، وأن يصل إلى ما أكده من أهداف في بناء الحياة التي يعنى بها النشاط الأدبي ويعالج قضاياها ومشاكلها التي هي الميدان الفسيح[1] للنشاط الفكري أدباً وفناً واجتماعاً وسواه.

والتراث من هذا الجانب[2] مصدر زاخر بالصور التي رسمتها الحياة بكل ما لها من اعتبار وبكل ما تحمله من مفاهيم تجد فيها الدراسات الفكرية المقارنة الأوجه التي تقيم بها النظريات التي تعتمد تطبيقها في الإنتاج الذي تتعرض له وتقدم فيه من المجهودات ما تراها قائمة وملائمة ومتفقة مع المنطق والفكر السديد الذي يبرز ما في الحياة من أسرار، ويقدم ما في التراث من ذخائر، ويعطي للنشاط الأدبي قوة وفاعلية.

والاهتمام في النشاط الأدبي بميادين التراث يتركز على أهم ما فيه من ملامح يتم استلهام جوانبها في مسارات الإنتاج الأدبي الذي يصور الحياة ويقارن بين الصور الواقعة تحت حسه بالصورة التي يقف عليها في تتبعه للتراث ومحتوياته وما يشتمل عليه من آثار حسية ومعنوية ومن معالم في مختلف المناحي التي يتطرق إليها التفكير ويصل إليها الإدراك ويتمثلها التصور ويحاول الإنسان أن يتعمق ما فيها من بواطن ليستفيد منها ويقيس عليها الجديد المبتكر الذي يفتح به الآفاق التي ينفذ إليها ويكيف بها واقع الحياة التي يحياها ويدور في تصاريفها وما تفرضه من متطلبات تتمثل فيها المعاناة اليومية وتلونها التصاريف الفكرية والأدبية والاجتماعية وسواها مما

---

[1] انظر عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب/1988م، ص14-17.

[2] حول التراث العربي السابق، 140-143.

نلمسه واقعاً محسوساً يصوره الإنتاج ويختلف في تقديم الصورة التي يرسمها في مختلف المجالات والميادين التي يرتادها ويغوص في أعماقها البعيدة والقريبة، ويختلف الإنتاج الأدبي في تركيزه على الصورة التي يستوحيها من التراث ويحاول منها أن يقدم العطاء الجيد الذي يغير معالم الحياة وملامح النشاط الفكري فيها بكل ما فيه من أنواع وأجناس، حيث يركز بعضه على الجوانب الفنية من حيث الصياغة والتوافق مع المضمون، ويرى في الصور التراثية في هذا المجال النموذج والمثل الذي ينبغي أن يحتذى، ويعتبر التجديد الذي لا يتوافق معه أو غير سائر في نهجه وخطوطه العريضة وما تقتضيه معانيه الفنية وقواعده الأساسية بعيداً عن الأصالة وغير مبني على أساسيات متينة تقاوم النقد وتصمد أمام التيارات الوافدة في مختلف الأزمان وشتى العصور التي تمر بها وتتصدى خلالها للتقويم، بينما يركز البعض الآخر على الملامح والأفكار والمعالم التي تحتويها الصور التراثية التي يتناولها ويتخذ منها السبيل للدراسة واستلهام التراث والغوص في ميادينه الكثيرة المتعددة التي يستوعبها البحث ويلم بها التفكير والتركيز ويحاول الإنتاج الأدبي أن يقدم ما فيها من عطاء إيجابي ومضامين فكرية هادفة توجه وتغير وجه الحياة وتمد جوانبها بالإشراق والوضوح والبساطة وحلول مشاكلها بسهولة ويسر.

وفي كل اتجاه من هذين الاتجاهين وغيرهما يجد النشاط الفكري بصورة عامة ونظرة شاملة وفكرة متقصية أن استلهام التراث واستشفاف ما فيه من إمكان وطرق ما يحتويه من مجالات وآفاق وجوانب وميادين أمر في غاية الأهمية بالنسبة للأصالة التي ينبغي أن تتوفر في الإنتاج الأدبي وسواه، وأن التركيز على ما في التراث من اعتبارات في مختلف الآفاق شيء أكثر من مهم

في ربط حلقات الفكر بعضها ببعض، وفي تأكيد الأصالة والعمق لكل فكرة يتناولها الأدب.

وآفاق التراث واسعة، والأغراض والأهداف التي دارت فيها كثيرة لا تحصى بحسب ما لدى الإنسان في الماضي من رغبات وما قدمه من نشاط وتصاريف في الحياة التي تقلب فيها وسجل آثارها التاريخ تراثاً ما زال يتردد جيلاً بعد جيل وعصراً يلاحق عصراً في صور ومواقف وأحداث خالدة خلود الإنسان نفسه في هذا الوجود الذي سيظل يستلهم أسراره وظواهره وما يحويه من مكنونات تبرز الطبيعة دقائقها وأسرارها العميقة التي يتكشفها العقل الإنساني وهو يتأمل فيما حوله من آفاق رحبة لهذا الوجود ومكنوناته المذهلة التي يتيه الفكر في جنباتها وهو يحاول الوصول إلى تفصيلاتها العجيبة التي لا تنتهي من تفصيل إلا لتنتقل إلى غيره، وما يكاد الفكر فيها يتوصل إلى مجال إلا ليرتبط بسواه من الجوانب التي يلمس فيها من الحقائق ما يشده ويدفعه إلى مواصلة النشاط والمحاكاة التي تفرز الابتكار وتقدم الإبداع وتعمق في الحياة الإنسانية معانيها الأكيدة وجوانبها المضيئة ومعالمها المشرقة التي تبعث في الإنسان الثقة في نفسه وفيما حوله من الأشياء التي يقع عليها نظره ويلامسها حسّه ويعانقها وجدانه وشعوره وتنعكس في خلجاته معاناة يترجمها فيما يقدمه من إنتاج فكري وأدبي وفني ونشاط حيوي يعالج مشاكل الواقع الذي يعيشه المجتمع الإنساني وهو يتطلع إلى الأفضل والمزيد من الإصلاح ودعم آفاق التقدم وميادين البناء الإيجابي.

وآفاق التراث الفسيحة شملت الحديث عن الأبطال وشملت الحديث عن المواقف وشملت الحديث عن الفكر وإنتاجه وبحثه وتقويمه وما تعرض له من فحص ودراسات وتفسير لكل ما قام به الإنسان وحاول أن يضيفه في كل

عصر من جديد يعد ربطاً وتأكيداً لحلقات النشاط الجاد في مجالات الإصلاح الاجتماعي والبناء الإيجابي الذي يمكن الدراسات الجادة من الوقوف على الحقائق التي تنشدها وتهدف إليها وهي تواصل المد الفكري في الموضوعات التي تعنى بها وتحاول من خلال ما تلمسه فيها من ملامح فكرية وفنية أن تجدد الصور والمفاهيم التي تدور في الحياة ويجد الناس فيها مبتغاهم الذي يريحهم مما يجدون فيها من عناء ويلاقونه من صعاب ويصادفونه من مشاكل.

ولم تغفل آفاق التراث الحديث عن النفس وتحليلها بما يعده الإنسان في مختلف ما يمر به من عصور فضيلة يتطلع إليها ويرى في تحلي الناس بها لوناً من النشاط الاجتماعي الذي يبني الأفراد والجماعات على الأسس الصحيحة التي تستطيع أن تحقق بها وجودها وتؤكد بها عملها وتخلد بها أمجادها وتقدم بها الإنتاج الجيد الذي يوطئ أكناف الحياة للناس جميعاً.

يقول الشريف الرضي[1] في حديث نفسي:

لغير العلا مني القلا والتجنب
ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب
إذا الله لم يعذرك فيما — فما الناس إلا عاذر ومؤنب
ملكت بحلمي فرصة ما استرقتها
من الدهر مفتول الذراعين أغلب
لئن تكن كفي ما تطال — فلي من وراء المجد قلب
فحسبي أني في الأعادي — وأني إلى عز المعالي محبب
وللحلم أوقات وللجهل — ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

---

[1] النصوص المختارة السابق، ص208.

يصـول علـيّ الجـاهلون ويعجـم فـي القـائلون وأعـرب

يـرون احتمـالي غصـة لـواعج ضـغن أنـي لسـت

وأعـرض عـن كـأس النـديم ومـيض غمـام غـائر المـزن

وقـور فـلا الألحـان تأسـر ولا تمكـر الصـهباء بـي حـين

ولا أعـرف الفحشـاء إلا ولا أنطـق العـوراء والقلـب

لساني حصاة يقرع الجهل بالحجا

إذ نـال منـي العاضـة المتوثـب

ولسـت بـراض أن تمـس فضـولات مـا يعطـي الزمـان

غرائـب آداب حبـاني زمـاني وصـرف الـدهر نعـم

تعلم فإن الجود في النـاس تقـوم بهـا الأحـرار والطبـع

فهو في هذا الحديث النفسي يرسم لنفسه الصورة المثلى للإنسان الذي فيه الكمال وعزة النفس والشمم والإباء والحزم في غير تكبر وصلف، فهو يعشق العلا ويرى أن الله ﷻ هو الذي يقبل معذرة الإنسان فيما يرومه وقد استطاع بحلمه أن يحقق من الفرص التي لم يسنح بها الدهر، وإذا كانت كفه لم تمكنه مما يصبو إليه فإن بين جنبيه قلباً أكد به مجده، ويكفيه فخراً أنه في الأعادي غير محبوب لما يوقعه بهم من هزائم ويذيقهم فيها من ويلات، وأنه إلى عز المعالي محبب، وقد اتسمت أوقاته بالحلم والجهل، إلا أن ميله فيها إلى الحلم أقرب، وتدور بينه وبين الجاهلين الدوائر، إلا أنه في النهاية يظفر بهم ويعلوهم وهو وقور يحافظ على وقاره دائماً دون أن يؤثر فيها ما يهز الإنسان في بعض الأحيان من الألحان وسواها، ولا يعرف الفحشاء إلا بوصفها، ولا ينطق بما يجرح شعور الآخرين حتى في حالة الغضب التي عادة ما يخرج الإنسان فيها عن صوابه، ومع ذلك فإن لسانه ليس هيناً، بل هو حصاة يقرع بها الجهل في تعقل وتبصر، وقد تعلم من الدهر آداباً حباه زمانه بحفظها، والدهر للإنسان

العاقل نعم المؤدب والمعلم، ثم إن الجود في الناس فطنة يقوم بها الأحرار منهم، ولكن الطبع في الإنسان هو الذي يغلب على تصرفه، فإن كان جواداً بطبعه استمر عليه وعرف بين الناس بذلك، وإن كان متكلفاً فإن البخل يظهر عليه مهما حاول معه من تصنع، ويعرف بين الناس كذلك لأن الطبع يغلب التطبع كما يقولون فيما يروى من حكم وأخبار.

ومهمـا تكـن عنـد امـرئ مـن

وإن خالها تخفى على النـاس تعلم

فهذه الصورة التي يرسمها الشريف الرضي لنفسه ويسوقها في حديثه النفسي الذي كان يدور حول ذاته من الصور التي حواها التراث فيما حوى، وهي من الجوانب المهمة التي يستلهمها الإنتاج الفكري بكل ما له من تقاسيم حيث يجد فيها الأدب والفكر من الملامح الإنسانية ما يدعوه إلى متابعتها والاستفادة منها في تفسير عناصر الخير وتجسيد مفاهيمه في الفضيلة والعزة والكرامة واحترام النفس والترفع بالذات عن مواطن الزلل وما يقود إلى الضلال والفساد ويراه الإنسان في كل عصر منقصة وخسة يجدر به أن يكون بعيداً عنها.

وحين تتطرق الدراسات الأدبية ونشاط الأدب في مختلف اتجاهاته للاستنارة بمثل هذه الصورة في محاكاة الإنتاج وتفسير معاناته وتحليل مضامينه ومحاولات تجديد مفاهيمه وتطعيم صوره التي يقدمها، فإنها بذلك تكون قد رجعت للتراث واستلهمته دون أن تكون قد رجعت إليه لمجرد كونه ماضياً فحسب.

---

(1) من معلقة زهير بن أبي سلمى.

وهذا هو المطلوب في التعامل مع التراث والرجوع إليه للاهتداء بما فيه من إمكان، وما يحويه من أصول تتمثل فيما يضمه من صور وقواعد وأشخاص ومواقف وأحداث ودراسات لمختلف جوانب الفكر الإنساني وما ترشد إليه من ألوان ومعالم وصور يستنتج منها الإنسان في كل موقف ما هو مشرق وجديد.

3 ـ وكلما أوغلت الجهود في بعث التراث ومحاولات التجديد في آفاق الفكر ازدادت يقيناً بأهمية التراث، وتأكدت من أن التجديد الهادف لا يقوم إلى على الأصالة التي لا تتعدى التراث[1] بكل ما يحويه من معارف ومعان وصور، ذلك أن التجديد له أسس ينطلق منها وهي الجذور التي يقوم عليها الإصلاح الذي ينشده المتطلعون إلى بناء الحياة الاجتماعية بما يتفق ومتطلبات العصر وتطورات العلم وابتكاراته التي أصبح الإنسان المعاصر لا يرى لها بديلاً في تفسيره لكل ما يصادفه وهو يبسط قضايا الصراع مع الحياة ومعاناتها ويحلل مشاكلها وصعابها ويحاول أن يصل من خلال ذلك كله إلى ما يصبو إليه من غايات وأهداف يرسم بها الصور المثلى لما يراه نموذجاً وسبيلاً لسلوكه في الحياة بصورة عامة، وفي واقع المجتمع الذي يضمه بصورة خاصة؛ ذلك الواقع الذي يتركز عليه الإصلاح ويستهدفه التطور والتجديد والتحديث فإن الواقع الذي يتقلب فيه المجتمع هو الذي يتأثر به الإنسان ويدور في إطاره.

وما يجري فيه من تيارات فكرية وأدبية واجتماعية وسواها فمحاولاته للتجديد والإصلاح والانطلاق إلى الأفضل تنطلق من هذا المجال، وتكون خطواته الأولى لتلك المجالات منطلقة ومنبثقة من هذه السبيل التي تعد الأرضية التي تقف عليها ولا تستطيع مواصلة السير على الدرب بدون بث الإصلاح في

---

[1] انظر حول التراث العربي السابق.

أطرافها وبث روح التجديد في آفاقها التي تتجاوب مع الجهود المبذولة في الإصلاح والتجديد بقدر ما يقدم فيها من بذل وعطاء وبقدر ما ينالها من عناية ومتابعة ودقة واهتمام وتطلع إلى الأفضل؛ ذلك أن الإحساس بالإصلاح وضرورة تطرقه لكثير من الآفاق والميادين وحده لا يكفي في بث الإصلاح فيها، بل لابد من بذل الجهود والحرص على متابعتها في الواقع العملي الذي يزاول والذي تمارس فيه تصاريف الحياة التي تمثل مختلف الميادين والآفاق التي يغشاها الإصلاح والتجديد والتحديث في دروبها ومسالكها المختلفة.

والإصلاح الذي يغشى دروب الحياة ومسالكها المختلفة لا يعني مجرد التغيير في الشكل، أو مجرد التحوير في المضمون الذي تحويه تلك الدروب والمسالك، ولكن يعني التغيير الجذري الذي يتطلبه التطور بالحياة أسلوباً وشكلاً وفكراً وتجاوباً مع ما يدور في الواقع المعاصر من قواعد وأسس ومفاهيم، وهو بهذا المعنى يتطابق مع التجديد وخطواته وأهدافه التي يرمي إليها بالتطور بالتفكير وتنويعه وبث النشاط في مختلف المناحي والجوانب التي لها تأثير وفاعلية في الواقع الاجتماعي الذي دائماً يتطلب المزيد من الأفكار وتطويرها وتنويع الاتجاهات والأهداف التي تشملها وترمي إليها.

والإصلاح غالباً ما يأتي بعد فترات الركود التي يمر بها المجتمع والأمم والشعوب ويبعث الصحوة فيها والإحساس بذاتها لتنطلق في الطريق التي تستطيع بها أن تدفع عنها ذلك، أو تحقق بها وجودها وأهدافها، وتاريخ الأمم والشعوب يوضح ذلك التفسير للإصلاح ومعانيه وما يندرج تحتها من ألوان التغيير إلى الأفضل والأوفق، لتكييف ما تمر به من ظروف وملابسات.

ولا يعني الإصلاح بجميع ما له من تفسير إلغاء ما يتركز عليه من جوانب يحاول تصحيح المسار فيها؛ لأنه في إطاره الشامل خطوات للتصحيح وتمهيد للسبيل نحو الأهداف المرسومة التي يرى المفكرون اتباعها وتطبيقها للنهوض بالأمة والتقدم بها نحو تحقيق آمالها ومطامحها التي تشرئب إليها.

وتاريخ الأمة العربية يوضح لنا في مراحله المختلفة التي مر بها المعاني التي يشملها الإصلاح في انتفاضات هذه الأمة وثوراتها المختلفة على الظلم والفساد ومحاولات المفكرين من أبنائها لتحديد المسارات التي يسير فيها الإصلاح والأولويات التي يتحتم أن تراعى في كل مجال من مجالات الحياة وآفاقها التي تحتوي كل ما تمر به من نشاط وتفكير.

وإذا كان الباحثون قد تطرقوا في بحوثهم التي ركزوا فيها على الإصلاح في حياة الأمة العربية وحاولوا أن يؤكدوا على بعض الجوانب منها لأهميتها ودورها الفاعل في التطور والبناء فإن ذلك لا يعني أن الجهود الإصلاحية قد تم حصرها في مجالات محددة، ولكن يعني أن مجال الإصلاح مجال واسع فسيح، ويزيده وضوحاً وإشراقاً ما يبذل فيه من دراسات وجهود.

وقد سلكت دعوات الإصلاح ومناهجه في مفتتح القرن العشرين عدة مسالك بعضها تركز في النظر للحياة وتطوير أساليبها وسبلها والاستفادة مما فيها من اعتبارات وأفكار ومفاهيم، وبعضها حاول الغوص في الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الناس، وركز على ما يدور فيه من سلوك ووسائل تعبيرية وفنية وفكرية وسواها، وأخذ يؤكد ضرورة العمل على تطوير الأفكار والوسائل التي يقوم عليها بناء الحياة الاجتماعية المتطورة بحسب ما في الواقع الذي يتقلب فيه الناس من جديد وأفكار هادفة ومتطورة.

وقد اتجهت دعوات الإصلاح بناء على ذلك في محاور متعددة، منها التغني بالحياة وجمال الطبيعة، والتأمل في آفاق الكون وأسرار الوجود وما يحويه من إبداع يرى الفكر ضرورة التأمل فيه والوقع على ما فيه من أبعاد وأسرار ترشده إلى كثير من المعاني والأهداف الإنسانية المشتركة التي يستفيد منها جميع الناس فوق أديم الأرض، باعتبارها حقاً مشاعاً بينهم جميعاً، وأي تحرك وتوجه حولها في أي مكان من الأرض وأي فريق من الأمم والشعوب ما هو إلا منبه لأهمية دورها وفعاليتها ومؤكد لما فيها من عناصر الإيجاب.

يقول أبو القاسم الشابي[1] أحد رواد النهضة الحديثة في الأدب العربي الحديث مقارناً بين الأمل والقنوط، الخطين اللذين تسير فيهما الحياة وتتضح من خلالهما معالمها الصحيحة التي تبدو فيها مشرقة مضيئة أو مظلمة معتمة:

ضـعف العزيمـة لحـد فـي   تقضـي الحيـاة بنـاه اليـأس
وفي العزيمة قوات مسخرة   يخـر دون مـداها الشـامخ
والنـاس شخصـان ذا يسـعى بـه
مـن القنـوط وذا يسـعى بـه الأمـل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة
وذا إلـى المجـد والآمـال تتصـل
مـا كـل فعـل يجـل النـاس فاعلـه
مجـد ولا كـل مـن خـاض الـدجى
المجـد صـنفان صـنف فـي   لحـن الخلـود وصـنف فوقـه
مـا المجـد إلا ابتسـامات يفـيض

(1) أبو القاسم كرو السابق، ص167.

فـم الزمـان إذا مـا انسـدت الحيـل

ولـيس بالمجـد مـا تشـقى ويحسـد اليـوم أمسـاً ضـمه

فهو ينظر للحياة من خلال ما يعتمل في نفوس الناس فيها، حيث يسيطر القنوط على بعضهم فيسلبه بريق الحياة وجمالها وسحرها الأخاذ، ويكون بذلك سائراً في طريق الموت المناقض لمعاني الحياة المختلفة ويراود بعضهم الآخر الأمل والطموح إلى الحياة الكريمة التي يصبوا إليها ويراها من خلال تصوره لمعانيها المثلى التي ينبغي أن تكون واقعاً مطبقاً ومعاشاً يضرب الناس في أطرافه ويعملون من أجل بناء المجتمع وتحقيق أمجاده، ثم إن المجد الذي يداعب آمال الطامحين هو الابتسامات التي يفيض بها فم الزمان، وليس المجد ما ينغّص الحياة ويعكر صفو العيش فيها.

هذه الالتفاتة نحو المعاني المتعلقة بالحياة وما يدور فيها من شعور وانفعال وإحساس بضرورة التجاوب مع الأفضل لون من ألوان الجهود التي بذلت في مفتتح هذا العصر لنشر الإصلاح وبعثه في مختلف جوانب الحياة التي يدور فيها الإنسان، سواء منها ما كان متصلاً بالواقع اليومي وممارساته المختلفة والمتنوعة، أو ما كان متصلاً بالفكر وما يدور في مجاله من نظريات ودراسات وفروض وإقبال على كل ما له صلة بتنظيم المجتمع ونشر الوعي بين أفراده وبيئاته وجماعاته.

وقد شملت هذه النظرة الإصلاحية الإحساس الداخلي للإنسان نفسه حتى يكون انطلاقه نحو الأفضل منبثقاً من إحساسه الذي يدور في طوايا نفسه.

يقول أبو القاسم الشابي[1] نفسه في هذا المجال:

عــش بالشــعور وللشــعور دنيـاك كـون عواطـف وشـعور
شـيدت علــى العطـف العميـق
لتجـف لـو شـيدت علـى التفكيـر
واجعـل شـعورك فــي الطبيعـة
فهـو الخبيــر بتيههــا المســحور
صـحب الحيـاة صـغيرة ومشــى
بــين الجمــاجم والــدم المهــدور
وعـدا بهـا فـوق الشـواهق متغنيـاً مـن أعصـر ودهـور
والعقل رغـم مشيبه ووقـاره مـازال فـي الأيـام جد صـغير
يمشــي فتصــرعه الريـــاح متوجعـاً كالطــائر المكســور
ويظل يسأل نفسه متفلسفاً متنطعـاً فــي خفــة وغــرور
عمــا تحجبـــه الكواكـــب من سر هذا العـالم المسـتور
وهــو المهشــم بــالعواطف مـن سـاذج متفلسـف مغـرور

فهذه الدعوة إلى تحكيم المشاعر في كل ما يعن للإنسان من شئون الحياة تعد دعوة جديدة حيث كان المألوف هو الدعوة إلى تحكيم العقل الذي يقيم أحكامه على المنطق، ولكن هذه الدعوة ليست منطلقة من فراغ كما يقولون، بل هي منطلقة من واقع يحسّ به الناس جميعاً، وهو أن هذه الحياة تحركها العواطف والشعور، وقد شيدت على ذلك، ولو جردت منهما لأصبحت جافة وغير مستساغة، وخاصة حين نتعامل مع الطبيعة وسحرها وما فيها من جمال

---

[1] أبو القاسم كرو السابق، ص110.

وإشراق، والعقل رغم أصالته وعمقه في هذا المجال، فإنه مازال في بعض الجوانب قاصراً، ويظل يسأل عما تخفيه الكواكب خلفها من سر العالم المستور.

وهذه الموازنة العرضية بين الإحساس الذاتي والعقل مهمة في التعامل مع النظرات الإصلاحية الأصيلة التي لا تنحصر في الأساليب المعتادة التقليدية التي لا تستطيع أن تتخلص من قيود القديم، ولكنها تحاول أن تنطلق في سبيلها الإصلاحية بفكرة جديدة ونظرة واقعية وموضوعية، تأخذ فاعليتها وتأثيرها وتطبيقها العملي من الواقع الذي تعالجه وتتعامل مع ما فيه من إمكان.

وهذه الفكرة رغم ما قد يوجه إليها من نقد تعد منطلقاً جديداً نحو الإصلاح والتعاون مع الحياة وهي من الصيحات الجادة التي كان لها الإسهام الكبير في تطوير المناهج التي سلكها الإصلاح الاجتماعي في كل ما يتعلق بالحياة من تطوير وإحساس بالتغيير إلى الأمثل.

وهذه الفكرة الداعية إلى تحكيم الشعور والتركيز عليه في كل ما يتعلق بالتعامل مع الحياة وما يدور فيها من تصاريف لا تعني إلغاء التعامل مع العقل والرجوع إليه وقت الحاجة والتعويل عليه في نشر الإصلاح وتعميق أصوله، وإنما تعني التنويع في الأساليب والوسائل التي ينهض عليها الإصلاح ويستطيع من خلال ذلك أن يقطع المراحل المهمة التي بواسطتها يحقق أهدافه وغاياته التي ينشدها ويتوخى الوصول إليها، وهي دائماً بناء المجتمع بناءً حياً يقوم على مراعاة الماضي الذي يحويه التراث والواقع الذي يطوره التجديد والتحديث، ويقدم الإصلاح منه الصور التي يحكم سبكها وتقديمها في شتى الآفاق التي يعالجها والمجالات التي ينشر فيها الوعي والإحساس العميق بما فيه من عطاء وقدرة على التطوير.

فالإصلاح في الفكر وأساليبه وفي علاج الواقع الذي يدور فيه المجتمع بكل ما فيه من مشاكل وما لها من حلول عملية ونظرية إن لم يستوح ما في الماضي من جذور وأصالة وعمق لا يستطيع أن يؤكد فاعليته ودوره الإيجابي الذي يقوم على الأصالة والتوثيق.

4 . ومن المسارات المهمة في الدراسات الأدبية وغيرها البحث عن الأصالة التي يشتمل عليها موضوع الدراسة وتحديد المنابع التي يتغذى منها الفكر الذي يشتمل عليه كي تكون الرؤية التي تقدمها تلك الدراسة حوله واضحة جلية؛ وكي يفهم ذلك الموضوع وقطاعه فهماً دقيقاً يؤدي الغاية والهدف الذي يرجى من دراسته وربطه بما له من أصول فكرية وفنيه وسواها.

ومهما تكن الفروض والاعتبارات التي تثيرها تلك الدراسات أو تحاول الاستناد إليها للوصول إلى الملاحظات التي تلاحظها وتراها، فإن الشيء الثابت هو أن تلك الفروض والاعتبارات ليست إلا تصوراً وإدراكاً من الدارسين لجوانب محددة من القطاعات التي اختاروا موضوعاتها وحاولوا أن يستخلصوا منها الجوانب المهمة في قطاعاتها وما يجري فيها من تيارات ونظرات وأفكار وقواعد وأسس يرى الدرس والبحث والتأمل فيها المجالات الحيوية التي تربطه بكثير من أوجه المعرفة وأساليب التفكير الجاد ومناهجه التي توصل إلى كثير من الحقائق المهمة في استنباط قطاعات الدراسة الهادفة بمختلف الأفكار والنظريات التي لا توضح الأصالة التي يشتمل عليها موضوع الدراسة وتحدد منابعه فحسب، بل تدفع إلى ضرورة تفهم كل ما يتصل بذلك الموضوع والقطاع الذي يدور فيه ويعالجه من آفاق وأسس وقوانين وتطبيقات تثري جوانب الفكر وتساهم في بناء المعرفة الإنسانية وتؤكد الصورة والقيم المثلى للدراسات المتعمقة التي لا تنطلق من فراغ ولا ترى في غير الأصالة والعمق لكل ما تعني

به وتعالجه شيئاً يستحق الاهتمام وبذل الجهود، لأن العمق والأصالة في كل الدراسات المعنية بالعطاء الإيجابي والإصلاح هما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما استمرار الملاحظة في علاج مختلف الموضوعات التي لها صلة قريبة أو بعيدة بتلك الدراسات وموضوعاتها بكل ما تحمله أو تحويه من إجمال وتفصيل، وبكل ما تعكسه من إيجاب أو سلب في جميع قضايا الحياة التي تشملها موضوعات تلك الدراسة أو ترشد إليها أو تؤكد دورها وفاعليتها في الحياة الاجتماعية وواقعيتها والظروف التي يمر بها إنسانها الذي يكيفها ويتخذ منها النموذج والمنطق في النشاط الذي يقوم به ويحاول أن يستند فيه على الأسس المنطقية التي يراها ويتخذ منها المنهج والأسلوب الأمثل في الواقع الذي يحياه ويصور به مداركه وأفكاره وما ينعكس عليها من تيارات في شتى الموضوعات والقطاعات التي يقوم عليها واقع ذلك وما يرتبط به من ماض وحاضر ومستقبل ترى الدراسات المختلفة أهمية المتابعة والتعمق فيه من أجل الوقوف على الحقائق التي تحرك النشاط العام في ذلك الواقع وتحدد ملامح الفكر الذي يناسبه ويؤدي أهدافه ويوضح كل ما يجري فيه من صنوف المعاناة التي يعانيها المفكرون ويترجمها الإنتاج الذي نقف عليه في قوالبه المتعددة التي يؤدي بها ويتناوله فيها الدارسون والمهتمون بكل ما فيه من إمكان وصور ومضامين تؤكد فيه روح الأصالة والعمق أو عدمها، وتجد فيه الدراسات النقدية ونشاطها الميدان الرحب الذي يزيدها فاعلية ويفتح أمامها من المناهج والسبل ما يدفع بها إلى الإفادة في جميع القطاعات التي تعنى بها وتتطرق إلى دراستها وإلقاء الضوء عليها، لأن الدراسات النقدية حين تهتم بالإنتاج الفكري تحاول أن تصل فيه إلى منابعه الأصيلة وتركز على ما فيها من عطاء وتنطلق من ذلك إلى تطوير الأفكار التي تعالج قضايا الآداب والفنون وتساهم في بناء الحياة الاجتماعية مساهمة جادة يرتبط بها الواقع بالماضي، ويقوم بها

الحاضر على مستقبل زاخر بالنشاط الإيجابي الذي يفتح آفاق المعرفة ويوطد أركان الفكر ويمهد لظهور أدب هادف في مضامينه وقوالبه ومعاناته وما ترمي إليه من أهداف.

فالبحث عن الأصالة في الدراسات المعنية بالفكر وآثاره ومظانه ومناهجه ومخططاته في مختلف القطاعات التي يعنى بها الإنسان من الأهمية البالغة لجميع النتائج التي تتوصل إليها تلك الدراسات من جهة، ولتأكيد الخطوات التي يقطعها الأدب في آفاق الإصلاح والبناء من جهة أخرى؛ إذ الأصالة تعني قيام التفكير على أسس واضحة فيها من البواعث التي تدفع بالإنسان إلى آفاق التجديد والاستفادة منه في رحلة الحياة التي يقطعها ويتلمس السبل والوسائل التي تهديه وترشده إلى الغايات والأهداف الحقيقية في حياته الخاصة والعامة على السواء، وفي تأدية ما يشعر به من واجب نحو نفسه ونحو الآخرين الذين يشاطرونه ذلك الواجب والشعور ويترجمونه واقعاً عملياً قائماً بينهم جميعاً.

قال أسامة بن منقذ[1] مستعيداً ذكر الشباب وأيام الطفولة ومتشوقاً إلى الديار التي نشأ فيها ودرج بين عرصاتها:

سقى دارهم هامي الغمام ونور ذاوي الروض فيها
وعاد بها طيب الأماني التي
وغبطة عيش قد تقضت غياطله
وبعض الأماني ضلة وإذا
أواخر دهر كيف تثنى أوائله

[1] الديار والمنازل، أسامة بن مرشد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط1965/1م، دمشق، ج114/2.

ديــار بهــا صــاحبت شــرخ أجــادده طــوراً وطــوراً أهازلــه
أروح إلـــى لهـــو الصـــبا وأغدو علـى ليث كمـي أنازلـه
عهـدت بهـا عـين المهـا دون
أســود الشــرى يلقــى الــردى مــن
وكل أخ بأس كريم تخالـه إذا مــا انتضــى ســيفاً جلتــه
فلم يبق ما كان إلا ادكاره وحسـرة قلـب لا تقـر بـلا بلـه
وكنـت أرى مـا سرّني غيـر ويخطــئ نهــج الحــزم مــن هــو
فمــا كــان إلا الطيــف يحســب فــي
يقينـاً فـإن بـان الكرى بـان باطلـه

ففي هذه القطعة نجد أسامة بن منقذ يتشوق إلى أيام شبابه التي قضاها بين الربوع التي لم يستطع نسيانها ونسيان ما كان يدور فيها من نشاط وأناس، ويبدأ هذه القطعة بالدعاء لأحبابه كعادة عصره الذي كان الشعراء فيه يبدأون قصائدهم بالغزل والدعاء لمحبيهم بأن يكونوا في عيش ناعم وهناء دائم، وأن يعمهم الغيث ليبدلهم من حال إلى أحسن منها، ويذكر أن تلك الديار التي ضمت شبابه وترعرع بها أعادتها إلى ذهنه الأماني الطيبة التي تراوده بين الحين والآخر، ثم إن الأماني في الواقع ليست إلا وهماً، إذ كيف تعود أوائل دهر مرّ وانقضى؟ ورغم ذلك فإنه يستعيدها في ذاكرته ويقرر أنه صحب فيها شرخ الشباب وعبثه ونعيمه وينازل فيها الأبطال ويلاحظ فيها الحسان اللائي دونهن الأبطال المغاوير، كما صحب فيها الفرسان الذين إذا امتشقوا سيوفهم ظنها الناس مجلوة من قبل صياقلتها للمعانها وشدة فتكها ومضائها، ثم يرجع هذا الشاعر من رحلة خياله التي أملتها عليه الذكرى ويلمس واقعه ويقرر أن ما كان لم تبق منه إلا الذكرى والتحسّر، وكان يظن أن ما سرّه لا يزول، إلا أنه تأكد من خطأ هذا الظن لأن الذي يهمل طريق الحزم يخطئه، ولم يبق مع هذا

الشاعر من الماضي الذي تشده ذكراه إلا الطيف الذي يحسب في المنام حقيقة، ولكنه حين يذهب النوم يظهر بطلانه، ويبدو الواقع على حقيقته العارية من الخيال وما فيه من فنون التزيين والتهويم التي يحاول الإنسان أن يفرّ بها من واقعه في بعض الأحيان.

وهذه القطعة يعبر فيها أسامة بن منقذ عن شوقه الشديد لأيام شبابه وما كان يمرح فيه من ديار وربوع ونعيم، وما يحسّ به خلالها من عزة ومنعة وسلطان ويتمنى أن تعود أيامه الماضية، إلا أنه لا يرى فراراً من الواقع الذي يعيشه فيعود إليه، ويؤكد أن ذلك ما هو إلا حلم وطيف خيال لا يلبث أن يزول بقوة الواقع وفاعليته وتأثيره.

والأصالة التي تلاحظ في دراسة هذه القطعة تدور في اتجاهين، أولهما الالتزام القاطع بمنهج العصر الذي كان يدور فيه صاحبها من حيث الصياغة وأسلوب الافتتاح، فإننا نرى في بداية هذه القطعة الدعاء لمن كان الشاعر يتحدث عنهم بأن يسقي ديارهم المطر، وأن ينور فيها الروض لتكون أنساً للقلب ومتعة للنفس وراحة للضمير، كما نرى التعبيرات التي تشبه الحسان بالمها والشجعان بالأسود، والاتجاه الثاني هو صدق العاطفة التي كان الشاعر يبديها من تشوقه وتحسره على الماضي الذي مر، وهو متأكد من عدم رجوعه وعودته ثانياً لتلك العاطفة التي كان وجدانه فيها قوياً يحسّ بها الدارس لهذه القطعة ويلمسها دون أن يلجأ إلى العمق وإعمال النظر.

فهاذان الاتجاهان من الأصالة في هذه القطعة يعطيان للمتأمل في دراسة عصرها صورة حقيقية عما كان يدور فيه من أساليب التعبير الشعري وأنواع العواطف والأحاسيس التي كانت تلامس وجدان أناسه وتدور بينهم في عفوية

وإحساس عميق ودافق، وهذا لا يمنع من الاستفادة من توجهات هذه القطعة في التعبير الشعري المعاصر وفي انفعالاته ومعاناته وشجونه، كما يفتح الباب أمام الدراسات الجادة لاكتشاف الجوانب الأخرى من الأصالة التي تتضمنها هذه القطعة من حيث الموقف الذي يقفه صاحبها، ومن حيث الارتباط بالقواعد والأصول التي تقوم عليها الحياة العربية التي تمثل هذه القطعة لوناً من نشاطها الأدبي، وتصور مسحة عامة من الروابط التي كانت تجري بين أطرافها؛ إذ أن الهدف في كل دراسة جادة هو اكتشاف المزيد من الجوانب التي يستفاد منها في البحث عن الجديد المتطور الذي يستند على أصول ثابتة ومنابع متدفقة تعكس آثارها في كل ما تحيط به من آفاق وترتبط به من جوانب، فالأصالة التي نحس بها في هذه القطعة تجعلنا مشدودين حولها ومتمثلين لها في كل موقف يشبهها.

وهذا هو السبب الذي يفسح السبيل أمام النصوص الجيدة للبقاء والانتشار والاستشهاد، وهو نفسه السبب الذي به تلفظ النصوص الرديئة ولا تجد من يتقبلها إلا في بعض المواقف التي تساق للاستشهاد بها على الرداءة وعدم توفر الأصالة والعمق فيها.

وحين تتوفر الأصالة في النص الأدبي تشد الاهتمام حوله وتجعله مؤثراً وذا دلالة واضحة عميقة، يقول قيس بن ذريح[1]:

وما من حبيب آمن ... ولا ذي هوى إلا له الدهر
كان بلاد الله ما لم تكن ... وإن كان فيها الخلق قفر
وما كل ما منتك نفسك ... تلاقي ولا كل الهوى أنت

[1] أسامة بن مرشد، السابق

ولـولا رجـاء القلـب أن تسـعف

لمـا حملتـه بيـنهن الأضـالع

أقضّـى نهـاري بالحـديث ويجمعنـي بـالهم والليل جامع

فهو هنا يتحدث في أصالة وصدق عما يجيش في نفسه من لواعج الهيام والحب؛ ولهذه الأصالة والصدق أثرهما الكبير في قيمة هذه الأبيات التي يحسّ الدارس لها بمدى ما فيها من عمق وتجسيد لما يحسّ به الشاعر من تباريح الهوى والوجد، وزاد ذلك قوة ما تخللها من حكمة وحديث عن واقع الحياة التي يحياها الناس ويتقلبون فيها، والدهر لهم بالمرصاد لا يفتأ أن يفجعهم بين الحين والآخر.

وفي حديث الشاعر عن نفسه في هذه الأبيات ترجمة لأحاسيس أضرابه من أصحاب الهوى الذين يعانون ويلات الصبابة ويكابدون آلام العشق، فأصالة هذه الأبيات نابعة من أنها تعبير عن النفس البشرية التي تتيه في بحر الوجد وتلاقي في سبيل ذلك من العناء ما ينغص عليها صفو العيش ويكدر عليها جو الاستقرار، فهو في قلق متواصل يقضي نهاره بالحديث وبالمنى، وليله بالهم والكدر، ويتعلق أمله بأوهى الأسباب، ولولا ذلك لما حملت قلبه ضلوعه.

فالأصالة والبحث عنها من الميزات الأساسية التي يكون مردودها فاعلاً في الحياة الاجتماعية والتأكيد على ما فيها من عناصر العطاء التي تفتح الآفاق الواسعة أمام الدارسين والناقدين والمهتمين بقضايا الفكر وتقدم المجتمع وتطوير أساليب الحياة ومناهجها لتكون ميسرة سهلة أمام الناس جميعاً.

5 - والربط بين التراث والفكر المعاصر الذي يدور فيه الإنسان ويتناول به قضايا الواقع الذي يعيشه ويتقلب فيه في شتى المفاهيم والأشكال والصور أمر بالغ الأهمية ويتطلب الاهتمام الكبير من الذين يعانون الفكر وقضاياه ويهتمون بما يمر به من مراحل وخطوات وحلقات؛ إذ أن فصل الفكر عن التراث يعني عدم[1] الوقوف عن الجذور الأصلية لهذا الفكر ومصادره ومكوناته الحقيقية التي تعكس ما فيه من قدرة وإمكان في التأثير على الواقع والمستقبل وما يتأسس عليهما من مفاهيم وطرح لمختلف المواقف والقضايا والمشاكل والحلول المتعلقة بها والتي يزيدها الوقوف على الروافد الأصلية للفكر وضوحاً وفاعلية.

وهذا لا يعني التغني بالماضي واجتراره وتكرار ما فيه من قيم ومضامين لا تطابق الواقع المعاصر الذي يتقلب فيه الناس بتصورات وأفكار وقيم مختلفة تمام الاختلاف ومتباينة كل التباين، وإنما يعني أن الأفكار التي تحرك الحياة المعاصرة ليست واردة من فراغ كما يقولون، وليست وليدة الصدفة والعشوائية، ولكنها نابعة من أصول وماض، وهذه الأصول وذلك الماضي ليس شيئاً سوى التراث في حقيقة أمره وجوهر أصله.

ومن هنا كان التوجه لهذا التراث بالدراسة والفهم والتحليل والمتابعة والمحاولات الجادة للوقوف على ما حواه من أفكار ونظريات وملابسات وظروف وتيارات في جميع ما يرتبط بالحياة الإنسانية من نشاط في عالم المعرفة وميادين الفكر والتصرف والأخذ والعطاء والسلوك والاعتقاد وسواه من الأسس والعوامل التي تقوم عليها التفاسير المختلفة لكل ما يدور في الحياة والواقع من قواعد وصور وألوان تجد فيها الدراسات في شتى المجالات التي

---

[1] انظر حول التراث السابق، ص87.

تدور فيها وتتعلق بها المادة الخصبة التي توقفها على الحقائق الثابتة والاعتبارات المتغيرة التي لا تكسبها أصالة فحسب، بل تؤكد دورها الفاعل في مختلف قضايا الحياة المعاصرة بجانب ذلك، وتمهد السبيل أمام الباحثين والمعنيين بالدراسات الأدبية والفنية والاجتماعية وغيرها للوقوف على المؤثرات الحقيقية التي تعج بها تلك الدراسات وتتطلب الرجوع إلى منابعها الأصيلة التي انحدرت منها حتى تكون الرؤية فيها واضحة جلية في الفصل والموازنة بين جميع ما يدور فيها من موضوعات لابد للفكر فيها من نشاط وحركة وتحليل.

فارتباط التراث بالفكر ودراسة مراحله من القضايا الأساسية التي يعالج بها موضوع التطور ومواكبة التفكير المعاصر لمتطلبات الحياة وتطورات التقنية والاكتشافات العلمية التطبيقية فيها؛ ذلك أن التفكير في جميع ما يعن للإنسان في كل عصر من مشاكل يفرض عليه الرجوع إلى مختلف النظريات والمحاولات الجادة لعلاجها بالأساليب والوسائل المتشابهة والممكنة التطبيق.

وهذا هو نفسه ما يحويه التراث ويشمله فيما يشمل ويحوي من إمكان وصور لا يجد الإنسان في الابتعاد عنها والانفصال منها المندوحة التي تتيح له السبل البديلة التي تمكنه من المقارنة وإلقاء الضوء على كل ما يحويه واقعه من ألوان في النشاط الأدبي والفكري والاجتماعي وسواه، فالدراسة التي لا تهتدي بما في الفكر من نظريات وفروض ومقارنات واقتباسات ونتائج لا تعد في حقيقة الواقع دراسة جادة متعمقة بقدر ما هي سرد غير مستند على المنطق والتوثيق الذي تتطلبه القناعة العلمية الهادفة التي أصبحت من مظاهر العصر الحديث ومسلماته التي لا تحتمل المناقشة والأخذ والرد.

فالتراث بمعناه الشامل الواسع الذي يضم في طياته النظريات والأفكار والمواقف ومنعطفات التحول التاريخي والفكري للإنسان مادة أساسية للنشاط الفكري.

ومن الأصالة لذلك النشاط الرجوع إليه والاهتداء بما فيه من محتوى ومضمون، وهذا لا يعني إطلاقاً التغني بالماضي وتمجيده، ولكنه يعني الارتباط بأصول الأفكار التي يعايشها الإنسان ويحرص على معرفة أبعادها وما فيها من أسباب قريبة وبعيدة يستطيع البحث أن يستخلص منها المسارات والمنعرجات التي يسير فيها الفكر في كل عصر وبالتالي يستطيع الإنسان المهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية والفنية والأدبية أن يقف على التيارات المختلفة التي لها دورها الفاعل في الحياة المعاصرة، ويعدها الدارسون من مظاهر التجديد والتطور الذي يمر به العصر الحديث في كل مجال من مجالات الفكر والنشاط الإنساني في آفاق الحياة بصورة عامة.

فقضايا الحياة المعاصرة مهما تعقدت واختلف الرأي في حلولها وتبسيط ما فيها من مشاكل فإنها لا تعدو أن تكون انعكاساً لنشاط الإنسان المعاصر الذي يشده الفكر الأصيل الذي يبني على الدقة والملاحظة والاستنباط، وأهم مصدر لذلك كله هو التراث بما فيه من أساسيات وما يشمله في باطنه من مفاهيم.

مات أخ لعمرو بن هند فعزاه أكثم بن صيفي[1] أحد حكماء العرب المشهورين في العصر الجاهلي، وقد ورد في تلك التعزية قوله: «إن أهل هذه الدنيا سفر لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك،

---

[1] صالح بن عبد القادر وآخرون، الدراسات الأدبية، اللجنة الشعبية العامة للتعليم، 1993م، ص137.

وارتحل عنك ما ليس يرجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام، فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته وطالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدري من أهله وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله».

ففي هذه القطعة نجد أكثم بن صيفي يعظ معزيه ويبين له أن أهل الدنيا على سفر وفي رحلة لا يحطون رحالهم إلا في الدار الأخرى، وأن القدر لا مفر منه ومن يرحل للدار الآخرة لا يعود إلى هذه الدنيا، وأن الناس المقيمين في هذه الدنيا راحلون عنها لا محالة؛ لأن الموت نهاية كل حي، ثم إن الدنيا في إجمالها تنحصر في أيام ثلاثة، هي أمس الذي مضى وهو عظة يتعظ بها الإنسان ويتخذ منها العبرة في أن الزمان لا يدوم ولا يتوقف وبذلك هو الشاهد العدل الذي لا يحتاج معه إلى بينة ودليل ومنه تكون الحكمة ويكون التفكير والقياس السديد، واليوم هو غنيمة يغتنمها الإنسان للعمل الذي يعود عليه بالفائدة في هذه الدنيا وغيرها وهو مثل الصديق الذي يزورك ولم تزره بعد غيبة طالت وستسرع رحلته عنك مهما طال مكوثه معك، وغد لا تدري من أهله لأنه في علم الغيب وسيأتي لا محالة فإن لم تدركك المنية وجدك، وفي جميع الأحوال يحسن بالإنسان العاقل أن يسلم أمره لله خالقه وخالق الدنيا بما فيها الماضي والحاضر والمستقبل، وعند التأمل ندرك أن لنا أصولاً انحدرنا منها وقد مضت إلى حالها ونحن فروعها، فلابد أن يدركنا ما أدركها من الفناء، ثم إن المصيبة العظمى التي تصيب الإنسان هي التي لا يتعظ بها وما تخلفه في

نفسه من سوء، والخير دائماً تتجه إليه النفوس الكريمة وتسعى إليه وتأمل تحقيقه في المحيط الذي تدور فيه وبين الناس الذين يلتفون حولها، وفي موازين التقويم الأخلاقي أن من يقدم الخير ويعطيه للناس ويسعى في سبيله ويحض على التشبث به في كل حين وفي جميع الأحوال هو أفضل من الخير لأنه عنصر مهم في الحياة الاجتماعية يحمل بين جنبيه قلباً طاهراً وضميراً حياً، ويحرص على الصالح العام الذي يعود عليه وعلى مجتمعه الذي يحتويه بالفائدة العميمة التي يسعد بها الناس جميعاً، وأما الشر الذي هو الفساد وموت الضمير والسعي في الأرض بالخراب فإن النفس الإنسانية تنفر منه وتحاول بطبيعتها الابتعاد عنه؛ لأنه لا يعود على الأفراد والجماعات وما يضمها من بيئات إلا بالضرر، وأسوأ من الشر في الموازين الأخلاقية فاعله والحاض عليه والسائر في سبيله وما يؤدي إليه من ضلال وفساد في النفوس والذمم والأخلاق، والإنسان وهو يقطع رحلة الحياة له تمييز بين الخير والشر عليه إن أراد السعادة أن يفعل الخير ويتجنب طريق الشر مهما كانت المغريات؛ لأن الخير وما يترتب عليه من نتائج إيجابيه في واقع الإنسان الذي يمارسه وفي مستقبله منهج واضح الصدق، وأما الشر فإنه بعكس ذلك لا يجر إلا إلى الخسران والسلب وذلك ما لا يليق بالإنسان المفكر أن يسلك سبيله.

وحين نتأمل في هذه القطعة نجدها تصف الدنيا وأهلها بأنها دار زوال وأهلها راحلون، ثم تفصل الأمر في حكمة وأسلوب واقعي يسلم العقل بتقسيماته فما الدنيا إلا ماض وحاضر ومستقبل.

وهذه هي الحقيقة التي نلمسها ونسلم بها، ومتى كانت كذلك فإنها غير دائمة ولا تساوي شيئاً في النهاية، فحسن التذكير بفعل الخير والتنفير من الشر والشكر على النعمة والتسليم لخالق ذلك كله.

فهذا الأسلوب الذي سلكه أكثم بن صيفي يدل على بعد الرؤية وقوة الإدراك، ومنه يستطيع المتأملون أن يصلوا إلى المناهج المنطقية في التدليل والإقناع على وجهات النظر التي يسلكونها ويتخذون من واقعهم الذي يعالجونه مادتهم التي ينطلقون منها كما فعل أكثم هنا في التدليل على وجهة نظره بأن الدنيا دار فناء وأن الأحياء فيها مسافرون لا يحطون رحالهم إلا في غيرها، وأن فعل الخير هو الباقي وما عداه فإنه فناء وزوال.

وهذه النظرة المنطقية التي يقدمها أكثم بن صيفي هي نوع من التفكير الصادق والحكمة والموعظة التي تستند على الواقعية التي يعيشها الإنسان في كل عصر، ووضع من أوضاعه التي يمر بها وخاصة المواقف المؤثرة مثل هذا الموقف الذي يقدم فيه أكثم التعزية لشخصية لها قوة وسلطة ونفوذ بين العرب الذين يحترمون ذلك كله في ذلك العصر الذي لم يكن إلا للسلطة والجاه والنفوذ فيه السلطان.

ولعمق هذه النظرة ومنطقيتها كان لها الأثر العميق في ذلك الموقف حتى تناقلتها الألسن ورواها الرواة في مختلف العصور التي مر بها تاريخ الأمة العربية، وقد كانت مثلاً حياً للتفكير العربي الأصيل الذي يدلف للحقيقة دون أن يتكلف من الأساليب المعقدة شيئاً ودون أن يلجأ للفلسفة البعيدة والمقدمات الطويلة المملة التي تخفي الحقيقة ولا تجليها.

وهذه القطعة ليست إلا لوناً من ألوان التراث التي يعج بها الفكر العربي وتراثه الواسع العريض الذي يجد فيه الإنسان وحضارته كل النماذج والصور التي تثري ما يرميان إليه من أهداف في الدراسة والبحث والتأمل والتسجيل والتدليل وفتح الآفاق الواسعة العريضة أمام الفكر الإنساني ونشاطه وقطاعاته

المختلفة في كل شأن من شؤون الحياة، وفي كل خطوة يخطوها الإنسان ويتخذ منها العبرة والموعظة والقاعدة والقياس.

فالربط بين هذا التراث وما حواه من أبعاد في كل شيء وبين الفكر، سواء كان معاصراً أو سواه شيء له دلالته البعيدة وأصالته الكبيرة التي توسع آفاق التصور وتؤكد الصلات الأكيدة بين حلقات الفكر الإنساني مهما تباعد بينها الزمن ومهما تباينت فيها الإسباب والدواعي والمؤثرات.

ولا يستطيع الفكر المعاصر أن يقدم من أنواع النشاط الإيجابي في هذا الواقع الذي تمر به البشرية وهي تلامس التحول الجذري في كل الاتجاهات التي تتوجه إليها إلا بالرجوع للتراث واستلهامه ومعرفة ما فيه من عوامل الإيجاب وأسبابه وربط ذلك كله بهذا الواقع الذي لا ينفك المهتمون بالفكر ونشاطه أن يعالجوه ويضفوا عليه من الجديد وألوان المقارنة ما يعد تطويراً ودفعاً إلى الأمام.

والتراث العربي بكل ما حواه من ذخائر وما سجله من أحداث ومواقف مادة حية لربط الفكر الإنساني المعاصر بكل ما يحتاجه من أنماط الاقتباس والموازنة التي تمده بالنشاط والفاعلية والإيجاب في شتى الآفاق والميادين التي يطرقها ويتسلل إليها.

6 - وفي الرجوع لمصادر التاريخ والتركيز على جوانب التراث فائدة كبيرة يحصل عليها الإنسان وهو يحاول أن يتتبع جذور المعرفة التي منها يستطيع أن يقف على معالم الثقافة والحضارة والتفكير الإنساني الأصيل في شتى المراحل التي مر بها ورسم بها صور الحياة ونماذج السلوك والتفاعل بين الإنسان والطبيعة ومظاهرها ومشتملاتها وما خلفه من آثار أخذ الإنسان يفسر

مدلولها ومحتوياتها ليقف على القواعد والأسس التي كان المجتمع الإنساني يرى جوانب الخير والشر بواسطتها ويحاول في المراحل المتعددة من مسيرته أن يطبقها باعتبارها قضية لا تحتاج للمناقشة ومزيد من الدراسة والبحث.

ومن خلال ذلك التطبيق يجد كثيراً من الجزئيات التي لم تكن لتخطر له على البال ويتحتم عليه أن يعنى بها وبما فيها من إمكان حتى لا تقف عائقاً وسداً منيعاً في سبيل ما يمكن أن يصل إليه من نتائج تعطي لدراسته حجمها وتؤكد لها قيمتها على ضوء ما في الفكر من واقع وتطوير يستلهم المناهج العلمية التي تمهد للدارسين السبل الواضحة لفهم وتحليل المواقف والظواهر والأسباب التي يرونها في الحياة الاجتماعية التي ينتمون إليها وهم يعالجون مشاكل البيئة وظروفها وما يجري فيها من ألوان التصريف الذي تأخذ منه المعاناة التي يترجمها الإنتاج الفكري مسارها وعناصرها الأساسية التي تعتمد عليها ومنها يكون تنويعها وتأثيرها وعمق أبعادها التي تستهدف إصلاح الواقع الاجتماعي الذي يتقلب فيه الناس إحساساً ومشاعر وسلوكاً، وهو الشيء الذي يهم الدارسين والمفكرين أن يلاحظوه ويركزوا عليه انتباههم حتى يصلوا إلى الدوافع والأسباب الحقيقية المؤثرة في ذلك الواقع والتي بدون معالجتها وفهم أبعادها فهماً حقيقياً لا تستطيع الدراسة أو التحليل أن تصل إلى شيء مما تحاول أن تمد له يد الإصلاح والتطوير في ذلك الواقع.

وهذا يعيدنا إلى ضرورة الرجوع إلى ما في التراث من أشباه ونظائر، وما في التاريخ من كوامن استطاع الإنسان في بعض مراحل حياته أن يقف على شيء منها بالمصادفة أو القصد؛ لأن التراث لم يكن إلا قطعة من التاريخ، فالرجوع إلى كل منهما معناه استلهامهما معاً والأخذ منهما معاً بأسلوب التضمين والتبعية المباشرة التي تدل على أن كلاً منهما متمم للآخر.

وبدون ملاحظته واعتباره لا يتم الوصول إلى الحقيقة التي يهدف إليها الإنسان مهما بذل من الجهود والمحاولات في جميع المجالات التي يتطرق إليها بالدراسة والمقارنة والاستقصاء والتحليل.

وهذا المفهوم للتراث والتاريخ يعطينا الصورة الواضحة عن المدى الذي تتحتم علينا مراعاته ونحن ندرس التراث وتأثيره والمجالات التي تتطلب الرجوع إليه في التحليل والمقارنة.

وبتحديدنا لذلك المدى وجوانبه نستطيع أن نربط الأطراف التي نركز عليها الاهتمام ومنها تكون الجهود والمحاولات التي نبذلها في تقديم الوسائل المؤثرة في الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية قائمة على الواقع وما فيه من معطيات تساهم حتماً في بعث النشاط والفاعلية بين البيئات التي يشملها ذلك الواقع بكل ما يحيط به من اعتبار.

وليس معنى التاريخ والتراث هنا هو مجرد التعرض للحوادث وسردها وبيان عصورها وأزمنتها أو حصر المحتويات التي أحاط بها وسطرها أمام العيان، ولكن معناه سبر تلك الحوادث والمحتويات والتنبه الكامل لما فيها من دلائل لا يدل الظاهر عليها في الواقع وحقيقته.

ومن هنا جاءت الروايات المتعددة والمختلفة حول أحداث التاريخ، وجاءت الاحتمالات متباينة حول تفسيرات التراث.

ولم يكن للدراسة في هذه المجالات موقف محدد، وكان على الباحث والمفكر أن يتروى كثيراً ويتأمل طويلاً في جميع القضايا التي لها صلة بهذا

الموضوع الذي لاشك في أن الحكم عليه بالظاهر مخالف للحقيقة والصواب، ومجانب للمنطق وقواعده.

فالاهتمام بالتاريخ والتعلق بالتراث شيء مهم وأمر عادي، ولكن الأهم من ذلك وأعمق هو التحليل الدقيق لكل ما يحويانه من مضمون وعدم التسليم المطلق بكل ما فيهما من ظاهر يخفي وراءه من المعاني والحقائق ما قد يكون عكسه.

هذه الحقيقة لا ينبغي أن تزهدنا في عموم ما في التاريخ والتراث من ظواهر، بل هي التي يتحتم علينا أن نعتبرها أثناء تعاملنا في هذا المجال كي تكون الحلول التي نطرحها في شتى قضايا الحياة المعاصرة قائمة على المنطق والنظر العلمي الدقيق الذي لا يأخذ الأمور على علاتها بل يحاول أن يستبطن كل ما فيها من احتمال قد يدفع إلى تغيير وجهات النظر حولها وقلب موازين أحكامها رأساً على عقب.

ومن هذا المنطلق كانت وجهات النظر عند النقاد والباحثين في قضايا الفكر ومعاناته متباينة ومختلفة؛ لأن بعضها يركز على الظاهر الذي يصادفه في نماذج وصور تلك القضايا، ولا يحاول أن يتعمق في أكثر من ذلك، وبعضها لا يقف عند ذلك الحد بل يغوص فيما وراء ذلك الظاهر من احتمالات وتصور، ثم يعالج ما يصادفه من قضايا ونماذج على ضوء ذلك، ويكون مقتصداً في تقويمه وبحثه وغالباً ما تكون نظرات الفريق الأول سطحية في معالجتها وأحكامها، ونظرات الفريق الثاني عميقة في معالجتها وأحكامها وتناولها للقضايا التي تتعرض لها بالبسط والتمحيص.

وفي جميع الظروف لابد من الاهتمام بهذين الاتجاهين في الدراسة، ولابد أيضاً من فهم ما يتضمنه التاريخ والتراث حول مفاهيم الحياة وأساليب التصرف فيها بكل ما تحمله من مضمون.

يقول ابن زيدون[1] من قصيدة له وهو سجين يتلمس العفو من أبي حفص بن جهور الذي أوغر صدره عليه من قبل الوشاة فزج به في غياهب السجن:

ما على ظني بأس ... يجرح الدهر ويأس
ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال يأس
ولقد ينجيك إغفال ... ويرديك احتراس
والمحاذير سهام ... والمقادير قياس
ولكم أجدى قعود ... ولكم أكدى التماس

ثم يقول فيها:

نلبس الدنيا ولكن ... متعة ذاك اللباس
يا أبا حفص وما سا ... واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في ... غسق الخطب اقتباس
لا يكن عهدك وردا ... إن عهدي لك آس
وأدر ذكرى كأسا ... ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالي ... إنما العيش اختلاس

ابن زيدون هذا شاعر وأديب من شعراء الأندلس الذين تقلبوا في المناصب السياسية في عصرهم، وقد كانت له قدم راسخة في قول الشعر والكتابة، وقد

---

[1] المختار من التراث العربي من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج7، محمد رضوان الداية، وزارة الثقافة، دمشق/ 1965م، ص133.

مثل شعره الصورة الحقيقية لشعر الأندلس ولم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب كما فعل غيره من معاصريه، مثل ابن هانئ، وكان على دراية واسعة بالثقافة العربية التي كان لها أثر كبير في شعره ونثره، وميزه عن معاصريه أسلوبه وأصالته التي عرف بها في فنون القول التي عالجها وعني بها.

وفي هذه الأبيات التي بين أيدينا تتجلى الحكمة والنظرة العميقة والبعيدة في فهم الحياة وتقلبات الدهر وأحداثه وما فيه من عبر، فالدهر يجرح ويأسو فهو يصيب الإنسان بالشدائد وبالآلام والمآسي ويفرحه بالمسرات والنعم، وتمر بالإنسان فيه لحظات وهو يسعى لتحقيق آماله وطموحه يطغى عليه فيها القنوط ومع ذلك يتغلب عليه ويستطيع أن يحققها، ويحاول الإنسان أن يأخذ الحيطة من المحاذير فتوقعه فيها وينجيه الإغفال عنها، وكثيراً ما أصاب بعض الناس بقعودهم عن السعي كثيراً من المكاسب والمغانم، وخسر بعضهم الآخر بالكد والتعب، والإنسان يحرص على الدنيا ويتلبس بما فيها للمتعة والتفكه، والشاعر يستعطف ابن جوهر بالثناء عليه وتذكيره بما كان معه من علاقات طيبة ينبغي أن يغتنم معها صفو العيش لأن العيشة الصافية في الدهر تؤخذ خلسة.

وحين نأخذ هذه القصيدة بنظرنا بوجه عام نجدها تستلهم التاريخ وتتوخى ما في التراث من فائدة وحكم لها دورها الكبير في حياة الإنسان وسلوكه وعلاقاته مع الآخرين، ونجد لثقافة ابن زيدون في هذا الاتجاه الأثر البالغ الذي يجعلنا ننظر لهذه الأفكار بما فيها من مضامين جعلتها موطناً للتأمل والتفكير، ثم حين نوازن بين هذه القصيدة وغيرها من القصائد التي تماثلها في الهدف والمضمون ولكنها لا تستلهم التراث ولا تعنى بما في التاريخ من طائل ندرك البون شاسعاً ونحس بالفروق الواضحة التي تدفعنا إلى الحكم بالأصالة على

هذه القصيدة التي تحمل من ملامح الحقيقة معالم الماضي والحاضر وعلى عدمها في تلك التي لا تحمل من الحقيقة أي ملمح.

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين الإنتاج الذي يتوخى المناهج المثلى في الدراسة والبحث، وبين غيره من الإنتاج الذي يسير على منهج واضح. فانعكاس التراث وآثاره على النشاط الفكري شيء ظاهر لا جدال في أهميته، ودراسة الأدب على ضوء ما في التاريخ والتراث من ظاهر وباطن منهج واضح في الوصول إلى الحقيقة والكشف عن جميع جوانبها التي تزيل الغبار عما علق بالفكر من عوالق يرى النقد ضرورة الابتعاد عنها والتخلص مما فيها من انعكاس وتأثير في الإنتاج الفكري الذي يتصدى لمشاكل الحياة الاجتماعية وما يجري فيها من صور استلهام التاريخ والتراث في الأدب والفن وغيره.

وهذا لا يعني التقيد المطلق بالقاعدة أو الخروج عن المعقول، ولكنه يعني الالتزام بكل ما يمليه العقل من مفهوم سواء كان لذلك صلة بالقاعدة العربية أم لا؛ لأن ما في التاريخ والتراث من أبعاد وعمق حلقة متصلة بالعقل والتفكير الإنساني مهما حوت من تنوع وتعدد واختلاف في آفاق الإنتاج والمعاناة وميادين النشاط التي يعنى بها الإنسان.

فالتاريخ والتراث اللذان يتوخاهما الدارسون والمفكرون وهم يزاولون الحقائق في إنتاجهم ومعاناتهم نوع من التصرف والسلوك المنهجي الذي يعطي للدراسة حجمها الذي ينبغي أن تفهم به ويتفهمها به الباحثون الذين يجدون فيها النظرات والحلول الإيجابية للمشاكل التي يحسون بها في آفاق المعرفة ومعاناة الإنسان إذ يوجه الدارسون إلى هذا الجانب في تفسيرهم للظواهر التي يعنون بها في مختلف قضايا الفكر فإنهم بذلك يستطيعون أن يضيفوا الجديد من

معاني الفكر وأساليب التأمل التي تقدم للإنسان في كل موقع ومجال التصورات التي منها يأخذ سبيله التي يرتضيها في فهم كل ما يعترضه من قضايا ومشاكل في الواقع الذي يحياه ويعايشه ويتحتم عليه أن يساهم في تطويره ودفعه إلى الأمام بخطوات واثقة وإيجابية.

5 . الدارسات الأدبية والواقع:

1 . لا تستطيع الدراسات المعاصرة في الأدب الحديث أن تكون بمعزل عن واقع ما يجري في الحياة من جديد مبتكر، في آفاق المعرفة ومجالات العلم وميادين التطور والتحديث؛ لأن الأدب في واقعه هو المحرك الفعلي لمختلف ألوان النشاط في الحياة بكل ما فيها من مدلولات ومفاهيم.

والدراسات التي تدور حوله وتحاول أن تمده بالفاعلية والنشاط ومواصلة العطاء، إن لم تتركز على المنطلقات الأساسية التي يقوم عليها ومنها ينطلق إلى آفاق الحياة ومجالات النشاط التي تدور فيها، لا تستطيع أن تقدم شيئاً من الابتكار والجديد، ولا تفيد في ميادين الفكر أكثر من التكرار المعهود الذي عرف في بعض المراحل التي مر بها الفكر والأدب، وتركز فيها الاهتمام الأدبي على الجانب الفني وتذوقه دون الاهتمام بالواقع الذي كان يجري فيه وبالحياة التي كان يعنى بها ويعالج قضاياها ومشاكلها وما يدور فيها من أنواع التفكير وصنوف النشاط، الذي كان الإنتاج الأدبي يجسدها ويبرز ما فيها من مناحي الإيجاب والسلب.

فالدراسات الأدبية المعاصرة من أهم سماتها التركيز الدقيق على واقع الحياة ومحاولة الوقوف على ما فيها من عناصر، سواء منها ما كان في

الجانب الإيجابي أو الجانب السلبي حتى تستطيع أن تفتح السبيل أمام الدراسات التطورية فيه، وأمام الدراسات النقدية والتقويمية التي تمده بالفاعلية والنماء وتجعله قريباً من مبتكرات العصر ومكتشفات العلم وتطوراته المختلفة التي لابد من متابعتها وفهمها والتفاعل معها، حتى يستطيع الإنسان المعاصر أن يعايش مفاهيم الحياة وما يجد فيها من جديد، في شتى ما يعنّ له من هموم وما يحدث أمامه من أحداث ونماذج، في الفكر والفن والأدب، ومختلف ما تشمله ضروب الحياة من أنواع أو ألوان لا يتم النشاط الحقيقي للأدب والفكر والفن إلا بها وعلى ضوء ما فيها من إمكان، نلاحظه في القصيدة والقصة والبحث والمقالة والخاطرة وسواها، ونلمس آثاره في المسحة التي نقف عليها، من حيث العمق والأصالة والسطحية في الموضوعات والمجالات التي تعنى بها أجناس الأدب وأنواعه، وتهتم بما فيها من أبعاد.

واهتمام الأجناس الأدبية وأنواعها بما في الحياة من أبعاد يتركز على ما يجري في واقعها من نشاط وفاعلية، ويبرز ما فيها من عناصر لها الأثر الكبير على النشاط الفكري وتطوير آفاقه التي يطرقها الإنتاج الأدبي ويحاول أن يؤكد ما فيها من معطيات تراها الدراسات النقدية والمقارنة من الجوانب المهمة والأساسية في فهم الأحكام التي تقررها أو تراها، ومنها تنطلق الاعتبارات التي يكون لها الدور الكبير في فهم وتفسير المضامين الاجتماعية وتحليل ظواهرها التي تشد انتباه الباحثين والدارسين والناقدين، وتضع أمامهم كثيراً من التساؤلات التي تدفع بالتفكير إلى أهم الآفاق التي تثري النشاط الأدبي وتعمق أصالته وتوضح التيارات المؤثرة فيها، وما فيها من جذور هي الجوانب المهمة في فهم الأعماق التي ينطلق منها التأثير الحقيقي في الحياة الاجتماعية وواقعها الذي تدور فيه، وفهم الجذور التي تنطلق منها التيارات المؤثرة في

الحياة الاجتماعية والنشاط الفكري والأدبي والفني وفيها من المناحي والمنعرجات التي توليها الدراسات الأدبية وما فيها من إمكان عنايتها الكاملة التي تعكس مختلف الصور والنماذج الأدبية التي تؤكد القيمة الفعلية للنشاط الأدبي في الحياة الاجتماعية وما يدور فيها من تفاعل.

وهذا الاتجاه المتعمق في الدراسات الأدبية هو الذي ينصب عليه الاهتمام في البحث والتأمل والمقارنة، حيث إنه الاتجاه الجاد الذي يستطيع أن يمكن الدارسين والباحثين من الوقوف على كثير من الحقائق التي تراها الدراسات بمختلف اتجاهاتها وألوانها وتياراتها من الآفاق الحية التي تؤكد الأدوار الفاعلة في الأدب، ونشاطه وآثاره وانعكاساته في الممارسات التي يعايشها الإنسان ويتذوق بها الأدب وفنونه، وما تفرزه من صور وألوان في اللغة والخيال والمضامين والعادات والتقاليد، وما يجري في البيئات والأوساط الاجتماعية التي يضمها المجتمع في أي وضع من أوضاعه، وفي أي واقع يمر به وهو يشق سبيله في الحياة التي لا تفتأ تتحرك وتتفاعل وتقدم المزيد من صور النشاط والتفاعل، وتدفع بالدراسات إلى التعلق بها ومتابعتها والأخذ من كل شأن منها بطرف يضفي عليها التحرك والفاعلية.

وفي كل عصر من التاريخ تجرى لمفاهيم التجديد والتطور وتفسير الواقعية مضامين ومعان يتعارف عليها الناس ويعدونها المنطلق الذي ينبغي أن يتركز عليه الاهتمام، ويتوخاه الإنتاج الأدبي والفكري وسواه، وذلك مثل وصف الطبيعة أو كتابة الرسائل الإخوانية أو غيرها أو وصف التطورات التي توصل إليها الابتكار العلمي.

2 - يقول بعض الشعراء[1] في بداية العهد الحديث واصفاً قطاراً:

صـفحة البـرق أومضـت فـي أم شـهاب يشـق جـرف الظـلام
أم سليل البخـار طـار إلـى فاعيـــاً ســـوابق الأوهـــام
مـر كـاللمح لـم تكـد تقـف علـى ظـل جرمـه المترامـي
أو كشـرخ الشـباب لـم يـدر تـولى فـي يقظــة أو منــام
لا يبـالي السـرى إذا اعتكـر وخانـــت مواقـــع الأقـــدام
يقطع البيد والفيافي وحيداً لم تضعضعه وحشة الإظلام
لـيس يثنيـه مـا يـذهب دمـاغ يـــوم الهجيـــر بـــين المـــوامي
لا ولا يعتريـه مـا يخـرس فـي الزمهريـر بـين الخيـام
هائمـاً كـالظليم أزعجـه وراعتـه طائشـات السـهام
فهـو يشـتد فـي النجـاء حيث ترقـى بجانبيـه المرامـي
يـا حديـداً ينسـاب فـوق كانسياب الرقطاء فوق الرغام
قـد مسـحت الـبلاد شـرقاً بـــذراعي مشـــمر مقـــدام

فالشاعر في هذه القطعة يصف القطار بأنه مثل صفحة البرق في السرعة، وهو سليل البخار الذي كان قمة الكشف العلمي في بداية العصر الحديث، مر كلمح البصر لم تكد تقف العين على ظل جرمه الكبير، بل مر مثل شرخ الشباب لم يدر صاحبه مر به في اليقظة أو في المنام، وهو لا يبالي المسير في الليل ويقطع الصحاري الموحشة وحيداً لا تؤثر فيه وحشة الظلام، ولا يثنيه عن سيره الحر الشديد بين رمال الصحاري، ولا يعتريه من الزمهرير الذي

---

[1] هو حافظ إبراهيم، جواهر الأدب السابق، 2/366.

يخرس النابح بين الخيام شيء، بل هو هائم مثل ذكر النعام الذي أزعجه الصيد، فهو يشتد في السير وهو حديد يجري فوق قضبان من الحديد، وقد مسح الأرض طولاً وعرضاً.

فهذا الاهتمام بوصف القطار ومحاولة بسط حقيقته بأنه من حديد ويجري فوق حديد بفعل البخار ما هو إلا تجاوب لما كان يدور بين الناس من إحساس بالتقدم العلمي وآثاره وفوائده التي أصبح الإنسان يطبقها ويستفيد منها، ثم هو في الوقت نفسه تعبير عن المفاهيم التي كان الناس يرونها تفسيراً للواقعية التي يتقلبون فيها.

ورغم أن هذا الوصف في واقعه لا يؤكد الاستجابة الكاملة لما كان يدور في الحياة العامة من مفاهيم وتطورات وتفاعل مع النهضة التي كان المجتمع العربي يشرئب إليها، فإنه في إطاره العام ترجمة مبدئية لما كان المجتمع العربي يتطلع إليه في بداية هذا العصر، ونقل للصورة التي كان الناس يرونها للتقدم في مجالات العلم والتقنية التي تطورت وتقدمت وتوسع الإحساس بها وبتفسيراتها ومفاهيمها وأهدافها وعواملها ومعانيها.

وإذا كان هذا الوصف في الوقت الراهن لا يقدم الانطباع والصورة الواضحة التي تعطي المصداقية الصحيحة عن التقدم الذي استطاع الإنسان أن يصل إليه، فإن ذلك لا يعني أنه في حينه لم يقدم شيئاً، بل الأمر بعكس ذلك تماماً؛ إذ أنه في بداية هذا العصر ولعدة أسباب كان النموذج الذي يحكي ما في الحياة من تقدم وتطور وفاعلية.

الفصل الرابع

ترجمة المعاناة الأدبية والتنوع في المناهج وتوجهات الفكر العربي

1 . أساسيات النص الأدبي:

1 . ومن هذا الجانب فإن النص الأدبي إذا أريد تقويمه على أساس صادق وصحيح لابد[1] من تفسيره وارتباطه بعصره وواقعه الذي قيل فيه حتى يعرف وزنه ودوره الذي قام به، من حيث تصويره للموضوع الذي يعالجه من جهة، وللحياة الاجتماعية التي كان يدور فيها ويعنى بقضاياها ومشاكلها ومفاهيمها من جهة أخرى؛ لأن فصل النص الأدبي عن واقعه وما يجري فيه من مصطلحات ومضامين لا يمكن الدارسين من فهم حقيقته والوقوف على أصوله ولا يعكس الصورة الحقيقية لما يكمن في ذلك النص من ميزات وظلال يستطيع بها أن يغوص في أعماق القضايا والمشاكل والموضوعات والتيارات التي يمر بها الفكر ويتلون بها العصر، وتعد الأساس الذي يقوم عليه التقويم والموازنة والدرس.

وهذا الاعتبار يؤكد لنا ضرورة الوقوف على فهم العصر الذي قيل فيه النص الأدبي الذي نحاول دراسته وتقويمه وتحليله، ويحتم أيضاً على الباحثين أن يعنوا بما في ذلك العصر من عادات وتفسيرات وتقاليد تدور في الواقع الاجتماعي الذي يحويه وتلونه الحياة العامة بما فيها من صور وأنماط ونشاط أدبي وفني وسواه، مما تعده الدراسات التي تعنى بالنص الأدبي أساساً لفهم

---

[1] محمد التركي التاجوري، مفاهيم في النقد الأدبي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، 241/2.

الحقائق والقضايا التي تطرحها وتحاول الوصول إليها وتأكيدها وفهم ما فيها من أبعاد.

فالدراسات المعاصرة في الأدب الحديث حين تعنى بالواقع وتتبع ما فيه من مبتكر وجديد تحاول السير مع التقدم التقني والعلمي، من جهة وتربط الإنتاج الأدبي بذلك حتى يقدم ما في إمكانه من أدوار في الحياة التي يعالجها ويدور فيها؛ لأن الإنتاج الأدبي الذي لا ينقل الصورة الحقيقية عن الواقع الذي يدور فيه ولا يخدم الحياة التي يتحرك في أكنافها لا يعد من النشاط الفكري في شيء.

ومن الصورة الواضحة التي أصبح التسليم بها أمراً مسلماً أن الإنتاج الأدبي بكل ما فيه من نصوص واعتبارات ومفاهيم هو التصوير للواقع والنقل له بكل ما فيه من اعتبار، وإذا اختلفت وجهات النظر في تفسير القضايا والمشاكل وتحليل المعاني التي تشرح الواقعية، فإن ذلك لا يعني شيئاً أكثر من زيادة التعمق في فهم الحقائق التي تعنى بها الدراسات المعاصرة للأدب وقضاياه ومفاهيمه وأسسه واعتباراته.

ولعل ما يجري في العصر الحديث من تقدم وابتكار وتجديد من أبرز العوامل التي تحتم على الدراسات الأدبية المعاصرة أن تغوص في أعماق القضايا التي تعنى بها وتربطها بالواقع الذي يعيشه الناس في المجتمع، حتى يكون الإنتاج الأدبي الذي يقع عليه الحس والنظر في نفس المستوى الذي يسير فيه التقدم والتطور والوعي، بحيث يستطيع النص الأدبي المعاصر أن يكون في إطاره العام مجسداً للحياة التي يحياها الناس ويلونها العصر بما فيه من انعكاسات علمية وفنية واجتماعية وسواها، ومحاولة فهمها على ضوء هذا

التوجه وما فيه من اعتبارات وإمكان ومضامين توضح الصورة الحقيقية التي نعدها نسخة للواقع وبياناً لما يدور فيه من تصاريف.

2 ـ والتركيز على الواقع الذي يدور فيه النشاط الاجتماعي في الدراسات الأدبية التي تتوخى النهوض بالفكر والتوعية الاجتماعية الشاملة مهم جداً في نقل الصور والنماذج التي تحاول تلك الدراسات أن تستخلص منها كثيراً من الملامح والخصائص والميزات، فإن النماذج والصور المنتزعة من الواقع الذي تدور فيه الدراسة وينطلق منه النشاط الفكري، تمثل الحقيقة المستهدفة بكل ما لها من أبعاد، وذلك يمكن الدراسة الأدبية من الوقوف على الأهداف التي ترمي إليها، ويجعلها على بصيرة تامة بكل ما يتصل بالحياة الاجتماعية من خلال الواقع من أفكار ومصطلحات ومفاهيم، الأمر الذي يجعل تلك الدراسة قائمة على الحقائق المسلمة، التي تبنى عليها الفروض الجيدة، التي توصل إلى النتائج الإيجابية المؤكدة، التي تستطيع أن تسلط الأضواء على المناحي المهمة، التي ينبغي أن تتمثل في الاعتبار، وتكون موضع الاهتمام أثناء العمل على النهوض بالحياة الاجتماعية، وتوعية الأفراد والجماعات والبيئات بما عليها من واجب وما لها من حقوق، وإنارة السبيل أمامها للدخول في الآفاق والمجالات الأساسية والمهمة، التي لها فاعلية وتأثير في الحياة التي يحياها المجتمع ويتطلع إليها أفراده من الباحثين والدارسين والمتأملين، الذين يعنيهم النشاط الأدبي والإنتاج الفكري وما يحويه من ألوان تبرز منها الملامح والصور، التي تساعد الدراسة على الوصول إلى الغايات التي تنشدها، وهي تحاول الوقوف على جميع الجوانب التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية بجميع أبعادها ومدلولاتها، وما فيها من احتمال يستطيع الخيال أن يسبح فيه، ويقدم له من الفروض ما يعد قريباً من الواقع والتصور والمنطق، ويؤكد العطاء الإيجابي

الذي يعكس المفاهيم الصحيحة، التي ترتكز عليها القيم والمثل التي يحترمها الإنسان، ولها التأثير البعيد في التوجه الأمثل نحو الإصلاح الاجتماعي، الذي يتوخى سلوك الأفراد وصلات الجماعات وأوساط البيئات، التي هي الهدف الأساسي للدراسات الأدبية الجادة التي ترمي إلى خلق المناخ الفكري الذي لا يساعد على كشف الحقائق فحسب، بل يشمل بالإضافة إلى ذلك فتح الآفاق الرحبة أمام المتأملين الذين يتحسسون مختلف الاتجاهات التي يتم بها التحول الاجتماعي والتطور الفكري، الذي يساهم في خلق الإطارات والقوالب والمواد التي تعد الأساس والأرضية الصلبة للدراسات المختلفة التي تتكاثف على خلق المجالات والميادين الحية للفكر، وما يفرزه من نشاط ويثيره من تقدم وفاعلية وتأثير، في شتى الجوانب وتنوع الاتجاهات التي تعج بها الحياة الاجتماعية التي يتكيف بها الواقع الذي تنطلق منه الحياة ويتلون به المجتمع.

والدراسات الأدبية التي لا تساهم مساهمة جادة في خلق النشاط الفكري والأدبي والاجتماعي والفني لا تعد من العوامل المحركة والفاعلة في ترسيخ المعاني الأساسية التي لابد من توفرها في بناء النهضة الاجتماعية، التي يزدهر فيها الفن ويتنوع فيها الفكر ويتقدم فيها الأدب ويبدو فيها التطور والتقدم على حقيقته الأصلية، التي يدور حولها النشاط الأدبي فيما نلمسه من إنتاج بكل ما يتمثل به من قوالب فنية في المناهج والأساليب والسبل التي يبرز منها الإصلاح والتجديد، ويقوم عليها البناء الإيجابي الذي يطوع مفاهيم الحياة ويذلل سبلها ويوضح مغاليقها ومعمياتها التي تنطلق منها كل الاعتبارات التي تعنى بها مختلف الأنشطة، التي لا يستقيم للحياة معناها إلا بمراعاتها والاهتمام بما فيها من أبعاد وترسبات وأفكار ومصطلحات ومضامين، يرى فيها الأدب والفكر من المعاني ما يعد نموذجاً ولوناً واضحاً للتحول الفكري والتطور الاجتماعي،

بما يقدمه من أنواع وأجناس وفروع وفنون تجدها الدراسة والبحث من الآفاق الرائدة التي تثري النشاط، وتنمي الفكر وتبعث على مواصلة الإنتاج الذي يترجم المعاناة التي يعانيها الإنسان المعاصر، في مختلف المواقع وشتى الميادين التي تبرز للحياة وجهها الصحيح ومعدنها الأصيل.

وحين يحاول الإنتاج الأدبي أن يتخذ من قضايا الحياة المعاشة مجال نشاطه يكون بذلك قد انغمس في الواقعية بكل ما لها من أبعاد، وتكون النماذج التي يعنى بها ويبرز ما فيها من خصائص مجسدة للواقع الذي يعكس الصور الحية لكل ما يدور في الحياة الاجتماعية من نشاط وتصاريف هي المصدر الحقيقي للإلهام الفكري والتطور الذي تتطلبه ملابسات الحياة وطموح الإنسان، وتحاول الدراسات المختلفة أن تقف على ما فيه من إمكان، يجعل النشاط في الحياة متجدداً يمكّن من الوقوف على الأسرار الحقيقية التي تطور الواقع وتنير السبيل أمام الدارسين، الذين يبذلون الجهود المضنية لتطويع الإمكانيات المختلفة لخدمة المجتمع وتقدم الإنسان، ويتم ذلك بواسطة التفكير الحي في كل ما يعنّ في الحياة من نشاط وحركة وإمكان، واستشفاف الجوانب المهمة التي يستطيع الإنسان مما يكمن فيها من إمكان أن يؤكد الدور الإيجابي الذي يقوم به التأمل والنشاط الفكري، في جميع ما في الحياة من آفاق.

يقول معروف الرصافي[1] في قصيدة له في ملعب كرة القدم:

قصــدوا الرياضــة لاعبــين　　　كــرة تــراض بلعبهــا الأجســام

---

[1] السباعي بيومي وآخرون، السابق، ص244.

وقفوا لها متشمرين فألقيت فتعاورتهـــا مـــنهم الأقـــدام

يتراكضــون وراءهــا فـــي للسـوق معتـرك بهـا وصـدام

رفســاً بــأرجلهم تســاق بـالكف عنـد اللاعبـين حـرام

ولقـد تحلـق فـي الهـواء وإن شــرعوا الــرؤوس فناطحتهــا

وتخالهـا حينـاً قذيفـة مـدفع فتمـــر صـــائتة لهـــا إرزام

ولربما سقطت فقام حيالها للضرب عبل الساعدين همام

فتخالهــا وتخالــه كفريســة ســقطت فزمجــر دونهـــا

لا تســتقر بحالــة فكأنهــا أمــل بــه تتقــاذف الأوهــام

تنحــو الشــمال بضــربة نحـو الجنـوب لاعـب لطـام

وتمـر واثبــة علــى وجــه مـــراً كمـــا تتواثـــب الآرام

وتـــدور بـــين اللاعبـــين عنهـا وآخـر ضـارب مقـدام

وكأنها والقوم يحتو شونها قلـــب عليـــه تهـــاجم الآلام

راضــوا بهــا الأبــدان بعـد علمـاً تـراض بدرسـه الأفهـام

أبنـاء مدرسـة أولـى وكلهـم يفــع مريــر المــرفقين غــلام

لابــد مــن هــزل النفــوس تعب وبعض فراجها استجمام

فــإذا شــغلت العقـل فالــه فاللهو من تعب العقول جمام

والفكـر منهكـة فباسـتمراره تهـن العقـول وتهـزل الأجسـام

إن الجســـوم إذا تكـــون تقوى بفضل نشاطها الأحلام

هـــذي ملاعـــبهم فجســـمك واسلك مسالكهم عداك الذام

فالشاعر في هذه القصيدة يصف لعبة كرة القدم عند شباب مدرسة أخذوا يلعبونها وقت فراغهم من الدراسة وتعبها، واستطاع أن يحسن وصفها حين تمكن من جمع تفاصيل هذه اللعبة، فقد استعد هؤلاء التلاميذ، وألقيت الكرة بين أرجلهم، وهم يتداولونها فيما بينهم، وحرم عليهم أن يمسوها بأيديهم، وتعلو في

الهواء فيستقبلونها برؤوسهم، وتصل إلى حارس المرمى فيقذفها بعيداً، وتمر أمام أنظاره مدوية، ويسقط عليها اللاعبون وكأنهم يسقطون على فريسة هبطت من السماء، وهي لا تستقر في مكان، فما تزال تروغ منهم كما يروغ الأمل من الأوهام، فتارة إلى الشمال وأخرى إلى الجنوب، فهي تتواثب كأنها الظبي يجري في البيداء وقد أزعجه الصيادون، أو كأنها قلب تهجم عليه الآلام وتهده تباريح العلل والأسقام.

وفي هذه القصيدة ينوه الشاعر بهذه اللعبة وأنها مهمة للتلاميذ، يستجمون بها من عناء الدراسة، وتقوى بها جسومهم التي أنهكها التحصيل والاجتهاد تطبيقاً للحكمة التي تقول: العقل السليم في الجسم السليم. ويحث جميع الطلاب والتلاميذ أن يزاولوا هذه اللعبة كي تنشط أجسامهم وعقولهم، وتتوسع أفكارهم وتأملاتهم ومداركهم.

والقصيدة تعالج موضوعاً جديداً منتزعاً من حياتنا اليومية، حيث استطاع الشاعر أن يسلط عقله وفكره على ماحوله، مما يدور في الحياة اليومية ويعد بعيداً عن مجال الشعر والشعراء، وأن يلبسه من العواطف والوجدان ما يجعله شعراً يزخر بكل ما في الشعر من معان وأفكار وعاطفة وخيال ووجدان.

وهذه المعالجة تمثل الاتجاه الحديث في الشعر المعاصر الذي أخذ يعالج كل ما يقع عليه الحس، دون أن يتقيد في كل ذلك بموضوع معين، فلم تكن الطبيعة أو النفس الإنسانية وما فيهما من تفصيلات وإجمال هما المجالان الوحيدان اللذان يصلحان للشعر، فإن كل شيء في هذه الحياة صالح لأن يتناوله الشعراء بقرائحهم وأخيلتهم ويحولوه إلى شعر رصين، يتزود منه الفكر ويتغذى منه الخيال وتزدهر منه العاطفة ويتعمق به الوجدان والشعور، فالشعر

الحديث يرى في الأحداث اليومية مادته التي يتزود بها، ويتخذ منها موضوعاته التي يعالجها وينطلق منها لحل المشاكل الاجتماعية التي تصادف الأفراد والجماعات، وتنعكس على النشاط الذي تزاوله البيئة ويتأثر به المحيط، ويرى فيه الناس معاناتهم التي يترجمها الإحساس والشعور المشترك، الذي يدور بينهم ويتحسسون منه كل ما يتوقعونه من نشاط وفاعلية وتفكير.

3 . فالنشاط الأدبي الذي ينتزع موضوعاته وأفكاره ونظرياته وفروضه من الحياة المعاشة هو الذي يترجم الواقعية بكل أبعادها ترجمة صادقة، وهو الذي يستطيع أن يقدم الحياة بكل ما فيها من صور وأحداث ومضامين يستطيع النشاط الفكري أن يقف منها على الجديد المتداول، وأن يواكب حركة الإصلاح والتطور والابتكار، الذي يقوم على الدراسة والتأمل والملاحظة والتتبع لكل ما في البحث من جديد، ينهض على العلم وآفاقه وما تحويه من إمكان واعتبار وحفز على الخلق والإبداع والأصالة.

ولا يستطيع النشاط الأدبي أو الفكري بكل ما له من تفسير أن يغوص في أعماق الحياة ويخدم الإنسان إلا إذا انطلق من الواقع الذي يتقلب فيه الناس، ويتحرك به المجتمع وتتلون به صور الحياة وما فيها من مفاهيم يلمسها الخاص والعام، ويحاول أن يجددها الدارسون المعنيون بكل ما فيها من أبعاد ومرتكزات وأعماق ومفاهيم، توضح كل ما يحيط بها من ملابسات واعتبارات.

وأثناء الاهتمامات الفكرية التي تعالج الواقع الاجتماعي، وتضفي على النشاط الأدبي الألوان التي يضطلع بها من الإصلاح والبناء وشحذ الهمم لما هو أفضل من مسالك الحياة، يجد الدارسون المادة التي منها يستطيعون أن يقوموا ذلك الواقع، وأن يهذبوا ما يعثرون عليه من صور ونماذج قد يكون لها

دورها الفاعل في مجالات الإصلاح والمعرفة، بعد تهذيبها وإزالة ما قد يكون بها من شوائب، هي الأساس في عدم وضوحها وتمكينها من دورها الإيجابي الذي تستطيع أن تقدمه للباحثين والدارسين والمقومين، الذين تعنيهم ملابسات الواقع وما يكمن فيه من أصالة وعمق وجذور لأهم القضايا والمشاكل التي يهتم بها العصر وتشغل الأذهان فيه؛ لأنها المنطلق الذي ينطلق منه الفكر وتدور حوله المناقشات المتعددة على اختلاف منازعها وأهدافها التي ترمي إليها، ويتخذ منها الملاحظون التسجيل الذي يرونه للمواقف والمنعرجات التي تنعكس آثارها وألوانها على الإنتاج الفكري ومعاناته وإيجابه وسلبه.

ومشاكل العصر وقضاياه هي المجالات المهمة التي تتوخاها الدراسة بمختلف أنواعها لاعتبارات عدة، من أهمها أن الحياة الإنسانية المعاصرة بجميع بيئاتها وأوساطها وظروفها التي تمر بها لا تتحرك إلا بالمشاكل ولا تقوم إلا عليها، وهي مهما خفت حدتها تتطلب الجهود لحلولها، وتتطلب التفكير ومراجعة وجهات النظر، وتسهل بمقدار ما يبذل فيها من جهود علمية صادقة قائمة على المنطق والمقارنة وتحري الحقيقة لذاتها، مما يبعث الباحثين والدارسين على التأمل أكثر في فهم هذه المشاكل والتعمق في أسبابها ودواعيها، وربطها بما هو مشابه لها في الواقع والماضي، وفي أذهان الناس الذين يزاولون أسبابها ويتعاملون معها، سواء كانوا مختارين أو مضطرين، وسواء كانوا جماعات أو أفراداً؛ لأن تلك الأسباب والقضايا تشملهم على نطاق واسع وفسيح لا يتم تصورهم للرؤية التي يعالجون بها المعاني المتداولة بينهم وبين الأشياء إلا بها، وكذلك تفسير كل ما في الحياة من مضامين تتصل بالإصلاح والسلوك والتفاهم في مختلف الحقائق التي تدور بينهم، ويعدونها أصلاً من أصول المعاصرة التي تضم التقدم العلمي وما يقتضيه من التطور الفني

والأدبي والتقني وغيره، من المقومات التي لا تتم النهضة وتوفر أسبابها إلا بها، وهذا يدعونا إلى حصر الاتجاهات التي تسلكها مختلف ما في العصر من مشاكل حتى نستطيع أن نقدم لها العلاج الذي يسهم بإيجابية في حلول معظمها، وفتح الأبواب أمام الدارسين لمزيد من الحلول أو الجهود المركزة من أجل إيجاد العلاج الناجع للقضايا التي لم تتوفر الحلول الملائمة لها لدواع واعتبارات عدة.

والاتجاهات التي تتحكم في المشاكل والقضايا في أي عصر تسير في خطوط كثيرة، من أهمها رغبات الناس واحتياجاتهم المتعارضة التي تدفع بهم في خضم هذه المشاكل، ومعايشتها ومحاولة التغلب عليها بشتى الوسائل والسبل.

وهم وإن استطاعوا تذليل بعض المصاعب التي تعترضهم فإنهم في حاجة دائمة إلى الدراسة والمقارنة لأسباب تلك المشاكل وعواملها، وبالتالي لدراسة الحياة التي يمر بها العصر وما يجري فيها من ألوان، في السلوك والعلاقات والمعاملة والصلات المختلفة التي تكشف النقاب عن أسرار تلك الحياة، بكل ما فيها من معطيات ومفاهيم، وبكل ما تعكسه من تطلعات في الفكر والفن والدراسة والبحث المتواصل الذي يجعل من النظر في مسالك الحياة ومشاكلها علاجاً حقيقياً، وصادقاً لما يعانيه الإنسان في كل عصر من ألوان الكفاح ونماذج الإصلاح والبناء.

وليس معنى علاج المشاكل الاجتماعية والبحث عن حلولها الجذرية الابتعاد عن معاناة الإنسان اليومية والمعاصرة، التي تجسد الواقع وتبرزه في خصائصه الأكيدة، ولكن معنى ذلك في إطاره العام الوقوف بشمولية على

الدائرة العامة التي تتعمق فيها الأصول المباشرة وغير المباشرة لأسباب تلك المعاناة وما يكمن وراءها من عوامل، لابد من فهمها والوقوف عليها وإعطائها ما تستحق من العناية؛ كي تكون الأفكار المقدمة والمقترحة لعلاجها قائمة على الصدق ومؤدية للنتائج الإيجابية المؤكدة، التي ترمي إليها أهداف المفكرين الذين يعنون بتوضيحها والاستفادة من كل الخطى التي يقطعونها في مجالات التحري عن الأسباب والدواعي الباعثة على خلق المشاكل الاجتماعية وغيرها، مما يعتبر قاعدة ومنهجاً في فهم كل ما يتعلق بالحياة وما فيها من مشاكل وقضايا يطرقها الدرس وتتناولها الملاحظة ووسائل التفكير.

وذلك هو المهم في الاتجاهات الحديثة التي تعنى بعلاج الواقع وتحديد مسارات الاهتمام الفكري الذي يجري فيه، ويحاول بجد أن يطور الحياة الاجتماعية، ويبعث النشاط في المجالات الأدبية والفنية في قوالبها المحكمة التي تدعو لمواصلة النشاط الفكري ومتابعته.

4 - يقول ابن اللبانة الأندلسي[1] في وصف موكب المعتمد بن عباد أثناء ترحيله من إشبيلية إلى أغمات بالمغرب أسيراً على يد يوسف بن تاشفين:

نسـيت إلا غــداة النهــر   في المنشئات كأموات بألحاد

والنـــاس قـــد مـــلأوا العبـــرين

مـن لؤلـؤ طافيـات فـوق أزبـاد

حـط القنـاع فلـم تسـتر   ومزقـت أوجـه تمزيـق أبـراد

حـان الـوداع فضـجت كـل

وصـارخ مـن مفـدّاة ومـن فـادي

[1] المختار من التراث العربي السابق، من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص209-210.

ســـارت ســـفائنهم والنـــوح كأنها إبل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم

تلـــك القطـــائع قطاعـــات أكبـــاد

فالشاعر هنا يصف الواقع الذي كان يمر به ابن عباد، حين انتزع منه الملك والحكم وسيق مع أسرته ذليلاً خانعاً، وهو الذي كان يأمر فيطاع ولا ترد له رغبة مهما بلغت من الأهمية أو التفاهة، ولكن الحظ قلب له ظهر المجن، فابتلي بنكبته التي حلت به وتجرع منها كؤوس الأسى والهوان الذي ختمت به حياته في السجن بأغمات، ولم يفده ما جاد به من لوعة وتحسر وتضجر واستعطاف وبكاء واستلهام للطبيعة بأن تمده بما هو في حاجة إليه من رحيق الحرية، وتنسم نفحاتها التي أضاعها في الهزل والمجون والمتعة، ولم يبن بها القوة الضارية التي تحافظ على ما كان لديه من إمكان، وترهب الطامعين فيه من الأعداء الذين كانوا في تأهب مستمر؛ لانتهاز الفرصة التي ينقضون بها عليه وينتزعون ما بيده من إمكانيات لا يقتنعون منها بالقضاء عليه وحده، بل يعملون بها على اقتلاع جذور العرب والمسلمين من تلك الديار، الأمر الذي حصل أخيراً بكل أسف، وكان السبب المباشر فيه ابن عباد وغيره ممن يسمون بملوك الطوائف آنذاك، وهو الدافع الذي حدا بابن تاشفين إلى أن يتخذ معه هذا الموقف القاسي؛ ليكون عبرة وموعظة يسجلها التاريخ، لكل متهاون في حق هذه الأمة وعقيدتها، ولكل مفرط في إمكانياتها ومقدراتها التي منحها الله إياها؛ لتحافظ بها على هيبتها وتنشر عقيدتها العالمية، وتعمل على سعادة الإنسان بها في الأرض وبث روح الحضارة بين مجتمعاته وصفوفه حتى يؤدي رسالته التي خلقه الله من أجلها، وحمله ما فيها من تكاليف.

فابن عباد رغم تعاطف الشاعر ابن اللبانة معه في القطعة التي نحن بصددها، ورغم ما يحاول بعض المؤرخين أن يبرروا به تصرفه ويتعاطفوا معه من الجانب الإنساني على حسب دعواهم، لا يخلو من مسؤولية التقصير، وخاتمة حياته بالصورة التي انتهت إليها هي النتيجة المنطقية والحتمية لكل مقصر في حق نفسه وحقوق الأمة وواجبات العقيدة الدينية.

وهذا الموقف يشدنا ويعمق انتباهنا لما تمر به الأمة العربية والإسلامية من تقصير وإهمال في حقوقها وحقوق الأجيال الصاعدة، وتعطيل الواجبات التي فرضها عليها الدين الحنيف الذي أمر ببناء القوة والجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة التوحيد، ونبذ الأعراض الزائلة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل تكبل الإنسان بأغلال الذل والخنوع فتصير الدنيا لديه هي الهم الذي يشغل تفكيره ويستولي على مشاعره وحواسه، ولا يزيده في ذلك إلا ضلالاً وإيغالاً في المسكنة والهوان.

وفعلاً هذا ما نلحظه في هذا العصر وهذه المرحلة المظلمة من تاريخ أمتنا، حيث يتقاتل الإخوة في الدين ويتمسح الرؤساء بأعتاب أعداء الأمة الذين يسعون بكل جد للقضاء عليها، وعلى ما لديها من مقدرات مادية ومعنوية، وتنقل لنا الأخبار في كل لحظة المزيد من البلاء، ولا يملك القادة إلا أن يتنادوا للاجتماعات ليقرروا المزيد من التنازل لأعداء عرفوا منهم الكيد والانتقام ولمسوا منهم المحاولات المتكررة والجادة للقضاء على أمتهم.

وليس عجباً أن نسمع من بينهم من يصف ترحيل المقاومة من ميدان المعركة بمثل الوصف الذي رأيناه في قطعة ابن اللبانة، فهو إذا حدث سيعيد

لديهم إنجازاً بطولياً واستعطافاً للضمير العالمي الذي يستنكر الفظائع التي يقوم بها الأعداء مع أمتنا وتاريخها.

إن أكبر مشكل معاصر في تاريخ أمتنا الخالدة هو ما تمر به من مفارقات ومواقف متناقضة مع أنها في الواقع تملك من الإمكانيات والمقدرات ما تستطيع أن تهز به الدنيا وتخلق به المستحيل، وتحافظ به على أقل تقدير على ما تتغنى به من أمجاد وبطولات لم يستطع التاريخ أن يتجاهلها أو يتنكر لما أضفته على البشرية من عطاء خالد على مر الأيام والدهور، وذلك العطاء سيكون من العوامل الفاعلة في حل ذلك المشكل وغيره من المشاكل التي تجد على الساحة.

واتجاه الأدب نحو هذا الوضع الذي تمر به الأمة العربية والإسلامية في محنتها التي تكالبت عليها فيها قوى الشر في العالم، هو الاتجاه الصحيح الذي يجسد فيه الواقعية ويجعله وسيلة وسبيلاً من سبل العلاج، وبعث الوعي والإحساس بين جميع أفرادها بما يحدق بها من خطر لابد من التصدي له واتخاذ الخطوات الجادة في مجاله؛ حتى لا يتمادى هؤلاء الأعداء في غيهم وضلالهم وظلمهم الصارخ، فالأمة العربية والإسلامية اليوم يتحتم عليها أكثر مما مضى أن تتنبه لهذا الخطر وأن توحد صفوفها وجهودها وجميع إمكانياتها لدرء هذا الخطر الداهم.

والأدب الذي لا ينطلق من هذا الواقع ويبسط فيه الأفكار والآراء العملية ويشحذ بها الهمم بين جميع المستويات والبيئات لا يصح أبداً أن يعد أدباً أو وجهاً من وجوه الفكر الذي يبعث في الأمة الحماس لواجبها ومسؤولياتها.

فما معنى الواقعية في الأدب والفكر وسواه إن لم تكن الأفكار الدائرة بين الناس مأخوذة مما هم فيه من مشاكل وما يمرون به من محن وشدة؟ فالأدب وهو من أهم ما لدى كل أمة من إمكان ينبغي أن ينزل إلى واقع الأمة ويترجم أحاسيسها ويدفع المشاعر إلى تحقيق أمانيها وأحلامها التي تحلم بها، وأن يبرز حجمها في النضال والكفاح وبذل الجهود التي تدفع عنها الشر وتؤكد بها حقوقها وتعيد لها هيبتها.

2 . المعاناة الأدبية وترجمتها:

1 . والمادة التي يتخذ منها الأدب سبيله وهو يعالج قضايا الحياة ومشاكلها وما يجري فيها من مدلولات ومفاهيم، هي التصاريف التي تدور في الواقع الذي يعيشه الناس ويدور بينهم من علاقات ومعاملات وأفكار، وعلى هذا الأساس فالنشاط الأدبي الذي يتعامل مع الحياة الواقعية التي يمارسها الناس قولاً وعملاً، هو الذي يستطيع أن يصور ما في العصر من أفكار ويقدم ما يصلح منها للتطبيق والممارسة العملية التي يتوخاها المفكرون والمتأملون، وهم يحاولون أن يطوعوا مفاهيم الفكر ومعطياته لإصلاح الواقع الذي يتقلبون فيه، ويرون تطويره وبناءه على ضوء ما في الفكر ومعطياته من سبل ومناهج ومضامين.

فالنشاط الأدبي في واقعه هو الترجمان الذي يفسر ما في المعاناة الأدبية[1] من إمكان وما تحويه من مشاعر وأحاسيس وانفعال، فإذا انطلق من الواقع الذي تجسده المعاناة التي يترجمها كان ممثلاً للصدق في نقل النماذج والصور التي يسوقها، ومنها يؤكد فاعليته وقدرته على العطاء والبناء

[1] مفاهيم في النقد الأدبي السابق، ط1، ص112-113. النقد الأدبي الحديث السابق، ص384. وقواعد النقد الأدبي، لاسل ايركرمي، ص25، و61.

والإصلاح الاجتماعي الذي هو الهدف الأساسي لجميع الدراسات الأدبية والفنية وسواها؛ لأن الدراسات بمختلف أنواعها واتجاهاتها وتنوع أفكارها وتعدد مفاهيمها، إذا لم يكن هدفها الإصلاح الاجتماعي وبناء الحياة الواقعية التي يحياها الإنسان على أسس الصدق والفاعلية لا يكون لها ذلك العطاء الإيجابي الذي يمكن من التطور ومواكبة الروح المعاصرة التي تستقطب الإمكانات المتاحة وتجندها للإصلاح الاجتماعي، الذي يحفز عوامل الحركة والنشاط والتواصل المستمر لبعث الوعي بين مختلف البيئات الاجتماعية التي تحس بالواقع الذي يحتويها، وبما فيه من مقومات لا يتم الإصلاح والتطور والتقدم إلا بما فيها، وإلا على أساس وضوء ما يستخلص منها من معان واتجاهات ومفاهيم وموازين؛ إذ المقومات التي يشتمل عليها الواقع الاجتماعي الذي يضم مختلف البيئات والجماعات والأفراد مهمة جداً، وتسليط الضوء عليها في مختلف الأنشطة التي يساهم بها الفكر في كشف الغطاء عن عوامل التقدم والتطور أكثر أهمية وأبلغ فاعلية وتأثيراً، سواء كانت تلك الأنشطة أدباً أو فناً أو اجتماعاً أو غيره، فإن تلك المقومات هي المرتكزات التي ينطلق منها النشاط الاجتماعي بكل ما له من صور وما يشمله من محتويات ومضامين، وأي دراسة أو نشاط حولها يكشف ما فيها من كوامن العطاء وعوامل الإبداع والنشاط والتجديد.

والمقومات الأساسية التي يشتمل عليها الواقع الذي يصوره النشاط الأدبي ويعالج قضاياه ومشاكله ويحاول أن يبرز ما فيه من خصائص ومعطيات، هي الآفاق الرحبة التي تركز عليها الدراسات النقدية والمقومة التي تتبع جميع النواحي التي ينطلق منها النشاط الفكري، وتحصر ما فيها من إمكان لتقف على مختلف الأبعاد التي ينبثق منها النشاط والتفكير، ويتكيف بها ما نلاحظه

من أساسيات تقوم على ضوئها الأحكام والقواعد التي تعرف بها ملامح النشاط الأدبي ومدى ما فيه من صدق ومواكبة لروح العصر وملامح التطور، والتركيز على لون بعينه من ألوان الأدب أو الفن أو سواه؛ لأن النقد والتقويم ليس من مهامه فقط أن يحدد الخطوط العريضة التي يسير فيها النشاط الفكري أو الأدبي أو الاجتماعي، ولكن من مهامه بالإضافة إلى ذلك أن يستخلص وينبه إلى المصادر التي لها دورها الكبير في ذلك النشاط، وخلق عوامل البناء والإيجاب في الحياة الاجتماعية بصورة شاملة حتى يعكس الأبعاد الحقيقية لما في العصر من مقومات، وما في البيئة والواقع من أساسيات لابد من مراعاتها وملاحظة آثارها في الإنتاج الفكري ومختلف ما يدور فيه من جوانب، توضح ملامحه ونماذجه وقوالبه وتعطي التفسير الصحيح لما فيه من أساليب ومناهج، وما يحيط بها من غموض وإبهام قد لا يتم الوقوف على ما فيه من ميزات وخصائص بسببه وسبب عدم الإلمام بما يحيط به من ظروف وملابسات ومفاهيم، تعكس الظلال المعتمة على ما فيه من إمكان.

وقد تجلت صورة النشاط الأدبي في العصر الحديث، في كثير من الجوانب التي تتعلق بالحياة باعتبارها واقعاً يضم البشر والمجتمع الإنساني بأسره، وفيها من المعاني والآفاق والعبر والمقومات ما يدفع إلى متابعة دراستها والغوص على ما فيها من أبعاد تنير السبيل أمام الباحثين والدارسين والمهتمين بالنشاط الأدبي والفكري وسواه.

2 ـ وفي هذا الصدد تبرز أمامنا قصيدة بعنوان: الحياة[1] للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي يقول فيها:

---

[1] مهدي علام وآخرون، النقد والبلاغة، أمانة التعليم/ ليبيا، 1980، ج2، ص208.

جلسـت يومـاً حـين حـل وقد مضـى يومي بـلا مؤنس
أريـح أقداماً قد وهت من وأرقـب العـالم مـن مجلسـي
أرقبـه يـا كـد هـذا الرقيـب فـي طيـب الكـون وفـي باطلـه
ومــا يبــالي ذا الخضــم بنــاظر يرقــب فــي ســاحله
أسيان مـا أجهـل أو أعلـم من غـامض الليل لغز النهار
سيستمر المسرح الأعظـم روايــة طالــت وأيــن الســتار
عييــت بالــدنيا وأســرارها ومــا احتيــالي فــي صـموت
أنشـد فـي روائـع أنوارهـا رشداً فما أغنم غيـر الضـلال
أغمضـــت عينـــي دونهـــا مبتغيـاً لـي رحمـة فـي الظـلام
فصاح بي صـائحها هاتفاً كأنمــا يــوقظني مــن منــام
أنــت امــرؤ تــرزح تحــت لـم يبـق منك الدهر إلا عناد
وكـل مـا تبصـره مـن سنا يهـزأ بالجـذوة خلـف الرمـاد
وكـل مـا تبصـره مـن قـوى دوَّى دوِيَّ الريح عنـد الهبـوب
يسخر من مبتئس قد ثوى يرنـو إلـى الدنيا بعين الغريـب
انظـر إلــى شـتى معـاني منبثــة فــي الأرض أو فــي
ألا تــرى فــي كــل هــذا غيــر نــذير طــالع بالغنــاء
أجبــت يــا دنيــاي مــن إنـي امرؤ ضـاق بهذا الخداع
مزقـت عـن عيشـي هنـيَّ لأننـــي مزقـــت عنـــك القنـــاع
وارحتمـاه للقـوي الصـبور يقضـــي الليـــالي فـــي كفـــاح
وكيــف لا أبكـــي لكــدح أقصـى منـاه أن ينـال الرغيف
كـم صـحت إذا بصـرت هـذا
وميســـم الذلـــة فـــوق الجبـــاه
يــا حســرتا ممــا يلاقــي أكـل هـذا فـي سـبيل الحيـاه

وفـي سبيل المراد والمأكل نمــلأ صــدر الأرض إعـوالا

كـم يسـخر الـنجم بنـا مـن وكـــم يرانـــا الله أطفـــالا

يـا رب غفرانك إنـا صـغار ندب فـي الدنيا دبيب الغرور

نســحب فـــي الأرض ذيـــول

والشـــيب تأديـــب لنـــا والقبـــور

فالشاعر في هذه القصيدة يبين لنا كيف اتخذ مجلسه في المساء بعد جولة طويلة أرهقت قدميه وجسده، فجلس يرقب العالم حوله، ويتجاوب مع ما يلاحظه من مظاهر الحياة، وقد رأى في هذه الحياة كثيراً من التناقض والزيف الذي بعث في نفسه اليأس والتشاؤم بالرغم مما يتردد فيها من أصوات تلفت انتباهه إلى ما في الكون من صور الجمال وسحر الطبيعة وأسرار الوجود وما فيه من إمكانيات وتصاريف.

3. ملامح الشعر الحديث بفعل ما جد في الحياة من جديد:

1 . والنظرة المتشائمة هذه كثيراً ما تقابلنا في الشعر الحديث، وقد تكون ظاهرة من ظواهره العامة التي تميزه عن العصور السالفة، وهذا قد يكون سببه ما نصادفه من مشكلات في حياتنا المعاصرة التي أخذت سبلها بفعل التطور والتقدم تتعقد شيئاً فشيئاً بالنسبة لما ألفه الناس في الحياة من سبل ووسائل، وقد أرهق ذلك أحاسيس الشعراء المرهفين ونزع بهم إلى النظرة التشاؤمية التي نلمسها ونلاحظها فيما يقدمونه من إنتاج ونشاط أدبي وفني وسواه.

ونقف في ثنايا هذا التشاؤم على الوعي الصادق بمشاكل المجتمع الذي يبعث فينا الإحساس بما للصدق الفني من تأثير وتفاعل مع الحياة وما يجري فيها من توافق وتناقض وواقع وتصاريف.

وهذا لا يعني أن الشعر الحديث كله متشائم من الحياة، وإنما يعني فقط أن المسحة التشاؤمية غالبة فيه وظاهرة من ظواهره العامة التي تقدم الحياة من جانبها المعتم الذي يتغاضى عن جوانبها المشرقة الكثيرة، التي تمثل وجوهرها الحقيقي الذي يعكس الإحساس الصادق بها وبما فيها من إشراق ووضوح، هو الأساس الذي ينبغي أن يتركز انتباه الإنسان حوله حتى يستطيع أن يقدم المساهمات الجادة التي تبني المجتمع الإنساني على الإيمان بوجوده ونفسه، وضرورة العمل المبدع الخلاق في الحياة التي يحياها ويحيلها إلى جمال ووضوح وإشراق؛ لأن الحياة الإنسانية حين يكتنفها الضباب يقف الإنسان فيها عاطلاً عن النشاط والحركة وبعيداً عن الفاعلية والتأثير والإيجاب.

فالقصيدة التي بين أيدينا تبدأ بالتأمل في الكون وما فيه من مظاهر، ثم تدخل في تفسير مظاهر الحياة وما فيها من أسرار، وخلال ذلك تبدو منها مسحة التشاؤم ومحاولة الإحساس بالجمال ومعاني الحياة الحقيقية، وفيها يبرز الإحساس بمشاكل الحياة وما يجده الإنسان فيها من معاناة في سبيل الحصول على رغباته وضرورياته من مأكل وملبس وأهداف.

وهذا الاتجاه الذي نجده في النشاط الأدبي وإنتاجه هو ما يشد انتباهنا نحو الأدب المعاصر، وما أحدثه من ظواهر التجديد التي يعد التأمل الفكري في مقدمتها، ومن أهم مناحيها الباعثة على الوعي والتفكير والدافعة إلى الدخول في كل ما تشمله الحياة من خصوصيات وآفاق لم يستطع النشاط الأدبي في السابق أن يتطرق إليها أو يحاول الخوض في غمارها رغم محاولاته المتعددة في التوصل إلى فهم ما في الطبيعة من أعماق وأبعاد لها الصلة الوثقى بما في الحياة من أسرار.

وإذا كان التشاؤم في بعض جوانبه مسحة من مسحات الشعر الحديث، فإن[1] التأمل الفكري ظاهرة من أهم الظواهر التي يمثلها النشاط الأدبي في العصر الحديث، ولعل ذلك راجع إلى ما في الحياة المعاصرة من عناصر تقوم على التفكير والتعقل وتواكب العصر وما فيه من معطيات في مختلف المجالات التي لها رابطة وصلة بالإنسان ونشاطه الفكري والأدبي والفني والاجتماعي وسواه، الأمر الذي يحتم على المفكرين والدارسين والمعانين أن يتفاعلوا مع الفكر والتأمل ويقدموا جهودهم على ضوء ما فيه من مؤثرات وقواعد وقوانين.

وقد أصبح الاتجاه الحديث في الأدب قائماً على التأمل والتفكير، وصار الإنتاج الأدبي البعيد عن ذلك في نظر الدراسات النقدية المقومة لا يمثل الروح العصرية التي تتوخى الفكر وتستهدف ما فيه من ملامح، تراها من الأساسيات التي يقوم عليها التجديد والتطور ومواكبة الحياة بما تتطلبه من تقدم تقني وكشف علمي ينهض على الحقيقة واستقصاء ما فيها من آفاق وميادين، ويحاول أن يقدم ما يقف عليه من أعماقها ما يراه جديداً ومحفزاً على النشاط والحركة والفاعلية والبناء.

والحياة الإنسانية بما فيها من آفاق وجوانب وميادين هي المصدر الأساسي الذي يستمد منه النشاط الأدبي قوته وقدرته على العطاء وفاعليته، فهي المعين الذي يمد النشاط الأدبي بالجديد ويدفعه للتفاعل مع الواقع والأحداث التي تجري فيه.

---

[1] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار العودة، بيروت، ط1972/2م، ص350 وما بعدها.

والنشاط الأدبي حين يتفاعل مع الواقع وأحداثه ويستجيب لما فيه من عطاء ومدلولات ومفاهيم، إنما يترجم بذلك عن صدقه وقدرته على تحليل ما في الحياة من عناصر الإيجاب، التي يتحتم الإلمام بها وفهم ما فيها من أبعاد تجد فيها الدراسات المختلفة من الآفاق ما ينير أمامها السبيل، لفتح الجوانب الكثيرة للإصلاح الاجتماعي الذي يتعلق بالفن والأدب وحسن التعامل وإحكام الصلات الإنسانية بين الناس الذين يحتويهم المجتمع الذي يدور النشاط الأدبي بين أطرافه، ويحاول أن يقدم له الصور المشرقة الحية مما يلامسه من الواقع وما يعترض سبيله من تصاريف الحياة وتقلباتها ولهيبها المتواصل الذي لا ينفك عن العطاء وتجديد النشاط والحركة، التي تعد المصدر الأساسي للنواحي الإيجابية التي يتقلب فيها النشاط الأدبي، بكل ما فيه من سلبيات وإيجابيات، وبكل ما يستطيع أن يعكسه في واقع الحياة من آثار فاعلة في الفكر والثقافة والاجتماع، وتحولاته التي لا تقف عند حد من حدود النشاط والتفاعل الاجتماعي، والتحرك الفكري الذي يعكس صفحات التأمل، في كل ما حول الإنسان من معالم، وكل ما في البيئة من ألوان وخصائص تعدها الدراسات مهمة في الكشف عن الحقائق التي يدور حولها النشاط الأدبي، ويستلهمها التفكير الفني، ويقوم عليها الإصلاح الاجتماعي الذي يتحرى الصدق، وينهض على الأساليب والمناهج التي تقوم على الحقيقة دون الاعتماد على الخيال المطلق، الذي يتجاهل الواقع الذي يجسد الحقيقة التي يستهدفها الإصلاح الاجتماعي، ويتعامل معها النشاط الأدبي، وتحاول الدراسات المتباينة إبرازها والوقوف على ما فيها من أبعاد، وما لها من آثار ومضامين في الحياة الاجتماعية والأفكار التي تدور فيها وتتجاوب معها.

وحين نتأمل النشاط الأدبي في إطاره العام بكل ما يحويه من تفريع في الألوان التي يقدمها ويعالج بها مشاكل الإنسان وهموم الحياة، نحس بأن هذا النشاط حين يبعد عن الواقع الذي يعايشه الإنسان ويتقلب في أكنافه، لا يعبر بعمق ومصداقية عما يدور في الحياة التي يتطلع إليها الدارسون والطامحون، الذين يولون جوانب الإصلاح عنايتهم الخاصة ويبذلون قصارى جهدهم لتغيير ذلك الواقع بما يتفق وروح العصر ومتطلبات التطور ومقتضيات البناء الإيجابي، الذي يعمق في الإنسان روح الإيمان بالواجب، وروح الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية، وروح الإدراك لمواطن الجمال والفن والذوق.

فالنشاط الأدبي ليس مهمته نقل الصور التي يقف عليها في الحياة أو المجتمع أو البيئة فحسب، بل من مهامه بالإضافة إلى ذلك أن يحرك النشاط الفكري، ويبعث عناصر التجديد والابتكار والفاعلية في المجتمع الذي يدور فيه، وفي الحياة التي يتفاعل بين جوانبها ويتجاوب في آفاقها وميادينها المختلفة، التي تتكشف فيها الحقائق المتعددة في كل حين.

2 . فالألوان التي يقدمها النشاط الأدبي فيما يفيضه علينا من إنتاج ينبغي أن تكون مأخوذة من الواقع الملامس، ومن العصر المعاش لتعبر بصدق عن معاناة الإنسان وتساهم حقيقة في الترجمة عما يدور في نفسه من أحاسيس ومشاعر ووجدان، يرى فيه كل إنسان الصورة التي يحس بها وتدور في ذهنه وإحساسه، الأمر الذي يؤكد فاعلية ذلك النشاط وآثاره في بناء الحياة وإصلاح المجتمع وتطورات العصر.

وهذه المسحة الواقعية للنشاط الأدبي، هي التي تجعل منه وسيلة فاعلة في الإصلاح والتجديد والتطور إلى الأفضل، وهي التي تتركز حولها

الاتجاهات النقدية المقومة التي ترى في النشاط الأدبي الصورة الحية لما يحويه الفكر من مضامين، ولما ينبغي أن يتمثل فيه النشاط الأدبي من تصاريف تقوم على الواقع وإحساس الإنسان المعاصر الذي يجد في النشاط الأدبي الترجمة الحقيقية لذاته ووجوده، ويدرك منه ما قد يكون بعيداً عن استيعابه من آفاق وميادين.

وإذا كان النشاط الأدبي في قيمته الفنية وتأثيره الفعلي مرتبطاً وثيق الارتباط بما فيه من واقعية وتصوير لمشاعر الإنسان وأحاسيسه، فإن هذه المسحة لها ارتباط وثيق بمفاهيم العصر الذي يجري فيه ذلك النشاط ويحاول أن يعالج مشاكله وما فيه من اتجاهات ومعان وأفكار.

يقول أحد شعراء[1] العصر العباسي الأخير في جانب من الحكمة:

المرء يجمع والزمان يفرق   ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولأن يعادي عاقلاً خير له   من أن يكون له صديق
فارغب بنفسك لا تصادق   إن الصديق على الصديق
وزن الكلام إذا نطقت   يبدي عيوب ذوي الكلام
ومن الرجال إذا استوت أحلامهم
من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه   فيرى ويعرف ما يقول وينطق
فبذاك يوثق كل أمر   وبذاك يطلق كل أمر يوثق
وإن امرؤ لسعته أفعى مرة   تركته حين يجر حبل يفرق
لا ألفينك ثاوياً في غربة   إن الغريب بكل سهم يرشق

---

[1] صالح عبد القدوس، النقد والبلاغة السابق، ص138.

مـــا النـــاس إلا عـــاملان قـد مـات مـن عطـش وآخـر

والنـاس فـي طلـب المعـاش بالجد يـرزق منهم مـن يـرزق

لكنـه فضل المليك عليهم هـــذا عليـــه موســـع وذاك

لـو سـار ألـف مـدجج فـي لـم يقضـها إلا الـذي يترفـق

إن الترفـق للمقـيم موافـق وإذا يســـاير فـــالترفق أرفـــق

فهو يسوق من التجارب والحكم ما يراه الناس حقيقة ملموسة، يتمثلون بها في المواقف التي تتطلب منهم الاستشهاد والاسترشاد، وقد عبر الشاعر بذلك عن المعاني التي كان العصر يرى فيها النموذج المثالي الذي ينبغي أن يتوخى في الحياة، باعتباره خلاصة للتجارب المستقاة من الواقع الذي مر به الإنسان، وهو بهذه الصورة صالح للاهتداء به في كل وضع وحين.

فالإنسان يجمع الشتات في هذه الحياة والزمان بمروره يفرق ذلك، وتستمر معه معاناة الإنسان، وإذا عادى الإنسان عاقلاً حكيماً خير له من أن يكون له صديق أحمق؛ لأن الإنسان العاقل جميع تصرفاته لا تصدر إلا عن روية وبعد نظر ورجوع إلى الضمير، وأما الإنسان الأحمق الجاهل فإن تصرفه بعكس ذلك فضرره أكثر من نفعه. وهذا الاعتبار يدعو الإنسان أن يتخير أصدقاءه، بحيث لا يصادق إلا الإنسان العاقل إن أراد التوفيق في الحياة، ثم إن الإنسان قبل أن ينطق في المواقف التي يكون فيها الكلام مطلوباً، ينبغي له أن يزن كلامه لأن عيوب الإنسان ومعرفة عقله تبدو من كلامه.

والرجال أصناف: منهم من إذا طلب منه الرأي والمشورة تدبر قبل أن يجيب ويكون جوابه ورأيه مبنيين على اعتبارات يرى منها ويعرف ما يقول، وبمثل هذا الصنف من الرجال يفصل في الأمور التي تتطلب الفصل.

ومن التجارب التي مر بها الإنسان في الحياة التي يحياها، أنه إذا لسعته حية ظن كل حبل يجر أمامه صورة لها ويبعث ذلك في نفسه الخوف والانزعاج، والاغتراب عن الأوطان شيء غير مرغوب؛ لأن الإنسان الغريب دائماً مهيض الجناح، والناس في هذه الحياة نوعان: نوع مقتر عليه، وآخر غارق في النعم، وهم جميعاً يسعون في طلب المعاش، ويرزق منهم من يرزق بالسعي والمثابرة، وكل ذلك راجع إلى فضل الله ﷻ الذي قسم الأرزاق بينهم بما اقتضته إرادته وحكمته ومشيئته، والترفق في أمور الحياة ومساعيها مهم ومطلوب، فإنه لو سار في قضاء حاجة ألف مدجج بالسلاح لم يتمكن من قضائها إلا الإنسان المترفق الذي يزن تصرفه وخطواته ويأخذ الأمور برفق وروية وبعد نظر. وإذا كان الترفق بهذه الأهمية فإنه في جميع الأحوال التي يمر بها الإنسان مطلوب وفي السفر أشد.

فهذه القطعة فيها من النظرات الصائبة في الحياة الشيء الكثير، رغم أن الشاعر عرضها عرضاً ذهنياً وبصورة شاملة لا ترتبط بتجارب معينة تهيئ وجداننا لها، وتجعلنا نتأثر بها بقوة وعمق.

والسؤال الذي يثار هنا: هل هذه القطعة تمثل الواقعية أو تتصل بها؟ وقبل الإجابة على ذلك ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن الواقعية لها عدة تفسيرات، فهي من الجوانب النسبية تنطبق على هذه القطعة حيث إن هذه القطعة ما هي إلا ترجمة لما يدور في نفس الشاعر من إحساس ومعاناة وارتباط، بما كان يدور في العصر من ألوان الأفكار والتصاريف والمعاني التي تدور في الواقع الذي كان الشاعر يعيش فيه ويتقلب في أكنافه، ولا يستطيع أن ينفصل عنه وعما فيه من معطيات ومدلولات ومفاهيم.

هذا لون من الواقعية يمثل صورة عصر ومضامين عامة، وهناك لون من ألوان الواقعية يعبر عما يحس به الشاعر في نفسه من أجواء.

3 . يقول الشابي[1] من قصيدته: صلوات في هيكل الحب:

أنقذيني من الأسى فلقد — أمسيت لا أستطيع حمل
في شعاب الزمان والموت
تحت عبء الحياة جم القيود
وأماشي الورى ونفسي — وقلبي كالعالم المهدود
ظلمة ما لها ختام وهول — شائع في سكونها الممدود
وإذا ما استخفني عبث — تبسمت في أسىً وجمود
بسمة مرة كأني استل — من الشوك ذابلات الورود
فانفخي في مشاعري — الدنيا وشدي من عزمي
وابعثي في دمي الحرارة — أتغنّى مع المنى من جديد
وأبث الوجود أنغام قلب — بلبلي مكبل بالحديد
فالصباح الجميل ينعش — حياة المحطم المكدود
أنقذيني فقد سئمت — انقذيني فقد مللت ركودي

فهو يصور واقع نفسه في هذه القطعة، إذ يحيط به جو من الظلام والأسى تخير له من الألفاظ والصور والأخيلة الأسى والموت والقبر والعالم المهدود والظلمة والجمود والقلب المكبل بالحديد.

---

[1] أبو القاسم كرو السابق، ص158.

فالواقعية هنا هي تعبير الشاعر عما يدور في نفسه، من وجدان وإحساس، وهي أمر ضروري في كل إنتاج أدبي، إلا أن المطلوب فيها هو الانصهار مع الواقع الاجتماعي والتعبير عنه بنفس الإحساس الذي يحسّ به الفرد المعبر، سواء كان شاعراً أو كاتباً أو سواه.

ومن هذا الاعتبار كان النشاط الأدبي المنطلق من الواقع هو الترجمان المعبر عما يدور في العصر والمجتمع من أفكار ومشاعر وأحاسيس، وكان الصدق فيه هو العمق الذي يستطيع أن يصوره وينقله من ذلك الواقع.

والصدق في النشاط الأدبي يستطيع أن يستوعب حاجات المجتمع ومتطلبات الحياة ويستقطب الحقائق التي تقوم عليها الحياة المعاصرة، بكل ما فيها من تقدم وتطور وتقنية وكشوف علمية زاخرة بالعطاء والجديد.

5 . التنوع في المناهج والتوجهات التي سلكها الفكر العربي:

1 . وفي الفكر العربي قديماً وحديثاً استطاع التنوع أن يؤكد كثيراً من الجوانب التي اهتم بها الواقع الذي كان الإنسان العربي يعيشه ويشكل عموده الفقري، وهو الأمر الذي أكسب الفكر العربي مسحة خاصة، في تناوله للقضايا العامة التي تعرض لها وعالجها، وفي تعامله مع الأوضاع الاجتماعية ومشاكلها بصورة خاصة.

وأبرز مثال لذلك وأصدقه الصور الفكرية التي يقدمها الأدب العربي في مختلف العصور التي مر بها، وتخلل جميع ما فيها من أهداف ومعان ورغبات، وصوّر كل ما تفاعل به الإنسان العربي فيها حول الحياة، من مفاهيم منها الجديد والقديم، ومنها المتطور الذي ساهم بفعل وجدية في بناء الإنسان

وتقدمه ودفعه إلى الأمام، في كل مناحي الإيجاب الحافزة على الخلق والإبداع والابتكار في جوانب البناء والعطاء.

وبهذا التوجه الذي سلكه الأدب العربي منذ القدم كان الربط بينه وبين الفكر أمراً عضوياً لا يمكن أن يتأتى فيه الفصل والانفصام، بل كان المقياس لقيمة الإنتاج الأدبي وترجمته للمعاناة الصادقة هو ما يتوفر فيه من عمق فكري وما يعطيه من أبعاد تصورها الأجناس الأدبية، التي هي القصة، والقصيدة، والخطابة، والمقالة، وغيرها، ذلك التصوير الذي يبرز محاسنها وعيوبها، ويؤكد ما في طواياها من أصالة أو جدب، السبيل التي منها يتمكن المقدرون لأهمية الصورة الأدبية من الوصول إلى المسحة الفكرية التي استطاعت الأجناس الأدبية أن تعمقها وتلتزم بها وتتمكن بها من الفاعلية، في المجتمع الذي تدور فيه وفي نفوس الأفراد الذين يتعاملون معها ويتخذون منها وسيلة من وسائل التعبير والإعراب عن الأفكار التي تدور في نفوسهم، ويرون فيها كثيراً من جوانب الإصلاح وتطوير الحياة وتوكيد سبلها وتطويع مشاكلها، بإيجاد الحلول العملية، وبطرح الأفكار النيرة التي تأخذ من الواقع الاجتماعي أهم ما فيه من قيم، وأدق ما فيه من حصائل استطاعت الدراسة الهادفة والبحث الدقيق أن يصلا إليها.

وفي الأصول الأساسية التي سلكها الجنس الأدبي يتجذر الفكر، وبذلك التجذر يتحدد المسار الذي يسلكه الجنس وإطاره الذي لا يتعداه، وبه تعرف خصائصه ومزاياه وقدرته على الأداء للأهداف التي يرمي إليها المفكرون والمعانون للتجارب الأدبية والفكرية المتغددة، التي لا تقف عند حد معين من حدود التصوير والتفكير والتعبير الذي يترجم التفاعل والطموح والإحساس النفسي في المواقف الفردية والاجتماعية وغيرها، مما هو مدار لموضوعات

الأجناس الأدبية بكل ما فيها من أبعاد، وما تشمله من خصائص، من أهمها الوضوح الفكري وإيجابيته والتلاؤم العملي مع ما يدور في الواقع الاجتماعي من انفعال وشعور وإحساس بضرورة التصدي لما يجري فيه من تصريف، في شؤون الحياة بين الناس الذين يعانون بكل صدق ما فيها من شدة أو رخاء، ويقدمون عصارة أفكارهم من أجل رصد الظواهر الاجتماعية التي تتقلب فيها بين الحين والآخر، وتعكس ما تحدثه من إفرازات وآثار في نفوس الناس الذين يعيشونها ويحاولون أن يقفوا على كل تلك الظواهر وأسبابها وآثارها ووسائل العلاج الذي يتأتى فيها وفي عواملها، التي أوجدتها أو ساهمت فيها من قريب أو من بعيد، أو مهدت لظهورها في ظروف وأوضاع معينة ثم تلاشت وأصبحت في خبر كان.

وهذه النظرة ليست مهمة فقط في تعميق الإحساس بالظواهر الاجتماعية وضرورة التركيز عليها في المعاناة الأدبية وترجمتها بأي شكل من أشكال الترجمة وأساليبها المختلفة في الإطار والمضمون والهدف، ولكنها مهمة أيضاً بالنسبة للناقد الذي يعنى بقيمة الجنس الأدبي وتأثير الإنتاج الأدبي في الأوضاع الاجتماعية وتغذية الفكر وتطوير أساليبه، التي يعد الأدب بما فيه من أجناس وما يحويه من إمكان نوعاً منها، وصورة صادقة لما في الفكر الإنساني من جوانب معبرة عن إحساس الإنسان وانفعاله في كل زمان ومكان، والأدب العربي وهو يعبر هذه السبل لم يكن إلا لوناً من ألوان الفكر ووسيلة من وسائله الكثيرة في حياة الأمة العربية وتطوير حياتها وتقدمها وتوخي كل ما يحدث أمامها من جديد في الوجود.

وبهذا الاعتبار كان الأدب العربي رافداً من روافد الفكر، في تاريخ الأمة العربية، وفي الواقع الإنساني وحضارة البشر. وقد استطاع الاتجاه الفكري في

الدراسات الأدبية أن يعمق أصالتها ويغرس فيها المعاني الإيجابية التي يرى فيها الناقدون القوة الأساسية التي مكنتها من الاستفادة من التيارات الوافدة، ومن إحداث التجديد كلما دعت الحاجة إليه، بالنسبة لواقع الحياة التي يصورها الأدب ويدور في إطارها، وبالنسبة للحياة العامة الشاملة التي يعيشها العصر في كل مجال من التطور والتقدم والاختراع، الأمر الذي يحتم على رجال الفكر وتتبع خطواته أن يعنوا بكل ما في الأدب من نماذج وصور ومضامين، وأن يولوا عنايتهم الكبيرة بما فيه من جوانب التأثير والتجديد، التي تترجم بكل ما للصدق من معنى مفاهيم الفكر وحركته.

والدراسات النقدية التي تعنى بفحص الإنتاج الأدبي تتجه في كل خطواتها نحو الفكر الذي يشتمل عليه ذلك الإنتاج، فهو الذي يؤكد قيمته ويدعم فاعليته ويجعل منه عنصراً إيجابياً في فهم كل ما يحيط بالمجتمع من أبعاد، ومتى كان الإنتاج الأدبي فيه ضحلاً فإنه لا يعد جيداً ولا يعطي العناية العامة بما يطرحه من تجديد ونظر في التطوير الذي تتطلبه الحياة، وهذا في واقعه تأسيس للنظرة الموضوعية التي تنطلق منها الأفكار التقييمية للإنتاج الأدبي الذي يراد منه دائماً أن يكون عاملاً في بعث الإصلاح وعوامله في الحياة الاجتماعية التي يصورها الأدب ويعنى بها، وهي السبيل التي لم ينفك الأدب العربي عن سلوكها والارتباط بها مع التصاقه في ذلك بالفكر وما فيه من قوة مؤثرة على الإنسان في كل زمان ومكان، وخاصة في هذا العصر الذي تلون كل شيء فيه بما في الفكر من خصائص لا يمكن للحياة أن تقوم بدونها ودون العمل على تحقيقها وتدعيمها وإشعار الناس بضرورة الوعي بكل ما فيها من إيجاب.

فالفكر العربي بالإمكان الذي يكمن في أعماق المشاعر لهذه الأمة الخالدة يستطيع أن يقدم للإنسان من الصور والنماذج والحلول العملية لمشاكله ما يعد

ابتكاراً وجديداً في الحياة المعاصرة، التي هي في حاجة إلى ذلك وإلى كل ما يحدثه من تأثير وتعميق في مناحي التقدم والتجديد التي يراها العصر ويؤمن بها أهل الفكر ورجال الدراسة والبحث الذين يتابعون الحقيقة ومناهج العلم ومنطق التطور الشامل في كل مجتمع من المجتمعات المعاصرة فوق الأرض وفي هذا الوجود.

2 ـ يقول أحد الشعراء من العصر الحديث ولعله العوضي[1] الوكيل في الطبيعة والتفاعل معها، ومع ما فيها من ألوان يستلهم منها الشاعر المعاني التي يحس بها في نفسه ووجدانه ومشاعره:

أهدت الأرض للسماء من ... بخاراً تجمعت منه مزنة
ثم سارت والصباح حيناً ... وحيناً ترنو إليها دجنة
تحمد الأرض من علو أن ... عليها من قبل ذلك منة
وتحيي رياضها ومغانيها ... وللأرض حين تخضر فتنة
ثم سارت حتى رأت مهامه ... جديبة والجدب للأرض محنة
فهمت فوقها ترد جميل ... قدماً فأصبح القفر جنة

فهذه القطعة فيها من الإحساس بالطبيعة ومفاتنها الشيء الكثير، وهي تصور فعل الماء في الأرض وفي إحيائها وبعث ما في باطنها من خيرات مودعة، هي الأساس للحياة فوق أديمها، وتوضح أن السحاب يتكون من البخار الصاعد إلى السماء من الأرض، وهو جميل تسديه الأرض إلى السماء التي تعود برده مطراً يجدد فيها الحياة ويبعثها في الجديب منها، وبعث الحياة

---

[1] شاعر معاصر.

في الأرض هو اخضرارها وعطاؤها وبث الجمال في أطرافها وإفادة الإنسان والحيوان فيها وتمتعه بما يلمسه ويراه عليها من ألوان الجمال، وصنوف الأعشاب والأزهار والأشجار، بكل ما فيها من أوراق وثمار يجد فيها الإنسان والحيوان الراحة والغذاء والتنفيس ويتنفس فيها الكون بما يحمله في طياته من معالم يبدو فيها الفكر ويجد في أرجائها ما يدفعه للبحث ومواصلة التأمل والاهتمام والعناء.

وتحمل هذه القطعة بالإضافة إلى ذلك المعنى النفسي الكبير الذي يدور في جوانح قائلها، وهو الاعتراف بالفضل والجميل لذويه دائماً؛ ولذلك نراه يربط بين العطاء الذي تقدمه الأرض للسماء من البخار والعطاء الذي ترده السماء للأرض من الأمطار بأنه رد للجميل إذا صح هذا التعبير على هذه المبادلة التي لاشك في أن سوق الشاعر لها ما هو إلا إفراز لما يدور في نفسه من مشاعر وأحاسيس تجسّد معدنه وأصالته الإنسانية في هذا الاتجاه الإنساني الذي يدل على نقاوة نفسه وصدق عاطفته فيما يقدمه من عطاء في عالم الفكر والمعرفة.

وفي هذه القطعة نلمس ملامح الفكر الذي يتخلل أطرافها في كيفية تكون السحاب ثم سيره في السماء فوق الجبال والوهاد والسهول ومده الأرض بالأمطار وما يترتب عن ذلك من بعث للحياة في أجمل صورها وأنصع صفحاتها وأعمق معانيها.

فهذا اللون من التصوير أسلوب من أساليب الفكر ومناهجه التي تهدف دائماً إلى التطوير والتفتح على ما يكون في الكون والحياة من أسرار وأعماق، وهذا الأسلوب الذي سارت عليه هذه القطعة رغم أنه أسلوب يختلف عن

أساليب العلاج في وصف الطبيعة والإحساس بها في الشعر العربي القديم هو أسلوب في إطاره العام التزم به الفكر العربي في سيره مع الأدب وما له صلة بحياة المجتمع العربي في كل عصر، وفي كل جانب من جوانبه المتعددة التي لم ينفك الفكر عن علاجها والاهتمام بها.

3 . تتصدى الدراسات الحديثة في أهم اتجاهاتها إلى المبتكرات المستجدة في مختلف قطاعات الفكر والمعرفة وتحاول في تلك الاتجاهات أن تعطي للحياة وجهها المشرق الذي يعكس ما فيها من إيجاب في تقدم الإنسان ووعيه ونضوج تفكيره، وفي نفس الوقت تبعث في مسارها التوجيه الذي يؤكد للإنسان أن التجديد في تفكيره ومعرفته يرتبط بالاكتشاف العلمي الذي يستطيع التوصل إليه من الجهود المتواصلة التي يبذلها في هذه السبيل، وما يتصل بها من الجوانب والمناحي الفكرية التي تتضافر الرؤية فيها نحو الاتجاهات الدراسية الجادة التي تهتم بمختلف جوانب المعرفة، وتعمل على تجنيد الجهود لتطويعها والاستفادة منها في قضايا الحياة وتيارات العصر ومشاكل الإنسان في كل مكان، وتنطلق من ذلك إلى تحليل الواقع الذي يعيشه المجتمع الإنساني وما يجري فيه من تصرف وإمكان تتأثر فيه الرؤية الفكرية بين جميع الدارسين، بما تتفاعل به الحياة في ذلك المجتمع من نشاط وحركة وأساليب في فهم القضايا المعاصرة والتعامل معها، ومع قواعد الفكر ومناهجه التي تسلكها تلك الدراسات بشتى أنواعها، وتطبقها الفئات المتعددة التي يضمها ذلك المجتمع بكل ما فيها من سلب وإيجاب وبكل ما يمكن أن يوجه إليها من نقد وتقويم، في جميع تطبيقاتها النظرية والعملية التي تتوخى الحقيقة ومن ورائها تحاول أن تغوص في الحياة المعاصرة، وأعماق ذلك المجتمع الذي تتمثل فيه وتسعى كثير من الفئات أن تجعل النموذج الفكري الحديث متفقاً مع ما فيها من صدى للحديث

والاكتشاف العلمي، الذي يقوم على الابتكار والإبداع واستقلال الرأي والتأمل في واقع العصر بما يوجد فيه من إمكان، وتفاعل وصور نابعة من الأحاسيس والانفعالات المشتركة بين الناس الذين يعانون ما يجري في الواقع الذي يضمهم جميعاً، ويترجمون ذلك في إنتاجهم الذي يتناوله الدارسون والنقاد ويخرجون منه بحصيلة واسعة نرى من خلالها مختلف الاتجاهات، التي نقبل بعضاً منها ونراه ضرباً من التجديد وفتحاً في عالم الفكر والإبداع، ونرفض بعضها الآخر لأنه بعيد عن الرؤية الواضحة التي يلتزمها العصر الحديث، وتواكبها أساليب المعاناة بين المفكرين والباحثين الذين يعنون بالتجديد ونماذجه وأساليبه وأهدافه.

ومع ذلك فإن الالتزام بفهم الجوانب المشرقة وغيرها في الاتجاهات الدراسية الحديثة أمر تحتمه النظرة الواقعية، التي تقوم على الصدق ومسح ما في الأعماق التي تتناولها تلك الدراسات بالتحليل، وهذا هو الذي يؤكد الوقوف حول ما فيها من إيجاب وعمق في مجالات التحليل وآفاق الكشف عما في الحياة ونماذج التفكير والتفاعل والتصرف فيها من أبعاد لها أثرها الكبير في سطحية تفكيرنا أو عمقه.

وحين نتناول النماذج والصور وشرائح المشاكل والقضايا المعاصرة بهذا الأسلوب من الدراسة والبحث نستطيع أن نحدد ما فيها من أبعاد، تجعلنا على يقين من أهميتها البالغة ودورها الأكيد في فهم الواقع الذي نعيشه بمنطق علمي لا أساس فيه إلا للرأي الصائب السديد الذي يأخذ الأشياء بما تتضمنه من محتوى ومضمون، ويعالج ما يلامس الحياة من ألوان بما فيه من صواب وسداد وصدق يراه المجتمع بكل ما فيه من قطاعات وبيئات أمراً مقبولاً، وأسلوباً جاداً في معالجة جميع القضايا المعاصرة التي تترجمها معاناة الناس لكل ما يجري بينهم من تفكير ومحاولات، في الخلق وممارسة النشاط الجاد لتطوير الحياة

ومواكبة روح العصر بما يحمله في طياته من أبعاد ومفاهيم واكتشافات جادة، في ميادين التقدم والتطور وتسخير الطبيعة وإمكانياتها لإرادة الإنسان، وتحقيق طموحه وأهدافه التي لا تنتهي عند حد من الحدود في هذا الوجود الواسع الفسيح.

وهذا التوجه الذي تسلكه الدراسات المعاصرة بهذه الرؤية الدقيقة الفاحصة نوع من المناهج العلمية التي يتسم بها العصر الحديث، وهو يحاول تفسير الحياة والظواهر التي تحتويها بمنطق علمي يعتمد الحقيقة وقواعدها وما تؤدي إليه من نتائج وإمكان، ورغم أنه توجه لا يعتمد أو لا يهتم بما في الماضي من حقائق وأحداث ذلك الاهتمام الكبير الذي يعطي لهذا الماضي حجمه المناسب الذي يساعد على تفسير الحياة وظواهرها تفسيراً سديداً، فإنه في حقيقته اتجاه علمي صادق يمكن الدراسين والنقاد من فهم كل ما يتناولونه من مدلولات العصر ومعطياته التي توضح ما فيه من السلب والإيجاب.

وهذا هو المنهج الذي تتطلبه الفكرة الرائدة التي تحاول أن تخدم الإنسان وتدفع بالحياة إلى مجراها الطبيعي الذي يأخذ ما في العصر من ميزات ويعكس على الناس ما فيه من إشراق، في فهم كل ما يتفاعلون فيه من آثار باعثة على الحركة والنشاط وبذل الجهود بما يعود على المجتمع المعاصر من فاعلية وتجديد هادف وبناء، في المجالات الأساسية لحياة الإنسان وتنظيم مفاهيمه ومداركه التي يستفيد منها الواقع ويتطور بالمستوى والقدر المرغوب، الذي يؤكد النهضة ويبرز معالمها ويساهم في إرساء دعائمها الأصيلة التي تقوم على الدراسة المجددة والأفكار المبدعة التي تهيئ للناس سبل الحياة وأساليبها الصادقة.

يقول الجاحظ في وصف رجل نهم على الطعام في صورة فنية بديعة تصور ذلك الرجل تصويراً دقيقاً:

كان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر وتربّد وجهه وعصب ولم يسمع ولم يبصر، فلما رأيت ما يعتريه ويعتري الطعام منه صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلاء، ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفه سفاً وحساه حسواً أو زاد به زوداً ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ثم يأخذ بحضنيها ويقلّها من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ورفعاً وخفضاً حتى يأتي عليها جميعاً، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث ولم يفصل تمرة قط من تمرة، وكان صاحب جمل ولم يرض بالتفاريق ولا رمى بنواة قط ولا نزع قمعاً ولا نفى عنه قشراً ولا فتشه قط مخافة السوس والدود، ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرور.

فهذه الصورة التي يصور بها الجاحظ هذا الإنسان النهم أسلوب سار به الجاحظ في كتابه البخلاء الذي سرد فيه قصصهم ومواقفهم ونوادرهم وحبهم للمال وتكالبهم عليه، وعلى جمعه بمختلف الوسائل والطرق، وهو أسلوب فكه متهكم يغوص في أعماق النفس الإنسانية، ويدرس به الحياة المعاصرة التي كان يحياها وكانت تعج بمختلف الألوان من الرغبات التي تغمرها الحياة ويتقلب فيها الناس بأمزجتهم المتعددة التي تتباين في أشكالها وأهدافها.

وهي دراسة اجتماعية جادة استطاع منها الجاحظ أن يصور ما يجري في عصره بدقة متناهية، وأن ينقل منها الصور والنماذج الحية التي تمكّن الدارس

من الوقوف على المناخ الذي كان أولئك الأفراد من المجتمع يعيشون فيه وينظرون للحياة من خلاله.

ودقة التصوير في هذه النماذج التي استطاع الجاحظ أن ينتقيها من واقع الحياة جعلت لدراسته وموضوعاتها أهمية كبيرة، من حيث العمق والإحاطة بالموضوع والصياغة والسبك الفني الذي يوضح الصورة والنموذج في الوضع الحقيقي.

والصورة التي أمامنا من ذلك تؤكد لنا هذه الحقيقة التي تميز بها أسلوب الجاحظ الذي لم تفارقه الدعابة وروح الفكاهة، في كل ما تصدى له من الكتابة وأنواع المعاناة في شتى أنواع الفنون والعلوم والآداب، ويستطيع الدارس لجانب البخل الذي عرضه الجاحظ في كتابه البخلاء أن يقف على كثير من الحقائق العلمية التي تجعله على بصيرة بالأعماق الاجتماعية وآثارها التي وفدت إليها من المجتمعات التي انصهرت في المجتمع العربي في ذلك الحين.

وبالرغم من أن هذه الدراسة كانت لوناً من ألوان الأدب ونموذجاً من نماذج الظرف والفكاهة والطرافة، فإنها في حقيقتها دراسة موضوعية من الجانب العلمي والاجتماعي في هذا المجال الذي يعتبر التطرق إليه من قبل الجاحظ تجديداً وابتكاراً وواقعية ونوعاً من الارتباط بقضايا العصر والنماذج التي توجد فيه من ألوان المعاصرين الذين تعنيهم تلك الدراسة قبل غيرهم من المهتمين بشؤون الفكر وقضاياه.

وتمثل هذه الدراسة الاتجاه البارز في البحث عن صور الحياة التي تشملها المعاصرة وتلون الفكر الاجتماعي بما تقتضيه الروح الثقافية المبدعة التي تدفع بالمجتمع ومناهج التفكير فيه إلى المزيد من العطاء والتقدير لما يدور فيه، من

إمكان هو في حاجة إلى التفتح والتنشيط الذي يبعث فيه الحيوية ويسلط الأضواء على مختلف ما فيه من قطاعات وزوايا وآفاق يكون في تسليط الضوء عليها وكشفها وإظهار مكنونها القسط الكبير، من المساهمة في تقدم البشر وخدمة المجتمع الإنساني وقضايا الفكر والحياة في إطارها العام.

وهذا ما نحسّه ونحن ندرس الصور والنماذج التي قدمها لنا الجاحظ في مجال البخلاء وغيرهم.

وبغض النظر عن القدرة الفنية والأدبية وسواها مما تميز به الجاحظ في آفاق الفكر والمعرفة، فإن المنهج الذي توخاه في هذه الدراسة كان من المناهج المهمة للدراسات الجادة التي تحاول أن ترتبط بواقع العصر، وما فيه من مفاهيم وأعماق يجد فيها الدارسون والباحثون المعاني التي ينشدونها وهم يحاولون أن يطوروا ذلك الواقع بما في العصر من إمكان.

ومهما اختلفت وجهات النظر واتجاهات الدارسين في فهم وتقويم الواقع المعاصر فإنها لا تختلف إطلاقاً على ضرورة التركيز على الصور والنماذج التي تعج بها الحياة المعاشة، حين القيام بالدراسة الواقعية لأوضاع المجتمع وما يكمن فيها من إمكان يبعث على التطور والاتجاه لما تمليه نتائج هذه الدراسة والجهود المبذولة فيها.

ولا يعني ذلك الابتعاد عن المناهج والنظريات التي تثار من حين لآخر وتتصل بالواقع اتصالاً مباشراً، بل هذه الوجهة لابد من الاهتمام بها وأخذها في الاعتبار كي تستطيع الدراسة الجادة أن تقدم للفكر جهودها المثمرة وأفكارها الهادفة البناءة التي يجد فيها الإنسان المعاصر الحلول الإيجابية لمشاكله وقضاياه، ويبعث منها الإحساس الدقيق لما يجري في العصر من تطور وتقدم

لا يستغني عنه المجتمع وعن مواكبته حتى يستطيع أن يسير بجدارة في ركب الحياة المعاصرة التي تفرض على الإنسان مهما كان حجمه من التفكير والفاعلية أن يكون واقعياً في جميع تصرفاته وسلوكياته وأفكاره وعلاقاته العامة والخاصة حتى يكون عطاؤه إيجابياً وصادقاً.

4 . والتوجهات التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية في سبيل توطيد الدعائم التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني في أي وضع من أوضاعه التي يمر بها تعتمد فاعليتها وتأثيرها على النظريات التي تستند عليها وتستلهم منها الرؤية التي تفسر بها الأشياء والظواهر التي تلاحظها، في الواقع الاجتماعي الذي تعالج ما فيه من مشاكل وقضايا وأفكار يقوم عليها ذلك الواقع وتتعمق فيه جذورها وآثارها البعيدة والقريبة، بكل ما فيها من إمكان وأصداء، وبكل ما تتضمنه من مفاهيم وأعماق يرى فيها كثير من الدارسين الاعتبارات المتعددة التي تحملهم على الافتراض الذي يرتادونه؛ كي يصلوا إلى الحقائق التي تكمن في تلك المفاهيم والأعماق وتستمد منها الاعتبارات التي يراها أولئك الدارسون خلاصة ما تصل إليه من تطورات، في مجالات الفكر وميادين النشاط المعرفي الذي لا ينهض في حقيقته الشاملة إلا على ما في الفكر الذي يستند إليه من أصالة ونقاء وتأثير، في واقع الحياة الاجتماعية التي تضمه وتحويه وتنعكس ملامحها على ما فيه من سمات وصور ونماذج تلعب دورها الكبير في تفسير المعاناة التي يكابدها المهتمون بتغيير مجرى الأوضاع الاجتماعية والتحولات التي تطرأ على الحياة الفكرية، بكل ما فيها من سلب وإيجاب، وبكل ما تستطيع المحاولات الإنسانية الجادة أن تقدمه من جهود وبذل وعطاء، في ميادين التفكير والتطور والتحول نحو الأفضل الذي يتجه إليه الإصلاح وتنشده الجهود المبذولة في سبيله وسبيل ما يؤدي إليه من نتائج يراها الباحثون مصدراً أساسياً

وهدفاً حياً من أهداف الدراسات الجادة والبحوث المثمرة التي لا تدور في الفراغ، ولكنها تستبطن وتقوم وتقدم النتائج التي يراها الإنسان نمطاً واقعياً لما يشعر به من حاجة في حياته العملية التي يعايش أساليبها ومتطلباتها، وما يبدو فيها من دروب يترتب على السير فيها ذلك الإحساس العميق بما تضمه في طياتها من معان تختلف نظرات الباحثين فيها تبعاً لإحساسهم بما فيها من أهمية وتأثير، في مناهج الفكر وأنواعه وأصوله وفروعه وملامحه وسماته المتعددة والمختلفة، الأمر الذي يفرض على المتأملين أن يكونوا على بصيرة ودراية بما في الحياة الاجتماعية العامة التي يتعرضون لدراستها، والتأمل في أكنافها وما تحمله في أوضاعها من مقومات وقيم تعتمد عليها تصرفات الناس الذين يزاولونها وينطلقون منها إلى أهدافهم التي يرونها في تلك الحياة.

وعلى ضوء تلك المقومات والقيم التي لابد من أن تكون معتمدة على أسس ومصادر هي التي يتخذونها المبرر الحقيقي لما يقومون به من نشاط وتصرف، في ذلك الاتجاه الذي يتجهونه وتلك السبيل التي يسلكونها، وبقدر ما يكون لتلك المقومات والقيم من عمق وأصالة في قطاعات الفكر واتجاهاته يستطيع الناس الذي يعنون بها ويستلهمونها أن يقدموا في مجالاته من عطاء ونظريات تعكس لتلك المقومات والقيم معانيها وأبعادها الحقيقية التي يرتكز عليها النشاط الفكري والأدبي والفني، وما فيه من مدلول يبعث على الخلق والإبداع ويحفز على الابتكار والمبادرة التي يتطلبها الإيمان الصادق ببناء المستقبل الذي يطمح إليه المفكرون، الذين يوالون الجهود من أجل ذلك المستقبل وبنائه الشامخ الذي يقوم على ما في الواقع الإنساني من وعي ونهضة وابتكار واكتشاف علمي وتطور هائل في ميادين المعرفة والثقافة والدراسة، وما فيها من مناهج تستطيع أن تبرز الألوان المختلفة للملامح الفكرية التي تدور في الواقع المعاصر، ومنها

تستطيع كذلك أن تحصر العوامل المؤثرة في مختلف الاتجاهات التي يحاول الدارسون أن يتجهوا نحوها كي يقدموا فيها ما يرونه من إحساس وانفعال وتأثر.

وفي ذلك الحصر لتلك العوامل المؤثرة في اتجاهات الدارسين إحاطة شاملة بالتيارات الدافعة للتفكير والباعثة على ما في تلك الدراسات من أبعاد قد يكون لها أساس في البيئة التي تدور فيها، أو أساس وافد دعا إليه ما في التقدم العلمي الشامل والتطور الذي تمر به الحياة الإنسانية في إطارها العام من إمكان.

وهذا في حد ذاته شيء له أهميته البالغة في التوجهات التي يقوم عليها الفكر في جوانبه وميادينه ومجالاته المتعددة التي يتوخاها الباحثون والذين يعنون بالمصادر التي تعتمد عليها توجهات الفكر الإنساني، وما تبدو فيه من صور وألوان ونشاط يتخذه منطلقاً للدراسة والتقويم وتعكس فيه ما نلاحظه من نظريات وقواعد تحاول تطبيقها والتقيد بها، والرجوع إلى أصولها التي انبثقت منها وكانت أساساً لما فيها من إمكان وظلال بارزة نشعر منها بما تحمله من أبعاد، في نطاقها يترجمها ذلك الإحساس والشعور بكل صدق ويعبر عنها ما نحسّ به من وجدان بكل عمق لا لأنها نظريات وقواعد مجردة، ولكنها توجهات فكرية نابعة من أعماق إنسانية قائمة على الواقع بكل ما يحمله من مفاهيم في عالم التطور والتفكير الهادف البناء الذي يحاول ويعمل ويصر على الصدق والإيجاب والخلق والإبداع الذي يتيح ويقدم العطاء الإيجابي الفاعل في الحياة.

كتب الصاحب إسماعيل بن عباد[1] إلى أحد أصدقائه وقد أهدى إليه مصحفاً:

البر ـ أدام الله السيد ـ أنواع تطول به أنواع، وتقصر عنه أنواع، فإن يكن فيها ما هو أكرم منصباً وأشرف منسباً فتحفة السيد إذ هدى ما لا تشاكله النعم ولا تعادله القيم، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله ﷺ ودليله، طبع دون معارضة على الشفاه، وختم على الخواطر والأفواه، فقصر عنه الثقلان وبقي ما بقي الملوان لا ئح سراجه واضح منهاجه منير دليله عميق تأويله، يقصم كل شيطان مريد ويذل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى في مطولات الأسفار، فأصف الحظ الذي بهر الطرف وفاق الوصف وجمع صحة الأقسام وزاد في نخوة الأقلام بل أصفه بترك الوصف، فأخباره آثاره وعينه قراره وحقاً أقول إني لا أحسب أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت وابتدع في استكتابها ما ابتدعت، وأن هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادة الفرع على الغرة، بل زيادة الحج على العمرة.

الصاحب إسماعيل بن عباد هذا من أساطين الفكر في أواخر العصر العباسي، وكان من رجال الدولة البويهية الذين اهتموا بالعلم وعنوا بالتوسع فيه وله فيه القدم الراسخة، وتآليفه كثيرة، من أشهرها كتابه الصاحبي في اللغة وفقهها، ويعد في الكتابة الثاني بعد ابن العميد في عصره، وكان أبلغ من سلك طريقة ابن العميد في فن الكتابة، وقد أولع بالسجع والجناس واستطاع بشرف العلم والأدب هو وأستاذه ابن العميد أن يصلا إلى المنازل العليا وأن يكونا

[1] جواهر الأدب السابق، 168/2. والوسيط في الأدب العربي وتاريخه السابق، ص212.

المثل المحتذى في عصرهما، ومؤسسي المدرسة الفنية في الكتابة رغم غلبة طابع الصنعة على الأسلوب الذي سلكاه فيها.

وفي الرسالة التي سلف ذكرها يتضح لنا أسلوبه الذي غلب عليه السّجع والجناس وحسن التقسيم وغيره مما هو مادة الصناعة اللفظية وتزيينها، الأمر الذي يراه المهتمون بهذا الاتجاه تضلعاً وعمقاً في الأصالة اللغوية والفنية.

وقد كان هذا الأسلوب في العصر الذي عاشه الصاحب إسماعيل بن عباد نموذجاً للتضلع والمقدرة في مجال الفكر وإنتاجه، وما يتصل به من الجوانب التي تتطلب الاطلاع والإلمام الدقيق بمعاني اللغة وأسرارها وما فيها من إجمال وتفصيل.

ورغم أن الصناعة اللغوية في الكتابة في هذا العصر قد تغيرت النظرة حولها، فإنها استطاعت أن تساهم في خدمة كثير من المناحي في الدراسات اللغوية وتعميق جذورها بين الدارسين والمعنيين بما فيها من أعماق تتصل بمعاني المفردات والتراكيب والقواعد وغيرها من الأصول.

وفي هذه الرسالة نحسّ بتوجه الصاحب بن عباد نحو القرآن الكريم الذي يجله ويعطيه حظه من الاحترام والفهم العميق، ويوضح أسراره وأبعاده وما فيه من هداية وإرشاد، وفي هذا التوجه تنعكس الصورة التي كان المجتمع الذي يعيشه الصاحب ابن عباد متصفاً بها من النظرة الموضوعية للفكر وأهدافه والعقيدة وما فيها من إجلال وهداية للبشر.

وهذا التوجه لكل من الصاحب بن عباد والمجتمع الذي كان يعيشه لم يكن نابعاً من فراغ، بل كان منبثقاً من الاهتمام بما في الشريعة من أسس حية

وتعاليم صادقة يستطيع البشر على هداها أن يصلوا إلى الغايات التي ينشدونها من السعادة والوئام، فالتوجه الصادق في المناهج الفكرية ومعاناتها هو الذي ينطلق من واقع الحياة الاجتماعية ويقدم لها الألوان الفكرية العملية التي تساهم في حلول المشاكل التي تدور فيها، وتحقق الرغبات التي ينشدها المصلحون والدارسون الذين يبذلون الجهود المتواصلة من أجل التطوير والوصول إلى ما هو أفضل.

5 ـ ومهما تعددت ألوان العلاقات والروابط الاجتماعية والإنسانية فإنها في إطارها العام تخضع لعرف وقواعد وأسس متعارف عليها، في مختلف المواقع والبيئات التي تضمها وتحتويها المجتمعات الإنسانية في شتى بقاع الأرض ومتعدد مراحل التاريخ.

وتلك القواعد والأسس هي التي يهتم بها الفكر حين يحاول معالجة الأوضاع الاجتماعية ومشاكلها، ومنها ينطلق إلى دراسة الروابط والعلاقات وما يكمن فيها من اعتبارات بحكم متانتها أو ضعفها، وبحكم ما تعكسه من نشاط أدبي وفني وفكري يلمسه الدارسون الذين يعنون بالدراسة الاجتماعية وما فيها من نشاط، في مختلف مجالات الحياة التي يتقلبها الإنسان في الواقع المعاصر، وفي الماضي الذي خلف بصماته على حلقات الزمان المتواصلة التي لا يمكن الفصل بينها على ضوء المنطق العلمي وأصول التفكير العميق الذي يأخذ الأشياء بالنظر لما فيها من أبعاد تنطوي تحتها جميع الانعكاسات التي تترتب عليها، ويؤكد البحث العلمي والدراسة الجادة ضرورة الاهتمام بها واعتبارها وأخذ ما فيها من عناصر الإيجاب؛ لتحليل وفهم الظواهر التي تجد على ساحة الفكر الاجتماعي الذي تستهدفه الدراسة بكل ما فيها من اعتبار وما يفسّرها من مضمون، هو في الحقيقة والواقع القواعد العامة التي تعالج بها

الأوضاع الاجتماعية وجوانبها الواسعة الفسيحة التي يرى فيها الإنسان الملامح والصور والنماذج التي يطبق عليها ما يصل إليه من قواعد وقوانين، في مفاهيم الإصلاح والبناء الاجتماعي الذي يراه ويتخذه سبيلاً لخطواته الهادفة، في توطئة معالم الفكر وتهيئة مسالكه للباحثين والدارسين الذين يواصلون النظر والاهتمام، بكل ما يطرأ على الحياة من جديد وبكل ما يكمن في هذا الجديد من معان يراها الفكر المعاصر ضرباً من التطور ونوعاً من الكشف العلمي، الذي يواكب مسيرة النهضة الشاملة التي يطل منها العصر الحديث على أعماق الفكر الإنساني وزواياه المختلفة والمتعددة التي يكون في الإطلالة عليها ورصد جوانبها واستقصاء معالمها حل كثير من المعادلات التي يعدها الإنسان في بعض الأحيان من المستحيل وبابه الذي لا يتطرق إليه الاحتمال ولا تدور المحاولات حوله، ولكن الجديد الذي أفرزه الكشف العلمي جعله أكثر من ممكن وبعث في التفكير المنطقي الاهتمام بما فيه من إمكان وآثار تنعكس ملامحها على المعاناة التي يعانيها المفكرون والدارسون حول ما يلاحظونه، في الواقع الاجتماعي والتطور الذي تمر به النهضة الإنسانية المعاصرة، وما يتخللها أو يكتنفها من شوائب، وما يجري فيها من اعتبارات ومفاهيم تحتم أوضاع الحياة في إطارها العام ضرورة الإلمام بها وفهمها من خلال ما يترجم تلك المعاناة من إنتاج فكري نراه في الكتاب والبحث والمقالة والقصة والقصيدة والمأثورة الشعبية وغيرها، مما يتنوع به الإنتاج الفكري ويتعدد؛ كي يواكب حركة التطور من جهة ويستوعب الاحتياجات والطموح الذي يطمح إليه الدارسون والمهتمون بالفكر وتطوره والمجتمع وانطلاقه نحو الأفضل من جهة أخرى، الأمر الذي به يفتح الفكر آفاقاً فسيحة للتأمل في كل ما يشمله الواقع من أبعاد تزداد وثوقاً وتفتحاً كلما اتصل بها الفكر وعالجتها المعاناة من قبل الدارسين والباحثين بجميع ما يفسره من تفسير أو ترجمة، وبجميع ما تؤكده من نظريات واتجاهات ومناهج

في الدراسة والفهم والاستقصاء والحصر الدقيق الذي يقطع بالحقيقة التي يصل إليها بكل يقين وتوكيد.

فالترسبات التي يتركها الزمن في الحياة الاجتماعية ونلمس معالمها وآثارها بين الحين والآخر، لابد من الوقوف على مصادرها الأصلية إذا أريد لتلك الحياة أن تنعم بالإصلاح، وأن تمتد إليها يد التطوير.

والروابط والعلاقات الاجتماعية من أهم المظان التي تبدو فيها نماذج تلك الترسبات وتظهر فيها عوالقها بكل وضوح، ومنها تستطيع الدراسات العلمية والتقويمية والبحثية أن تصل إلى الجذور الأصلية التي جاءت منها تلك الترسبات واستقرت في الواقع الذي تبدو فيه، وهذا المنطلق هو الذي سلط الضوء على العلاقات الاجتماعية وأهمية الدور الذي تلعبه في فهم الواقع الاجتماعي وتطويره وما يتصل به من أوضاع وآثار فاعلة، في خلق النشاط وتفسير الظواهر الاجتماعية والأدبية والفنية وغيرها، وهو الذي أكد الأهمية القصوى للعلاج الجذري للمشاكل التي تتعرض لها الدراسة بالبحث والتحليل والمتابعة ورصد العوامل الأصلية التي أثرت فيها وأوجدتها باعتبارها لوناً من النشاط والتفاعل الذي يجري، في الواقع وتتفاعل به البيئة ويتأثر به المحيط الذي يضمها بأبعاده الاجتماعية والمكانية والزمانية التي لا ترى الدراسة غضاضة في تحليلها وتقويم ما فيها من تأثير قد يكون الأساس لكل ما لابسها من تطور ترتبت عنه تلك المشاكل والظواهر التي احتاجت إلى الفهم والتفسير؛ كي يتوصل عن طريق ذلك إلى ما تقف في سبيله من آفاق في إصلاح الأوضاع الاجتماعية وتأكيد الصلات والروابط التي تؤكد أواصرها بين الجماعات والأفراد الذين يجدون في تيسير العلاقات بينهم وقيامها على الفكر

الصادق السديد المنهج الواضح الذي يوصلهم إلى الأهداف التي ينشدونها والتي تتخذها الدراسات الجادة سبيلاً للإصلاح الاجتماعي وخطاه.

يقول الشاعر خليل مطران[1] من قصيدة له يستنهض فيها الهمم ويصف زيارة أحد الأساطيل الغربية لسواحل الشام مستنكراً تلك الزيارة التهديدية:

لحى الله المطامع حيث	فتلك أشد آفات السلام
تشرب الماء وهو أغر	وتمشي في المشارب بالسقام
أقول وقد أفاق الشرق	من الحال الشبيهة بالمنام
على صخب المدافع في	ورقص الموت بين طلي وهام
أقول بصوته لحماة دار	رماها من بناة الغرب رام
أباة الضيم من عرب	نسور الشم آساد الموامي
قروم العصر فرساناً	نجوم الكر من خلف اللثام
بنا مرض النعيم فنسّمونا	وغىً يشفي من الصفو العقام
بنا برد المكوث فأدفئونا	بحمى الوثب حيث الخطب
بنا عطل السماع فشنفونا	بقعقعة الحديد لدى الصدام
على هذا الرجاء ونحن	نسير موفقين إلى الأمام

في هذه القصيدة يتحدث الشاعر عن الزيارة التي قام بها الأسطول الإيطالي لسواحل الشام مستعرضاً عضلاته في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، في محاولة من الغرب لتحقيق أطماعه التي كان يحلم بها، وهي الاستيلاء على بلاد الشرق واستعماره واستنزاف موارده وخيراته مدعياً أنه بذلك يسعى لتوطيد أركان السلام وإرساء دعائمه في العالم.

---

[1] جواهر الأدب السابق، ص252.

وهذه المطامع هي أشد الآفات التي ابتلي بها السلام، فهي المقوض الحقيقي لأركان الأمن فوق أديم الأرض، وقد كانت دائماً سبباً في إشعال نار الحرب التي تعد نموذجاً لها الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية اللتان عانت البشرية من جرائهما البلاء الأليم والمآسي التي مازال ضحايا القنبلة الذرية التي ألقيت على هروشيما ونجازاكي باليابان يقاسون منها.

وهذا ما تشير إليه القصيدة في مطلعها، ثم إن الشاعر وقد أحسّ بالخطر المحدق فنبه إليه وأوضح أن فينا أمراضاً ينبغي أن نتخلص منها حتى نحقق الرجاء ونسير بتوفيق إلى الأمام.

وفي هذه القصيدة تنبيه للشرق العربي بضرورة الالتفاف حول بعضه ليرد كيد المعتدين الذين أتوا إليه من الغرب تسوقهم الأطماع في خيراته والحلم باسعتباده واستعماره بأسلوب ظاهره العمل في صالحه وتطويره، وباطنه القضاء عليه ونهب ثرواته وآثاره، ومن هنا كان ذلك الصراع الدامي بين المشرق العربي والغرب في تلك الحروب الطاحنة التي دارت رحاها وذهب ضحيتها الأجيال والأجيال، واستطاع المشرق العربي رغم التخلف الذي كان يعاني منه أن يؤكد للغرب أصالته وأن يرده على أعقابه، ومع ذلك ظل الاستعمار الغربي يكيد للمشرق العربي ويحوك الدسائس من أجل تحقيق أطماعه التي مازال يحلم بها، ولكن عزيمة المخلصين المؤمنين من أبناء هذه الأمة الأصيلة لم تأل جهداً في القضاء على هذه الأطماع.

وفي هذه القصيدة يبدو الإحساس العميق بالمشاعر التي تربط بين أبناء المشرق العربي حين يجد الجد؛ لأن الروابط والعلاقات الاجتماعية ليست مجرد تفاعل وتواصل واجتماع، ولكنها إحساس بالمصير المشترك والمستقبل الموحد

الذي يرى فيه أفراد المجتمع ما يعود عليهم جميعاً بالنفع أو الضرر، ومن هنا كرر مطران في القصيدة السالفة الذكر والنداء للوقوف بجد في وجه الاستعمار الغربي الدخيل الذي يحاول الاستيلاء بكل ما أوتي من قوة على مقدراتنا، وهذا الاتجاه الذي سلكه مطران في هذه القصيدة ترجمة صادقة للأساس الذي تقوم عليه الروابط الاجتماعية والإنسانية.

6 - ولا تعني عملية الدراسة والمتابعة في الألوان الاجتماعية الابتعاد عما سواها من الألوان الأدبية والفنية وغيرها من النشاط الفكري، بل لابد من مراعاة هذه الجوانب والاهتمام بها، في تلك المتابعة والدراسة حتى تستكمل أصولها وتتمكن من الوقوف على أهم الظواهر والمجالات المؤثرة في مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية التي يعنى بها المفكرون ويستخلصون منها الملاحظات المهمة التي يعتمد عليها البحث، في مناهجه وأصوله ويحاول المهتمون بالتطبيق أن يعدوها على ضوء الواقع وأن يسجلوا ما لها من ميزات أو أخطاء، وبالتالي يمكنهم أن يتوصلوا إلى طرق كثير من الآفاق الرحبة التي لا تثري هذه الدراسات ومتابعتها فحسب، ولكنها تمهد السبيل إلى الدخول في مجالات الفكر التي ترسخ للحياة الاجتماعية قواعدها على أساس من المنطق والحقائق العلمية التي تؤازره، الأمر الذي يمكن الدارسين من فهم مختلف الظواهر الاجتماعية وتحليل أسبابها ومؤثراتها، وما فيها من إمكان وما استطاعت أن تضفيه على النشاط الفكري من جديد، وهي تتفاعل مع التيارات والمؤثرات الوافدة والمحلية التي تلتقي بها مباشرة أو عن طريق آخر يعكس فيها من المعاني ما هو جذير بالاستقصاء والتوثيق ومتابعة الجهود للوصول إلى أصوله الحقيقية، والوقوف على الوسائل التي استطاع بها أن يصل إلى الواقع

الاجتماعي الذي يستقطب تلك الظواهر وينفعل معها إيجاباً وسلباً ويحاول دائماً أن يصل إلى معرفة عواملها وأسبابها الرئيسة التي أدت إليها.

فظاهرة مثل اللغة حين يحاول المتفهمون للدراسات الفكرية أن يتابعوا ما فيها من اعتبارات ومؤثرات سوف يجرهم البحث إلى النظر، في مختلف المعاني[1] التي تعنيها اللغة وتندرج تحتها المفاهيم التي تشمل أبعادها وأهدافها في الحياة، وقد يتشعب البحث في هذا المجال[2] فيشمل أوضاع الناطقين بها وطبيعة الحياة التي يعيشونها والصلات الاجتماعية التي يرتبطون بها وتكيّف وسائل التعامل والتفاهم بينهم، في كل ما يعنيهم من شؤون في الواقع الذي يضمهم ويعكس ما يستهدفهم من مؤثرات سواء كانت وافدة من الخارج أو ناتجة من حصيلة ما يدور بينهم من ملاحظات يعنيهم تطبيقها والوقوف على ما فيها من مفاهيم.

ولا يقف تشعب البحث عند هذا الحدث بل يسترسل إلى التفريع في تقسيم اللهجات وربطها ببيئاتها وأوساطها وأسباب وضع ما فيها من مصطلحات تعني المهتمين بالدراسات اللغوية وتطوراتها ومتابعة ما تحويه من مرونة، في فتح الآفاق الواسعة التي يتخذ منها الفكر والإصلاح الاجتماعي سبيله التي تجعل من دراسة هذه الظاهرة أمراً مهماً، في فهم الواقع الاجتماعي وفهم ما يتصل به

---

(1) انظر ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحق: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح/ 1953، ص50. التيار المعاصر في الأدب المعاصر السابق، ص177-267. محمد خليفة الدناع، قراءة النصوص التراثية، كلية الدعوة الإسلامية، ط1/1994م، ص97-115.

(2) انظر: محي الدين صابر، قضايا الثقافة العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب/ 1983م، ص119-122.

من مؤثرات وتيارات تستطيع الدراسة بمختلف أنواعها ووسائلها أن تصل إلى كل ما فيها من اعتبار وإمكان لا يقف البحث عند الألوان الاجتماعية التي تعانقها، بل يحاول في مسيرته أن يستهدي بكل ما يراه من جوانب سواء كانت في الأدب أو الفن أو غيره، مما يعده الفكر لوناً من نشاطه وضرباً من ضروب الحياة التي يعيشها الإنسان.

فهذه اللمحة البسيطة تدلنا على أن دراسة الألوان الاجتماعية لا تتم على حقيقتها إلا بربطها بالجوانب المختلفة من النشاط الفكري وألوانه المتعددة التي لابد من التعامل معها ومتابعتها.

يقول الشاعر حماد عجرد(1) متحدثاً عن بعض الظواهر الاجتماعية في عصره الذي كان يعيش فيه ويرى منه من تقلبات الحياة ما يرى:

كم من أخ لك لست تنكره	ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته	يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء	الغدر مجتهداً وذا الغدر
فإذا عدا والدهر ذو غير	دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودة من	يلقي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة	في العسر إما كنت أو اليسر
لا تخلطنهم بغيرهم	من يخلط العقيان بالصفر

فهو هنا يتحدث عن ظاهرة اجتماعية تجتاح كل عصر من الزمان، وتلك هي الصداقة من أجل النفع المادي الذي نراه من بعض الناس الذي يصادقون غيرهم ويتعلقون بهم ماداموا مستفيدين منهم، ومتى تأكد لديهم عدم هذه الفائدة

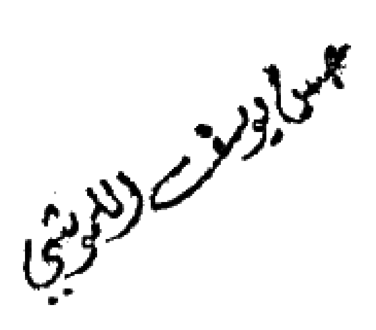
(1) أحمد السكندري وآخرون، تاريخ الأدب العربي، المطبعة الأميرية بالقاهرة/ 1946، ص28.

فإنهم ينفضّون عنهم بكل بساطة وكأن لم تربطهم بهم رابطة في يوم من الأيام، وهذه لا شك ظاهرة سيئة لا تستريح لها نفس الإنسان الصادق من أهم العيوب الاجتماعية التي ينبغي التخلص منها ومن آثارها الوخيمة التي في مقدمتها النفاق والغدر وتقديس المادة، وما يتصل بها من المظاهر البراقة الكاذبة التي تنافي الفضيلة والوفاء ونكران الذات في سبيل الصالح العام الذي يبني الحياة الاجتماعية على أساس الصدق والإيمان بالإنسان بكل ما يحويه من جوانب مشرقة تحض على الخير، وتحاول في كل الأحوال أن تؤكد أصوله بين الناس لتكون المعاني المتداولة بينهم دائرة في فلكه وغير بعيدة عن أهدافه العامة التي يلمسها أفراد كل مجتمع ويدركون فائدتها ونتائجها الإيجابية، في مختلف المجالات التي يتقلبون فيها ويطبقون معها ما يصادفونه من مفاهيم بأساليب ومناهج متنوعة.

وقد نوعت هذه القطعة الشعرية الناس فبينت أن بعضهم كما أوضحنا لا إخاء لهم ولا مودة إلا بالفائدة التي يحصلون عليها، ومتى تحقق لهم عدمها تنكروا وانصرفوا وعدوا مع الدهر في غيره، في حين أن بعضهم الآخر يتسم بالإخلاص ويصادق بحق فلا تهمه الفائدة التي يجنيها من هذه الصداقة أو تلك، فهو الذي يرتبط بالإنسان الذي يصادقه في حال يسره وعسره، وقد يكون في حال العسر عوناً على الزمان وصروفه وغيره، وهذا الصنف من الناس هو الذي يحث الشاعر على صداقته وتأكيد الصلة به؛ لأنه يشبه الدر، وأما غيره فهو كالخزف والعاقل دائماً هو الذي يختار الأشياء النفيسة ومصاحبة الأخيار الذين يعتز بهم في الشدة والرخاء.

فهذه الظاهرة في إجمالها نوع من الألوان الاجتماعية ودراستها تستدعي كثيراً من الجوانب التي لها صلة بالفكر وقواعده وأصوله؛ كي يصل البحث فيها

إلى الأعماق البعيدة التي تستوعبها وتستخلص ما فيها من أسرار يستطيع المجتمع أن يكون منها على بينة وأن يتخذها من ضمن القواعد التي يطبقها في مسيرة الحياة التي يقطعها، وهو يواكب التطور والأحداث التي يفرزها العصر، بكل ما فيه من مقومات لا تقف عند تفسير الظواهر الاجتماعية وتنتهي، ولكنها تواكب الخطوات الباعثة على هضمها وحث الجهود على الانطلاق منها إلى الميادين الفسيحة المعطاءة التي تساهم بكل إيجابية، في خلق الرؤية الواضحة بين الدارسين لمختلف الألوان الاجتماعية وما يتصل بها من اعتبار.



الفصل الخامس

التجديد والحداثة في الأدب العربي

1 . الاتجاهات الحديثة في الأدب العربي:

1 . الاتجاهات الحديثة في الأدب العربي في مفتتح هذا العصر كانت تحاول التوجه نحو الإصلاح الاجتماعي الذي يعد الأدب بحق من العوامل الأساسية فيه، حيث اتخذت جميع أنواعه وفروعه وأجناسه وأصوله مسارات جديدة تختلف عما ألفته قبل هذا العصر، فهي قبل العصر الحديث كانت تدور في المديح والهجاء والرثاء والغزل وغيره، من الأغراض التي عرفت في الأدب بمساره التقليدي القديم الذي كان يدور في قوالب معينة يعد الخروج عنها بعداً وقصوراً فنياً لا يصح أن يغض النظر عنه.

وقد تركز جانب كبير من الدراسات النقدية في الأدب العربي القديم على هذا الاتجاه الذي يعد التقيد به في الإنتاج الأدبي القديم أصالة والتزاماً ومراعاة للقواعد الأساسية التي واكبها الأدب، في مسيرته الطويلة التي قدم بها كثيراً من الصور والمفاهيم والأفكار الحية التي ساهمت إلى حد كبير في بناء الحياة الاجتماعية، في مختلف العصور التي مر بها المجتمع العربي، وهو يقدم العطاء والفاعلية في الحياة الإنسانية العامة التي سجلت المقادير الكبرى من الجهود التي قدمها الفكر العربي في بناء الإنسان وحضارته وتقدمه، وفهم القيم المثلى التي يحترمها ويستفيد مما فيها من عطاء في مختلف المواقف والظروف التي تمر به.

وإذا كانت الأجناس والأنواع التي يدور فيها الأدب العربي قبل العصر الحديث قد اتخذت مسارات محددة فإنها في حينها كانت موافقة لما كان مألوفاً من أفكار وألوان من النشاط الاجتماعي والفني وسواه، وذلك يعد لوناً من الإحاطة والشمول بما كان يجري في الواقع الاجتماعي من نشاط وحركة، يعتبر الأدب من الوسائل الأساسية لتطويرها وصوغ النماذج والصور والأفكار مما يدور حولها، من ملابسات وتصور لا يقف بالأدب عند حد معين من حدود الخلق والإبداع.

وإذا رأت الدراسات الأدبية المعاصرة في النماذج التي قدمها الأدب العربي القديم حصراً لا يخرج عن القوالب والأغراض التي ألفت فيه ولم تقبلها على أنها نمط من الإبداع والتجديد في حينها، فإن هذا الرأي ينطبق على كل مرحلة من مراحل النشاط الأدبي، سواء كان قديماً أو حديثاً، فلابد للنشاط الأدبي من تحديد خطوط يسير فيها ويقدم العطاء عن طريقها، وما تلك الخطوط سوى الأطر والقوالب والأنواع والأجناس والأصول والفروع التي عرف بها واستهدفها التجديد والتطوير، وفي كل عصر لها لون وطابع يتفق معه وقد يختلف مع ما عرف في غيره من العصور التي سبقته وتداولها الناس فيه.

وتركيز المحاولات التجديدية في الأدب العربي الحديث لم يقتصر على القوالب والأطر والأنواع والأجناس وسواها، وإنما كان شاملاً لها ولغيرها من المضامين والمفاهيم والمناهج والأساليب التي فرضها تيار العصر وملابسات الحياة والوضع الإنساني العام الذي تطور فيه كل شيء بالإطلاق العام، وانعكس ذلك التطور على الفكر ونشاطه، وعلاقات الإنسان ومعاملاته وسلوكياته العامة، بكل ما فيها من إجمال وتفصيل، الأمر الذي أحدث نوعاً من التأمل وخلاصة لألوان من الفكر تؤدي بأسلوب ومنهج غير معهود في

الأساليب والمناهج المتداولة والمعهودة، كأسلوب القصة الحديث وإطار القصيدة الحديثة في الأدب الحديث، وأدب المقالة بأنواعها المختلفة، من صحفية إلى تاريخية أو علمية أو سواها.

وبما أن واقع الحياة الاجتماعية يتطلب التعامل مع ألوان تكاد تكون محدودة من تلك الألوان التي يؤدي بها العطاء الأدبي، فقد برزت ألوان جديدة في الأطر والمضامين، وتأخرت أو كادت تختفي ألوان أخرى كان الأدب وعطاؤه لا يؤدى إلا بها، واعتبرت في مفهوم الدراسات الأدبية المعاصرة من القديم الذي يحويه مفهوم التراث، ومدلوله الواسع الجديد الذي يشمل النشاط الفكري وتطوراته، وما فيه من معان ومفاهيم يدور فيها الإنسان ويتصل بها من قريب أو من بعيد.

فالتجديد في الأدب العربي الحديث متصل في جميع اعتباراته واتجاهاته بالإصلاح الاجتماعي، وبمقدار ما في الحياة العامة من تطور ووعي بمقدار ما يكون ذلك التجديد مواكباً لحاجات المجتمع وضرورياته، التي يدور في أطرافها.

واستطاع التجديد في الأدب العربي الحديث في بعض الجوانب منه أن يؤكد فاعليته في الحياة ومرونته التي بها يستطيع أن يعبر بصدق عن الواقع الذي ينطلق منه ويدور في أوساطه، وأن يضيف بذلك إلى ما فيه من قديم أصالة وعطاء فكرياً حياً يستطيع الإنسان في كل عصر أن يستفيد منه ويقدم به من ألوان النشاط الفكري وضروبه ما يعد جديداً مبتكراً ومداً للحياة المعاصرة بكل ما فيها من ألوان.

2 ـ قال جميل بثينة يشكو ما به من تباريح الهوى:

لقـد ذرفـت عينـي وطـال وأصـبح مـن نفسـي سـقيماً

ألا ليتنـا نحيـا جميعاً وإن نمت

يجـاور فـي المـوتى ضـريحي

فمـا أنـا فـي طـول الحيـاة إذا قيـل قـد سـوّى عليهـا

أظـل نهـاري مسـتهاماً مـع الليـل روحـي فـي المنـام

فهل لـي فـي كتمـان حبـي وهل تنفعني بوحة لو أبوحها؟

فهو يبين أن عينه طال تذريفها للدمع، وأصبح جسمه سقيماً من جراء ما يلاقيه من الهيام والوجد بمن تعلق قلبه بها، ويتمنى أن تجمعه الحياة بها، وفي الموت أن يجاور ضريحه ضريحها ليكون قريباً منها في حالتي الحياة والموت، وهو غير راغب في الحياة إذا هي ضمها التراب وطواها الموت والفناء؛ لأن الحياة في نظره لا تساوي شيئاً، فهي لديه ظلام بدونها ودون الإحساس بوجودها فيها؛ ولشدة تعلقه بها يظل نهاره هائماً بها وحين يجن الليل يلتقي في المنام روحه وروحها، ويحاول أن يسرّي على نفسه مما يلاقيه فيتساءل في سياق يدل على قلقه النفسي: هل يجد في إخفاء حبه راحة أو ينفعه التصريح به؟ وهو إذ يتساءل هذا التساؤل يعلم أن كلا من الكتمان والتصريح لا يفيده شيئاً ولا يخفف عنه مما يجده من تباريح، إلا أنه يشعر وهو يسوق ذلك التساؤل بشيء من التنفيس على نفسه الملتاعة التي لا تجد الراحة والهدوء والاطمئنان إلا في الالتقاء والاجتماع بمن تهوى وتهيم.

وهذا يدل على عمق هذا الحب والشوق الذي كان يكابده جميل بثينة الذي سارت بذكره الركبان وسجله تاريخ الأدب العربي فيما سجل من مواقف وبيّن من خلجات في آفاق الشوق وتحرق الوجد ولهيب الجوى؛ حتى أصبح جميل بثينة علماً من أعلام الغزل، ونقطة تحول في مجال الحب وتاريخه الحافل

الطويل الذي ذهب فيه النقاد والمقومون مذاهب مختلفة متعددة، من حيث الصدق وعدمه، ومن حيث النقاء والعفة والطهر وسواه، ومن حيث صحة وجود أعلامه في التاريخ حقيقة أو خيالاً مما هو مسجل ومبين في الدراسات النقدية، التي تعرضت بشيء من التفصيل لدراسة الغزل وخصائصه وميزاته ودوره في تاريخ الأدب العربي، وما طرأ عليه من جديد، بحكم ما كان الفكر يمر به من تطور وتأثير بالتيارات التي كانت تجتاحه، وهو يصور واقع الحياة التي يكيفها الفكر بما يتوافق مع المجتمع في كل ما يمر به من ملابسات ومقتضيات وما يحيط به من ظروف.

وقد عد السير في الإنتاج الأدبي على هذه الوتيرة في الغزل من الالتزام بالأصالة والتقيد بالأساليب والمناهج التي يعتبر السير على منوالها من أسس الجودة والإتقان، وما طرأ على تلك النظرة من تغيير فيما بعد حتى كاد أن يخرج بالغزل أو خرج به فعلاً عن مساره الصحيح في تاريخ الأدب العربي، وكان ذلك نتيجة لعدة عوامل، من أهمها ما جد على الحياة العربية من جديد فيما وفد عليها من عادات وتقاليد لأمم مختلفة في حياتها وتكوينها اختلافاً جوهرياً عن الأمة العربية، الأمر الذي جعل كثيراً من الظواهر تبرز على السطح وتبدو في كثير من المفاهيم التي كان المجتمع العربي يعج بها، في واقعه الجديد الذي احتوى به كثيراً من الأمم التي شملها الفتح الإسلامي فيما شمل.

ولئن شمل التجديد في الحياة العربية مفاهيم الفكر وأغراض الشعر وأنواع الأدب وأجناسه، فإن السمات الأساسية لتلك الأغراض والأنواع والأجناس ما تزال كما هي، وما يزال مضمونها الأصيل يسيطر عليها ويعطيها من القوة والفاعلية ما يؤكد دورها وتأثيرها العميق.

وإذا كان الاتجاه الحديث في الأدب العربي المعاصر قد أخذ ينصرف عن السير في الاتجاهات التي كان الأدب يسير فيها شعراً ونثراً، فإن ذلك ليس مرجعه إلى قصور تلك المسارات وعدم قدرتها على نقل المشاعر والأحاسيس التي تدور في الحياة بكل ما تستطيع أن تشمله من جديد، ولكن مرجعه إلى قدرة الأدب على مسايرة الجديد بكل أشكاله وصوره وألوانه ومرونته بالتكيف بما يدور في الواقع الإنساني من تغيير في شتى آفاق التعبير عن أغراض الإنسان ومناهجه وأساليبه ومعاناته وترجمتها، وما تفرزه من إنتاج في عالم المعرفة وميادين الفكر ومنطلقاته، وما يتخللها من خلقات تجد فيها الدراسة والتقويم المجال الخصب والمادة الثرة التي تمدها بالعطاء، وتفتح أمامها أبواب الفروض والاستنتاج والإثراء للأدب وما فيه من فروع وأصول.

والتحول الذي طرأ على حياة الأمة العربية في مفتتح هذا العصر كان شاملاً للأدب باعتباره المرآة العاكسة لحياة المجتمع، وما يجري فيها من مضامين وأشكال ونماذج وصور وغيرها تلمس الدراسات المقومة عن كثب المؤثرات والتيارات التي تلونها وتكيفها حسب الإطار الذي بدت فيه وكانت فيه بمنتهى الوضوح.

وقريب من القطعة السابقة، قال جميل بثينة أيضاً شاكياً ما يلاقيه من الهوى في أسلوب يدل على التأثر وشدة التعلق بمن يهوى ويتحرق في حبها الذي برحه وأضنى جسمه وقلبه:

إلـى الله أشـكو مـا ألاقـي مـن
ومـــن حـــرق تقـــادني وزفيـــر
ومـن كـرب للحـب فـي بـاطن

وليـل طويـل الحـزن غيـر قصـير

سـأبكي علـى نفسـي بعـين بكـاء حزين فـي الوثـاق أسـير

وكنـا جميعـاً قبـل أن يظهـر بـأنعم حـالي غبطـة وسـرور

فما برح الواشون حتى بدت بطـون الهـوى مقلوبـة لظهـور

لقد كنت صعب النفس لو دام

ولكنمـــا الـــدنيا متـــاع غـــرور

لــو أن امـرأ أخفـى الهـوى عـن

لمــت ولــم يعلــم بــذاك ضــميري

فهو يشكو في حرقة وإحساس وطأة الشوق، ويذكر حاله قبل أن يفشو هيامه ببثينة، ثم كيف أصبح بعد أن فشا ذلك الحب واشتهر ونقله الواشون حتى انقلبت السعادة لديه إلى شقاء.

فهو في هذه الأبيات يتألم ويتسلّى بالذكرى والماضي، ويبدو في أسلوبه فيها طابع الأصالة وعمق الإحساس بما يجده من آلام الشوق والهيام، ومهما بلغ التجديد من القوة في مجال الغزل فلن يستطيع أن يتجاوز النطاق الذي رسمه هذا الشاعر فيما ساقه من أسلوب ومنهج واضح رصين.

والغزل في إطاره العام من الجوانب التي تبدو فيها علاقات الإنسان بغيره، ولعله من أهم الجوانب التي يتمثل فيها الاتجاه الإنساني العميق الذي يعد الأدب من مقوماته الأصلية التي تؤكد عطاءه الإيجابي في حياة الإنسان وجميع البشر، ومسارات المجتمع الإنساني في جميع مراحل التاريخ.

فالسمو بهذا الاتجاه من قطاع الفكر يساهم في تطوير الحياة الاجتماعية وينمي فيها مدارك الذوق ومواطن الإحساس بالجمال، ويحفزها إلى الإصلاح

وتقبل الأفضل، فلا يقف التجديد في الإنتاج الأدبي ودراساته عند حدود بعينها لها الصلة الواضحة في التأثير في الواقع المعاش، وإنما يشمل بالإضافة إلى ذلك مختلف الأغراض التي يستوضحها الإنسان ويتعرض للتأثر بها، كالحب وغيره مما هو مدرج في آفاق الأدب ومكمل لحياة الإنسان.

ومتى تركزت الاتجاهات المعاصرة في الأدب على هذه الجوانب المكونة للإنسان، فإنها بذلك تكون قد نبهت إلى مسار كبير له تأثيره البعيد في الإصلاح الاجتماعي وبناء الحياة المعاصرة على أسس منطقية وواقعية، ويكون التجديد والتحديث في الأدب قد ساهم وبفاعلية في التطور في مختلف قطاعات الحياة واتجاهات الفكر.

2 . الأدب مرآة عاكسة لحياة الأمة العربية:

1 . ساهم الأدب العربي مساهمة فعالة في بناء الحضارة الإنسانية، وكان مرآة صادقة عن حياة الأمة العربية منذ نشأتها الأولى، وقد عكس الأدب العربي الصور الحية للمراحل التي مرّت بها الأمة العربية وهي تبني وتعطي قدر ما تستطيع، في سبيل إقامة مجتمع فاضل من جهة، وفي سبيل مواكبة التطور الفكري العالمي من جهة أخرى.

وفعلاً استطاع الفكر العربي رغم ما لقيه من بعض المعوقات خلال رحلته في الحياة، أن يبرهن على أصالته، وأن يجعل المجتمع العربي يحسّ بوجوده وما فيه من طاقات وإمكانيات قل أن تتوفر في غيره من المجتمعات الأخرى، فتطور وسخر تلك الطاقات والإمكانيات لكل ما تتطلبه ظروفه، الأمر الذي جعله يقف في مصاف المجتمعات المتقدمة العصرية.

وفي فترة وجيزة استطاع المجتمع العربي بفضل مفكريه وأبنائه المخلصين، أن يبث روح النهضة والنشاط في مختلف قطاعاته، وأن يستفيد من تجارب الآخرين في هذا المجال.

وقد انطلقت صيحات التجديد والإصلاح على أيدي نخبة من رجال الفكر والرأي في مفتتح العصر الحديث، كان في مقدمتهم[1] الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي والشيخ رشيد رضا وغيرهم، ممن ساهموا في بعث الفكر العربي وإزالة الغبار عنه وتقديمه في الصورة اللائقة به.

وقد أبرزت مدرسة جمال الدين الأفغاني وتلاميذه مجموعات من رجال الفكر كان لهم فضل السبق في إرساء دعائم الإصلاح في هذا المجتمع، الذي عرف على أيديهم أصالته وما فيه من ينابيع تمد العاملين فيه بالحياة والنماء.

وقد كان للأفكار التي طرقتها مدرسة الأفغاني وتلاميذه الصدى البعيد في إذكاء روح النشاط والكفاح بين أبناء الأمة العربية الذين هبوا بكل جدية وصدق لبناء المجتمع العربي وإقامته على الفكر والاستزادة من الأفكار الحية التي يتفيأ ظلالها المجتمع الإنساني، وبذلك وجدت نهضة شاملة في المجتمع العربي كان أساسها العلم والفكر والتفاعل مع التيارات الفكرية الهادفة التي كانت تسود العالم.

---

[1] مالك بن نابي حياته وعصره، محمد عبد السلام الجفايري، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ط1/2009م، طرابلس، ص56.

واستطاع المفكرون من أبناء الأمة العربية أن يقدموا لرجال الفكر في كل مكان من الأرض العطاء الذي جعلهم يقفون على تراثنا وفكرنا الأصيل الذي لم يكن لهم به عهد، ونتيجة لكل تلك الجهود التي بذلها أولئك المفكرون برز إنتاجنا الفكري في الحياة المعاصرة قاعدة صلبة نسير عليها في تحقيق غاياتنا وما نطمح إليه من آمال.

وفي كل هذه المجالات كان الأدب هو المنبر الذي توجه منه الأفكار التي تقدم الإصلاح وتنادي به، وقد صور الأدب نثراً وشعراً وخطابة وسواها معاني الإصلاح ومفاهيمه التي ينبغي أن تسود المجتمع العربي؛ ليحقق آماله ويتولى قيادة الأفكار الهادفة البناءة في الحياة المعاصرة التي تنظر للجد والإخلاص نظرة خاصة.

2 . يقول الشيخ علي أبو النصر[1] من قصيدة له يتحسر فيها عن بعد أحبابه الذين تألم لبعدهم:

لقـد ذهـب النـوى بجميـل	وأودع فـي حشاشـتي الولوعـا
وألبســني الأســى خلــع	وألزمنــي التــذلل والخضــوعا
ونار الشوق أغراها غرامي	على كبدي فقومت الضلوعا
ولـي قلـب تقلبـه شـجوني	وتمنعــه السـكينة والهجوعــا
يبيـت مـع الأحبـة حيـث	ويصـبح راجيـاً مـنهم رجوعـا
يــرى أضـــغاث أحـــلام	حقـائق لا يـزال بهـا ولوعـا
تطـوف بـه الحـوادث وهـو	كــأن الــوهم ألبســه دروعـا

(1) المنتخب من أدب العرب، أحمد السكندري وآخرون، المطبعة الأميرية، القاهرة/ 1949م، ص67.

وربّ مكابد عانى خطوبا		ومفرد عزمه عز الجموعا
وقائلة إلام تحن شوقاً		إلى حي أحل بك الهلوعا
أبعد فراقهم ترتاح روحي		وترجو ساعة ألا تلوعا
فهم روحي وريحاني		فكيف أرى إلى السلوى نزوعا

فالشاعر في هذه القطعة يذكر أن البعد قد ذهب بصبره الجميل، وبلاه بالولوع بمن ابتعدوا عنه، وقد ألبسه الأسى خلع التمني والتذلل والخضوع، ثم يتحدث عن قلبه وتقلبه في الشجون حتى يخرج عن طوقه ويمنعه السكينة والهجوع، فيبيت ليله مع الأحبة حيث ما حلوا، ويصبح راجياً منهم الرجوع، ويرى الأوهام التي تطوف بذهنه حقائق لا يزال بها مولعاً، وتحل به الحوادث وهو عنها لاه حتى كأن الوهم ألبسه دروعاً، وأحياناً يكون المكابد معانياً للخطوب إلا أن قوة عزمه تهزم الجموع، ثم يدخل في حوار مع من حمله إلى إنشاد هذه القصيدة، حيث تسأله باستغراب: إلى من يحنّ شوقاً؟ فهل يحنّ إلى حي أورثه الولوع؟ فيجيب بأنه يحبهم ويود أن يدعى هلوعاً في سبيل هذا الحب؛ لأنه بعد أن يفارقهم لا ترتاح نفسه إطلاقاً، فهم روحه وريحانه، ومن الصعب أن يرى في السلوى نزوعاً عن هؤلاء الأحبة.

فالشاعر استطاع في هذه القصيدة أن يسرد لنا قصة النوى الذي يعاني منه ويبسط لنا شعوره نحو من تحدث عنه في هذه الأبيات.

وفي هذه القطعة يحس الدارس لها بالسهولة وعدم التعقيد، ويرى فيها العمق والأصالة في إنتاج هذا الشاعر، وتمثل هذه القطعة ما كان معروفاً لدى الشعراء من التحسر على الماضي والتبرم بالحاضر، وهي عادة درجوا عليها وحاولوا أن يجعلوها قريبة من القواعد التي يسير عليها الأقدمون وغيرهم من الشعراء الذين بالغوا في التمسك بالقديم وما فيه من خصائص.

ويحاول الشاعر في هذه القطعة أن يتقيد بالحكمة التي فهمت في هذه القطعة إلا أنها كانت لديه غير موفقة، وعلى أية حال هذه القطعة في إجمالها من النوع الذي يهدف إلى الإصلاح والبناء، ويحاول أن يلقي الضوء على الجوانب البعيدة على بؤرة الضوء حتى لا يتعرض في كل موقف من مواقفه إلى هؤلاء الذين يهمهم أن يبتعدوا فقط ويتركوا لغيرهم العناء والمعاناة.

2 ـ ويقول الشاعر محمود سامي البارودي[1] وهو في المنفى متشوقاً لرؤية وطنه الحبيب:

ردوا علـيّ الصـبا مـن عصـري
وهـل يعـود سـواد اللمـة البـالي

لم يدر من بات مسروراً ... أني بنار الأسى من هجره
يا غاضبين علينا هل إلى ... بالوصل يوماً أناغي فيه
غبتم فأظلم يومي بعد ... وساء صنع الليالي بعد
فاليوم لا سني طوع القياد ... قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
أبيت منفرداً في رأس ... مثل القطامي فوق المربإ

فالشاعر هنا يتحدث بسجيته على الشوق الذي يكابده وهو بعيد عن الأهل والأحبة والوطن، ويذكر أن أولئك الذين يبيتون وهم مسرورون بلذاتهم لم يدروا بأنهم بنار هجرهم قد صلوا غيرهم وتركوه يعاني من هذا الهجر، ويأمل أن يلقى منهم موعداً بالوصل يعيش فيه حلماً من الأحلام، ويناجي فيه إقباله هذا من طرفهم، ويوضح أنه بغيبة الأحباب أصبح يومه مظلماً، وساء صنع الليالي معه بعد تلك الأيام الجميلة التي كان يقضيها بقربهم ويتناجى فيها مع الزمان

[1] المنتخب من أدب العرب السابق، ص83.

الذي كان يقف بجانبه، واليوم تتكرت له الأيام والليالي، وظل وحيداً فريداً في غربته المملة القاتلة، وهو اليوم لا يملك من نفسه شيئاً، ولا يميل قلبه كالعادة إلى زهرة الدنيا وزخرفها الفاني، والتزم الانفراد والغربة.

والبارودي كعادته يطغى عليه الخيال في هذه القطعة حتى يصبح فيها ذائباً شجناً وأسىً لمفارقة الأحباب ولم يستطع رغم طابع الرجولة والفحولة في شعره في إطاره العام أن يتجرد من عاطفته ويبرز جانب القوة فيه، بل سجل عاطفته، بكل ما فيها من أبعاد، وبكل ما لها من مضمون؛ لأن الموقف كان يملي عليه ذلك ويحتمه، ففراق الوطن ليس سهلاً وخاصة إذا كان في موقف مثل الموقف الذي كان فيه البارودي الذي لم يكن له ذنب سوى حبه لوطنه وإخلاصه له وسيره في ركاب الثائرين من أبناء الوطن.

3 - ويقول الشاعر إسماعيل صبري في صورة أخرى موضحاً فيها معنى الحياة الحقيقي[1]:

إن سـئمت الحيـاة فـارجع إلـى
تـــنم آمنـــاً مـــن الأوصـــاب
تلـك أم أحنـى عليـك مـن التـــي خلفتـــك للأتعـــاب
لا تخـف فالممـات لـيس منـك إلا مـا تشـتكي مـن
كـل ميـت بـاق وإن خـالف
مـا نـص فـي غضـون الكتـاب
وحيـاة المـرء اغتـراب فـإن ت فقـد عـاد سـالماً للتـراب

(1) شعراء مصر وبيئاتهم السابق، ص37. المنتخب من أدب العرب، أحمد السكندري وآخرون، المطبعة الأميرية بالقاهرة/ 1949، ط1، ص92.

فالشاعر يتحدث عن الزهد في الدنيا، ويبين أن الإنسان إذا رجع إلى الأرض استراح من الأمراض والأوصاب، فالأرض هي الأم الحقيقية له ولغيره، وهي أحنى عليه من الأم الرؤوم التي خلفته للأتعاب، وكل ميت هو في الحقيقة باق وإن تغير اسمه، وحياة الإنسان في حقيقتها اغتراب، وهو إذا مات عاد سالماً للتراب أصله الصحيح.

فالشاعر في هذه القطعة كانت نظرته في منتهى الدقة، وسلط على الإنسان تركيزه حتى تكون الصورة التي يقدمها واضحة جلية لا تحتاج إلى كد أو إعمال نظر، ثم هي حكمة ونصيحة في الواقع؛ لأن الإنسان ينبغي له أن ينظر للدنيا كما ينبغي أن تكون، بحيث يتأمل كل جوانبها وما فيها من جديد يدعو للتأمل وبعد النظر.

فهؤلاء الشعراء الثلاثة بهذه النماذج من إنتاجهم الشعري كانوا ممن يقودون حركة الإصلاح في مجال الأدب ويعودون بالشعر إلى ديباجته ورونقه القديم الذي كان يسير عليه عمود الشعر، وإن اختلفت نظراتهم وأفكارهم فإنهم كانوا يحاولون، وقد فتحوا الباب لمن أتى بعدهم وتلاهم هم وغيرهم من مفكري النهضة الحديثة الذين استطاعوا أن يقدموا الفكر والتراث العربي للعالم المعاصر في ثوبه الأنيق وجوهره الحقيقي.

3. النزوع إلى التجديد ومساراته في الأدب العربي الحديث:

1 - ومن الاتجاهات الحديثة في الأدب العربي التي تطرقت إليها الدراسات المجددة فيه، واعتبرت فيه نقلة وتحولاً نحو الأفضل والتطور الجاد، تلك التوجهات بمادته وأخذها من واقع الحياة التي يتقلب فيها الناس، ويعيشون مشاكلها وهمومها وما فيها من معاناة تعبر بصدق وفاعلية عن أحاسيس الإنسان المعاصر، وتترجم ما يدور في العصر من ألوان النشاط وسمات التفاعل، وما يجري في ساحة المجتمع الإنساني وما تضمه من أحداث وتطور وتقدم، في أساليب التفكير ووسائل التقنية والكشف العلمي، وما قد يحدثه في الحياة الإنسانية ونشاط البشر من تأثير وتغيير في المناهج والأساليب ووسائل التعامل والصلات والعلاقات التي تربط الناس وتلون سلوكهم، وتؤكد مدى ما يدور بينهم من تأثير وتفاعل وإحساس بالصالح العام الذي يحتويهم، ويفرض عليهم أن يرتبطوا في إطارات وآفاق ومجالات يرونها محققة لذلك الصالح العام الذي لا يستطيعون منه محيصا، وهم يتجهون نحو الأفضل في الواقع الذي يقرونه وينطلقون منه نحو البناء الإيجابي، الذي يساهم في تغيير مجرى الحياة وتقدم أساليبها وفهم مضامينها وما يدور فيها من ألوان المشاعر وأصناف النشاط وأنواع التفاعل وأجناس التفكير، الذي لا يقف في زاوية معينة من زوايا الحياة، بل يشملها جميعاً ويحاول أن يؤكد ما فيها من عطاء تستطيع الدراسات الأدبية الموسعة أن تستخلص منه كثيراً من النتائج المهمة التي تثري التفكير الجاد من جهة، وتضفي على الدراسات الأدبية حصيلة جيدة من جهة أخرى،

تتمكن بها من إلقاء الضوء على مختلف التوجهات، التي تدور في الحياة ويطرقها الأدب ويعنى بها الفكر ويستنير بها الفن ويتخذها النقاد نموذجاً وسبيلاً لتوضيح النصوص، وتحديد أبعادها وفهم أعماقها وما فيها من إمكان وآثار في مجالات النقد وميادين المقارنة، والتفاعل مع النظريات التي يفرزها الفكر ويتكئ عليها البحث ويعتمد عليها الدرس، الذي يرى في التوجهات الأدبية وسواها امتداداً للنظريات التي تقوم عليها الحياة، وتطبيقاً لها بأسلوب واقعي يقوم على الممارسة والتحري والدقة وقوة الملاحظة.

وقد انبثقت الفكرة التي تنادي بأخذ مادة الأدب من الواقع المعاش[1]، ومن الطريق العام التي يتمثل فيها واقع المجتمع، بكل ما يحمله من سمات، وبكل ما يحويه من ألوان ونشاط وآمال وطموح وأهداف، ونظر إلى الواقع والمستقبل بكل ما لهما من أبعاد ومضامين، انبثقت تلك الفكرة من الوجهة التي ترى الأدب للحياة لا للفن، فالأدب الذي لا يخدم الحياة ولا يساهم في تذليل ما فيها من مشاكل وصعاب ولا يحاول أن يقدم لجميع أفراد المجتمع الذي يدور فيه من الأفكار الجادة شيئاً هو في الحقيقة والواقع غير جدير بالعناية والاهتمام وبذل الجهود، من أجل تأكيد معالمه وخصائصه؛ لأن التقدم الذي وصل إليه الإنسان المعاصر ومتطلبات الحياة المتطورة يفرضان على الأدب باعتباره لوناً من ألوان النشاط الفكري أن يواكب مفاهيم الحياة المعاصرة التي لا تنفك عن النشاط والفاعلية والحركة والدأب، وتلك المواكبة لا تكون بمجرد التذوق والمتعة وأخذ المادة الأدبية التي يتحرك فيها الأدب ويدور في أطرافها من آفاق محددة

---

(1) شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص91-99.

وأجواء لا يتعداها إلى غيرها، بل تكون بتتبع كل ما يجري في الحياة من آلام وأفراح وتباريح وجراح وغيرها.

فالأدب في حقيقته الشاملة هو التعبير بصدق عما يحس به الإنسان، في كل وضع من أوضاعه، وكل ظرف من ظروفه، فهو ليس ترفاً ولا ترفيهاً ولا تزيداً، وإنما هو كل ذلك وغيره مما تقتضيه سنة الحياة وقوانينها.

2 ـ فالاتجاه التجديدي في الأدب العربي المعاصر الذي تبنّى دعوة النزول بالأدب إلى الطريق العام، وأخذ موضوعاته ومادته وأفكاره منها هو محاولة من المحاولات الجادة التي تهدف إلى تطويره وربطه بالواقعية التي يعيشها المجتمع العربي المعاصر، الذي هو في حاجة إلى توظيف كل الإمكانات المتاحة إلى خدمته وتقدمه، والأدب من أبرز تلك الإمكانات وأشدها فاعلية وتأثيراً في حياة الناس وأفكارهم وتصورهم ودفعهم إلى عجلة الإصلاح والتقدم والبناء.

فالأدب العربي المعاصر في توجهه الجاد في مفتتح العصر الحديث كان يرى المادة الحقيقية التي يأخذ منها موضوعاته وقضاياه ومشاكله التي يعالجها ويعنى بحلولها، هي الحياة الواقعية العامة التي يمارسها الناس في أيامهم ولياليهم، وهي التي تجسّد مشاعرهم وأحاسيسهم على حقيقتها وما فيها من أعماق وأبعاد ومفاهيم.

قال أبو الأسود الدؤلي في أبيات حكيمة لها في النفس الإنسانية تأثيرها وفاعليتها:

حسـدوا الفتـى إذ لـم ينـالوا   فـالقوم أعـداء لـه وخصـوم
وتـرى اللبيـب محسـداً لـم   شتم الرجال وعرضـه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه   حساده سيف عليه صروم
فاترك مجاراة السفيه فإنها   نـدم وغـب بعـد ذاك وخـيم
فإذا جريت مع السفيه كما   فكلاكمـا فـي جريـه مـذموم
وإذا عتبـت علـى السـفيه   فـي مثـل مـا تـأتي بـه فأنـت
يأيها الرجل المعلم غيره   هـلا لنفسـك كـان ذا التعلـيم
تصـف الـدواء لـذي السـقام وذي
كيمـا يصـح بـه وأنـت سـقيم
وأراك تصلح بالرشاد   أبـداً وأنـت مـن الرشـاد عقيم
لا تنـه عـن خلـق وتـأتي   عـار عليك إذا فعلـت عظـيم
ابـدأ بنفسـك فانهها عـن   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهنـاك يقبـل مـا وعظـت   بـالعلم منـك وينفـع التعلـيم

فأبو الأسود الدؤلي يسوق في هذه الأبيات لوناً من الحكمة والموعظة، ويحض على التشبث بالأخلاق الكريمة التي يكون بها الإنسان قدوة لغيره من الناس. فالإنسان الفطن في غالب أمره محسود من الناس، ومثله صاحب النعمة الذي يكون حساده سيفاً صارماً عليه، والإنسان الذي يحترم نفسه لا يجاري السفهاء في أقوالهم وأفعالهم؛ لأن مجاراتهم تورث الندم والعاقبة الوخيمة، فمن أية جهة حاولت تفسير تلك المجاراة وجدتها سواء، فأنت إذا جاريته كنت مذموماً مثله، وإذا عتبت عليه ولمته في مثل ما يأتي به كنت ظلوماً وغير محق، والإنسان الذي يريد أن يعلم غيره الأخلاق المثلى عليه أن يتحلى بها أولاً؛ لأنه إن لم يفعل ذلك يكن كمن يصف الدواء لمريض ليصح به وهو سقيم، وكمن يريد إصلاح العقول بالرشاد وهو نفسه خال منه، فمن العار والعيب

الكبير أن ينهى الإنسان عن خلق وهو يأتي به، والحكيم في الحقيقة والواقع هو الذي يبدأ بنفسه وينهاها عن ضلالها وغيها، فهناك يقبل كل ما يقوله في الوعظ والإرشاد والنصيحة وسواها، ويقتدى به في العلم والقول والعمل، ويكون توجيهه وتعليمه نافعاً ومفيداً ومؤكداً للحكمة والقول السديد.

هذه الموعظة التي يسوقها أبو الأسود الدؤلي كانت تمثل اتجاهاً في الأدب العربي عرف بالحكمة، وسار فيه كثير من الشعراء والأدباء وتتبعه كثير من الباحثين والدارسين بالاستقصاء والمقارنة والشرح، حتى عدت الحكمة والموعظة في فترة من فترات التاريخ الأدبي غرضاً مهماً من أغراض الأدب، وميزة يمتاز بها الكتاب والشعراء عن غيرهم ممن لم يتوفر في إنتاجهم شيء من ذلك، ويرجع السبب في ذلك كله إلى عدة عوامل، منها ميل الإنسان العربي بفطرته إلى الاستفادة من التجارب، والحكمة في حد ذاتها خلاصة لتجارب السابقين وبلورة لها في أسلوب وإطار مؤثرين، ومنها دقة الخيال والتصوير اللذين كان الإنسان العربي يمتاز بهما ويكتسبهما من أجواء الصحراء ومناخها النقي الصافي الذي يؤكد الفطرة وينمي كل ما يتصل بها من أسباب ويأخذ الأمور على علاتها وبساطتها وظاهرها ولا يحاول أن يذهب ما فيها من رواء وجمال وعفوية ويقين.

وإذا حاولنا أن نطبق التوجه الذي ينادي بأخذ مادة الأدب من الطريق ونظرنا إلى عصر أبي الأسود الدؤلي، وما كان يدور فيه من عرف، وما كان الناس يحرصون عليه من التحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة التي كانوا يفاخرون بها ويرونها المثل الأعلى في حياتهم اليومية وسواها، استطعنا أن نسلم بأن الأبيات التي قالها في الحكمة وسقناها تسير في هذا الاتجاه السائد في عصرها إلى حدّ ما، والصبغة الغالبة عليها هي التعميم والخيال البعيد الذي

ينظر لحياة المجتمع من آفاق المحيط الإنساني العام الذي يزن الأشياء بمعيار الفكر الإنساني العام الذي لا يتقيد في معانيه واعتباراته بالزمان أو المكان، بل يحاول أن يطبق المثالية وما ينبغي أن يكون.

وهذه نظرة مهمة يرى فيها الفكر في كل عصر الحياة المتطورة التي تنشد الكمال وتؤكد القيم في كل نشاط يبذله الإنسان ويسعى إليه ويحاول أن يرسخه في البيئات التي تضمه أو تحتويه.

والدراسات البحثية في الأدب العربي المعاصر حين تتعرض لقطعة أبي الأسود الدؤلي هذه بالتحليل والموازنة والدرس ترى فيها الإنتاج الأدبي الرفيع في عصرها، وتعدها من النماذج المعبرة عن القيم التي كانت سائدة فيه ويحترمها الناس؛ لما فيها من مصداقية وتأكيد للمثل الأعلى المشترك بينهم جميعاً بمختلف المفاهيم وشتى الاعتبارات وتباين الطرق والتفسيرات.

وليس معنى ذلك أن الدراسات الأدبية المعاصرة لا ترى فيها بعداً عن الحياة المعاصرة المعاشة، بل ذلك وارد ويعده النقاد المعاصرون من الحقائق الثابتة التي لا تحتاج إلى النقاش والمجادلة.

3 ـ ومن قبيل ما قاله أبو الأسود الدؤلي من الحكمة والموعظة في قطعته السابقة الذكر الأبيات الآتية:

إذا المــرء لا يرعــاك إلا فدعـه ولا تكثـر عليـه التأسـفا
ففـي المـرء إبـدال وفـي التـرك
وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
إذا لـم يكـن صـفو الـوداد فـلا خير فـي ود يجـيء تكلفا

ولا خيـر فـي خـل يخـون ويلقاه مـن بعـد المـودة بالجفا

وينكـر عيشــاً قــد تقــادم ويظهر سراً كـان بـالأمس قد

سـلام علـى الـدنيا إذا لـم يكـن

صــديق صــدوق صــادق الوعــد

فهذه الأبيات تشرح أسلوب المعاشرة وتبين قيمة الوفاء. فالإنسان الذي لا يرعاك إلا تكلفاً ابتعد عنه ولا تأسف لذلك؛ إذ أن البعد عنه راحة لأن الود الذي لا يجيء عن طبيعة وإخلاص لا خير فيه، كما أنه لا خير في صديق يخون صديقه ويجفوه بعد المودة وينكر أياماً تقادم العهد بها، وقد قضيّاها في ألفة ويظهر سراً كان بالأمس خفياً بينهما، والدنيا إذا لم يكن فيها للإنسان صديق مخلص في وده ووفائه لا تساوي شيئاً، فعليها السلام والرحيل منها أولى.

هذه الأبيات تمثل هي وأبيات أبي الأسود الدؤلي لوناً من ألوان الإنتاج الأدبي الذي كان الشارع العربي يهيم به ويعده نموذجاً فنياً يتحراه النشاط الأدبي ويركز عليه النقد في الحكمة والموعظة وتقنين القواعد الأخلاقية المثلى التي ينبغي التقيد بها والسير على هداها في الحياة العامة والخاصة على السواء.

ورغم ذلك كله فإن الاتجاه التجديدي في الأدب العربي المعاصر الذي يدعو إلى أخذ مادة الأدب وموضوعاته من الطريق العام لا يرى في هذه الأبيات وما جرى على شاكلتها من أدب الحكمة ووصف الطبيعة وتفسير مظاهرها شيئاً مما يدعو إليه؛ لأن ذلك لا يعالج قضايا الحياة المعاشة ولا مشاكل المجتمع ولا يساهم في التطور الذي تتطلبه مواكبة العصر وما جد فيه من جديد وإصلاح.

4 . الحداثة والتجديد في الدراسات الأدبية:

1 . وفي هذا الصدد كثير من الدارسين يفسرون الحداثة ويفهمونها بمخالفة كل ما هو قديم، وهذا غير مطابق للواقع ومخالف للمنطق؛ لأن الحداثة في حد ذاتها لا تعني مخالفة القديم لمجرد كونه قديماً، وإنما تعني مقابل القديم الذي قد يتوافق معه في الشكل والمضمون، أو في أحدهما، الأمر الذي لا يدل على المخالفة في كل حال.

ثم إن الحداثة التي لا تبنى على القديم الأصيل لا تستطيع أن تثبت وجودها وتصمد أمام التيارات والمؤثرات المختلفة التي تفرزها الرواسب القديمة التي أوجدها مرور الزمن وعمقها طول القديم، واستطاع الإنسان أن يستوحي منها المعاني والعبر، وأن يستقي منها المعلومات الجادة في التقويم والبحث والتحليل، وأن يعكس منها الصورة الحية والإيجابية في بناء الحياة الاجتماعية التي يحاول المفكرون أن يرسموها ويؤكدوا أسسها وأركانها ويعمقوا دعائمها بين الناس على مختلف مداركهم وشتى بيئاتهم التي ينحدرون منها، ولا يفهمون المضمون الصحيح لما يصادفهم وهم يسعون في الأرض إلا من خلال ما تعارفوا عليه فيها، من مفاهيم وما تشربوا فيها من مدلولات وعادات وأعراف ومضامين، تحمل في طياتها حيناً مسحة العمق والأصالة والتأثير، وأحياناً أخرى مسحة العفوية والسطحية والسلب.

فالحداثة في جملة معانيها ليست إلا الأشياء الحديثة التي تقابل في التناظر والموازنة الأشياء القديمة التي قد تتفق معها في كل شيء دون أن يبدو عليها أي أثر للمخالفة والتناقض وعدم الانسجام مع المدلولات والمفاهيم، وقد

جرى التعارف بين الباحثين على أن الحداثة في الدراسات المختلفة، تعني الانسجام مع الجديد المبتكر، وتعني موافقة ما يدور في الحياة المعاصرة من أفكار يرى فيها التجديد ما يعده لوناً من ألوان الإصلاح الذي ينشده الإنسان المعاصر، وهو يتفاعل مع المكتشفات العلمية التي لا تقبل إلا منطق العلم و أسلوب الحقائق الواقعية التي يتعايش معها الإنسان المعاصر، ويتخذ منها المجال الفسيح الذي ينطلق منه نشاطه وبناء حياته وتطبيق آرائه وأفكاره المختلفة والمتنوعة، التي تكيف الواقع الذي يدور فيه، ويحاول دائماً أن يصل فيه إلى الأفضل والأوفق مع رغباته التي تفرضها متطلبات الحياة المعاصرة، بكل ما تحمله من معاني المعاصرة من مدلولات ومضامين.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو: هل تعني الحداثة التجديد؟ أو هل الحداثة والتجديد متلازمان؟

وقبل الإجابة المباشرة على هذا التساؤل لابد لنا من الرجوع إلى المعنى الذي تدل عليه كل من كلمتي الحداثة والتجديد، إذ أن المدلول لكل منهما يحدد الإجابة أو يقرب منها على أقل تقدير.

وقد اعتادت الدراسات والبحوث أن تقرن الحداثة بالتجديد وأن تقارب بينهما للدراسة التي كادت أن تجعل مدلول كل منهما مطابقاً لمدلول الآخر.

ولكن عند التأمل نلاحظ أن هناك فرقاً بين المدلولين، فالحداثة تعني الشيء المستحدث الذي لم يكن، ثم حدث وكان.

والتجديد[1] يعني الشيء الذي تجدد سواء كان موجوداً أو أهمل ثم بعث فيه الاهتمام أو لم يكن موجوداً وأحدث.

فالفرق بين الكلمتين من حيث المدلول واضح، وإن التقتا في بعض الاستعمالات التي قد يفهم منها أنهما مترادفتان.

وإذا كان هناك من اختلاف في المدلول بين الحداثة والتجديد في المعنى اللغوي فإن الأساليب الدراسية المعاصرة لا تحاول أن تركز على ذلك الاختلاف، وتعتبر الحداثة ضرباً من التجديد وتعد الاتجاه المعاصر للتقويم والإنتاج الفكري والأدبي وسواه تجديداً وحداثة وابتكاراً يتوافق مع المعطيات التي تقتضيها متطلبات العصر ومقتضيات الحياة المعاشة التي يتقلب فيها الناس ويقيسونها بمفاهيم الواقع الذي يحتويهم، ويتأثرون بما فيه من إمكان وتيارات وألوان من التفكير.

والنظرة الموضوعية للدراسات التقويمية الجادة في الإنتاج الفكري أدباً كان أو غيره، تتطلب الاهتمام الدقيق بمفاهيم الكلمات التي تدل على المعاني الكبيرة التي تعد الوعاء للنظريات والآراء والأفكار التي يطرحها الواقع، وتتعلق بها المعاناة ويترجمها الإنتاج، حتى تستطيع تلك النظريات والدراسات أن تصل فيها إلى نتيجة إيجابية، وتحدد مسيرة التفكير الذي ينشأ على ضوئها وضوء ما فيها من اعتبار.

فالتجديد والحداثة بمفهومهما الواسع يلتقيان في مجالات الإصلاح والبناء ويقدمان للإنسان ما هو في احتياج إليه، من حيث القدرة على التجاوب مع ما

---

[1] انظر مادتي جدّ وحدث في مختار الصحاح للرازي.

تقتضيه الأوضاع التي يمر بها في الحياة المعاصرة، ومن حيث التجاوب مع أساليب التفكير الجديد في شتى القضايا التي يتعرض لها بحكم ممارساته في واقعه الذي يتقلب فيه ويرى نفسه جزءاً مما يدور فيه من تصاريف، تتعلق بذاته وبغيرها من الناس الذين يشاطرونه تكاليف الحياة وأحاسيسها وما يجري خلالها من نشاط، يتلون به التفكير ويتسم به الإنتاج الأدبي والفني وسواه.

2 ـ يقول بعض مفكري هذا العصر[1] ورواد الفكر فيه مناجياً ربه ﷻ:

إذا ما اتجه الفكر في السماء حيث انتشرت النجوم في الليل، وإذا ما كل البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق، وتسمع صوتك في ذلك السكون وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة، حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها جاسمة مشرقة، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة تنبعث من كل صوب، وحينئذ تتغشى النفس الخاشعة لتقول: أنت أنت الله.. وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم وأرسل الطرف بعيداً بعيداً، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الإبريز المسحور لتغيب في هذا المتسع الملح الأجاج، وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض في حدود الأفق الملون بألوان الشفق كأنها طائر يسبح في النعيم، إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجاري على أديم الماء الممهد، وفي رعاية الله الصمد، حيث تكون مظهر العظمة، وحيث تطمئن النفس إلى ما تطمئن إليه في منظر جميل، إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها في النفس: أنت

---

[1] هو منصور فهمي، النصوص الأدبية السابق، ص63.

أنت الله.. وإذا ما انطلقت السفينة بعيداً بعيداً في البحر اللجى، وهبت الزوابع، وتسابقت الرياح، وتلبد بالسحب الفضاء، واكفهر وجه السماء، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولعبت بالسفينة الأمواج، وأجهد البحار جهده، وأفرغ الربان حيلته، وأشرفت السفينة على الغرق، وتربص الموت من كل صوب وحدب، إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك، وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك، وتصل بحبال نجدتك المكروبين البائسين، وإذا ذاك يردد القلب واللسان: أنت أنت الله..

فهذا القول فيه مناجاة لله ﷻ، وفي الوقت نفسه هو تدليل وبرهان على وجوده وعظمته ورحمته وقدرته واتصافه بالكمال المطلق الذي يقطع بربوبيته وبطلان ربوبية ما عداه.

والذي يرشد إلى هذه الحقيقة ويوصل إليها هو التفكير والتأمل في ملكوت الله ﷻ الذي يتعلق بما في السماوات، من نجوم وآفاق وأفلاك وضياء وظلمات وسكون يتحول بالإيمان بالله والتسليم بعظمته إلى نغم مطرب ينبث في النفس الإنسانية من كل جانب؛ ليزداد إيمانها هتافاً بعظمة الله.

ثم إن الإنسان المفكر الذي يتأمل في ملكوت الله إذا كان على شاطئ البحر وأرسل طرفه بعيداً، حيث تمتزج زرقة السماء بزرقة الماء، وحيث تنحدر شمس الأصيل كأنها الذهب الإبريز لتغيب في الأفق المتسع، وحيث يتهادى الفلك في حدود الأفق الملون بألوان الشفق، حينذاك يشعر المتأمل بعظمة الله الواسعة التي تقصر دونها عظمة البحر الواسع، وتطمئن النفس ويدق الفؤاد بدقات يكون صداها في نفس الإنسان الإيمان بالله والتسليم له.

وإذا ما انطلقت السفينة في أعماق البحر وتغير الطقس وأحاطت بها المهالك من كل جانب، وأطل الموت بوجهه الكالح، ولم تجد جميع المحاولات للنجاة، وبرزت النجدة الإلهية التي لم تكن لتراود النفوس أو تخامرها، فإن القلب واللسان في الإنسان يؤكدان وجود الله وقدرته ورحمته ويرددان معاني الإيمان به في قطع ويقين وتأكيد نابع من داخل الإنسان.

فهذه المناجاة فيها تأمل وإشراق روحي وتذوق لطعم الإيمان النقي النابع من القلب المؤمن بالله وعظمته وقدرته المطلقة على تسيير هذا الكون، بما فيه من أفلاك وأحياء ونظام ودقة وقوانين ظاهرة وخفية، يجد فيها الإنسان المتأمل التفسير الذي يرتاح إليه في فهم الظواهر التي يقع عليها حسه وإدراكه ويتجاوب معها شعوره ووجدانه وإمكانيات التفكير لديه.

والكون بكل ما فيه من مشتملات ميدان فسيح للتأمل، ومادة خصبة للتدليل على وجود الله ﷻ وهيمنته على كل ما فيه من إمكان، وفيه يجد المفكر المعاني الكثيرة المتعددة التي تسعفه وهو يطرح القضايا والمشاكل والحلول الفكرية وسواها مما يرشده إلى التفكير السديد، في كل ما يعنّ له من شؤون الحياة التي يدور فيها، ولا يجد مفراً من التفكير في قضاياها ومشاكلها ومطالبها التي لا تنتهي عند حد من الحدود.

وفي هذه المناجاة أسلوب جديد للاتجاه بالتفكير اتجاهاً غير مألوف في الأساليب المتعارف عليها، من استعمال النظريات والقواعد المنطقية التي لا يستطيع الاهتداء إلى الحقيقة بواسطتها وعن طريقها إلا الذين لهم ضلع في النظريات والقواعد المنطقية.

حيث يحاول هذا الأسلوب الجديد أن يخاطب في الإنسان ما هو ماثل فيه من إحساس وشعور، وأن يربطه بما يتقلب فيه من أشياء يقع عليها حسه وإدراكه في كل حين، وهذا أمر يشترك جميع الناس في فهمه، وفهم ما يترتب عليه من نتائج، وفي الوقت نفسه هو سبيل سير لمعرفة الله والإيمان به، وتعميقه في النفوس البعيدة عن الأهواء، المتعطشة لمعرفة الحقيقة وفهم وجودها على بصيرة ويقين بالبراهين المادية القاطعة التي لا يشوبها الريب أو يخالفها الاحتمال أو الشك.

فهذا الاتجاه في التفكير يعد تجديداً لأن الموضوع الذي يعالجه والوسيلة التي يستعملها في هذه المعالجة ليس جديداً، ولكن التطوير الذي طرأ في هذا المجال جدد الاهتمام به فأصبح هذا اللون ضرباً من التجديد في أساليب التفكير ومناهجه ووسائله.

والتعميم في هذا الاتجاه من التفكير في شتى القضايا التي يعنى بها الإنسان، سواء منها ما تعلق بالإيمان أو سواه هو الأسلوب الذي يعتبر معاصراً، ومنه تبدو ملامح الإصلاح في مختلف ما تمر به الحياة الاجتماعية من نشاط، واتفاق هذا المنهج مع متطلبات الواقع الذي يعيشه الإنسان المعاصر يعد ضرباً من الحداثة، في تحليل المشاكل وتطبيق الأفكار والنظريات في الإنتاج الفكري الذي يعنى بالإصلاح والتقدم، وبعث التطور الإيجابي في جميع مناحي الحياة ووسائل التفكير.

3 . فكلما توكدت في الحياة عوامل التطور والنهوض، انعكس ذلك في الاهتمامات الأدبية ودراساتها وما يتصل بها من قريب أو من بعيد، سواء في ذلك ما يهتم بجوانب التقويم والمقارنة وما يتصل بالمعاناة وما تترجمه من إنتاج

يحكي وجهات النظر التي يبسطها الدارسون والناقدون والمعانون، وهي إجمالاً تدور حول هذا التطور وعوامله وارتباطه بشؤون الحياة والناس وما يرونه في معايشتهم اليومية، التي يعدها بعض الدارسين واقعاً ينبغي أن ينطلق منه الاهتمام الأدبي ويراها بعضهم الآخر خلاصة لما سبقها من عوامل زمنية ومكانية وغيرها.

ومهما كانت وجهات النظر من التباين في هذا الشأن، فإن الاهتمام الأدبي لا يمكن أن يتجرد من متابعة التطور الذي يمر به المجتمع الإنساني ورصد أحداثه، في جميع صورها وانعكاساتها، وفي جميع الاحتمالات التي تنظر بها وتوجه إليها هذه الصور والانعكاسات التي منها يتم تفسير المواقف والأحداث، وتتخذها مرتكزات واضحة للدراسات الأدبية وما يحيط بها من منظور، ونستطيع منها أن نتفهم عناصر الحركة والتحول، في تقويمنا للإنتاج الأدبي، وفي رصدنا للفكر وتطوره ومتابعة ما يطرأ عليه من عوامل الحركة والتجديد، وهو الشيء المهم جداً في فهم المسارات النقدية والتيارات الأدبية وما يتصل بها من منابع التأثير والتفاعل، التي تحدث من جراء التطور ومافي العصر من متطلبات واعتبارات تراعي العادات والروابط الاجتماعية حيناً، وترتبط بحركة التاريخ وجذوره وما فيه من عمق وأبعاد لابد للفكر من استلهامها حيناً آخر.

وفي كل ذلك يجد الدارسون والمهتمون بشؤون التطور وانعكاسه على التوجهات الأدبية المجالات الفسيحة التي تعطي للأدب وإنتاجه المناخ الدسم الذي لا يمكنه فقط من التعبير عن العواطف والمشاعر الإنسانية، وإنما يمكنه أيضاً من المساهمة الجادة في بناء الروح الصادق في الحياة الاجتماعية التي تستطيع أن تحصي حركة الفكر المعاصر، وتصحح التاريخ وترسم مسار الأحداث بما يتفق وروح المجتمع المعاصر الذي تفسر فيه الأحداث على ضوء

ما يكمن فيه من قوة فاعلة، وعلى ضوء ما وصل إليه الإنسان من تقدم في العلوم والتقنية والمكتشفات التي توصل إليها البحث في هذا المجال الذي أصبح يمثل وجه العصر وملامحه العامة، بكل ما فيها من محاسن وعيوب، وبكل ما استطاع هذا العصر أن يحشده حولها من مفاهيم وشروح ودراسات متباينة ومتعددة كلها تدور في خضم المعرفة، وما استطاع الإنسان أن يحدثه فيها من جديد وطريف.

ولا يستطيع الدارس للانعكاسات الأدبية وجذورها ومؤثراتها الأصلية أن يبتعد عن دراسة آثار العلوم التطبيقية، وما فيها من نظريات ترتكز عليها مقومات العصر في تحديد مسارات النهضة وتكييف الحياة، وما فيها من متطلبات تقتضيها طبيعة الزمن والتقدم الاجتماعي المتطور في اطّراد حسب ما تحدثه التقنية والاكتشاف العلمي الذي غزا جميع الجوانب وآفاق النشاط الفكري الذي له صلة بالحياة، بكل ما لها من مكونات وظروف وملابسات، وبكل ما يمكن أن يرتبط بها من تطور وتجديد يقوم على التأمل والفكر وما فيه من تقلب وجديد، وبالقدر الذي تحيط به الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية من هذا المجال، تستطيع أن تتمكن من تأدية دورها في تعميق المفاهيم الإنسانية في هذه الدراسات من جهة، وتستطيع أن تؤكد ملامح العصر وتبرز ما فيها من محاسن وعيوب من جهة أخرى، وبذلك تتمكن من تقديم العطاء الصحيح الذي يتفق وروح العصر وتنفذ إلى العوامل الأساسية لما يدور في المجتمع المعاصر من مشاكل لا تنحل إلا بالوقوف عليها حتى تكون الحلول لها جذرية وعامة، لا تلفيقية تقوم على الملاحظة الآنية التي لا تتعدى وقتها ووضعها المحدد الذي توحي به جزئيات هذه المشاكل.

ثم إن قضايا الفكر في إطارها العام سواء منها، ما كان مرتبطاً بالأدب ومجالاته المختلفة والمتعددة، أو ما كان مرتبطاً بغيره من وجوه المعرفة المتباينة أيضاً، لا يمكن في الاعتبار العام عند التعرض لدراسة المؤثرات العصرية أن يتصور فصلها أو ما فيها من تأثير شامل في الواقع الذي يتقلب فيه الإنسان ويتحرك فيه المجتمع والبيئة، الأمر الذي يتحتم معه أن تكون وجهات نظر الدارسين في الأدب ونقده قائمة من هذا المنطلق الذي يجمع في مكوناته مادة الفكر الصادق وروح المنطق الحي الذي يستمد وجوده من الواقع المعاصر، بكل ما له من مؤثرات وخصائص تبرز كل ما له من اعتبار يرى الناقد والباحث ضرورة الإلمام به في فهم مدلولات العصر التي لابد من توفرها وتفهمها في الدراسات الأدبية المعاصرة التي تعالج قضايا الحياة ووضع الإنسان فيها، وهو يحاول أن يحقق مطامحه فيها ويصل إلى الأهداف التي يريدها ويصر على تحقيق مجتمعه لها حتى يكون مجتمعاً حياً يواكب الحياة المعاصرة ويتحرك على ضوء ما في العصر من جديد في عالم الفكر ومجالات المعرفة وميادين الكشف العلمي المبتكرة، التي تجسد التقنية ومنجزات العلوم التطبيقية المتقدمة.

والدراسات الأدبية التي تركز على فهم هذه الجوانب وتعميق أبعادها وربطها بالماضي الذي له صلة بالفكر وحركته تستطيع أن تساهم وبجدية في تطوير مجالات الحياة المعاصرة، كما تستطيع أن تخطط لمسارات الفكر المعاصر وتبسط أمامه جذور المشاكل الأساسية التي يتوجب عليه علاجها وحلها حتى تكون مساراته صحيحة نحو المستقبل المنشود.

وحين تستطيع الدراسات الأدبية بما فيها من فاعلية وتأثير أن تكيف انعكاساتها الإيجابية في خدمة الحياة المعاصرة وتطوير المجتمع الذي يحتويها،

يستطيع الأديب والناقد أن يبرهن عن دوره الإيجابي الصادق الذي يضطلع به وهو يقدم معاناته الأدبية ويترجمها في إنتاجه الذي يجسد مشاكل مجتمعه وبيئته ومحيطه وآمال أمته وأحاسيسها وانفعالاتها وطموحها، وبذلك وحده يكون قد أدرك دوره وما يتحتم أن يساهم به من عطاء في مجالات البناء والإبداع وميادين التحرك والانفعال.

ومؤثرات العصر وتطوراته في الحياة لا تتم إلا بفعل الإنسان وحركته، والذي يستطيع أن يرصد ذلك بدقة وفهم عميق هم المفكرون والأدباء وغيرهم الذين يستطيعون بدون شك أن يوجهوا انعكاساتها في الطريق الصحيح الذي يجعل الحياة سهلة ميسرة واضحة في كل حين لمن يمر بها من السالكين.

4 . يقول بعض الشعراء[1] موجهاً النصح لابنه وحاثاً له على الجد والاجتهاد في التحصيل:

إذا نـام غـر فـي دجـى الليـل
وقـم للمعـالي والعـوالي وشـمر
وخـل أحاديـث الأمـاني علالـة نفس العاجز المتحير
وسـارع إلـى مـا رمـت مادمـت
عليه فإن لم تدرك النجح فاصبر
ولا تـأت أمـراً لا ترجـى ولا مـورداً مـا لـم تجـد حسـن
وأكثـر مـن الشـورى فإنـك إن
تجد مادحاً أو تخطئ الرأي تعذر
ولا تستشـر فـي الأمـر غيـر

[1] هو عبد الله فكري، جواهر الأدب السابق، ج2، ص442.

لأمثالـــه أو حـــازم متبصـــر

ولا تبــغ رأيــاً مــن خئــون ولا جاهـل غـر قليـل التـدبر

فهو يوجهه إلى المثابرة وقيام الليل من أجل المعالي التي ينبغي أن يحصل عليها من العلم والمعرفة ونبذ التعلل بالأماني التي هي علالة نفس الإنسان العاجز المتحير، كما ينصحه بأن يثبت فيما يقدر عليه في حينه حتى لا يصبح أملاً بل حقيقة واقعة، وإن لم يحالفه الحظ في ذلك فعليه بالصبر والأناة ومواصلة الجهد، ولا ينبغي له أن يأتي من الأمور إلا ما يرجو أن يتمها ويستطيع علاجها والاستفادة منها، مثل الموارد التي يتزود منها ليروي ظمأه، فهي إن لم تكن من مصدر حسن لم يتمكن معها من تحقيق رغبته وإطفاء ظمئه، ثم إن الشورى في الأمور التي تعن له أمر واجب وينبغي الإكثار منها، فإن أصاب الإنسان هدفه بعد ذلك وجد من الناس الثناء الجميل، وإن أخطأ كان له العذر منهم، والشورى أو الاستشارة تكون مستقاة من ذوي التجربة والحزم والبصيرة الثاقبة الذين خبروا الحياة وعانوا آلامها وما فيها من انعكاسات، وأما أولئك الذين لا خبرة لهم بها أو هم غير صرحاء فلا تؤخذ منهم المشورة.

هذه القطعة التي تعد توجهاً من توجهات التربية في حينها الذي كان في بداية هذا القرن على ما أعتقد تمثل وجهاً من التيار الفكري الذي كان الأدب يسير في إطاره، وهو توجه استطاع أن يساهم إلى حد كبير في إلهام المشاعر نحو التحصيل والدراسة وأساليب التربية التي أخذت تتطور حتى وصلت إلى الواقع الذي نفهمها به في الحاضر، ولم تكن مثل هذه النظرة في مجالات الأدب التي تتوخى الحكمة والتأمل في الأمور والموضوعات التي تطرقها بعيدة عن المنطق وما ينبغي أن تتناول به الأشياء، سواء منها ما كان متعلقاً

بالمحاكاة أو الإبداع أو المقارنة أو التقويم، ذلك أن قضية التحصيل حتى في المفاهيم السائدة في هذه المراحل التي نمر بها من التاريخ تتطلب الجهد والبذل والصبر الطويل، ومثل ذلك أهمية التأني والتأمل والاستنارة بآراء الآخرين في المعضلات التي يجابهها الإنسان في الحياة وما يتخللها من مشاكل.

وهذه النظرة المتأنية التي تأخذ الأمور بعين الصدق والواقع الملموس هي التي نحرص عليها في معاناتنا الأدبية وعلاجنا لقضايا الفكر وانعكاساته على النشاط الأدبي والفني؛ لأنها توصلنا إلى الحقيقة التي نبحث عنها والأهداف التي نريدها من هذا النشاط بترسيخ قواعد البناء الاجتماعي ومواكبة التطور المعاصر بكل ما فيه من معنى ومضمون.

5 . وكلما تطورت الحياة الاجتماعية تطلب ذلك من الدراسة الفكرية في مختلف ألوانها وتباين مفاهيمها مواكبة ذلك التطور والتعمق وأبعاده وأسبابه وما يؤدي إليه من نتائج إيجابية أو سلبية، وذلك يحتم على تلك الدراسات أن تلم بمختلف المعارف والأفكار والنظريات التي تدور فيها تلك الحياة بالإضافة إلى المكونات الأساسية التي ينطلق منها الفكر الإنساني العام، الذي هو القاعدة الأصلية لفهم الأفكار والنظريات القديمة والحديثة والتيارات الأصلية والوافدة، التي لا تلون الحياة الاجتماعية فحسب، بل تؤثر على كل ما فيها من توجه وتفكير يتصدى لتفسير الظواهر المختلفة ويحلل الأسباب المتنوعة للمشاكل التي يعنى بها الإنتاج الفكري، ويعالجها النشاط الأدبي وتحاول الجهود المتباينة أن تقف على ما فيها من أبعاد، تصل منها إلى كثير من الاتجاهات التي لها الأثر المباشر في التوجه الذي نلاحظه في كل ما تمر به الحياة الاجتماعية من تقدم وتطور وانطلاق نحو الأفضل، وما يتصل بالإصلاح الذي ينشده المجتمع وتهدف إليه الدراسة الجادة في الأدب والفكر وسواه.

وإذا كان التجديد في الحياة الاجتماعية يتطلب من الباحثين والدارسين والمتأملين أن يضيفوا لما في الواقع من عطاء إيجابي المزيد من الأفكار والنظريات والمحاولات التطبيقية لها، فإن التطور بتلك الحياة يحتم أن تجند إمكانات هؤلاء إلى تطويع التجديد لخدمة المجتمع ومواكبة التطور الذي تمر به الحياة الاجتماعية بما يوافق العصر وما يجري فيه من معارف وتفكير وحركات إصلاحية هادفة ترمي إلى خلق المناخ والبيئة الصالحة للنشاط الفكري والفني والأدبي، الذي يدفع بالحياة الاجتماعية إلى التقدم ويساهم في بناء الأفكار الحية التي تتوخى الصدق وتفرز العطاء الإيجابي في جميع المجالات التي تدور فيها الحياة ويتقلب فيها الإنسان وتجد فيها التوجهات المجددة والمتطورة المتنفس الذي يبعث فيها الروح المتجددة للنشاط والفاعلية، في جميع الآفاق التي تتطرق إليها وتعنى بما فيها من إمكان، وتستطيع الدراسات الفكرية المتباينة أن تزيل الغطاء عن جميع الجوانب التي لابد من توفرها في خلق روح النشاط الإيجابي في الحياة الاجتماعية الذي يدفع بها إلى التطور والتقدم والحيوية بما يقدمه من عمق وجهود صادقة، لتطبيق الأفكار الأصلية وتنقية البيئة وأجوائها مما يدور فيها من نظريات وأفكار وافدة لا تتفق مع تكوينها وطبيعتها، وخاصة التيارات التي تعصف بها من حين إلى آخر، ولا تجد من يتصدى لعلاجها وتغيير مجراها لتبقى على ما فيها من أصالة وميزات.

ومهما اختلفت وجهات النظر في فهم التطور الذي يعتور الحياة الاجتماعية، فإن التقاءها في تفسيره يتم في منعرج التغيير والتجديد ومواكبة الواقع وما يمر به من أحداث وجديد في عالم الفكر ومجالات المعرفة، وما تضفيه من عطاء في شتى ما يدور فيه الإنسان من نشاط وما يتصوره من حقائق وأفكار.

والدراسات الفكرية المجددة التي لا تتصدى لرصد التطورات التي تمر بها الحياة الإنسانية بصورة شاملة والحياة الاجتماعية التي تدور فيها بصورة خاصة لا تستطيع أن تلم بالخطوط العريضة التي يسير فيها النشاط الفكري العام من جهة، وبالتيارات الفاعلة التي هي الأسباب المباشرة للتغيير والتطور والتجديد في الواقع الذي تمثله الحياة الاجتماعية من جهة أخرى.

ومن هذا المنظور تأخذ الدراسات النقدية والمقومة في الأدب والفن والفكر بعض توجهاتها ومسالكها، حيث تتمكن من الوقوف على كثير من الجوانب التي تتيح لها استخلاص الأسباب المباشرة وغير المباشرة لبعض الظواهر والاعتبارات التي تلاحظها في النشاط الذي تقف عليه مترجماً في الإنتاج الذي تحاول تقويمه وإظهار ما فيه من محاسن وعيوب وميزات وخصائص.

وإذا كانت النظرة التقويمية في بعض مراحلها الماضية مركزة على الجانب الشكلي، فإنها قد أصبحت مهتمة بالواقع، ولا يعني التطور في الحياة الاجتماعية الانسلاخ عن الماضي وقطع الصلة به، وإنما يعني الإضافة إلى الماضي بما في الواقع من جديد يثري الحياة ويبعث فيها عوامل النشاط والفاعلية والعطاء، الذي يكشف ما فيها من أسرار يجد فيها البحث والدراسة والتأمل من الآفاق الرحبة ما يحفز الإنسان على البذل ومضاعفة العزم على الخلق والإبداع.

والتجديد الذي يواكب ما تتطلبه الحياة المعاصرة من تقدم وتقنية وجهد متواصل، من أجل المعرفة وما يطرأ فيها من جديد متبكر، له الدور الأكيد في خلق روح النهضة وبناء الواقع المعاش، على أساس من الفكر والوعي السديد الذي يحيط بمشاكل العصر وقضايا الواقع، ويتقلب في دروب الحياة العامة

التي يحياها الناس ويتلمسون سبلها ويتحسسون مصاعبها ويحاولون أن يقفوا على القواعد الصحيحة التي ترشدهم إلى الأعماق البعيدة، والأسرار الدفينة في تلك القضايا والمشاكل التي تعج بها رغبات الناس ومطالبهم في حياتهم اليومية وواقعهم الذي يعيشونه، ويرون تصاريف العصر وصورته الأصلية من خلاله وخلال ما يكمن فيه من إمكان وتصوير وآثار باعثة على التأمل والمقارنة والحصر والاستقصاء.

وإذا كان الارتباط بالواقع المعاش في الدراسات الأدبية المعاصرة سمة من السمات المميزة لها، فإن النتائج الإيجابية لتلك الدراسات في علاج قضايا الحياة الاجتماعية ومشاكلها تعكس الدور المهم الذي تضفيه على الارتباط بالواقع وما فيه من آفاق، وفي الوقت نفسه تفسح المجال أمام الباحثين والدارسين لكثير من التفسيرات التي يرونها لمعنى الواقعية التي لا تعني فقط علاج القضايا والمشاكل وترجمة المعاناة التي يعانيها الإنسان في الواقع الذي يحياه ويعيشه ويتعلق بتصاريفه وما يجري فيه من نشاط وتفاعل واهتمام، وإنما تعني بالإضافة إلى ذلك وصف الإحساس الذي يدور في نفس الإنسان ووجدانه وذهنه وتصوره وخياله وانفعالاته المتباينة والمختلفة.

6 ـ يقول أحد الشعرء المعاصرين[1] في فلسفة الحياة:

تـرى النهـر ينسـاب عـن ليجريـــه الشـــاطئ المســـتقر
كـذا يتـدافع بحـر الحيـاة فـــإن لـــه رحمـــة الله بـــر
آمنـــت يـــا رب مثـــل وراء الوجـــود أبـــوه الأبـــر
نفـر مـن الهـم فـي زعمنـا ولكنـــه هـــو منـــا يفـــر

---

[1] هو مصطفى صادق الرافعي، النصوص الأدبية السابق، ص364.

ومـن ذا رأى فـي السـماء تقـيم بهـا أبـداً لا تمـر
وهـل فـي الوجـود سـوى تـدافع شـيء لشـيء يجـر
فمن عرف الكون عرفانـه ففـي كـل حـال لـه مـا يسـر
تعـيش علـى الأرض فكيـف تعـيش وفـي الأرض
لعمرك مـا تسـتقر الهمـوم علـى مـؤمن روحـه فيـه حـر
وفـي الـدهر يسـر وفـي الـدهر
وفـي العمـر حلـو وفـي العمـر مـر
ولكنهـا حركـات الحيـاة منهـا الحيـاة لنـا تسـتمر
ويـأتي الشـتاء أغبـر كالحـاً لأن الربيـع بـه مسـتتر
فـلا دام فـي نفعـه نـافع ولا دام فـي ضـره مـا يضـر
فكن مرحـاً لا تقـر الأسـى فعـادة كـل امـرئ مـا يقـر
ومـا سـر حظـك إلا لـديك بلـى! فـرحُ القلـب للقلـب سـر
تعـود الحيـاة هلاكـاً لمـن أراد الحيـاة علـى مـا يصـر
فخـذها حصـىً إن تكـن مـن
ودراً إذا كـان فـي الحـظ در
ولا تـزد الشـر فـي وهمـه بوهمـك .. ذانـك شـر وشـر
خفـاف السـحاب تطيـر وترمـي الصـواعق إذ تكفهـر
وهذي الهمـوم مثـل النسـاء يضـاعفهن خيـال يضـر
حصـاة .. ويثقـل بالقلـب توهمهـا جبـل مشـمخر
ومـن ذا رأى فـي السـماء تقـيم بهـا أبـداً لا تمـر

فحياة الإنسان تتدفق بين شاطئين ممتدين من غياهب الماضي البعيد إلى المستقبل، وأحد هاذين الشاطئين من الإنسانية، والآخر من رحمة الله تعالى، وبين هاذين الشاطئين تسير الحياة إلى غاياتها متجددة متغيرة متدافعة لا تستقر

منها قطرة على قطرة، والإنسان متى فهم هذا المعنى وقرره في قلبه ويقينه استطاع أن يعرف أن ما يلم به من أكدار الحياة ومنغصاتها إنما هو من أسبابها ودواعيها ومتطلباتها، وأن هذه الأكدار والمنغصات يحملها النهر فيما يحمل معه من غثاء. فالحياة بحر تتدافع فيه بين الشدة واللين والقسوة، والهموم تفر منا كما نفر منها، وسنة الكون هكذا تدافع وتدابر والحر المؤمن هو الذي يصبر على متاعبها وما فيها من صعاب حتى تمر.

وفي هذا الصدد لا ينبغي أن لايعزب عن البال أن الحلو وراء المر، والسهل وراء الصعب؛ لذلك ينبغي أن نبتسم ونتفاءل لنعبر هذه السبيل؛ لأن الحزن يعدي والفرح ينمو ويشيع ويعدي أيضاً، والمرونة التي تؤدي إلى النجاح في الحياة هي تقبلها بما فيها من هناء وتعب بصدر رحب وقلب مرح.

فالرضا بما قسم الله ﷻ هو السبب الحقيقي للسعادة والهناء وراحة البال والضمير.

فالشاعر في هذه القصيدة يصور الحياة يسراً وعسراً وشدة ورخاء، ويدعو إلى الفلسفة في أحزانها وآلامها وأفراحها ومسراتها؛ لأن ذلك سيمر مثل سحابة صيف عما قليل تقشّع، ومن هنا ينبغي أن نتناول الحياة وما فيها من تكاليف بسهولة ويسر، وألا نحمل همومها وأوزارها على كواهلنا بروح من المغالاة والمبالغة؛ لأنها ستنوء بها حتماً وتعجز عن حملها، فسنة الحياة كذلك وطلب تغييرها ضرب من المحال الذي لا يتحقق.

فالنظرة التي ألقاها الشاعر على الحياة بحسب إحساسه وتصوره تعد نظرة واقعية بالنسبة لجوهر الحياة وحقيقتها وواقعها، والقصيدة التي تناولت فلسفة

الحياة على هذا الأساس تمثل نوعاً من التفسيرات التي تدور حول الواقعية وما فيها من اعتبار ومضمون.

وهذا الاعتبار يدعونا إلى التوقف دائماً حول الواقعية التي ينطلق منها النشاط الفكري في جميع صوره ومختلف مسالكه الأدبية والفنية والاجتماعية حتى نستطيع الوقوف على الأهداف الأساسية في ذلك النشاط الذي يتواصل بتواصل الحياة ووجودها.

5 . الأصالة والصدق في الأدب ودراساته:

1 . والأصالة في هذا الصدد في الدراسات الأدبية والفكرية والفنية وسواها تعني الرجوع للجذور التي انحدرت منها، ومتابعة المراحل التي مرت بها في حياتها منذ بداية تكوينها، وهذا يتطلب معرفة الماضي والحاضر وما يمكن أن تصل إليه في المستقبل.

وإذا لاحظنا أن الفكر الإنساني ونشاطه في عطاء مستمر ونشاط متجدد، فإن النظرة التي نركزها على التفاسير المختلفة لمدلول الأصالة في تلك الدراسات ستكون موسعة وشاملة لجميع المراحل التي يمر بها الفكر الإنساني، ونشاطه وعطاؤه وما يحدثه من اهتزاز وتغيير في الحياة الإنسانية، والأفكار المختلفة التي تعني بما فيها من تأثير وتطور وتغيير، هو المجال الواسع والفسيح الذي تدور الدراسات المختلفة في أرجائه وما تحويه من أسباب وعوامل وتيارات، لها أثرها الكبير في فهم الأصالة والوقوف على جذورها وأبعادها الحقيقية التي لا تحصرها في نطاق واعتبار محدد، يجعلها بعيدة عن حركة الفكر وتواصل نشاطه وعطائه الذي يجلوها على حقيقتها، ويكون منها منطلقاً فسيحاً للتأمل والدراسة والبحث في آفاق الإنتاج الفكري وتقويمه وفرز ما يشتمل عليه من عناصر، يرى فيها النقد والتقويم من الاعتبارات ما يشد الانتباه حولها، ويربطها بالأسباب الحقيقية التي تدفع بالتفكير والتأمل إلى مواصلة النشاط في الكشف عن حقيقة هذه العناصر، وما لها من تأثير ومردود على الإنتاج الفكري ورصد خطواته ومراحله في الحياة الاجتماعية التي يدور فيها، ولها الدور الرئيس في ازدهاره وبعث روح الفاعلية فيه وفيما يفرزه من ألوان في الواقع الذي يتقلب فيه الناس، ويتناوله الدارسون والمفكرون بدراساتهم وتفكيرهم

المستمد من الآراء والنظريات السائدة في العصر، والتي تحاول تلك الدراسات أن تتحسس فيها ملامح الأصالة وترتبط بما فيها من جوانب الصدق والتطابق مع الحياة المعاشة، التي تعد المحك الصحيح للنظريات والأفكار الحية والآراء السديدة التي يتطلع إليها المصلحون والمجددون، وهم يزاولون نشاطهم ويبذلون جهودهم من أجل ترسيخ دعائم الأصالة وقواعد تطبيقها في كل ما يجد على ساحة الواقع من إنتاج ونشاط أدبي وفكري واجتماعي وغيره، مما يتناوله الدرس ويتأمله الفكر ويجد فيه الأدب والفن من الآفاق ما يدعوه للعطاء والحركة ومواصلة النشاط الإيجابي، الذي يقدم فيه من النماذج والصور ما يعد جديداً وثراء في الإنتاج والنقد والتقويم.

والبحث عن الأصالة في الإنتاج الفكري والمعاناة الأدبية يحتم الرجوع إلى المدلولات التي يفهم بها المعنى الكبير والواسع الذي تدور فيه بين المهتمين بالإنتاج الفكري ودراساته، حتى تكون التفسيرات التي تحلل ما يتصل بها من اعتبار واضحة وقائمة على حقائق ثابتة بعيدة عن الغموض واللبس، الذي يجعل الاستفادة منها غير مؤكدة.

وإذا اختلفت وجهات النظر في تحديد المدلولات التي تراها لمفهوم الأصالة، فإن ذلك يمكن من الوقوف على بعض التوجهات والتفسيرات التي قد لا يكون من الميسور الوقوف عليها لمعاني الأصالة التي تطوّر الفهم فيها وتنوع النظر إليها وتوسع التفسير المهتم بها بصورة هائلة، ومن الجوانب المهمة في هذا الصدد أن المناهج البحثية التي تتناول بها الدراسات المختلفة شتى آفاق المعرفة تركز قواعدها على المدلولات التي تنطلق منها لتكون خطواتها واضحة جلية، وهي في ذلك إنما تنطلق من المصدر الأساسي الذي لا يربطها بالأصالة فحسب، بل يجعلها قائمة واقعاً وحقيقة على كل ما في الأصالة من

مدلول ومفهوم يعطي للدراسة والبحث والتأمل نتائجه الإيجابية التي تحقق الأهداف المقصودة من ورائه، وتنطلق بالتفكير إلى المجالات الحية التي تنعكس على الواقع الذي يحياه المجتمع وتعيشه البيئة ويتقلب فيه الأفراد ويزاولون نشاطهم خلاله، وعلى أساس ما يكمن فيه مؤثرات وتيارات وتوجهات يعتبرها البحث والتحقيق والتفسير من العوامل الأساسية لفهم الأصالة وتفسير ظواهرها وميزاتها، وتحليل ما تشتمل عليه من معاناة وترجمة صادقة لما يدور في الحياة الاجتماعية من اعتبارات وتصورات وتصاريف لا تقف بها عند حد من الحدود.

وتعددت التوجهات المختلفة في تفسير المعاني التي يحتويها مفهوم الأصالة، حيث يحاول بعضها أن يربطها بالماضي والجذور التي تنبثق منها الأفكار والمفاهيم في كل موضوع يتعلق به البحث والدرس والتأمل، ويرى أن مصدر هذه الفكرة هو كلمة الأصل التي لا تخرج هذه المادة عن اشتقاقها ولا ينبغي أن يكون التفسير بها بعيداً عن هذا الاعتبار وما يتصل به من أبعاد، في حين يرى غيره أن هذه الكلمة لا يقصد منها مفهومها اللغوي الحرفي، فما هي إلا مصطلح يعني الجودة وحسن التناول في علاج الأفكار والموضوعات التي يتركز فيها البحث والتأمل.

وفي جميع التوجهات التي تحاول لتفسير الأصالة وتحديد مفاهيمها نحسّ بأن عنصر الوضوح الذي ينبغي أن يشتمل عليه كل توجه هو الأساس لفهم ما فيه من خصائص وميزات يستطيع بها الإنسان أن يقف على ما في الإنتاج الفكري من أسرار واعتبارات وأبعاد، هي المحور الحقيقي الذي يرتكز عليه النشاط والتقويم، ويستخلص منه البحث النتائج الإيجابية التي يهدف إليها ومن خلالها يؤكد رؤيته الصحيحة لما يراه في الإنتاج الأدبي والفكري الذي يتناوله

بالنقد والتقويم، وقد يترتب على ذلك أن تكون الأصالة فيما يجد فيه المفكر نفسه من مواقف وما يؤول إليه المصير الذي ينتهي إليه بحسب إحساسه واعتقاده.

2 . يقول أبو العتاهية[1] وقد أحسّ بمصيره في أسلوب من التصوف والزهد:

إلهـــي لا تعـــذبني فـــإني	مقر بالـذي قـد كـان منـي
فمــا لـــي حيلـــة إلا رجــائي	لعفوك إن عفوت وحسـن
وكم من زلـة لـي في الخطايا	وأنت علي ذو فضل ومن
إذا فكـرت فـي نـدمي عليهـا	عضضت أناملي وقرعت
أجـــن بزهــرة الـــدنيا جنونـــا	وأقطـــع طـــول عمـــري
ولـو أنـي صدقت الزهد عنها	قلبت لأهلها ظهر المجن
يظـن النـاس بـي خيراً وإنـي	لشـر الخلـق إن لـم تعـف

فهو كما ندرك يناجي ربه ويتضرع إليه ألا يعذبه، فإنه مقر ومعترف بما بدر منه من تقصير وما ارتكبه من أخطاء، وليس له من حيلة يلجأ إليها للنجاة من العذاب عن ذلك إلا الرجاء للعفو وحسن الظن بالله ﷻ الذي يقول لعباده المؤمنين: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم}[2]، وحسن الظن بالله من صدق الإيمان وقوة اليقين والاعتقاد.

---

[1] النصوص الأدبية السابق، ص380.

[2] الآية 50 من سورة الزمر.

ويبين الشاعر أن زلات كثيرة حصلت منه والله مع ذلك ذو فضل ومنة عليه، وإذا فكر فيها وندم عليها عضّ أنامله وقرع سنه لفرط ذهوله وإحساسه بالندم، ثم إنه مثل بقية البشر مولع بالدنيا وزهرتها لدرجة الجنون ويقطع عمره كله بالتمني دون أن يعمل لأخراه، وهو لو كان صادق الزهد فيها لقلب لأهلها ظهر المجن وتعامل معهم بغير الأسلوب الذي ألفوه منه، والناس على حاله التي هو عليها يظنون به خيراً دون أن يعلموا الحقيقة؛ إذ الحقيقة أنه شر العالمين إن لم يتداركه الله بعفوه ومنه وكرمه وإحسانه.

هذه صورة ينقلها أبو العتاهية عن نفسه وقد أحسّ بحقيقة الواقع الذي سيؤول إليه مصيره، وتلك الصورة هي الأصل الذي يرجع إليه كل من في الوجود، فهي لفتة تحتوي معنى بعيداً من المعاني التي تدور فيها الأصالة وتراها بعض التوجهات الفكرية التي تتبع مواردها وما لها من آثار وسبحات وتأمل.

وهذه الصورة كثيراً ما تصادفنا في الشعر الصوفي الزاهد الذي لا ينظر للحياة الدنيا إلا من جانب الزوال، فهي من الوجهة الصوفية ليست بدار قرار، ولذلك تكون النظرة الأصلية لها قائمة على هذا الاعتبار دون سواه، فالأصالة فيها بالنسبة إليهم هي عدم التعلق بها وعدم الجري وراء زخارفها الزائلة، وكلما أوغل النشاط الصوفي في هذا الاتجاه كانت ملامح الأصالة فيه عميقة وصادقة، والتعبير الذي نلاحظه ونلمسه في الأدب الصوفي ما هو إلا ترجمة لذلك وتأكيد لما فيه من اعتبارات وأبعاد، ومهما اختلفت أساليب التصوف في الوصول إلى الأهداف التي ترمي إليها، فإن المعاني التي يشتمل عليها تتصل ببعض التوجهات التي تفسر الأصالة من جانبها الذي تراه وتستند عليه وتسلك

مسيرتها على ضوئه، في كل ما تعالجه من إنتاج ونشاط في عالم الفكر وآفاق المعرفة.

والدراسات المعاصرة التي تهتم بالإنتاج الفكري ورصيد نشاطه لا تقصر مدلول الأصالة على معنى واحد من المعاني التي تشملها، بل تحاول أن تتعامل مع كل ما فيها من اعتبار وتفسير؛ إذ قصرها على نطاق محدد لا يمكن الدراسة من الوقوف الدقيق على النشاط الفكري الذي يتناول مختلف ما في الحياة الاجتماعية من آفاق ومجالات يزيدها التوسع والتفريع والاسترسال أبعاداً أو جوانب، تجد فيها الاتجاهات البحثية من الأسرار والمعاني ما يزيدها ثراء وفاعلية وعطاء.

وتنوع التفسيرات وتعددها لمدلول الأصالة في الإنتاج الفكري أدباً أو فناً أو سواه يرجع لانتشار المعارف وتوسعها، ومحاولة الباحثين والدارسين أن يستفيدوا من ذلك، في كل ما يقومون به من تطبيق لما بين أيديهم من نظريات وأفكار يقوّمون بها ما يلامسونه من إنتاج، ويزنون بها ما يصادفونه من نشاط يتصل بالفكر وتطبيقه والفن وتذوقه والأدب وتوعيته، والحياة الاجتماعية وما فيها من نماذج الحركة والعلاقات والتصاريف التي يجد فيها الإنسان المتنفس الرحب الذي يجعله على ثقة ويقين من الأفكار والآراء التي يطرحها للإصلاح والتطور والبناء ومواكبة ما يجد في ساحة الحياة من جديد، يدعونا للتأمل والاعتبار وطرق آفاق الدراسة والبحث وإضفاء المزيد، الذي يساهم في بعث الإحساس والوعي بما في التفكير والتعلق به من آثار في النهوض بمختلف قطاعات الحياة وسبلها وتوطئة ما فيها من أكناف، للذين يتابعون خطوات التطور ويرصدون حركات الإصلاح ويحرصون على المقارنات الدقيقة لكل ما يعد قياساً لما تمر به الحياة من مراحل، يستفيد منها البحث والتطبيق ويراها التأمل

خطوة جادة من خطى التحول الفكري الذي ينزع إلى الأفضل، ويرى الحياة من جانبها الشمولي الذي يعكس الأصالة على تحرك الفكر ونشاطه.

3 ـ والجوانب ذات الأهمية الكبيرة في الدراسات الأدبية سواء كانت معاصرة أو غيرها هي ذلك الصدق الذي يلازمها ويتسم به طابعها العام، الذي يؤكد قيمتها وعمق الأدوار التي تستطيع أن تؤديها، والصدق هنا يعني نقل الصورة التي تعالجها هذه الدراسات بما فيها من خلجات وإحساس وفاعلية، وإعطاء المواقف التي تتعرض لها حظها من الحقيقة دون تعمية أو تعتيم في المناحي التي لا تروق للدارس أو لا تتفق مع ميوله وعاطفته، مثل ما نراه في نماذج بعض التراجم لبعض الشخصيات اللامعة في الأدب والفن والفكر وغيره، حيث نرى التحيز لبعضها وعدم تحري الدقة في بسط الحقائق التي تتصل بها أو التحامل على بعض الأدوار والأشخاص الذين قد يختلفون معها في بعض القضايا الأدبية أو الفنية، الأمر الذي يعد شيئاً طبيعياً في مجالات الفكر وقضايا الأدب، ويعتبر أساساً للإثراء في المطارحة والنقاش في مختلف الجوانب التي تتصل بحياة الإنسان ومناهج التفكير والمناقشة الهادفة، ويبلغ أحياناً من بعض الدارسين تجاهلهم لأهمية ما يثار من قضايا من قبل بعض الشخصيات الهامشية الحد الذي يجعلهم بعيدين عن المنطق والروح العلمية المثالية التي ينبغي أن تكون سبيل الدراسة وطريق الكشف عن جوانب الحقيقة التي تتكشف وتبدو من خلال بعد الأفكار التي تبسط في سبيل تقرير بعض النظريات أو مناقشتها، في جانب من جوانبها، وفي سبيل الوصول إلى الأهداف التي ترمي إليها الدراسة، وتحاول أن تؤكد بها موقفاً أو تدعم بها قضية أو تحلل بها نصاً أو تعطي بها لمحة عن مقارنة بين موضوع وآخر ومفكر وآخر.

وهذا التوجه رغم أن بعض الدارسين قد تعمدوا أن يسلكوه، بعيد عن المنهج السليم الذي تصل منه الدراسات الأدبية وغيرها إلى مختلف الحقائق الإيجابية، التي تقدم للإنسان مفاتيح الآفاق الواسعة العريضة التي يستطيع منها أن ينفذ إلى عالم الفكر الحي الذي يبعث فيه روح الجد والأصالة في الموضوعات والقضايا التي يتعرض لها، ويعالجها ويحاول أن يصل إلى ما يتصل بها من حلول بعيدة وقريبة لا يقوى على الوصول إليها دون أن تفتح أمامه تلك الآفاق، ويكون لديه من الزاد الفكري المستوى العميق الذي يجعله مستوعباً لكل ما فيها من جوانب الإيجاب والسلب والقوة والضعف والإثارة والإغراق.

ومهما كان لبعض هؤلاء الدارسين من سعة في آفاق المعرفة فإن أفكارهم التي يبسطونها خالية من الصدق لا تستطيع أن تؤكد ما في الحقيقة التي يركزون عليها من عناصر بقدر ما تحدث من آثار عكسية في الجوانب التي تتصدى لها هذه الدراسات التي يرونها مؤكدة للواقع في نظرهم، وهي في حقيقة أمرها شيء مخالف لذلك تماماً؛ لأن الحقيقة في أبعادها كل لا يتجزأ، وهي دائماً السبيل الموصل إلى ما في الفكر من أهداف سواء اهتدى إليها الباحث والدارس أم لم يهتد.

ومن هنا فإن المغالطة والالتواء الذي نلحظه أحياناً عند بعض الدارسين وهم يعالجون بعض القضايا، في التراجم الشخصية أو شرح بعض الموضوعات أو فهم بعض المواقف أو مناقشة بعض النظريات أو توضيح بعض ما فيها من جزئيات لا تجدي شيئاً في الواقع، وتبرهن بكل صدق على أن الدارس الذي يتكئ على هذه الجوانب بعيد عن الأمانة العلمية، ولديه من قصر النظر ما يحجبه عن نور الحقائق وفهم الأشياء وطبيعة المنطق الإنساني الذي يسمو بالإنسان والفكر إلى مراتب الإدراك البعيدة التي تمكن صاحبها من الإحاطة

بقضايا العلم والفن والفكر، بكل ما فيها من كليات وجزئيات، وبكل ما تشمله من تفصيل أو إجمال ودقة ووضوح، وفي مختلف المواقف والمراحل التي تعايشها أو تمر بها.

وهذه هي السبيل التي تتوخاها الدراسات في شتى مجالات الحياة ومختلف ضروب المعرفة التي يريدها الإنسان، وهو يشق طريقه في الحياة التي يعيشها أو يراها ويحاول أن يعانقها في معاناته وما يترجمها من إنتاج فكري وأدبي وفني وغيره، ولا يستطيع أن يحقق هذا الاتجاه في خطاه التي يقطعها في عالم المعرفة وفي تعامله مع متطلبات الحياة التي يعانق بها معاناته إلا بما يتوفر لديه من الصدق في ترجمة هذه المعاناة، فهو إذا كان متوفراً لديه بالقدر المناسب الذي يوضح الصور والمناحي والنماذج والأفكار والقضايا وصفحات الحياة وواقع المجتمع الذي يصوره أو يعيشه، فإنه يستطيع أن يقدم من العطاء ما يؤكد للحقيقة التي يهدف إليها الإنسان اعتبارها وأصالتها وإشراقها الذي يضيء لكل باحث ودارس دروب المعرفة والعلم، ويوطئ له أكناف الفكر الهادف الذي يخدم الحياة والإنسان ويرسي دعائم المنطق السليم الذي يفرض على الدارس والباحث الالتزام بالصدق في جميع ما يطرقه من جوانب، سواء كانت متصلة بالإنسان في واقعه مع الحياة، أو كانت متعلقة بالحقيقة في أي موقع من مواقعها مع الإنسان وغيره من الأحياء في هذا الوجود الواسع الرحب الفسيح.

وهذا الاتجاه في تناول مناحي المعرفة والفكر وجوانبها البعيدة قد يرى فيه بعض المفكرين المعاصرين نوعاً من الخيال والشطط، ولوناً من المبالغة والإسراف في التهويل، إلا أنه في واقع الأمر نوع من الفروض التي كثيراً ما تتحقق وتكون ظرفاً معايشاً تتأثر به معاناة الأدباء والكتاب والمفكرين، وتهتم به

نصوص الأدب ونظرياته في النقد والفن، ويتطلب من الدارسين والباحثين أن يولوه ما يستحق من العناية والدراسة والتقدير، وهو الأمر الذي يتوجب فيه النظر والملاحظة والاهتمام حتى يصل فيه البحث إلى حد معين يكون الحكم حوله واضحاً والنتائج التي يتوصل إليها من خلاله جلية.

4 . يقول إيليا أبو ماضي[1] في قطعة له بعنوان: إن الحياة قصيدة:

مـا للقبـور كأنمـا الأمـاكن	فيهـا وقـد حـوت العصـور
طــوت الملايــين الكثيــرة	ولسوف تطوينا وتبقى خالية
أيـــن المهـــى وعيونهـــا	أين الجبـابر والملـوك العاتيـة
زالـوا مـن الـدنيا كـأن لـم	سحقتهم كف القضاء القاسية
إن الحيـاة قصـيدة أعمارنـا	أبياتهـا والمـوت فيهـا القافيـة
متـع لحاظـك فـي النجـوم	فلســوف تمضـــي والكواكــب

فالشاعر هنا يتحدث عن الحياة وتصورها الذي ينبغي أن يكون مقروناً بالتأمل في الماضين، وفيما تضمه الحياة من متناقضات لا تغيب عن بصر الإنسان، الذي ينبغي له أن يعيها بكل ما لديه من حواس حتى يعتبر بالماضي وما كان عليه أولئك الأحياء الذين ضمتهم القبور وصاروا فيها أثراً بعد عين، وأن هذه هي سنة الحياة فينا جميعاً، فمهما طال بنا العمر فإن القبور ستضمنا، والحياة في واقعها ما هي إلا قصيدة أعمارنا أبيات والموت قافيتها، ومادامت كذلك فعلى الإنسان أن يمتع نظره في نجوم السماء وما تملكه من حسن وجمال؛ لأنها باقية وأما نحن فسنرحل مع الراحلين.

---

[1] ديوان إيليا أبو ماضي، دار العودة، بيروت، ص848.

وفي هذه الالتفاتة من هذا الشاعر إيمان بالواقع وتعبير صادق عن الحياة التي يحياها الإنسان ويهيم في جنباتها دون أن يستفيد بما فيها من مواطن العبرة والعظة والتأمل في أنها زائلة مهما صحبها من متعة ورواء وجمال، فما هي إلا عرض يبدو ثم يزول وينتهي.

وحين نتأمل في هذه القطعة نلمس روح الصدق الذي تقيد به الشاعر في معاناته التي يترجمها بهذا الفيض الذي يسبح فيه في عالم الخيال والحكمة والموعظة، ذلك العالم الذي يجد الإنسان نفسه مشدوداً إليه بكل ما فيه من مشاعر وإحساس وعواطف؛ لأنه حين يمعن النظر يدرك أن ما وراء هذه التعبيرات التي ألقى بها الشاعر في عفوية ويسر حقائق صادقة تجسد الحس الذي يشعر به الإنسان وهو يقرأ كتاب الكون بما فيه نفسه التي تنطوي على الشيء الكثير.

فالصدق في هذه القطعة أعطاها حظاً من الأصالة والعمق، ومكنها من مخاطبة ما يحس به الإنسان ويراه في ذاته وفي الآخرين الذين يشاطرونه الوجود وظلال الحياة ونسماتها الخالدة.

ورغم الأسلوب الذي بنيت عليه هذه القطعة الذي يبدو فيه طابع الخيال، فإن روح الحقيقة فيها قد استطاعت أن تملك أقطارها وتجعل التأمل فيها يتغلب على كل ما سواه، من وسائل وعناصر الإدراك، حيث استطاعت معاناة الشاعر وترجمتها أن تسجل ملامح الصدق فيها، وأن تركز على الأحاسيس المشتركة بين الناس لتأكيد عمق الواقعية والصدق فيها.

وإذا كانت النظرة العامة للصدق تعكسه على مطابقة الواقع، فإن الاتجاه الأدبي الذي يحاول أن يصور الواقع هو ما يمكن أن نعده من مفاهيم الصدق.

وهنا ربما نقع في تساؤل حول الصدق والواقع، ومدى تلازم كل منهما مع الآخر، فهل كل واقع يعد صدقاً وكل صدق يعد واقعاً؟

الحقيقة أن المسألة تتعلق بالتعبير الذي يصور ما يعالجه الإنتاج الأدبي والفكري وسواه، فهو إن كان يصور ما يدور حوله بكل ما له من خصائص وما فيه من حقائق كما هو، فهو واقع وصدق، وإن كان غير ذلك، فقد يكون في جانب منهما دون الآخر، والذي يمكن أن يعتبر في هذا المجال أن قضية الصدق والواقعية في الإنتاج الأدبي لا ينظر إليها من حيث دلالتها اللغوية، وإنما ينظر إليها على أنها مصطلح من المفاهيم التي تبين مدى تصوير الإنتاج الأدبي والفكري للمسائل والموضوعات التي يتناولها ويحيط بما فيها من أبعاد تجعلها واضحة وغير خفية، للذين يوالون الدراسة والبحث في مختلف القضايا والمفاهيم.

وقضية الصدق والواقع في الأدب وإنتاجه واتجاهاته واعتباراته أمر اعتباري يراه الدارسون والمفكرون بما يدركونه في الإنتاج الذي يتناولونه، من ملامح في التصوير والعلاج، فقد يقصر بعضهم ذلك الاعتبار في النص الذي يتناوله ولا يتجاوزه إلى ما عداه من الجوانب الأخرى التي يعكسها مفهوم النص وصداه، وقد يراه بعضهم الآخر بصورة أوسع من ذلك بكثير.

وملامح التجديد في الأدب الحديث ترى في الاهتمام بهذه الجوانب التي هي الواقعية والصدق والرمزية والالتزام وغيره تجديداً وتحولاً بالدراسات الأدبية والفكرية والفنية إلى ما يتطلبه التوجه الحديث، في الأدب والفكر من اهتمام وتعامل مع ما يجري على الساحة من أفكار وإبداع وتجديد، في كل ما تقتضيه الحياة المعاصرة من إمكان، وخاصة في آفاق الفكر ومجالات المعرفة.

1 . ثبت بأسماء القوافي:

الهمزة:

أنـــا حـــر .. فـــي نشـــيدي وغنـــائي
وغنـــــائي وحـــــده فيـــــه عزائـــــي

* * *

راحــة المــرء فــي الزمــان ونعــيم الحيــاة فيــه شــقاء
أشــبهت بعضــها الأنــاس فرقـت بـين جمعهـا الأهـواء
كلنا يطلب الهناء ولم يدر بـــأن العنـــاء ذاك الهنـــاء
ويـود الفتـى صـفاء حيـاة فـــي زمـــان صـــفاؤه أقـــذاء
دائبـاً يطلـب الكثيـر مـن وإن القليـــل منهـــا غنـــاء
كـــل ذي مســـكة عـــيش عن جميع الورى لديه اكتفاء
واللبيـب اللبيـب مـن كـان عـن ثـراء يشـقى بـه الأثريـاء
والصديق الصدوق من كان عوناً
فـــي مقـــام يشـــتد فيـــه الـــبلاء
لا تغرنـك البشاشـة ممـن وده كالسـراب مـا فيـه مـاء
قلت الأصدقاء ما بين كل إذ جـل مـن تـرى أدعيـاء
إن من يطلب الوفاء غبي في زمان قد ضاع فيه الوفاء

* * *

الفجر يسطع بعد الدجى ويـــــــأتي الضـــــــياء
ويرقـــد الليـــل قســـرا علـــى مهـــاد العفـــاء

وللشـــــــعوب حيـــــــاة حينــــــاً، وحينــــــاً فنــــاء
واليـــأس مـــوت ولكـــن مــــوت يثيـــر الشــــقاء
والجــــد للشــــعب روح تــــوحي إليــــه الهنـــاء
فـــإن تولـــت تصـــدت حياتــــــه للــــــــبلاء

* * *

يـا مـن غـدا بالتيـه يرفـع نحو السماء وأصله في الماء
وأراه إن لاقيتـــه متـــذمراً وقـد ارتـدى مـن كبـره بـرداء
وبحسن هيكله ولين قوامه يمشي ويخطر مشية الخيلاء
وإذا الذبابـة لامسته كأنها وقعــت علـــى كـــأس مـــن
بالله قل لـي من تكون وكم فـي النـاس مثلـك مـن بنـي
هل أنت من أفق السماء خلقت
كالنـاس خلقـت مـن طـين ومـاء
اخفـض جناحـك لابـن جنسـك
ســحر البيــان وحكمـــة الشـــعراء
وارفق ولا تهن الضعيف لضعفه
ومـــن الشـــقاء إهانـــة الضـــعفاء

* * *

لولا التماعات الكواكب وانعكاس من ضياء..

تلقيه نافذة .. ووقع خطى تهادى في عياء..

* * *

والنـاس كالنبت فمنه رائق غــض نضــير عــوده مــر
ومنـه مـا تقتحم العين فإن ذقـت جنـاه انسـاغ عـذباً فـي

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى
وللفتى من ماله ما قدمت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى
وآفة العقل الهوى فمن ... على هواه عقله فقد نجا
كم من أخ مسخوطة ... أصفيته الود لخلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً ... تذممه يوماً إن تراه قد نبا

* * *

انظر إلى شتى معاني ... منبثة في الأرض أو في
ألا ترى في كل هذا ... غير نذير طالع بالفناء

* * *

الباء:

أي شيء في حياة المرء أغلى من
يصقل الذهن ويهديك إلى نهج
ويسليك إذا ما كنت يوماً في اكتئاب
أو يسرّي عنك غماً في فكاهات
إنه أنفع في الوحدة من لغو الصحاب
ليتني أنفقت في صحبته كل شبابي
آه قد ضيعت عمري بين لهو وشراب
بين غيداء وحوراء وخود وكعاب
وعزوف عن الجد في جو التصابي
ورقيبي سجل القول وفعلي في كتابي

* * *

وعد من الرحمن فضلاً ... عليك إذا ما جاء للعرف

وإن امـرء لا يرتجـى الخيـر يكـن هينـاً ثقـيلا علـى مـن
فـلا تمـنعن ذا حاجـة جـاء فإنـك لا تـدري متـى أنـت

* * *

وأفضـل قسـم الله للمـرء فلـيس مـن الخيـرات شـيء
إذا أكمـل الـرحمن للمـرء فقـد كملـت أخلاقـه وضـرائبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس علـى العقـل يجـري علمـه
ومـن كـان غلابـاً بعقـل فـذو الجـد فـي أمـر المعيشـة
يـزين الفتـى فـي النـاس صـحة
وإن كـان محظـوراً عليـه مكاسـبه
ويـزري بـه فـي النـاس قلـة وإن كرمـت أعراقـه ومناسـبه

* * *

سـئمت الحيـاة ومـا فـي وما أن تجاوزت فجر الشباب
سـئمت الليـالي وأوجاعهـا ومـا شعشـعت مـن رحيـق
فحطمـت كأسـي وألقيتهـا بوادي الأسـى وجحيم العذاب
فأنّت وقد غمرتها الدموع وقـرت وقـد فـاض منهـا
وألقـى عليهـا الأسـى ثوبـه وأقبرهـا الصـمت والاكتئـاب
فـأين الأمـاني وألحانهـا وأيـن الكـؤوس وأيـن الشـراب
لقد سحقتها أكف الظـلام وقـد رشـفتها شـفاه السـراب
فمـا العـيش فـي حومـة شـديد وصـدّاحها لا يجـاب
كئيـب وحيـد بآلامـه وأحلامـه شـدوه الانتحـاب
ذوت فـي الربيـع أزاهيرهـا فـنمن وقـد مصـهن التـراب
لـوين النحـور علـى ذلـة ومـتن وأحلامهـن العـذاب
فحـال الجمـال وغـاض وأذوى الـردى سـحرهن

* * *

وللسـيف أصـدق أنبـاؤه		تـزال بهـا ظلـم الغيهـب
ولكـن أسـيافنا كلهـا		غدت خشباً فهي لم تضرب
فلـيس ابـن أيـوب قـدامنا		يلـوح بالصـارم الأعضـب
وليس ابن حمدان مستنفرا		يصـيح لشـعر أبـي الطيـب
ولا تـم معتصـم غاضـبا		يلـي زبرطيـة المنسـب
فهـل نضـب الشـرق؟ يـا		معينـاً كمـا كـان لـم ينضـب
فلسطين يـا حلم النـازحين		ويـا أمـل المشـرق المنجـب
ويـا قبلـة الطهـر صـلى		المسـيح وأسـرى إليـك النبـي
ورفـرف حـول جمالـك		ملائكـة الله فـي موكـب
لقـد كنـت معنـى يشـد		فأصـبحت لفظـة مسـتغرب
بنـو العـرب فـي كـل		بأفكـارهم أنـت لـم تغربـي
لقد جندوا لك ما يملكون		عواطـف شـرقية المشـرب
وآسـوا جراحاتـك النازفـات		بفـيض مـن الكلـم الطيـب
وحكـامهم كلهـم غاضـبون		لأجلـك يـا عـزة اليعـرب
ولكـنهم بعـدُ مـا عبـروا		بغيـر حـديثهم المغضـب

* * *

ومـن سـر أهـل الأرض ثـم بكـى
بكـى بعيـون سـرها وقلـوب
وقـد فـارق النـاس الأحبـة		وأعيا دواء الموت كل طبيب
سبقنا إلـى الـدنيا فلـو عـاش		منعنـا بهـا مـن جيئـة وذهـوب
تملكهـا الآتـي تملـك سـالب		وفارقهـا الماضـي فـراق سـليب

وفــي تعــب مــن يحســد الشــمس
ويجهـــد أن يـــأتي لهـــا بضـــريب
وتؤجج التنور صامتة وأخيلة اللهيب..

* * *

تعاليت يا عصر البخار مفضلا
على كل عصر قد قضى أهله نحبا
فكـم ظهـرت للعلـم فيـك بها آمـن السيف الـذي كـذب
هـو العلـم يعلـو بالحيـاة ويجعلهـا كـالعلم محمـودة
فكـل بـلاد جادهـا العلـم رباهـا وصـارت تنبـت العـز
متـى ينشـئ الشـرق الـذي أغبـر
سـحابة علـم تمطـر الشـرف العـذبا

* * *

لغيـر العـلا منـي القـلا والتجنـب
ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب
إذا الله لـم يعـذرك فيمـا فمـا النـاس إلا عـاذر ومؤنـب
ملكت بحلمي فرصة ما استرقتها
مـن الـدهر مفتـول الـذراعين أغلـب
لـئن تكـن كفـي مـا تطـال فلـي مـن وراء المجـد قلـب
فحسـبي أنـي فـي الأعـادي وأني إلى عز المعالي محبب
وللحلـم أوقـات وللجهـل ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب
يصـول علـيّ الجـاهلون ويعجـم فـي القـائلون وأعـرب
يـرون احتمـالي غصـة لـواعج ضـغن أنـي لسـت
وأعـرض عـن كـأس النـديم ومـيض غمـام غـائر المـزن

وقـور فـلا الألحـان تأسـر ولا تمكـر الصـهباء بـي حـين

ولا أعـــرف الفحشـــاء إلا ولا أنطـــق العـــوراء والقلـــب

لساني حصاة يقرع الجهل بالحجا

إذ نـــال منـــي العاضـــة المتوثـــب

ولســـت بـــراض أن تمـــس فضـــولات مـــا يعطـــي الزمـــان

غرائـــب آداب حبـــاني زمـــاني وصـــرف الـــدهر نعـــم

تعلم فإن الجود في الناس تقـوم بهـا الأحـرار والطبـع

* * *

وكل مـا تبصـره مـن قـوى دوًى دوِيَّ الـريح عنـد الهبـوب

يسخر من مبتئس قد ثوى يرنو إلـى الدنيا بعين الغريب

* * *

إن ســئمت الحيــاة فــارجع إلــى

تـــنم آمنـــاً مـــن الأوصـــاب

تلـك أم أحنـى عليـك مـن التـــي خلفتـــك للأتعـــاب

لا تخـف فالممـات لـيس منـك إلا مـا تشـتكي مـن

كـل ميـت بـاق وإن خـالف

مـا نـص فـي غضـون الكتـاب

وحيـاة المـرء اغتـراب فـإن ت فقـد عـاد سـالماً للتـراب

* * *

الثاء:

يآمن الأقدار بادر صرفها واعلـم بـأن الطـالبين حثـاث

خذ من تراثك ما استطعت شـــركاؤك الأيـــام والـــوراث

لـم يقـض حـق المـال إلا وجدوا الزمان يعيث به فعاثوا

تحنـو علـى عيـب الغنـي يـد | والفقر عن عيب الفتى بحاث
المال مال المرء ما بلغت | الشـــهوات أو دفعـــت بـــه
مـا كـان منـه فاضـلاً عـن | فلـــيعلمن بأنـــه ميـــراث
مـالي إلـى الـدينا الغـرورة | فليخـز سـاحر كيـدها النفـاث
طلقتها ألفاً لأحسم داءها | وطـلاق مـن عـزم الطـلاق
سكناتها محذورة وعهودها | منقوضـــة وحبالهـــا أنكـــاث
أم المصـــائب مـــا يـــزال | منهـا ذكـور نوائـب وإنـاث
إنـــي لأعجـــب مـــن رجـــال | بحبائـل الـدنيا وهـي رثـاث
كنـــزوا الكنـــوز وأغفلـــوا | فـــالأرض تشـــبع والبطـــون
أتراهم لـم يعلمـوا أن التقـى | أزوادنـــا وبـــدارنا الأجـــداث

* * *

الجيم:

وسنان يحلم بالفراش .. وزوجة تذكي السراج ..

تضفي عليها ما تشاء من اكتئاب وابتهاج..

* * *

البحر مثل النسيم ساجي | والليل داجي..
والبـدر قـد مـال بابتهـاج | مثل المناجي..
خـلا لنـا الجو من معادي | ومن مفاجي..
ربانهـــا فوقهـــا جنـــاح | شق الدياجي..
وسنان لم يخل من شجون | ولا اختلاج..
ولا يبـــالي بضـــوء فجـــر | ولا انبلاج..

* * *

الحاء:

لقد ذرفت عيني وطال وأصبح من نفسي سقيماً
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت
يجاور في الموتى ضريحي
فما أنا في طول الحياة إذا قيل قد سوّى عليها
أظل نهاري مستهاماً مع الليل روحي في المنام
فهل لي في كتمان حبي وهل تنفعني بوحة لو أبوحها؟
* * *

الدال:

ولست أرى السعادة جمع ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وما لابد أن يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد
* * *

إبل الرجال إذا أردت وتوسّمن فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبابة نبه اليدين قرين عين فاشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك
* * *

يصغى له الليل العميق .. وحارس تعب يعود..

* * *

سل الموسيقا عن النغمات   أيمكـــن للفـــن تجديـــدها
فما بالنا فـي فعول فعول   وقفنـــا نحـــاذر تجديـــدها

* * *

همـت بنــا الفلـك باتئــاد   على انفراد..

* * *

نســيت إلا غـــداة النهـــر   في المنشئات كأموات بألحاد
والنـــاس قـــد مـــلأوا العبـــرين
مـن لؤلـؤ طافيـات فـوق أزبـاد
حـــط القنـــاع فلـــم تســـتر   ومزقـت أوجـه تمزيـق أبـراد
حـــان الـــوداع فضـــجت كـــل
وصـــارخ مـــن مفـــدّاة ومـــن فـــادي
ســـارت ســـفائنهم والنـــوح   كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم
تلـــك القطـــائع قطاعـــات أكبـــاد

* * *

أنـــت امـــرؤ تـــرزح تحـــت   لم يبق منك الدهر إلا عناد
وكل مـا تبصـره مـن سـنا   يهـزأ بالجـذوة خلـف الرمـاد

* * *

أنقـذيني مـن الأسـى فلقـد   أمسـيت لا أسـتطيع حمـل
فـــي شـــعاب الزمـــان والمـــوت
تحـت عـبء الحيـاة جـم القيـود
وأماشـــي الـــورى ونفســـي   وقلبـــي كالعـــالم المهـــدود
ظلمـة مـا لهـا ختـام وهـول   شـائع فـي سـكونها الممـدود

وإذا مـا اسـتخفني عبـث تبسـمت فـي أسـىً وجمـود
بسـمة مـرة كـأني أسـتل مـن الشـوك ذابـلات الـورود
فـانفخي فـي مشـاعري الـدنيا وشـدي مـن عزمـي
وابعثـي فـي دمـي الحـرارة أتغنّـى مـع المنـى مـن جديـد
وأبـث الوجـود أنغـام قلـب بلبلـي مكبـل بالحديـد
فالصـباح الجميـل يـنعش حيـاة المحطـم المكـدود
أنقـذيني فقـد سـئمت انقـذيني فقـد مللـت ركـودي

* * *

الراء:

يـا سـعد لا تجـب النـداء لقب نجيب به سوى الأنصار
نسـب تخيـره الإلـه لقومنـا أثقـل بـه نسـباً علـى الكفـار
إن الـذين ثـووا ببـدر منكم يـوم القليـب هـم وقـود النـار

* * *

عجنا إلى الجزع الذي مد أرجائـه الغـيم بسـاط الزهـر
حول غـدير ماؤه المنتمي إلـى بنـات المـزن يشـكو
لو لاذت الريح سموماً به لانقلبـت وهـي نسـيم السـحر
حصـباؤه در ورضراضـه سـحالة العسـجد حـول الـدرر
وقـد كسـته الـريح مـن درعـاً بهـا يلقـى نبـال المطـر
وألبسـته الشـمس مـن نـوراً بـه يخطـف نـور البصـر
كأنـه المـرآة مجلـوة علـى بسـاط أخضـر قد نشـر

* * *

أنـا إن ضـاقت بـي الـدنيا وهـد الهـم
لا أبالي الهم ما دام كتابي طوع أمري

فيـه مـا يمنـع أمثـالي مـن نظـم ونثـر
وبحسبي أننـي أحيا بـه فـي كل عصـر
يا حياة الـروح لا تبعد عنهـا قيد شبر
عيشــتي دون كتــاب لا تســاوي ربــع
هــو أســتاذي الــذي علمنــي الشــدو
حلنـي من كل قيد غل أعمالي وفكري
فغـدوت اليــوم كالطــائر فــي ســري
لا أبـالي الغـيم والرعـد ولا الخـاطف

* * *

فـي كـل يـوم غريـب فيـه	نلقــاه أو يتلقانــا بــه خبــر
أرى الملـــوك أصـــابتهم	دوائر السوء لا تبقي ولا تـذر
قـد كنـت أنظرهـا والشـمس	لـو صـحّ للقـوم فـي أمثالهـا
نـاموا وأسرى لهم تحت الدجى
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيـف يشـعر مـن بكفـه	تحــدو بــه مــذهلات النــاي
صـمت مسـامعه عـن غيـر	فمـا تمـر بـه الآيات والسـور
نلقـــاه كالعجـــل معبـــوداً	لـه خـوار ولكـن حشـوه خـور
وحولـــه كـــل مغتـــر ومـــا	أن الذي زخرفت دنياهم غرر

* * *

جاش في قلبي عزيف من	يسـكر القلـب ويفشـي مـا سـتر
ضـاق ذرعـاً بالأسـى لكنـه	ظـل فـي كتمانـه حتـى انفجـر
فاسـمعوا أنّاتـه تـروي لكـم	رجـع مــا ردده صــوت الغيــر
عن ظلام العيش في سجن	عن فيافي التيه عن ظلم القدر

عـــن عـــذارى بــــذلت   فـي سبيل العيش بئس المتجر
عن ديار بعد مجد خملت   وبنوها الصيد صاروا في النفر
ما بقى من عز أجداد لهم   غيـر ذكـر مـن غـدا ضـمن
عن وكم من أنة في وتري   في صداها عنعنات عن خبر
باطلاً ترجون لحناً مفرحاً   قطعت إطـراب أوتـاري الغيـر
فـدعوا قلبـي مـع البـاكين   مـآتم العيش علـى حـال البشـر

* * *

وافــى فصـيّر كـل روض   معرضـــــاً للعبقريــــــة
وأثـار فـيّ وفـي بلابلـه   الهـــــوى والشـــــاعرية
وافــــى فــــرد فقيـــرة   الربـوات فــي الـوادي ثريــة
وكســـــا خمائلهـــــا   غلائلهـا وقـد كانـت عريــة
وافــى فخـفّ إليــه قلبــي   ظامئــــاً يرتــــاد ريــــه
قلبـــي كنحـــل الله يظمـــأ   للزهـــــور الســــكرية
يــا بسـمة الزهـر السّـري   وبســـمة الخـــود السّـــرية
كلتاكمــــــا بتشـــــببي   وتصـــــببي أبــــداً حريـــة
قــل يــا ربيــع لكــل مثــر   راتـــع فــــي أكثريـــــة
أنا قد كسوت لك الرياض   فهــل كســوت لــي البريـــة

* * *

حــال لـون الريـاض بعـد   وتمشـى الـذبول فـي الأزهـار
وبدت وحشة الخمائل لما   فارقتهـــا ســواجع الأطيـــار
وتعرّى وجه البسيطة مما   كـان يكسوه مـن حلـى النـوار
وعـــرا صـــفحة الســـماء   فهي ترمي من غيظها بشرار

وتفشـــى الشـــحوب فـــي ورق
وخفـــت نضـــارة الأشـــجار

إنهـا ثـورة الطبيعـة قـد   زادت عن الكائنات كل قرار
إنهـا ثـورة لهـا يتـذكر   بـأن الخريـف فـي إدبـار
إنهـا طلعـة الشـتاء ومـا   أثقلها فـي النفـوس والأفكـار

هـي والله كالشـجى فـي حلـوق
أو كالقـذى علـى الأشـفار

يـا زمانـاً مضـى سـريعاً   بأمـان للعـالمين كبـار
فيـك أنـس الأديـب إن   بالنـاس وسلوانه مـن الأكدار
فيك للشـاعر الـذي ينشـد   مثـال مـن رقـة الأشـعار

فيك للموجَع الحزين جلاء النفس
ممـا تشـكوه مـن أضـرار

* * *

للشـعر فـي الـدهر حكـم لا   مـا بـالحوادث مـن نقـص
يسمو بقوم ويهوى آخرون   كالـدهر يجـري بمعسـور
لـه أوابـد لا تنفـك سـائرة   فـي الأرض مـن بـين إدلاج
مـن كـل عـائرة تسـتن فـي   يغتـال بـالبهر أنفـاس

تجـري مـع الشـمس فـي تيـار
علـى إطـار مـن الأضـواء معسـور

تطـارد البـرق إن مـرت وتتركـه
فـي جوشـن مـن صـبيب المـزن

صـحائف لـم تـزل تتلـى   للدهر في كل ناد منه معمور
يزهـى بهـا كـل سـام فـي   ويتقي البأس منها كل مغمور

فكـم رسـخت بهـا أركـان — وكــم بهــا خمــدت أنفــاس

والشـعر ديوان أخـلاق يلـوح — مـا خطـه الفكـر مـن بحـث

كـم شـاد مجـداً وكـم أودى — رفعاً وخفضاً بمرجو ومحذور

أبقـى زهيـر بـه مـا شـاده — من الفخار حديثاً جد مأثور

وفل جـرول غـرب الزبرقـان — فباء منه بصدع غير مجبور

أخزى جرير به حي النمير — عــادوا لغيــر حــديث منــه

ولـولا أبـو الطيـب المـأثور — مـا سـار فــي الـدهر ذكـر

* * *

أبـا العـلاء وأنـت اليـوم — في عالم طـاهر من كيد أشرار

مــا كنــت تصــنع لــو شــاهدت

والنــاس للحــرب أغنــام لجــزار

هل تشتري صحف الأخبار تعلن

قتل الألـوف وعن تدمير أمصـار

أم كنـت تقنـع كالمعتـاد — عن سائر النـاس فـي ركن من

لاشك عندي سكنى الغاب أفضل

سـكنى بـلاد بهـا الإنسـان كالضـاري

فـالوحش أرحـم فـي ذا العصـر مـن

هــم الوحــوش بــدوا فــي زي أبــرار

أبا العلاء ونحن اليوم في — فيـه الحقيقـة لـم تظفر بأنصـار

زعمت أنك رهن المحبسين وقد

كنــت الطليــق فلــم تخضــع لتيــار

دافعــت مســتنكراً عــن راحــة

مــا بالهــا قطعــت فــي ربــع دينــار

فمن يدافع عن نفس تساق	موت بلا جنحة تقضى ولا ثار
تسريح كفك برغوثاً ظفرت	فــي عرفنــا خــور أو ضــعف
نقضــي علــى بعضــنا مــن شــهوة
للشــر بــالموت مــن تحليــق طيــار
لا عطــف لا ديــن لا أخــلاق
عــن فعلنــا لــلأذى عمــداً بتكــرار
وعلمنــا اليــوم لــو تــدري	عمــت جميــع الــورى لكــن
لقد تفنن في حصد النفوس	هــدم البيــوت وفــي اســتعباد
وجاء باختراعات تدمر أر	كـان الحضـارة بـالفولاذ والنـار

* * *

في ليال كتمت سر الهوى	بالـدجى لـولا شـموس الغـرر
مــال نجــم الكــأس فيهــا	مســتقيم الســير ســعد الأثــر
وطـر مـا فيـه مـن عيـب	أنــه مــر كلمــح البصــر

* * *

إذا كان للوزن فيما مضى	عرفنا من الشعر تلك البحور
أنعجــز بــالوزن عــن أن	بحــوراً تزيــد بمــر الــدهور

* * *

والليـل جـذلان فهـو يـرى	بنور بدر..

* * *

لغــة أودع فــي أصــدافها	من قوانين الهدى أبهى درر
أفلـم ينسـج علـى منوالهـا	كلم التنزيل في أسمى سور
لغة تقطف من أغصانها	زهــر آداب وأخــلاق غــرر
هــي بحــر غــض علــى	فلآلـئ البحر ليست تنحصر

ضربت في كل فن ساحر		من فنون القول بالسهم الأغر
أفما أحسست في أجراسها		دقة تذهل عن نغم الوتر
ورقيق اللفظ يسري في		ما سرت نظرة ظبي ذي حور
لفظها الجزل له وقع كما		يقع السيف إذا السيف خطر
وابنها المنطيق إن جز به		في مجال القول جلّى وبهر
يبرز المعنى متى شاء		طرزها في كل معنى مبتكر
فاسأل التاريخ ينبيك بما		أنجبت أرض قريش ومضر
من خطيب مصقع أو		مفلق يسحب أذيال الفخر
ضل قوم سلكوا في		سبباً أوهن من حبل القمر
ألقمت في نطق قومي		من لغى أخرى فأضناها
بعض من لم يفقهوا		قذفوها بموات مستمر
نفروا منها لواذاً وإذا		جف طبع المرء لم تغن النذر

* * *

أسيان ما أجهل أو أعلم		من غامض الليل لغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم		رواية طالت وأين الستار
يا رب غفرانك إنا صغار		ندب في الدنيا دبيب الغرور
نسحب في الأرض ذيول
والشيب تأديب لنا والقبور

* * *

كم من أخ لك لست تنكره		ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته		يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء		الغدر مجتهداً وذا الغدر
فإذا عدا والدهر ذو غير		دهر عليك عدا مع الدهر

فارفض بإجمال مودة من يقلـي المقـل ويعشـق المثـري
وعليـك مـن حـالاه واحـدة في العسر إما كنت أو اليسر
لا تخلطـــــنهم بغيـــرهم مـن يخلـط العقيـان بالصـفر

* * *

إلـى الله أشـكو مـا ألاقـي مـن
ومـــن حـــرق تقـــادني وزفيـــر
ومـن كـرب للحـب فـي بـاطن
وليـل طويـل الحـزن غيـر قصـير
سـأبكي علـى نفسـي بعـين بكـاء حزين فـي الوثـاق أسـير
وكنـا جميعـاً قبـل أن يظهـر بـأنعم حـالي غبطـة وسـرور
فما برح الواشون حتى بدت بطـون الهـوى مقلوبـة لظهـور
لقد كنت صـعب النفس لو دام
ولكنمـــا الـــدنيا متـــاع غـــرور
لـو أن امـرأ أخفـى الهـوى عـن
لمـت ولـم يعلـم بـذاك ضـميري

* * *

إذا نـام غـر فـي دجـى الليـل
وقـم للمعـالي والعـوالي وشـمر
وخـل أحاديـث الأمـاني علالـة نفس العـاجز المتحير
وسـارع إلـى مـا رمـت مادمـت
عليه فإن لم تدرك النجح فاصبر
ولا تـأت أمـراً لا ترجـى ولا مـورداً مـا لـم تجـد حسـن

وأكثـر مـن الشـورى فإنـك إن
تجد مادحاً أو تخطئ الرأي تعذر
ولا تستشـر فـي الأمـر غيـر
لأمثالـــه أو حـــازم متبصـــر
ولا تبـغ رأيـاً مـن خئـون ولا جاهـل غـر قليـل التـدبر
تـرى النهـر ينسـاب عـن ليجريـه الشـاطئ المسـتقر
كـذا يتـدافع بحـر الحيـاة فـإن لـه رحمـة الله بـر
آمنـت يـا رب مثـل وراء الوجـود أبـوه الأبـر
نفـر مـن الهـم فـي زعمنـا ولكنـه هـو منـا يفـر
ومـن ذا رأى فـي السـماء تقـيم بهـا أبـداً لا تمـر
وهـل فـي الوجـود سـوى تـدافع شـيء لشـيء يجـر
فمن عرف الكون عرفانـه ففـي كـل حـال لـه مـا يسـر
تعـيش علـى الأرض فكيـف تعـيش وفـي الأرض
لعمـرك مـا تسـتقر الهمـوم علـى مـؤمن روحـه فيـه حـر
وفـي الـدهر يسـر وفـي الـدهر
وفـي العمـر حلـو وفـي العمـر مـر
ولكنهـا حركـات الحيـاة منهـا الحيـاة لنـا تسـتمر
ويـأتي الشتاء أغبـر كالحـاً لأن الربيـع بـه مسـتتر
فـلا دام فـي نفعـه نـافع ولا دام فـي ضـره مـا يضـر
فكـن مرحـاً لا تقـر الأسـى فعـادة كـل امـرئ مـا يقـر
ومـا سـر حظـك إلا لـديك بلـى! فـرحُ القلـب للقلـب سـر
تعـود الحيـاة هلاكـاً لمـن أراد الحيـاة علـى مـا يصـر
فخـذها حصـىً إن تكـن مـن

ودراً إذا كـــان فـــي الحـــظ در

ولا تـزد الشـر فـي وهمـه بوهمـك .. ذانـك شـر وشـر

خفـاف السـحاب تطيـر وترمـي الصـواعق إذ تكفهـر

وهذي الهموم مثل النساء يضـاعفهن خيـال يضـر

حصـاة .. ويثقـل بالقلـب توهمهـا جبـل مشـمخر

ومـن ذا رأى فـي السـماء تقـيم بهـا أبـداً لا تمـر

* * *

السين:

دع المكـارم لا تتـزل واقعـد فإنـك أنـت الطـاعم

* * *

إن الحيـاة صـراع فيهـا الضـعيف يـداس

مـا فـاز فـي مأمنهـا إلا شـديد المـراس

للخـب فيهـا شـجون فكـن نقـي الاحتـراس

الكـون كـون شـقاء الكـون كـون التبـاس

الكـون كـون اخـتلاف وضـجة واخـتلاس

* * *

علقـت عـودي علـى صفصـافة

ورحت في وحدتي أبكي على الناس

كـأن فـي داخلـي قبـراً دفنت كل بشاشاتي وإيناسي

يا قبر آمال نفسي في ثرى كبدي

يسقيك صوب دم من قلبي القاسي

زرعـت فوقـك أزهـاراً بـلا سـوداء مـرت عليهـا نـار

ما أروع الزهرة السوداء قد سقيت

بدمعــة القلــب تحميهــا يــد اليــأس

يــا يــأس صــنها فــإني قــد ولسـت أبـدلها بـالورد والآسـي

وأنــت والحــزن كونــا فــي الضــلوع

إنــي عهــدتكما مــن خيــر جلاســي

كتمت أمركما دهراً فضاق ذرعــاً فــؤادي وأفشـــى ســـر

فـإن أسـر فـي ظـلام الليـل فــالحزن يســطع مــن عينـــي

حزنــي غنــاي فلـو فرقتــه علــى النفـوس لأثـرت أنفـس

* * *

يا صميم الحياة كم أنا في غريــب أشـقى بغربــة نفســي

بين قوم لا يفهمون أناشيد فـــؤادي ولا معـــاني بؤســـي

فـــي وجــود مكبــل بقيــود تائـه فـي ظـلام شـك ونحـس

فاحتضــني وضــمني لــك ضـي فهذا الوجود علة نفسي

* * *

جـادك الغيـث إذا الغيـث يــا زمــان الوصــل بالأنــدلس

لـم يكـن وصـلك إلا حلمـا في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقــود الــدهر أشــتات ينقـل الخطـو علـى مـا ترسـم

زمــراً بــين فــرادى وثنــا مثل ما يدعو الوفود الموسم

والحيـا قـد جلـل الـروض فثغــور الــروض منــه تبســم

وروى النعمــان عــن مــاء كيـف يـروي مالـك عـن أنـس

فكسـاه الحسـن ثوبـا معلمـا يزدهـــي منـــه بـــأبهى ملـــبس

حـين لـذ الأنـس شـيئاً أو هجـم الصـبح هجـوم الحـرس

غارت الشهب بنا أو ربما أثــرت فينــا عيــون النــرجس

* * *

مـا علـى ظنـي بـأس　　يجـرح الـدهر ويـأس
ربمـا أشـرف بـالمر　　ء علـى الآمـال يـأس
ولقـد ينجيـك إغفـال　　ويرديـك احتـراس
والمحـاذير سـهام　　والمقـادير قيـاس
ولكـم أجـدى قعـود　　ولكـم أكـدى التمـاس
نلـبس الـدنيا ولكـن　　متعـة ذاك اللبـاس
يا أبا حفص وما سا　　واك فـي فهـم إيـاس
من سنا رأيك لـي في　　غسق الخطـب اقتبـاس
لا يكـن عهـدك وردا　　إن عهـدي لـك آس
وأدر ذكـرى كأسـا　　مـا امتطـت كفـك كـاس
واغتـنم صـفو الليـالي　　إنمـا العـيش اختـلاس

* * *

جلسـت يومـاً حـين حـل　　وقد مضـى يومي بلا مؤنس
أريـح أقداماً قد وهت من　　وأرقـب العـالم مـن مجلسـي

* * *

العين:

ودار خراب بها قد نزلت　　ولكـن نزلـت إلـى السـابعة
طريق من الطرق مسلوكة　　محجتهـا للـورى شاسـعة
فـلا فـرق بـين أنـي أكـون　　أو أكـون علـى القارعـه
تسـاورها هفـوات النسـيم　　فتصـغي بـلا أذن سـامعة
وأخشـى بهـا أن أقـيم　　فتسـجد حيطانهـا الراكعـة
إذا مـا قـرأت إذا زلزلـت　　خشـيت بـأن تقـرأ الواقعـة

* * *

وكن معقلاً للحلم واصفح عن

فإنك راء ما حييت وسامع

وأحبب إذا أحببت حباً فإنك لا تدري متى أنت

وأبغض إذا أبغضت بغضاً

فإنك لا تدري متى أنت راجع

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من

قالت أميمة ما لجسمك منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجنبك لا يلائم ألا أقض عليك ذاك

فأجبتها إن ما لجسمي أنه أودى بني من البلاد فودعوا

أودى بني وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع

سبقوا هوي وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

ولبثت بعدهم بعيش وإخال أني لاحق مستتبع

ولقد حرصت بأن أدافع وإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عور تدمع

حتى كأني للحوادث مروة بصفى المشقر كل يوم تقرع

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا

* * *

وما من حبيب آمن ولا ذي هوى إلا له الدهر

كان بلاد الله ما لم تكن وإن كان فيها الخلق قفر

وما كل ما منتك نفسك تلاقي ولا كل الهوى أنت

ولولا رجاء القلب أن تسعف

لما حملته بينهن الأضالع

أقضّـــى نهــاري بالحـــديث ويجمعنـي بـالهم والليل جـامع

* * *

أجبــت يــا دنيــاي مــن إنـي امرؤ ضـاق بهذا الخداع
مزقـت عـن عيشــي هنــيَّ لأننـــي مزقـت عنـك القنـاع

* * *

لقـد ذهـب النـوى بجميـل وأودع فـي حشاشـتي الولوعـا
وألبســـني الأســى خلـــع وألزمنـــي التـذلل والخضـــوعا
ونار الشوق أغراها غرامي علـى كبدي فقومت الضـلوعا
ولـي قلـب تقلبـه شـجوني وتمنعـــه السـكينة والهجوعــا
يبيـت مـع الأحبـة حيـث ويصـبح راجيـاً مـنهم رجوعـا
يـــرى أضـــغاث أحـــلام حقـائق لا يـزال بهـا ولوعـا
تطـوف بـه الحـوادث وهـو كـأن الـوهم ألبســه دروعــا
ورب مكابـد عـانى خطوبـا ومفـرد عزمـه عـز الجموعـا
وقائلـــة إلام تحـــن شـــوقاً إلــى حــي أحـل بـك الهلوعـا
أبعـد فراقهم ترتـاح روحـي وترجـــو ســـاعة ألا تلوعـــا
فهـــم روحـــي وريحــــاني فكيف أرى إلى السلوى نزوعا

* * *

الفاء:

فيا شاعر العصر جدد لنا من الوزن غير الذين نعرف
ولا تخش مر انتقاد الغلاة فســـوف يؤيــدك المنصـــف

* * *

إذا المـــرء لا يرعـــاك إلا فدعـه ولا تكثـر عليـه التأسـفا

ففـي المـرء إبـدال وفــي التـرك

وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا

إذا لـم يكـن صـفو الـوداد | فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خيـر فــي خـل يخـون | ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكـر عيشـاً قـد تقـادم | ويظهر سراً كان بالأمس قد

سـلام علـى الـدنيا إذا لـم يكـن

صـديق صـدوق صـادق الوعـد

* * *

وارحتمـاه للقـوي الصـبور | يقضـي الليـالي فـي كفـاح
وكيـف لا أبكـي لكـدح | أقصى مناه أن ينال الرغيف

* * *

القاف:

إلـى م نسير بوزن الخليل | ونرسـف فـي قيـده العـائق؟
وللشـعر فـي كـل لحـن | مجـال مـع الـنغم الشـائق

* * *

المرء يجمع والزمان يفرق | ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولأن يعادي عاقلاً خير له | مـن أن يكـون لـه صـديق
فارغب بنفسك لا تصادق | إن الصـديق علـى الصـديق
وزن الكـلام إذا نطقـت | يبـدي عيـوب ذوي الكـلام

ومن الرجال إذا استوت أحلامهم

مـن يستشـار إذا استشـير فيطـرق

حتـى يجول بكل واد قلبه | فيرى ويعرف ما يقول وينطق
فبـذاك يوثـق كـل أمـر | وبذاك يطلق كل أمر يوثق

وإن امرؤ لسعته أفعى مرة ... تركته حين يجر حبل يفرق

لا ألفينك ثاوياً في غربة ... إن الغريب بكل سهم يرشق

ما الناس إلا عاملان ... قد مات من عطش وآخر

والناس في طلب المعاش ... بالجد يرزق منهم من يرزق

لكنه فضل المليك عليهم ... هذا عليه موسع وذاك

لو سار ألف مدجج في ... لم يقضها إلا الذي يترفق

إن الترفق للمقيم موافق ... وإذا يساير فالترفق أرفق

* * *

الكاف:

يا صميم الحياة إني وحيد ... مدلج تائه فأين شروقك

يا صميم الحياة إني ... ضائع ظامئ فأين رحيقك

يا صميم الحياة قد وجم ... وغام الفضا فأين بروقك

يا صميم الحياة أين ... فتحت النجوم يصغي مشوقك

* * *

اللام:

الحمد لله الذي لم يأتني ... حتى لبست من الإسلام

* * *

إذا الله عادى أهل لؤم ... فعادى بني العجلان رهط بن

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوارد عن كل

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

وما سمي العجلان إلا خذ القعب واحلب أيها العبد

* * *

آه لو جاء كتابي بشمالي
ما الذي يجري؟ ولكن أنا ما لي

* * *

أيهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا عدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض تتوخّى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى
أن ترى فوقها الندى إكليلا
هو عبء على الحياة من يظن الحياة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً
ليس أشقى ممن يرى العيش مرا
ويظن اللذات فيه فضولا
أحكم الناس في الحياة عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظل رأسك هم قصر البحث فيه كي لا
أدركت كنهها طيور فمن العار أن تظل جهولا
وما تراها والحقل ملك تخذت فيه مسرحاً ومقيلا
تتغنى والصقر قد ملك عليها والصائدون السبيلا
تتغنى وقد رأت بعضها يؤخذ حياً والبعض يقضي
تتغنى وعمرها بعض عام أفتبكي وقد تعيش طويلا
فهي فوق الغضون في الفجر
سور الوجد والهوى ترتيلا

وهي طورا على الثرى تلقط الحب أو تجر الذيولا

كلما أمسك الغصون صفَّقت للغصون حتى تميلا

فإذا ذهّب الأصيل وقضت فوقها تناجي

فاطلب اللهو مثلما الأطيار عند الهجير ظلا

وتعلم حب الطبيعة منها واترك القال للورى والقيلا

فالذي يتقي العواذل يلقى كل حين في كل شخص

أنت للأرض أولاً وأخيرا كنت ملكاً أو كنت عبداً ذليلا

لا خلود تحت السماء فلماذا تراود المستحيلا؟

كل نجم إلى الأفول ولكن آفة النجم أن يخاف الأفولا

غاية الورد في الرياض كن حكيماً واسبق إليه الذبولا

وإذا ما وجدت في الأرض فتفيأ به إلى أن يحولا

وتوقع إذا السماء اكفهرت مطراً في السهول يحي

قل لقوم يستنزفون المآقي هل شفيتم مع البكاء غليلا

ما أتينا إلى الحياة لنشقى فأريحوا أهل العقول العقولا

كل من يجمع الهموم أخذته الهموم أخذاً وبيلا

كن هزاراً في عشه يتغنّى ومع الكبل لا يبالي الكبولا

لا غراباً يطارد الدود في الأرض

وبوماً في الليل يبكي الطلولا

كن غديراً يسير في الأرض

فيسقى من جانبيه الحقولا

تستحم النجوم فيه ويلقى كل شخص وكل شيء فتيلا

لا وعاء يقيد الماء حتى تستحيل المياه فيه وحولا

كن مع الفجر نسمة توسع الأزهار شماً وتارة تقبيلا

لا سـموماً مـن السـوافي … تمـلأ الأرض فـي الظـلام
ومـع الليـل كـن كوكبـاً … الغابـات والنهـر والربـى
لا دجـى يكـره العـوالم … فيلقـي علـى الجميـع سـدولا
أيهذا الشـاكي وما بك داء … كن جميلاً ترى الوجود جميلا

* * *

تعـزّ فـإن الصـبر بـالحر … ولـيس علـى ريـب الزمـان
فلـو كـان يغنـي أن يـرى المـرء
لحادثـة أو كـان يغنـي التـذلل
لكـان التعـزي عنـد كـل … ونائبـة بـالحر أولـى وأجمـل
فكيـف وكـلٌّ لـيس يعـدو … ومـا لامـرئ عمـا قضـى الله
فإن تكن الأيام فينا تبدلت … ببؤسـى ونعمـى والحـوادث
فما لينت منا قناة صليبة … ولا ذللتنـا للتـي لـيس تجمـل
ولكن رحلناها نفوساً أبيـة … تحمل ما لا تستطيع فتحمل

* * *

لم أجد في الوجود إلا … سـرمدياً ولـذة مضـمحلة
وورداً تمـوت فـي قبضـة … ـواك.. ما هذه الحياة المملة
سـأم هـذه الحيـاة معـاد … وصـباح يكـر فـي إثـر ليـل
ليتنـي لـم أفـد إلـى هـذه … ولـم تسـبح الكواكـب حـولي

* * *

جعلوا من التاريخ أصدق … فكأنمـا نشـروا بـه الأجيـالا
وتخيـروا مـن أحسـن … زان الملـوك وميـز الأبطـالا
فـانظر إلـى فعـل الجميـل … قـد بينـوه لمـن أراد كمـالا
والشـر ممقوتـاً تـرى آثـاره … عـادت علـى أهـل الشـرور

وتأمل الحب الشريف يزيد حفظ العهود مع الوفاء جلالا
أكرم بفن يجعل المعقول حيز العيان مجسماً أشكالا
للعلـم والأخـلاق خيـر لـو أحسـن المتصـرف
ينحـى مـن الغـم النفـوس ويزيـد افرنـد العقـول صـقالا
إنـي أرى التمثيـل مـن نشـر الثقافـة لـو أرى إقبـالا
فانظر إلى المغزى ودع ما دونه
لا تشـغلن بغيـر ذلـك بـالا
خذ ما يراد من الرواية واطرحن
مـن لهوهـا مـا يضـحك الجهـالا
ولغايـة مـا كـان منهـا كـي لا تضـيق بـه النفـوس
إن صـح مـا قيـل الحيـاة خـذ للحيـاة مـن الحيـاة مثـالا
لا تنظـرن إلـى الممثـل جل الممثـل أن يكـون مـذالا
كل امرئ مـا عـاش فهو لروايـة أدوارهـا تتـوالى
المـرء فـي هـذي الحيـاة وممثـل لـم يعـد ذلـك حـالا
أعمالنـا فصـل نمثلـه ومـا خلـف السـتارة يشـبه اسـتقبالا
الكـون مسـرحنا ونحـن مقصـودنا ذات الإلـه تعـالى

* * *

دنيـاك تحـدو بالمسـ ـافر والمقـيم جمالهـا
فعّالـة غيـر الجميـل فكـم هويـت جمالهـا
نقصـت مسـرّتها فمـا يجـد السـعيد كمالهـا
والـنفس تخـدم فـي بجهلهـا آمالهـا
حـتّم تعتـف الرفـاق حزونهـا ورمالهـا
متظللـين بأيكـة صـنع الهجيـر ظلالهـا

ألفت غرامهم بها فتصوت إذلالها
كالخود أدت للمحب جفاءها ودلالها
قالوا مللنا باللسان وما الضمير ملالها
قبضت على الحر يمينها وشمالها
طلقتها مذمومة حين ابتليت خصالها
ولو أنها جاءتك عفواً ما أردت وصالها
وسلمت من هم يبرح إذ بتت حبالها
لما حمتك مهاتها بعثت إليك خيالها
فصدفت عن ذات ولم ترد خلخالها
عرفت غاية بدرها لما رأيت هلالها
والشمس عند شروقها علم اللبيب زوالها
وعظتك أيام تمر فهل فهمت مقالها
إن غيرت حال الأنام فما تغير حالها
سلبتك أوقات الشباب فما أصبت منالها
تجري بنا جري وقد سئمت مجالها
وسريت تحت مماريا أهوالها
في فتية تجزي إلى الحرام فعالها
أو راكباً وجناء تشكو بالفلاة كلالها
عادتها للطير تنقر بالضحى أوصالها
وأكلت صمغ الطلح بيداء ترفع آلها
تبغي بمكة حاجة قدر العزيز مآلها
حتى قضيت طوافها وزرت جبالها
وسمعت عن صباحها ومسائها إهلالها

ترجـو رضـا الملـك   مـنح الملـوك جلالهـا

* * *

النـاس خلـق واحـد متشـابه   لكنمـا تتخـالف الأعمـال
ويقـال حـق فـي الرجـال   أي امـرئ إلا وفيـه مقـال
ولكل إنسان بما في نفسه   مـن عيبـه عـن غيـره أشـغال
يسـتثقل اللمـم الخفيـف   وعليـه مـن أمثـال ذاك جبـال
وينام عن دنياه نومة قانع   بنعـيم دنيـاه وذاك خيـال
ورأيـت ألسـنة الرجـال   طـوراً تثـور وتـارة تغتـال
فـإذا سـلمت مـن المقالـة   تجني فأنت الأسعد المفضال

* * *

وقـور وأحـلام الرجـال   صـبور ونـار الحـرب مرجلهـا
أنـا ابـن الـوغى والخيـل   وسـمر القنـا والـرأي والحـل
فقـل للـذي ظـن المعـالي   رويـداً فلـيس الجـد يـدرك
فمـا تصـدق الآمـال إلا   إذا هم لم تعطفه قارعة العذل
فـلا تعتـرف بالـذل خـوف   فـإن احتمـال الـذل شـر مـن
ولا تلـتمس نيـل المنـى مـن   فتجنـي ثمـار اليـأس مـن شـجر
ومـا أنـا والأيـام شـتى   بمهتضـم جـاري ولا خـاذل
أسـير علـى نهـج الوفـاء سـجية
وكـل امـرئ فـي النـاس يجـري علـى
تركـت ضـغينات النفـوس   وأكبـرت نفسـي أن أبيـت علـى
كـذلك دأبـي منـذ أبصـرت   وليداً وحـب الخيـر مـن سـمة
أقـول وأتلـو القـول بالفعـل   أردت وبـئس القـول كـان بـلا
أرى السـهل مقرونـاً بصـعب ولا

بغير اقتحام الصعب مدّرك السهل

فمـا يبعـث الغـارات إلا ولا يركـب الأخطـار إلا فتـى

* * *

إذا لـم يكـن مـن حـادث الـدهر

ولم يغن عنك الحزن فالصبر أجمل

وأهون ما لاقيتَ ما عز وقـد يصـعب الأمـر الأشـد

وما هذه الدنيا بدار إقامة فيحزن فيها القاطن المترحل

هـي الـدار إلا أنها كمفازة أنـاخ بها ركب وركب تحملوا

لنـا ولهـا فـي كـل يـوم يحار بها لـب اللبيب ويـذهل

تجـرّد نصـلاً والخلائـق وتنـبض سـهماً والبريـة مقتـل

فـلا نحـن يومـاً نسـتطيع ولا خطبها عنا يعف فيجمل

ولا خلفنا منها مفر لهارب فكيف لمن رام النجاة التحيل

ولا ناصـر إلا التملمـل ومـاذا الـذي يجـدي الأسـى

نبيـت علـى وعـد مـن المـوت

فمـن حـائن يقضـي وآخـر يمطـل

وكـل وإن طـال الثـواء إلـى مـورد مـا عنـه للخلـق

فوا عجباً من حازم متيقن بـأن سـوف يـردى كيـف يلهـو

كفى حزنـاً أن يوقن الحي بسيف الردى لابد أن سوف

* * *

ضـعف العزيمـة لحـد فـي تقضـي الحيـاة بنـاه اليـأس

وفي العزيمة قوات مسخرة يخـر دون مـداها الشـامخ

والنــاس شخصــان ذا يســعى بــه
مــن القنــوط وذا يســعى بــه الأمــل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة
وذا إلـــى المجــد والآمـــال تتصـــل
مـا كـل فعـل يجـل النـاس   مجد ولا كل من خاض الدجى
المجـد صـنفان صـنف فـي   لحـن الخلـود وصـنف فوقـه
مـا المجـد إلا ابتسـامات يفـيض
فـم الزمـان إذا مـا انسـدت الحيـل
ولــيس بالمجـد مـا تشـقى   ويحسـد اليـوم أمسـاً ضـمه

* * *

سـقى دارهـم هـامي الغمـام   ونــور ذاوي الــروض فيهــا
وعـاد بهـا طيـب الأمـاني التـي
وغبطـة عيش قد تقضت غياطله
وبعــض الأمـــاني ضـــلة وإذا
أواخــر دهــر كيــف تثنــى أوائلــه
ديــار بهــا صــاحبت شــرخ   أجــادده طــوراً وطــوراً أهازلــه
أروح إلـــى لهـــو الصـــبا   وأغدو على ليث كمي أنازله
عهـدت بهـا عـين المهـا دون
أســود الشــرى يلقــى الــردى مــن
وكل أخ بأس كريم تخالـه   إذا مــا انتقــى ســيفاً جلتــه
فلم يبق ما كان إلا ادكاره   وحسـرة قلـب لا تقـر بـلا بلـه
وكنـت أرى مـا سرّني غيـر   ويخطـئ نهـج الحـزم مـن هـو

فمـا كـان إلا الطيـف يحسـب فـي

يقينـاً فـإن بـان الكرى بـان باطلـه

* * *

أرقبـه يـا كـد هـذا الرقيـب — في طيب الكون وفـي باطلـه
ومـــا يبـــالي ذا الخضـــم — بنـــاظر يرقــب فـــي ســـاحله
عييــت بالـــدنيا وأســـرارها — ومـــا احتيـــالي فـــي صـــموت
أنشــد فـــي روائـــع أنوارهـــا — رشداً فما أغنم غير الضـلال
وفـي سبيل المراد والمأكل — نمــلأ صــدر الأرض إعــوالا
كـم يسـخر الـنجم بنـا مـن — وكـــم يرانـــا الله أطفــالا

* * *

ردوا علـــيّ الصـــبا مـــن عصـــري

وهــل يعــود ســواد اللمـــة البـــالي

لـم يـدر مـن بـات مسروراً — أنـــي بنـــار الأســـى مـــن هجـــره
يا غاضبين علينا هل إلى — بالوصـــل يومـــاً أنـــاغي فيـــه
غبــتم فــأظلم يــومي بعــد — وســـاء صـــنع الليـــالي بعـــد
فاليوم لا سني طوع القياد — قلبــي إلـــى زهـرة الـدنيا بميــال
أبيـــت منفـــرداً فـــي رأس — مثــل القطــامي فــوق المربــإ

* * *

الميم:

عفـــت الــديار محلهـــا — بمنـــى تأبـــد غولهـــا فرجامهـــا

* * *

أيشـتمنا عبـد الأراقـم خلـة — وما الذي تجري عليك الأراقم
ومـا لنـا ثـار سـوى قطـع — فـــدونك مـــن يرضـــيه عنـــك

زراع رويداً لا تسمنا دنية　　لعلك في غب الحوادث نادم
متى تلق منا عصبة　　والأوس يوماً تخترمك
فإن كنت لم تشهد ببدر　　أذلت قريشاً والأنوف رواغم
فسائل بناحي لؤي بن　　وأنت بما تخفى من الأمر
ضربناكم حتى تفرق　　وطارت أكف منكم وجماجم

* * *

وزائرتي كان بها حياء　　فليست تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف　　فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي　　فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني　　كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها　　مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير　　مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق　　إذا ألقاك في الكرب العظام
يقول لي الطبيب أكلت　　وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أني جواد　　أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبّر في السرايا　　ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى　　ولا هو في العليق ولا اللجام
إن أمرض فما مرض　　وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما ألقى ولكن　　سلمت من الحمام إلى الحمام

* * *

يا معشر الأقوام هل من نهضة
وحمية يا معشر الأقوام
أجهلتم أن الدسائس بينكم　　بلغت بها الأعداء كل مرام

طرقـت عقـولكم طـوارق أم نمـتم والقـوم غيـر نيـام
أم فضــل ديــنكم ونــور غطت عليه وساوس الأوهام
تالله ما كتب الرباط عليكم إلا لحفـظ روابـط الأحكـام
إنـا لنرضـى بالتنازع شيمة لـو كـان أمـر تنـازع وخصـام
لكنــه خطــب تــدق وراءه قـنن الجبـال وشـمخ الآكـام
ولـئن تفرق جمعكم أيـدي وبقيــتم همـــلاً بغيــر إمـــام
فلقد شقيتم واستراح عدوكم مـن كـل مقـدام وكـل همـام
وإذا ســـرى داء الشـــقاق وشـفى عـدوكم مـن الأسـقام
عـدم اتفـاق اثنـين أنفـع مـن ألـف قنبلـة وألـف حسـام
إن تســلموا يومــاً فــرب رجعـت عواقبهـا إلـى الآلام

* * *

تأخرت أستبقي الحياة فلم لنفسـي حيـاة مثـل أن أتقـدما
فلسنا علـى الأعقـاب تـدمى ولكــن علــى أقـدامنا تقطـر
ولمـا رأيت الصبر قد حيل وإن كــان يومــاً ذا كواكــب
صـبرنا وكـان الصـبر منـا بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
تفلّق هاما من رجال أعزة علينـا وهـم كـانوا أعق وأظلمـا
ولمــا رأيــت الحـب لـيس عمدت إلـى الأمـر الـذي كـان
فلست بمبتـاع الحيـاة بذلـة ولا مرتـق مـن خشـية المـوت

* * *

إن الســــــكينة روح فـــي الليــل ليســت تضـــام
والـــروح شـــعلة نـــور مـــن فـــوق كـــل نظـــام
لا تنطفــــي بريــــاح الإرهـــاق أو بالحســـام
بــل قــد يعــج لظاهــا ســيلاً ويطفــي الضــرام

كــل البلايـــا جميعـــاً تفنـــى ويحيـــا الســـلام
والـــذل ســـبة عـــار لا يرتضـــيه الكـــرام

* * *

ولـم أر كـالمعروف تـدعى مغارم في الأقوام وهي مغانم
ولا كـالعلى لـم يـر الشـعر فكـالأرض غفـلاً لـيس فيهـا

بغـاة النـدى مـن أيـن تـؤتى المكـارم

* * *

إذ يقــود الــدهر أشــتات ينقل الخطـو علـى مـا ترسـم
زمــراً بــين فــرادى وثنــا مثل مـا يدعو الوفود الموسم
والحيـا قـد جلـل الـروض فثغـور الـروض منــه تبسـم

* * *

مـا فـي التوقف من سلام فــإلى الأمــام إلــى الأمــام
إن التوقـــــف ســــبة تـــزرى بإنســـان الكـــرام
إنـــا لفـــي عصـــر بـــه يقضـــي القعـود عـن المـرام
إنـــا بعصــــر أهلــــه يســـتيقظون مـــن المنـــام
عصـر بـه الإنسـان طـا ر محلقـــاً فـــوق الغمـــام
عصــر التــذرع بالمعــا رف للـــدفاع عـــن الـــذمام
يـا شـعب لا تـنكص علـى الأعقـاب مـن دون اقتحـام
فـــي الـــنكص مـن حـذر ذام يعيبــــــــك أي ذام
أمـــا الرجـــال فنجحهـــا فـــي فعلهـــا لا فـــي الكـــلام
وإذا الخطـــوب تتابعـــت فهـــي السـهام علـى السـهام
وإذا الشـعوب تخاصـمت فـــالحق فـــي حـــد الحســـام

إن اليـــــراع إذا وفـــــى فالســـيف أحفـــظ للــــذمام
الحـــــر لا يخشــــى إذا قـــال الحقيقـــة مـــن مـــلام
ولقــــد بــــدأنا نبتنـــي والله يكفـــــل بالتمـــــام
يـــا مـــنهلاً لـــم أسـتطع ورداً إليــــه مـــن الزحـــام
يــا علــم إن لــم تروني يـــا علـــم مـــت مـــن الأوام
يـا علـم أنـت الشـمس قـد بزغــت تضـــيء بـــلا لثــام
مـــزق كبـــرق خـــاطف يـــا علـــم أحشـــاء الظـــلام

* * *

ومهمـا تكـن عنـد امـرئ مـن
وإن خالهـا تخفـى علـى النـاس

* * *

قصــدوا الرياضــة لاعبــين كــرة تــراض بلعبهــا الأجســام
وقفوا لها متشمرين فألقيت فتعاورتهـــا مـــنهم الأقـــدام
يتراكضـــون وراءهـــا فـــي للســوق معتــرك بهــا وصــدام
رفســـاً بـــأرجلهم تســـاق بــالكف عنــد اللاعبــين حــرام
ولقـد تحلـق فـي الهـواء وإن شــرعوا الــرؤوس فناطحتهــا
وتخالها حيناً قذيفـة مـدفع فتمـــر صـــائتة لهـــا إرزام
ولربما سقطت فقام حيالها للضرب عبل الساعدين همام
فتخالهـا وتخالـه كفريسـة ســـقطت فزمجـــر دونهـــا
لا تســتقر بحالــة فكأنهــا أمــل بــه تتقــاذف الأوهــام
تنحــو الشــمال بضــربة نحــو الجنــوب لاعــب لطــام
وتمــر واثبــة علــى وجــه مــــراً كمـــا تتواثـــب الآرام
وتـــدور بـــين اللاعبـــين عنهــا وآخــر ضــارب مقــدام

وكأنها والقوم يحتو شونها قلــب عليــه تهــاجم الآلام
راضــوا بهــا الأبــدان بعــد علمــاً تــراض بدرســه الأفهـام
أبنـاء مدرسـة أولـى وكلهـم يفـع مريـر المـرفقين غــلام
لابـد مـن هـزل النفـوس تعب وبعض فراجها استجمام
فـإذا شـغلت العقـل فالـه فاللهو من تعب العقول جمام
والفكـر منهكـة فباسـتمراره تهـن العقول وتهـزل الأجسـام
إن الجســـوم إذا تكـــون تقوى بفضل نشاطها الأحلام
هــذي ملاعــبهم فجســمك واسلك مسالكهم عداك الـذام
أغمضــت عينـــي دونهـــا مبتغياً لـي رحمة فـي الظـلام
فصاح بي صائحها هاتفاً كأنمـــا يـــوقظني مـــن منـــام

* * *

لحـى الله المطـامع حيـث فتلــك أشــد آفــات الســلام
تشـرب المـاء وهـو أغـر وتمشي في المشارب بالسقام
أقـول وقـد أفـاق الشـرق مـن الحـال الشـبيهة بالمنـام
علـى صـخب المدافع فـي ورقص الموت بين طلي وهام
أقـول بصـوته لحمـاة دار رماهــا مــن بنــاة الغـرب رام
أبـاة الضـيم مـن عـرب نسـور الشـم آسـاد المـوامي
قــروم العصـــر فرســـاناً نجوم الكر من خلف اللثام
بنـا مرض النعيم فنسّمونا وغىً يشفي من الصفو العقام
بنـا بـرد المكـوث فأدفئونـا بحمـى الوثـب حيث الخطـب
بنـا عطل السماع فشنفونا بقعقعـة الحديـد لـدى الصـدام
علـى هـذا الرجـاء ونحـن نسـير مـوفقين إلـى الأمـام

* * *

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا   فالقوم أعداء له وخصوم
وترى اللبيب محسداً لم   شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه   حساده سيف عليه صروم
فاترك مجاراة السفيه فإنها   ندم وغب بعد ذاك وخيم
فإذا جريت مع السفيه كما   فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبت على السفيه   في مثل ما تأتي به فأنت
يأيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي
كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تصلح بالرشاد   أبداً وأنت من الرشاد عقيم
لا تنه عن خلق وتأتي   عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت   بالعلم منك وينفع التعليم

* * *

النون:

ليلتي هذه عروس من   الزنج عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني   هرب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأنَّ الهلال يهوى الثريا   فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب في   وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللمح في احمرار   كما تسرع في اللمح مقلة
ضرجته دماً سيوف   فبكت رحمة له الشعريان
ثم شاب الدجى وخاف   الهجر فطغى المشيب
ونضا فجره على نسره   الواقع سيفاً فهمَّ بالطيران

* * *

إن يكـن فـي الـدهر والحشـر كتـابي

يـا لحظـي! فلقـد فـزت بـدنياي وديـنـي

فـي حيـاتي أقرع الشـك بسلطان اليقين

وإذا نادى منادي البعث يا أهل اليمين

قلت {هاؤم اقرؤا} هذا حسابي وديوني

فيه ما قدمت في دنياي من فعل ثمين

فينـادي أدخلـوه فـي ظـلال وعيـون

ليتنـي قـدمت مـا يسـعفني أو يقينـي

حيـرة الحشـر .. وطلقـت شـكوكي

* * *

أجود بمكنون التلاد وإنني بسـرك عمـن سـألني لضـنين

إذا جاوز الإثنين سر فإنه ينـث وتكثيـر الحـديث قمـين

وعنـدي لـه يومـاً إذا مكـان بسـوداء الفـؤاد مكـين

* * *

ليتنـي لـم يعـانق الفجـر ولـم يلـثم الضـياء جفـوني

ليتنـي لـم أزل كمـا كنـت شائعاً في الوجود غير سجين

* * *

شكراً..

لطوق الياسمين..

وضحكت لي وظننت أنك تعرفين..

معنى سوار الياسمين..

يأتي به رجل إليك .. ظننت أنك تدركين..

وجلست في ركن ركين..

تتسرحين..

وتنقطين العطر من قارورة وتدمدين..

لحناً فرنسي الرنين..

لحناً كأيامي حزين..

* * *

والموج أفضى بعد الجنون   إلى سكون..
وسنان لم يخل من شجون

* * *

أهـدت الأرض للسـماء مـن   بخـاراً تجمعـت منـه مزنـة
ثـم سـارت والصـباح حينـاً   وحينـاً ترنـو إليهـا دجنـة
تحمـد الأرض مـن علـو أن   عليهـا مـن قبـل ذلـك منـة
وتحيـي رياضـها ومغانيهـا   ولـلأرض حـين تخضـر فتنـة
ثم سارت حتـى رأت مهمهـا   حديباً والجدب لـلأرض محنة
فهمـت فوقـه تـرد جميـل   قـدماً فأصـبح القفـر جنـة

* * *

إلهـي لا تعـذبني فـإني		مقـر بالـذي قـد كـان منـي
فما لـي حيلـة إلا رجـائي		لعفـوك إن عفـوت وحسـن
وكـم مـن زلـة لـي فـي		وأنـت علـيّ ذو فضـل ومـن
إذا فكرت في ندمي عليها		عضضـت أنـاملي وقرعـت
أجـن بزهـرة الـدنيا جنونـا		وأقطـع طـول عمري بـالتمني
ولـو أنـي صـدقت الزهـد		قلبـت لأهلهـا ظهـر المجـن
يظن الناس بي خيراً وإني		لشر الخلق إن لم تعف عني

الهاء:

وأمـاني يغـرق الـدمع		ويفنـي يـم الزمـان صـداها
وأناشـيد يأكـل اللهـب		مسـراتها ويبقـي أسـاها

* * *

كـم صـحت إذا بصـرت هـذا
وميسـم الذلـة فـوق الجبـاه
يـا حسـرتا ممـا يلاقـي		أكـل هـذا فـي سـبيل الحيـاه

* * *

الياء:

وافـى فصـيّر كـل روض		معرضـاً للعبقريـة
وأثـار فـيّ وفـي بلابلـه		الهـوى والشـاعرية
وافـى فـرد فقيـرة		الربـوات فـي الـوادي ثريـة
وكسـا خمائلهـا		غلائلهـا وقـد كانـت عريـة
وافـى فخـفّ إليـه قلبـي		ظامئـاً يرتـاد ريـه
قلبـي كنحـل الله يظمـأ		للزهـور السـكرية

يــا بسـمة الزهـر السّـري		وبســـمة الخـــود السّـــرية
كلتاكمــــــا بتشـــــببي		وتصــــببي أبـــداً حريــــة
قـل يــا ربيـع لكـل مثـر		راتــــع فـــــي أكثريـــــة
إنا قد كسوت لك الرياض		فهــل كســوت لـــي البريـــة

* * *

أشـــاب الصـــغير وأفنـــى		بمــر الليــالي ومــر العشــي
إذا هزمــت ليلــة يومهــا		أتــى بعــد ذلــك يــوم فتــي
نــروح ونغــدو لحاجاتنــا		وحاجـة من عـاش لا تنقضـي
تمـوت مـع المـرء حاجاتـه		وتبقــى لــه حاجــة مــا بقــي
إذا قلـت يومـاً لمـن تـرى		أرونــي الســري أروك الغنــي
وسرك ما كـان عنـد امرئ		وســر الثلاثــة غيــر الخفــي

* * *

أمـا آن للشـعر أن يسـتقل		ويخلـص مــن ربقــة القافيــة
فقـــد طـــال والله تقييـــده		بتقليــدنا الأعصـــر الخاليـــة

* * *

مـا للقبـور كأنمـا الأمـاكن		فيهــا وقــد حــوت العصــور
طـوت الملايـين الكثيـرة		ولسوف تطوينا وتبقى خالية
أيـــن المهـــى وعيونهـــا		أين الجبـابر والملـوك العاتيـة
زالـوا مـن الـدنيا كـأن لـم		سحقتهم كف القضاء القاسية
إن الحيـاة قصـيدة أعمارنـا		أبياتهـا والمـوت فيهـا القافيـة
متــع لحاظـك فــي النجـوم		فلســوف تمضـــي والكواكـــب

* * *

2. ثبت بأسماء الشعراء:

1- إبراهيم بن كنف
2- إبراهيم بن الأسطى عمر
3- إبراهيم ناجي
4- ابن زيدون
5- ابن سهل الإسرائيلي
6- ابن اللبانة الأندلسي
7- أبو بكر بن دريد
8- أبو تمام
9- أبو ذؤيب الهذلي
10- أبو الحسن بن الجد
11- أبو الطيب المتنبي
12- أبو الأسود الدؤلي
13- أبو العتاهية
14- أبو العلاء المعري
15- أبو القاسم الشابي
16- أبو هلال العسكري
17- أحمد رفيق المهدوي
18- أحمد الشارف
19- أحمد الفقيه حسن
20- أسامة بن منقذ
21- إسماعيل صبري
22- الحطيئة
23- الحصين
24- الأحوص
25- الأخطل
26- الخضر حسين
27- الطغرائي
28- السلطان العبدي

29- الشريف الرضي

30- العوضي الوكيل

31- الفرزدق

32- المقنع الكندي

33- النجاشي

34- النعمان بن بشير

35- بدر شاكر السياب

36- جميل بثينة

37- جميل بن معمر

38- جرير بن عطية

39- حسّان بن ثابت

40- حماد عجرد

41- خليل مطران

42- زهير بن أبي سلمى

43- عبد الرحمن بن حسّان

44- علي أبو النصر

45- قيس بن الخطيم

46- قيس بن ذريح

47- كثير عزة

48- كعب بن جعيل

49- لسان الدين بن الخطيب

50- محمود سامي البارودي

51- مصطفى صادق الرافعي

52- معروف الرصافي

53- نزار قباني

54- نصيب بن رباح

55- نصير الدين الحمامي

56- نسيب عريضة

57- هذبة بن الخشرم

58- يحيى الغزال

3. ثبت بأسماء الأعلام وأصحاب النصوص النثرية:

1- إبراهيم المازني
2- أبو بكر الصديق
3- أبو عبيدة
4- أبو علي القالي
5- ابن جني
6- ابن جهور
7- ابن عبد ربه
8- ابن العميد
9- ابن المقفع
10- أكثم بن صيفي
11- الجاحظ
12- الحجاج بن يوسف
13- الخليل بن أحمد
14- الزبرقان بن بدر
15- الصاحب بن إسماعيل
16- الأصمعي
17- العقاد
18- الفيلسوف بيدبا
19- القاضي الفاضل
20- الكسائي
21- المبرد
22- المعتمد بن عباد
23- النعمان بن بشير
24- إلياس أبو شبكة
25- جبران خليل جبران
26- جمال الدين الأفغاني
27- حافظ إبراهيم
28- حسين المرصفي
29- حماد الراوية
30- خلف الأحمر
31- رشيد رضا
32- رملة بنت معاوية
33- رينان
34- طه حسين
35- سكينة بنت الحيسن
36- سيبويه
37- شوقي
38- عبد الله بن الزبير
39- عبد الله بن معاوية
40- عبد الله بن شداد
41- عبد الرحمن شكري
42- عبد الملك بن مروان
43- عثمان بن عفان
44- عزيز أباظة
45- عقبة بن نافع
46- علي بن أبي طالب
47- علي محمود طه
48- عمر بن الخطاب
49- عمرو بن العاص
50- عمرو بن العلاء
51- محمد ﷺ
52- محمد حسين هيكل
53- محمد عبده
54- معاوية بن أبي سفيان
55- معاوية بن يزيد
56- موسى عليه السلام
57- ميخائيل نعيمة
58- نائلة بنت الفرافرة
59- يزيد بن معاوية

4. ثبت بالمراجع والمصادر:

1 . القرآن الكريم.

2 . دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني.

3 . مذكرات التوحيد للسنة الخامسة الثانوية للجامعة الأزهرية، لحسين مكي عبد الرحيم.

4 . مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، لمحمد رفعت أحمد زنجير.

5 . الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض.

6 . الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي.

7 . إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي.

8 . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، لحسن إبراهيم حسن.

9 . تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ.

10 . ديوان الحطيئة.

11 . حول الشعر العربي، لمحمد التركي التاجوري.

12 . اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، لعبد الكريم النهشلي، تقديم منجي الكعبي.

13 . الرواة الأعراب، لعبد الحميد الشلقاني.

14 . الأصمعي الرواية، لعبد الحميد الشلقاني.

15 . رواية العربية فيما وراء العراق، لعبد الحميد الشلقاني.

16 . تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر الزاوي.

17 . مع المكتبة العربية، لعبد الرحمن عطبة.

18 . مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، لمفتاح دياب.

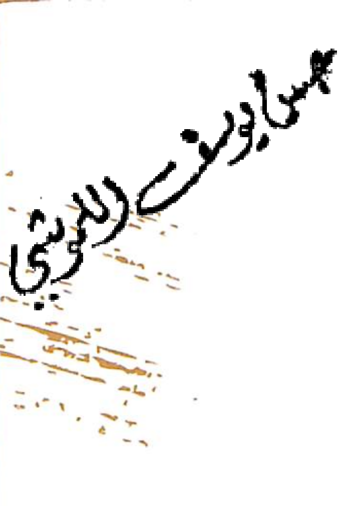
19 . وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي، للسباعي بيومي وآخرين.
20 . الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، لأحمد السكندري وآخرين.
21 . الأدب والنصوص، للسباعي بيومي وآخرين.
22 . تأملات في اللغو واللغة، لمحمد عزيز الحبابي.
23 . ديوان المتنبي.
24 . النثر الفني في العصر العباسي الأول، لمحمد عبد الغني الشيخ.
25 . علم البديع والبلاغة عند العرب، لكراتشكوفسكي، ترجمة عبد الحميد الحجيري.
26 . ديوان البلبل والوكر، لعبد الباسط الدلال وآخرين.
27 . التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، لبدوي طبانة.
28 . الشارف دراسة وديوان، لعلي مصطفى المصراتي.
29 . التذكرة السعدية في الأشعار العربية، لمحمد عبد الرحمن العبيدي.
30 . جواهر الأدب، لأحمد الهاشمي.
31 . رسائل البلغاء، لمحمد كرد علي.
32 . ديوان أحمد الفقيه حسن.
33 . الشابي شعره وحياته، لأبي القاسم كرو.
34 . النصوص المختارة، لفخر الدين عامر وآخرين.
35 . النقد الأدبي الحديث، لمحمد غنيمي هلال.
36 . دراسات في الأدب العربي المعاصر، لشوقي ضيف.
37 . رفيق في الميزان، لعبد ربه الغناي.
38 . الأسس الجمالية في النقد العربي، لعز الدين إسماعيل.
39 . شروح سقط الزند، تحق: مصطفى السّقا وآخرين.
40 . كتاب الشعر، لجميل سلطان.

41 . شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، لعباس محمود العقاد.
42 . إحسان عباس والنقد الأدبي، لمحي الدين صبحي.
43 . مقدمة عبد الرحمن بن خلدون.
44 . في الأدب والنقد، لمحمد مندور .
45 . نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري، لمحي الدين صبحي.
46 . الأدب وفنونه، لعز الدين إسماعيل.
47 . حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، للبشير المجدوب.
48 . المختار من التراث العربي، حماسة أبي تمام، لمطيع ببيلي.
49 . محاولات جديدة في الشعر العربي الحديث، لعبد المحسن عاطف سلام.
50 . النصوص الأدبية، لعبد الحميد حسن وآخرين.
51 . النصوص الأدبية، لمحمد صالح رمضان وآخرين.
52 . التفكير اللساني في الحضارة العربية، لعبد السلام المسدي.
53 . حول التراث العربي، لمحمد التركي التاجوري.
54 . النقد الأدبي الحديث بين الأسطورة والعلم، لمحي الدين صبحي.
55 . مفهوم الزمن ودلالته، لعبد الصمد زايد.
56 . الديار والمنازل، لأسامة بن مرشد.
57 . الدراسات الأدبية، لصالح سليم عبد القادر وآخرين.
58 . المختار من التراث العربي من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لمحمد رضوان الداية.
59 . مفاهيم في النقد الأدبي، لمحمد التركي التاجوري.
60 . النقد والبلاغة، لمهدي علام وآخرين.

61 . الشعر العربي المعاصر، لعز الدين إسماعيل.
62 . قراءة النصوص التراثية، لمحمد خليفة الدناع.
63 . سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، تحق: عبد المتعال الصعيدي.
64 . المنتخب من أدب العرب، لأحمد السكندري وآخرين.
65 . مالك بن نابي، حياته وعصره، لمحمد عبد السلام الجفايري.
66 . مختار الصحاح، للرّازي.
67 . ديوان إيليا أبو ماضي.
68 . قضايا الثقافة العربية المعاصرة، لمحي الدين صابر.
69 . قواعد النقد الأدبي، للاسل ابركرمبي، ترجمة محمد عوض.

محتويات الكتاب

محمد بن يوسف الكويتي




الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE